الإنسان

فى فكر الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبى العزائم

دكتور

إسلام النجار

الإنسان في فكر الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبي العزائم

المؤلف: د. إسلام النجار

الدرجة العلمية: دكتوراة في علم الاجتماع

رقم الإيداع: 15418 / 2022

الترقيم الدولي: 8 - 328 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

shahnda71@gmail.com

المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

9 789778 443288

إهداء

إننـــى مهما أوتيت من براعة القول، ومقدرة البيان فلن أستطيع أن أوفيه حقه، فقد شملنى بعطفه، وكلأنى برعايته، وحفزنى بتشجيعه، ووضع يدى على نفائس خزائن تراث جده الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم، وخوالد ذخائر علومه رضى الله عنه، لذلك فإنى أستأذن كل من كان له حق علىَّ؛ أن أُهدى هذه الرسالة إلى سماحة

السيد محمد علاء الدين ماضى أبى العزائم

شيخ الطريقة العزمية

رئيس الإتحاد العالمى للطرق الصوفية

عضو المجلس الصوفى الأعلى بجمهورية مصر العربية

تقديراً لفضله، وعرفاناً بإحسانه، داعياً الله تعالى أن يبارك لنا في عمره، وأن يسدد خطاه، وأن يتولى عنا شكره.



الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم

مقدمة

يستمد هذه الكتاب أهميته من احتياج المجتمع الإنسانى عامة، والمصرى خاصة؛ فى الوقت الراهن لتقديم نماذج من أئمه الهدى؛ الذين هم بمثابة الروح السارية فى المجتمع؛ ليحيا حياة طيبة؛ بعيدة عن الضلال والإضلال والمضلين، خاصة أن الإنسان فى مجتمعنا العربي والإسلامى، قد عاش قروناً عديدة قد ظلمته الأنظمة، وأجهزت عليه السياسات، وقضت عليه المؤامرات، حتى صار الشغل الشاغل لبعض الشباب هو التقرب إلى الله بقتله.

لقد عاش الإنسان قروناً عديدة دون أن يلقى ما يستحقه من الإهتمام والدراسة، والبحث والعناية الجديرة بمن خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة له فى الأرض، ومخلوقاً منحه الله القوة على حمل الأمانة ليعمر الأرض، ويصنع الحضارات عبر كل العصور؛ ونحن لا يمكننا أن نصل إلى مجتمع إنسانى متقدم؛ يشارك العالم من حولنا فى ثورته العلمية وانجازاته الحضارية؛ إلا إذا كان الإنسان هو محل اهتمامنا الأول؛ لأنه وحده القادر على اقامة صرح الحضارة؛ وإصلاح المجتمع لا يتم إلا بإصلاح هذا الإنسان؛ الذى يعد اللبنه الأولى فى بناء المجتمع؛ فإذا استطعنا أن نتعرف على ماهية الإنسان؛ فقد وضعنا أقدامنا على أول الطريق الصحيح.

ولهذا فإن هذا الكتاب يتناول الحديث عن جانب هام من جوانب تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم؛ ألا وهو موضوع "الإنسان".

والإمام أبو العزائم هو أحد أئمة أهل البيت الكرام الأطهار، جمع بين علوم الشريعة والحقيقة وأثرى المكتبة الإسلامية من آثاره العلمية كماً وكيفاً، فى التفسير، والفقه، وعلم الكلام، والسيرة النبوية، والرد على المستشرقين، وما يجب أن يعرفه المسلم فى جانب الأخوة الإسلامية، والصلوات على النبى ﷺ ،

والتصوف والأدعية والإستغاثات، فضلاً عن مائة ألف من القصائد والمواجيد[١]؛ ضم بعضها ديوانه "ضياء القلوب من فضل علام الغيوب" المطبوع فى عشرين جزءاً.

هذا الإمام الفذ الذى أسهم بعلمه وجهده وكفاحه طيلة سبعين عاماً فى الفترة ما بين عام ١٨٦٩م، ١٩٣٧م أسهم فى حركة التطور التاريخى لمجتمعه وأمته فملأ الدنيا وشغل الناس، وارتحل وسافر، وكافح وناضل، يخطب فى المساجد والمحافل والمؤتمرات فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، ويعقد حلقات الدروس لتربية تلاميذه ومريديه، وينشر المقالات فى الصحف، ويصدر المجلات، ويصنف الكتب، ويصدر الفتاوى فى الملمات، ويرسل صيحات المقاومة والرفض لبعثات التبشير والتنصير، أيام كان أستاذاً للشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم، عاش يقاوم المحتلين والغاصبين ويتحداهم، ويوجه النصح للقادة والزعماء والسياسيين والعمال، ومختلف فئات الشعب، يؤازر حركات التحرر الوطنى فى جميع الأقطار الإسلامية ويدعمها، ويناضل من أجل عودة الخلافة الإسلامية التى كان يرى فيها صمام الأمان لجمع شمل المسلمين آنذاك، وفى خضم ذلك كله فقد نذر الإمام حياته لنصرة المظلومين والعطف على البائسين، فضلاً عن إهتمامه البالغ بقضايا الأسرة والمرأة والشباب ومعالجة البطالة والتشرد.

وقد إنفرد الإمام أبو العزائم عن الكثير من علماء عصره وسابقيه بأنه تحدث عن الإنسان قبل ظهوره فى العالم المادى المحسوس، فبين أن رحلة الإنسان تمتد عبر خمسة أوطان، وطن {ألست بربكم}، ووطن بطن الأم، ووطن الدنيا، ووطن البرزخ، ووطن الدار الآخرة، وبعد التعرف على رحلة الإنسان عبر الخمسة أوطان، يبين الإمام أن الإنسان مكون من حقائق خمسة هى:

---

[١] الإمام أبو العزائم (مقدمة الجزء الأول من ديوان ضياء القلوب) ط دار الكتاب الصوفى، القاهرة ، ٢٠١٢، ص١٧

الروح، والعقل، والحس، والنفس، والجسم؛ تكون بمجملهــا الصـــورة الكاملـــة للحقيقة الإنسانية.

ويتكون هذا الكتاب من تمهيد، وأربعة فصول وخاتمـــة تتضـــمن أهـــم النتـــائج والتوصيات، وهوكما يلي:

التمهيد: ويشتمل على نبذة عن حياة الإمام أبـــى العـــزائم وعصـــره ١٨٦٩- ١٩٣٧م، والسياق الإجتماعى والثقافى الذى عاش فيه.

الفصل الأول: الإنسان ونشأته الروحانية.

الفصل الثانى: مكونات الحقيقة الإنسانية.

الفصل الثالث: خلق آدم (النشأة الكونية).

الفصل الرابع: رحلة الإنسان بين الخمسة أوطان.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث وتوصياته، وقائمة بالمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وبعد... فقد قدم هذا الكتاب دراسة ثرية حول موضوع "الإنسان" وهو أحـــد الموضوعات الهامة، التى أسأل الله أن يعم بها النفع، كمـــا أرجـــوه ســـبحانه أن يبارك فى هذا العمل، وأن يجزى القائم عليه خيـــر الجـــزاء، وبـــالله التوفيـــق والسداد.

الأستاذ الدكتور

عامر النجار

أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة قناة السويس

نائب رئيس جمعية التراث العلمى فى الحضارة الإسلامية بمصر

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

تمهيد

أولاً: نبذة عن حياة الإمام أبى العزائم ﷺ:

الحمد لله الذى أوجد الإنسان إتماماً للظهور، وكمالاً للإشراق والنور، جعلـه مثلاً أعلى لمعرفته جل وعلا، ليظهر للعالمين، ويُعرف لأهله عـالين ودانـين، فكان الإنسان هو محل كمال ظهور معرفة الرحيم الرحمن، به ظهر، وبه عُرف وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

والصلاة والسلام على الإنسان الأكمل فى صورته البشرية سـيدنا ومولانـا محمد وعلى آله وصحبه وورثته المجددين لعلومه وأسراره، صلاة بها تمنحنـا حلاوة الإقبال علي حضرتك العلية، والحضور فـي حظـائر المعيـة ومقاعـد العندية، أما بعد.

معلوم أن أئمة الهدى هم الرُّوح السارية في الجسد الإسلاميّ ليحيا حياة طيبة عاملاً لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم خلفاء رسول الله ، يحفظ اللهُ بهم شريعتَه، ويسيرون في الناس بسيرة رسول الله ، وهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة، وهم النور الذي تستبين به محجة الله تعالى، وتقوم به حجتـه سـبحانه على خلقه.

وفى الحقيقة أننا لن نستطيع أن ننزل الإمام أبا العـزائم بعـض منزلتـه إلا بإلقاء الضوء على نبذة من حياته، وطبيعة العصر الذى قُدر له أن يعـيش فيـه، وبيان الظروف التاريخية، والإجتماعيـة، والدينيـة، والثقافيـة، والإقتصـادية، والسياسية التى أسهمت فى تشكيل واقع إجتماعى متردٍ جـاء فيـه الإمـام أبـو العزائم على قدَر، وقد عاش الإمام من سنى العمر سبعين عاماً لا يزال تأثيرهـا سارياً حتى الآن بما أبقاه لنا من تراث فكرى، شمل مختلـف جوانـب الحيـاة

علومها وفنونها فاستحق الدراسة الأكاديمية للتعرف على جوانب هذه الشخصـــية الموسوعية.

١- مولده وتسميته ﷺ:

الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم رضي الله عنه حَسَنِيّ من جهة والدته، حُسَيْنِيّ من جهة والده، وقد هاجر أجداده من أرض الحجاز إلى إفريقيا كغيـــرهم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله الذين هاجروا من شـــبه الجزيـــرة العربية إلى أفريقيا، نظراً لكثير من الأسباب، لعل أهمها هو رغبة أهل البيت في نشر علوم وأخلاق جدهم رسول الله ، ولم تكن الجزيرة العربية وأرض الشـــام، مهيأة لهذا الأمر نظراً لوقوعهما تحت حكم الأمويين ومـــن بعـــدهم العباســـيين، الأمر الذى أنشأ بيئة غير مؤهلة للإصلاح على يد البقية الباقية من أهل البيـــت النبوى الكريم، وقد ظهرت أول دولة لأهل البيت فـــي التـــاريخ علـــي مســـرح إفريقيا، وفي مراكش بالذات عام ١٦٩-١٧٠هـــ (٧٨٥- ٧٨٦م) تحـــت اســـم دولة الأدارسة.

وقد استقرت أسرة الإمام في مدينة فاس، ثم انتقلت منها إلـــى قريـــة عـــين ماضي، ثم هاجرت من المغرب إلى مصر، واستقرت بقرية "محلة أبـــو علـــي"، وهي إحدى القرى التابعة لمركز دسوق حاليا بمحافظة كفر الشيخ بمصر.

وقد وُلد الإمام ﷺ في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب عام ١٢٨٦هـــ الموافق ٢ نوفمبر١٨٦٩م، ولدته أمه أثناء تواجدها – بصحبة زوجها وابنتهمـــا الكبرى- بمسجد سيدي زغلول بمدينة رشيد، حيث فاجأها المخـــاض فـــي تلـــك الليلة المباركة – ليلة ذكرى الإسراء والمعـــراج – ووضـــعت وليـــدها داخـــل مقصورة الوليّ، وسماه والدُه محمداً تيمناً بصاحب الذكرى صلى الله عليه وآلـــه وسلم.

٢- نسبه وكنيته ﷺ:

كما سبق الإمام هو سليل أهل بيت رسول الله ﷺ الطيبين الطاهرين، الإمام الحسين ﷺ هو جده السابع والعشرين من جهة أبيه السيد عبـــد الله المحجـــوب،

والإمام الحسن ﷺ هو جده الخامس والعشرين من جهة أمه السيدة آمنة ابنة السيد أحمد العربى، فهو حسنىٌ حُسينى(١)، أسرته عربية الأصل، قرشية المنبت، هاشمية النسب، مغربية النشأة، مصرية البيئة والتربية.

وأما كنيته: "أبو العزائم" فهى كنيةٌ استنبطها مشايخ الإمام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله وآثار السلف الصالح وكَنّوه بها، ولم يسبق لأحد من أفراد أسرته أو أقاربه أن كني بهذه الكنية، فهى خاصة بالإمام احتفظ بها لنفسه ولأولاده من صلبه من بعده، واختارها إسماً لطريقته الصوفية؛ كما جاء فى خطاب الإمام لسماحة السيد "عبد الحميد البكرى" شيخ مشايخ الطرق الصوفية بتاريخ ١١ من رمضان عام ١٣٥١ هجرية.

٣- نشأة الإمام وحياته:

أ- النشأة وتلقى العلم(٢): امتازت نشأة الإمام فى أطوارها بالذكاء الشديد، والتوفيق السديد، وبأبوين كريمين حرصا حرصاً شديداً على تعليم الأبناء، وتربيتهم تربية دينية، وتنشئة إسلامية؛ وقد أتم الإمام حفظ القرآن الكريم فى سن العاشرة مع إخوته فى كتاب القرية، وكان أسرع إخوته حفظاً للقرآن الكريم، وأجاد القراءة والكتابة؛ ولم يكتف والده بهذا فقد كانت أسرته من ذوى اليسار فجلبت له مدرسين من العلماء يعلمونه مبادئ العلوم.

وقد كانت دار أبيه السيد "عبد الله المحجوب" أشبه بمنتدى أدبى، ومجمعاً علمى؛ يجتمع اليه فقهاء البلدة وعلماؤها بعد صلاة العشاء ليتدارسوا ويتذاكروا ويغترفوا من منهل هذا الشيخ الروى من شتى أنواع العلوم.

ب- أساتذته وشيوخه: تلقى الإمام الفقه والعبادات والنحو، فحفظ المتون ودرس كتاب "أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك" وقسم العبادات من الموطأ ودرس من

---

(١) أ. د أبو بكر اسماعيل الكوسوفى (الإمام أبو العزائم وأثره فى التربية الفكرية)مرجع سابق، ٢٠٠٤، ص١٠

(٢) د. محمد يوسف حمودة (منهج التربية عند الإمام أبى العزائم) ط١، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٦.

علم التوحيد متن السنوسية، ودرس من النحو الأجرومية والألفية، ومـن علـم الحديث "مختصر البخارى" للإمام الزبيدى على يد الشيخ "عبـد الـرحمن عبـد الغفار" وهو من علماء الأزهر الشريف.

تلقى الإمام علوم التصوف ودرس كتاب "احياء علوم الدين" للإمام الغزالـى وكتاب "قوت القلوب" لأبى طالب المكى، وكتاب "الشـفاء" للقاضـى عيـاض، وسيرة النبى ﷺ لإبن هشام، وكتاب "الطبقات الكبرى" لإبن سعد، وكان يشـترك مع إخوته فى هذه الدراسة على يد والده السيد "عبد الله المحجوب" وكـان مـن العلماء فى عصره.

وقد درس علوم اللسان والتوحيد على يد الشيخ الجليـل "محمـد القفـاص"، وكذلك مع الشيخ "الخطيب" فى دراسة الفقه وكلا الشيخين من علمـاء الأزهـر الشريف، ودرس علم "النسك والزهادة" على الشيخ "غانم الخشاب"؛ وعلـى يـد والده السيد "عبد الله المحجوب" الذى كان يرى فيه نبوغاً مبكـراً ملفتـاً للنظـر ولهذا عنى به عناية فائقة.

وفى السادسة عشرة من عمره درس علوم التوحيد على يد الشـيخ "حسـن الطويل" – وكانت له صحبة معه– فتلقى عنه الطريقـة الشـاذلية عـام ١٣٠٢ هجرية. وتلقى الإمام علوم الحكمة على يد الشيخ "حسنين الحصافى"، وتلقى من الشيخ "عليش" علوم الفقه، وكان الإمام خلال هذه الفترة يتوق إلى سـماع سـير الصالحين ويتقرب منهم ويتودد اليهم، ويبذل كل ما فى وسعه ليكـون محبوبـاً لديهم مقرباً منهم واهتم بقراءة كتب الصالحين وعلم سـيرهم، واشـتغل بعلـوم الحكمة والطب والصيدلة منفرداً مستعيناً فى ذلك بالكتب العلمية بمكتبة والده.

د– دراسته فى الأزهر ودار العلوم: وكان السيد "أحمد" الأخ الأكبر للإمـام قـد أسس جريدة "المؤيد" مع الشيخ على يوسف سنة ١٨٨٩م، وكانت له صحبة بقادة الفكر وزعماء السياسة والإصلاح أتاحت للإمام التعرف اليهم؛ وقد استقدم أخوه الأسرة إلى القاهرة فكانت فرصة للإمام للإلتحاق بالأزهر الشريف؛ ولكـن لـم ترُق له طريقة التدريس بالأزهر إذ لاحظ البون الشاسع عند المقارنة بمـا كـان

يتلقاه من قبل، فالتحق الإمام "بدار العلوم" وتخرج فيها وعين مدرساً فى مدينة المنيا عام ١٣١١ه – ١٨٩٢م.

وكان هذا الإنتقال بداية مرحلة هامة من حياة الإمام، حيث إنفتح على عالمٍ أوسع، وجاب خلالها بلاد مصر والسودان داعياً وواعظاً ومعلماً ومجاهداً على أكمل ما يكون الجهاد. ثم إنتقل من المنيا إلى "الإبراهيمية" من أعمال مديرية الشرقية، وفيها ظفر بإخوان أحسنوا الإصغاء والقبول. ثم إنتقل إلى "سواكن" من أعمال السودان وفيها قرأ البخارى لعلمائها، وقسم العبادات من الموطأ للإمام مالك، وصار له إخوان يحسنون الاقتداء والفهم فى علوم الحكمة العالية ثم إنتقل منها إلى "أم درمان" من أعمال السودان فقرأ الموطأ وحكم بن عطاء الله بمسجدها ثم إنتقل إلى "الخرطوم" فقرأ بمسجدها الجامع تفسير القرآن الكريم، والموطأ والبخارى وقسم العبادات من مدونة مالك بن أنس.

وقد مكث الإمام أبو العزائم فى الخرطوم ما يقرب من أثني عشر عاماً، من عام(١٣٢١هـ–١٩٠٣م) حيث عمل أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية "غردون"(١) –جامعة الخرطوم حالياً– إلى أن أقصاه الحاكم الإنجليزى وأقاله من وظيفته فى الثلاثين من أغسطس عام ١٩١٥م، وذلك لدروسه وفتاويه التى كانت حرباً على الإستعمار وأعوانه(٢).

ولما عاد الإمام إلى القاهرة واصل حياته الجهاديه، واستفرغ أقصى جهده فى الدعوة الإسلامية سياسياً وتربوياً حتى أنه لم يكن له فى اليوم والليلة من الراحة إلا القليل جداً.

ه– **بداية دعوته إلى الله تعالى:** بدأ الإمام دعوته إلى الله تعالى بمدينة المنيا أثناء عمله مدرساً هناك، وأنشأ "جماعة آل العزائم"، وأعلن تأسيسها

---

(١) غوردن هو الكولونيل غوردن مدير خط الإستواء { ١٨٧٤–١٨٧٦ م} المعين من قبل الخديوى إسماعيل، وهو ضابط إنجليزى عين حاكماً للسودان، نقلاً عن عصر إسماعيل للإستاذ عبدالرحمن الرافعى ص١٢١ ط. الهيئه المصريه العامه للكتاب ٢٠٠١.

(٢) د. محمد يوسف حمودة (منهج التربية عند الامام أبى العزائم) مرجع سابق، ص٢٩–٣١

عام ١٣١١هـ – ١٨٩٣م، وانتشرت دعوة الإمام بداية من المنيا إلى العديد من أرجاء مصر.

وكان الإمام يلقي دروسه بالمساجد، ويملي مواجيده بين تلاميذه ومريديه الذين اجتمعوا حوله للتلقي منه، فأملى عليهم آداب الطريق إلى الله تعالى وأسس السير فيه، وأملى صيغاً فريدة من الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ، واشتهر أمره وانتشرت علومه بين المسلمين في المنيا وما حولها. ومكث الإمام عامين بالمنيا حيث بداية دعوته، وهي البلد التي خاطبها في مطلع إحدى قصائده بقوله(١):

أَمِنْيَةُ؛ دارَ الراحُ فيكِ بلا شوب	سقاه رسولُ اللهِ في حضرة القرب
أديرت على الأرواح بدءاً فأسكرت	رجالاً فهاموا في غرام وفي حب
أَمِنْيَةُ؛ بدءاً كنتِ حانَ مدامتي	تدار على الأرواح من عالم الغيب
أَمِنْيَةُ؛ كنتِ البدءَ للعلم والهدى	وكم سكِرَ الأفرادُ فيكِ من الشرب

و– بداية إملائه لمواجيده: اعتكف الإمام بالخلوة في أحد مساجد المنيا ومعه إخوان له من محبيه وعشاق علمه، وقبيل دخول وقت صلاة الصبح اعتلى الإمام مئذنة المسجد وأنشد يناجي ربه بقوله(٢):

للطيفِ الخبيرِ أرفعُ أمري	وبه في الوجود يُرفع قَدري
وعليه توكلي واعتمادي	في حياتي وبعد سكناي قبري
حاش قلبي يميل يوماً لغيرٍ	أو يرى الشِّرك بالرضا وهو يدري
ويقيني باللهِ أضحى قوياًّ	بفؤادي وظاهري وبسِرِّي

إلى آخر تلك القصيدة التي كانت أول ما أملاه الإمام. وتوالى السيل المتدفق من مواجيده التي أصدرت منها مشيخة الطريقة العزمية حتى الآن عشرين مجلداً؛ ضمها ديوانه (ضياء القلوب).

---

(١) السيد علاء أبو العزائم (خاتم الوراث المحمديين) .

(٢) ديوان ضياء القلوب، قصيدة: ٨٧٣٤.

ز– تنقل الإمام في عمله بالتدريس: تنقل الإمام بعد ذلك عاملاً بالتـــدريس فـــي أماكن عديدة من محافظات مصر، ثم سافر إلى سواكن حيث وصل إليها في ١٠ شعبان ١٣١٣ هــ الموافق ٦ فبراير ١٨٩٥م – وظل الإمام بالسودان حتى عام ١٩١٥م فيما عدا عام واحد قضاه في مدينة أسوان بعد سواكن– وكعادته فإنه لم يكتف بواجب وظيفته كمدرس بالمدرسة الأميرية، بل بادر إلى الدعوة إلـــى الله تعالى في المســاجد والزوايــا والمجتمعــات العامــة والخاصــة والمناســبات والاحتفالات الدينية، وأكرم الله تعالى أهل سواكن وعلماءها بالإمام يتلقون منـــه، وصار له إخوان يحسنون الإقتداء والفهم في علوم الحكمة العالية.

وفي المدرسة الأميرية بسواكن أخذ الإمام يلقي على تلاميذه الدروس فـــي عظمة الجهاد والمجاهدين، مما جعل التلاميذ يتأثرون بذلك وتنمـــو فـــيهم روح الوطنية والغيرة على الإسلام.

وكان يوفد أتباعه إلى مناطق الجنوب السوداني التي تجوبها جيوش المبشـــرين، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى نقل الإمام إلى مدينة أســـوان حيـــث تنبـــه الإنجليز إلى خطره.

لكنه عاد إلي السودان مرة أخرى بعد ذلك ليجدد شـــباب دعوتـــه إلـــى الله تعالى هناك، وفي حلفا التي أصبحت محلاً لعمله كان الناس مشتغلين بـــالملاهي عاكفين على ملاذ الدنيا واحتساء الخمر، منصرفين عن المسجد، معرضين عـــن طلب العلم، فاهتم بتعمير مسجدها واستكماله، وحث الناس على المســـارعة فـــي الفضائل والنأي عن الرذائل، وتوافدت عليه جموعهم لسماع دروســـه والتلقـــي منه.

ح– عمل الإمام كأستاذ للشريعة الإسلامية: افتتحت كليـــة غـــردون – جامعـــة الخرطوم حالياً – عام ١٩٠٢م، وفي عام ١٩٠٥م وعندما افتتح القسم الخـــاص بتخريج المعلمين المؤهلين والقضاة الشرعيين بالكلية؛ انتقل الإمام من مدينـــة أم درمان إلى الخرطوم، وعمل بكلية غردون أستاذاً للشريعة الإسلامية.

وفي بُرِّي أقامت معه أسرته حيث كان يهتم غاية الإهتمام بتـــربيتهم وتعلـــيمهم، ومن بينهم ابنه الأكبر سماحة السيد أحمد ماضى أبو العزائم الذي كان يعده منـــذ نعومة أظفاره إعداداً خاصا لحمل أمانة الدعوة إلى الله تعالى من بعـــده، حيـــث خلفه فيما بعد في دعوته عقب انتقاله إلى جوار ربه.

ط- تلاميذه ﷺ: معلوم أن من الرجال والأئمة من ترك تراثاً، ومنهم من تـــرك رجالاً، ومنهم من ترك رجالاً وتراثاً، وقد أبقى لنا الإمام أبـــو العـــزائم تراثـــاً زاخراً، بالإضافة إلى أنه ربى جيلاً عظيماً من الدعاة إلى الله تعالى فى مصـــر والسودان، ونظراً لكثرة عددهم سنقتصر على ذكر اثنين منهم على سبيل المثـــال لا الحصر، وهما:

* **الشيخ أحمد سعد العقاد:** ولد بمدينة الفيوم فى سنة ١٣٠٧هـــ، ونشأ فـــى بيئة دينية، إذ كان والده من العلماء العاملين، وكـــان شـــيخاً للطريقـــة العقاديـــة الشاذلية، وتخرج فى الأزهر الشريف، وعين إماماً وخطيباً بمســـاجد الأوقـــاف، وقد تعرف على الإمام أبى العزائم فظل مصاحباً له فى حله وترحاله وخلواتـــه أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وكان أديباً وشـــاعراً ملهمـــاً، أثـــرى المكتبـــة الإسلامية بالعديد من المؤلفات، طبع بعضها، ومنها: "ضياء الأكوان فى تفســـير القرآن"، وهو يشتمل على تفسير ستة أجزاء من القرآن الكريم، وهـــو مطبـــوع، وكتاب: "شرح أسماء الله الحسني" مطبوع، وكتاب "تاريخ الإمام أبى العـــزائم"، وكتاب: "الأسرار" مخطوط، وكتاب:"الفقه على المـــذاهب الأربعـــة" مخطـــوط، وكتاب:"حكمة أحكام الدين" مطبوع، وكتاب: "النظـــرات" مخطـــوط، ، وديـــوان شعرى وهو أيضاً ما زال مخطوطاً. وقد توفي رحمه الله تعالى فـــى ١٦صـــفر ١٣٧٣هـــ الموافق٢٥ أكتوبر ١٩٥٣م، ودفن بمحافظة الفيوم.

* **الشيخ طاهر محمد مخاريطه:** ولد فى محافظة دمياط فـــى ١٥ ينايرعـــام ١٩١٢م، وحفظ القرآن الكريم وهو دون السابعة، وجوده، وهـــو دون التاســـعة، تخرج فى الأزهر الشريف، وعمل إماماً وخطيباً بمساجد الأوقاف، ثم تقلد وظيفة المرشد الدينى لهيئة قناة السويس منذ عام ١٩٤٥م، ثم وظيفة المشـــرف علـــى

مساجد الهيئة بمحافظاتها الثلاث، وقد التقى بالإمام أبى العزائم وتربى على يديه، ونهل من علمه الغزير؛ وقد ترك ثروةً ضخمة من التسجيلات الصوتية والمرئية فى كافة فروع الدين، وقد تم تفريغ بعض هذه التسجيلات وطبعة فـــى مــؤلفين: أحدهما بعنوان:"لا هجرة بعد الفتح"، والثانى بعنوان: "أيام الله" وانتقل إلى جـــوار ربه يوم الجمعة ٩ أغسطس عام ١٩٩٦م، ودفن بمسجده بمحافظة الإسماعيلية.

٤– مصنفات الإمام أبى العزائم العلمية:

ينقسم تراث الإمام أبى العزائم العلمى إلى **(نظمى – نثرى):**

أ– التراث النظمى: قال ﵁ في باب المنن التي منَّ الله سبحانه وتعالى بها عليه: [ومنها أنه سبحانه مَنَّ علي بمواجيد عن عين اليقين فـــي علـــوم اليقـــين مـــن غوامض علوم التوحيد وروح حكمة التشريع، ومنَّ علي سبحانه بالمعونة في أن أبين تلك المواجيد بالعبارة وأضبطها بالكتابة، ومنَّ علي سبحانه بأن أنعم علـــي بالمحبين له سبحانه ولرسوله ﷺ فتلقوا عني تلك المواجيد.. وهم كثير مع قلتهم]

ومعلوم أن المواجيد تختلف عن الشعر، فالشـــعر هـــو دفقـــات شـــعورية بتعبيرات لغوية بلفظٍ جلى لا غموض فيه، أما المواجيد فهى عبارة عن قصـــائد نظمية، وإلهامات قدسية، وشفرة ورموز عرفانيـــة، تجمـــع المراتـــب وتكشـــف المطالب، وهذه المواجيد ليست فى ذاتهـــا نظمـــاً لكلمـــات واختيـــاراً للقـــوافى والمقامات، فهى لا تخضع للمواصفات الفنية للشعر، بل هى غيض من فـــيض، يجرى على حسب الرتب السمعية، والقلوب النقية، التى تسمع فتكتـــب، وتكتـــب فتعقل وتحفظ، وخير من يحدثنا عنها هو الإمام نفسه، يبين الإمام أنهـــا ليســـت مجرد أشعار وكلمات منظومة، فيقول[1]:

لَيْسَ شِعْرًا مَا قُلْتُ حَـــالَ شُـــهُودِي   بَلْ هُوَ ٱلْخَمْرُ يُحْتَسَىٰ فِـــي ٱلْوُجُـــودِ
رَاحُ قُـــدْسٍ قَصَـــائِدٌ مِـــنْ قُصُـــودٍ   وَهْـــيَ إِشْـــرَاقُ عِلْمِـــهِ ٱلتَّأْيِيـــدِ

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٩٩٩، ص٤٠١

بَيَّنَــــتْ قَصْـــــدَ آلِــــهِ وَمَشُـــوقٍ تُسْكِرُ ٱلــرُّوحَ فِــي خَفَــاءِ ٱلْجَدِيــدِ
يَحْتَسِــيهَا ٱلْمُـــرَادُ حَـــالَ صَـــفَاءٍ بَعْدَ نَيْلِ ٱلْقَـــبُولِ حِفْـظِ ٱلْعُهُــودِ
أَظْهَــرَتْ غَـــامِضَ ٱلْعُلُــومِ عِيَانًــا تُشْــهِدُ ٱلصَّــبَّ غَــامِضَ ٱلتَّوْحِيــدِ
مُقْتَضَىٰ نَشْــوَتِي بِحَــانِ ﴿أَلَسْــتُ﴾ حِينَ وَاجَهْتُ وَجْهَهُ فِــي سُــعُودِي
تُــوقِظُ ٱلنَّــائِمِينَ مِنْهَـــا بِمَعْنًـــى تَجْــذِبُ ٱلــرُّوحَ لاَ بِكَــدِّ ٱلْجُهُــودِ
نُورُ فَضْلٍ يُجْلِــي ٱلْحَقَــائِقَ كَشْــفًا لِلْمُرَادِ ٱلْمَحْـــبُوبِ سِــرَّ ٱلْمَزِيــدِ
لَيْسَ شِعْرًا مَا صِيغَ بَــلْ هُــوَ سِــرٌّ لاَحَ لِلْعَـــارِفِينَ بَعْـــدَ ٱلشُّـــهُودِ

ورغم هذا تبقى معانى لا تُعَبر عنها الكلمات ولا تفى بها العبارات، فالعبـارة حجاب على المعنى والمعنى حجاب على الحقيقة، كما قـال الإمام:[ٱلْعِبَـارَةُ لاَ تَكْشِفُ ٱلْحَقِيقَةَ، بَلْ هِيَ مُجَرَّدُ تَصَوُّرٍ، وَلاَ تُكْشَفُ ٱلْحَقِيقَةُ إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَهَا، وَلَـوْ كَانَتِ ٱلْعِبَارَةُ تَكْشِفُهَا لَمَا كَفَرَ أَمَامَ ٱلرَّسُولِ ﷺ رَجُلٌ مَا](١).

كما تمتاز مواجيد الإمام أبى العزائم أنها تشرح بأسلوب سهل يسير الكثيـر من معانى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نجد ذلك فى العديد من القصـائد، فمثلاً نجده يشرح فى هذه الأبيات بعض معانى قوله تعـالى: {إن مـع العسـر يسرا}(٢) فيقول(٣):

بــينَ نفــسٍ وبــين نفــسٍ شــئون تتجلـــى حتـــى تراهـــا العيـــون
ومــعَ العســـرِ إن تـــدبرتَ يســـراً ولدى الصــبر كــل كــربٍ يهــون

كما نرى أيضاً فى مواجيد الإمام شرح لمعانى بعض الأحاديث النبوية، فمثلاً نراه يشير إلى بعض معانى قوله ﷺ : "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"(٤) فيقول رضي الله عنه(٥):

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٣٩

(٢) سورة الشرح آية ٦

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٧٣٥٢

(٤) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد في مسنده

(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٨٠٤٤

مـــن لـــدن آدمَ إلـــى يـــومِ عيســـى   وهـــو شـــمسٌ ومصـــدرُ الأنـــوارِ
أنت شـــمسٌ للرســـلِ منـــكَ تحلـــوا   بالأيـــادى فـــى محكـــمِ الأســـفار

وقد تميزت مواجيد الإمام أبى العزائم عن غيرها كماً وكيفا، فأما الكيف فظهر من خلال ما بثته هذه المواجيد من العلوم والفهوم والمعارف، وأما من ناحية الكم فقد بلغت القصائد التى تم جمعها من تراث الإمام مائة ألف قصيدة[١]، طبع منها عشرة آلاف قصيدة فى ديوانه (ضياء القلوب من فضل علام الغيوب) المطبوع فى عشرين جزءا، والباقى مازال مخطوطاً تحت الطبع.

ب- التراث النثرى: لقد أبقى لنا الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبـو العـزائم ﷺ تراثًا نثريًا ضخمًا يحتوي علي مصنفات علمية كثيرة، شملت شـتي نـواحي العلم بفروعه المختلفة، من العبادات والعقيدة والتوحيـد والتصـوف والتفسـير ومقارنة الأديان والسيرة النبوية الشريفة، وقد طبعت معظم هذه المؤلفـات فـي حياته الدنيوية في مطبعته بالقاهرة، ثم تابعت مشيخة الطريقة العزميـة إصـدار مالم يطبع من هذه المؤلفات، وحتـي الآن هنـاك بعـض المؤلفـات لا تـزال مخطوطة ولم تخرج بعد إلى عالم الإصدارات.

ويتميز أسلوب الإمام أبي العزائم ﷺ في كتبه بالسهولة واليسـر واسـتخدام الحجج والأدلة، كما تتصف مؤلفات الإمام بالتنوع والشمول، وذلك يـدل علـي قدرة الإمام علي تطويع اللغة حسبما تقتضيه الفكرة التي يجنح إليها، وفيـه مـن الدلالة علي رسوخ قدمه في اللغة وفروعها.

وليس فى الوسع حصر مصنفاته العلمية – فبعضها ما زال متفرقاً مخطوطاً عند بعض تلاميذه فى مصر والسودان- ولكن بوجه التقريب فإن ما تـم جمعـه ونشره منها نحو السبعين كتاباً، ويكفى القول أنه مكث جل حياتـه وهـو يملـى نهاراً وليلاً على الطالبين علوم الشريعة والحقيقة والسير والسـلوك فـى شـتى

(١) مقدمة ديوان (ضياء القلوب من فضل علام الغيوب) ص١٧

فروع العلوم من التفسير والفقه والعقيدة والأخلاق والمعاملات والآداب والحكم والأحزاب والأدعية والصلوات والاستغاثات، والقَصَص والمواجيد، والتصوف، ...إلخ.

ومن الجدير بالذكر أن جميع مؤلفات الإمام التي سنشير إليها من مطبوعات دار (المدينة المنورة) التي صارت فيما بعد دار الكتاب الصوفي، ويمكن تصنيف كتب الإمام النثرية والتي قام بنشرها وقام خلفاؤه على دعوته من بعده بطبعها ونشرها، وكذلك التي لم تطبع بعد ومعها المجموعة النظمية المثبته فى البند (ط) من الحصر الآتى إلى الموسوعات الآتية:

أَسْمَاءُ ٱلْمَوْسُوعَاتِ وَٱلْكُتُبِ

أ- مَوْسُوعَةُ: (أَكْمَلُ ٱلْفُيُوضَاتِ فِي ٱلْأَدْعِيَةِ وَٱلصَّلَوَاتِ)

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ). الجزء الأول.	١٤١٤	١٩٩٤	١٤١٤	١٩٩٤
	كِتَابُ: (اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ). الجزء الثاني.	تحت	الطبع		
	كِتَابُ:(ٱلْفُتُوحَاتُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ وَٱلْمِنَحُ ٱلنَّبَوِيَّةُ فِي ٱلصَّلَاةِ عَلَى خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ ﷺ)	١٣١٦	١٩٤٢	١٤٣٦	٢٠١٤
	كِتَابُ: (أَكْمَلُ ٱلصَّلَوَاتِ عَلَىٰ سَيِّدِ ٱلْكَائنَاتِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).	١٣٦١	١٩٤٢	١٤٣٦	٢٠١٢
	كِتَابُ: (نَيْلُ ٱلْخَيْرَاتِ بِمُلَازَمَةِ	١٣١٥	١٨٩٧	١٤٣١	٢٠١٠

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
	ٱلصَّلَوَاتِ).				
	كِتَابُ: (مَشَارِقُ ٱلْبَيَانِ فِي فَضَائِلِ شَعْبَانَ).	١٣٩٤	١٩٧٤	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: (أَدْعِيَةُ ٱلْغُفْرَانِ فِي شَهْرِ ٱلْقُرْآنِ).	١٣٩٣	١٩٧٣	١٤٣٦	٢٠١٥
	كِتَابُ: (لَبَّيْكَ ٱللَّهُمَّ لَبَّيْكَ).	١٣٩٥	١٩٧٥	١٤٣٣	٢٠١٢
	كِتَابُ: (إِلَٰهِي إِلَٰهِي إِلَٰهِي).	١٤١٠	١٩٩٠	١٤٣٦	٢٠١٥
	كِتَابُ: (نَيْلُ ٱلْجِنَانِ بِأَدْعِيَةِ ٱلْجَوَاهِرِ ٱلْحِسَانِ)	تحت	الطبع		

ب- مَوْسُوعَةُ: ٱلْحَقَائِقُ ٱلْجَلِيَّةُ فِي عُلُومِ ٱلصُّوفِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: شَرَابُ ٱلْأَرْوَاحِ مِنْ فَضْلِ ٱلْفَتَّاحِ	١٣٢٩	١٩١٢	١٤٠٧	١٩٨٧
	كِتَابُ: مُذَكِّرَةُ ٱلْمُرْشِدِينَ وَٱلْمُسْتَرْشِدِينَ	١٣٣٠	١٩١٢	١٤٠٣	١٩٨٣
	كِتَابُ: ٱلطَّرِيقُ إِلَى ٱللَّهِ تَعَالَىٰ	١٣٩٩	١٩٧٩	١٤٠٥	١٩٨٤
	كِتَابُ: ٱلْفِرْقَةُ ٱلنَّاجِيَةُ	١٣٥٢	١٩٣٣	١٤١٣	١٩٩٢
	كِتَابُ: دُسْتُورُ ٱلسَّالِكِينَ طَرِيقَ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ	١٣٥١	١٩٣٣	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: دُسْتُورُ آدَابِ ٱلسُّلُوكِ إِلَىٰ مَلِكِ ٱلْمُلُوكِ	١٣٤١	١٩٢٣	١٤٢٩	٢٠٠٨

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
	كِتَابُ: ٱلنَّفْسُ	تحت الطبع			
	كِتَابُ: ٱصْطِلَاحَاتُ ٱلصُّوفِيَّةِ	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	كِتَابُ: ٱلصُّوفِيَّةُ وَٱلتَّصَوُّفُ	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	كِتَابُ: ٱلطَّهُورُ ٱلْمُدَارُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْأَبْرَارِ	١٣٤٨	١٩٣٠	١٤١٢	١٩٩٢
	كِتَابُ: دُرُوسٌ فِي تَزْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ	١٤٣٠	٢٠٠٩	١٤٣٠	٢٠٠٩
	كِتَابُ: مَوَارِدُ أَهْلِ ٱلصَّفَا	١٤٣٠	٢٠٠٩	١٤٣٠	٢٠٠٩
	كِتَابُ: مِنَ ٱلْمَضْنُونِ	١٤٣٠	٢٠٠٩	١٤٣٠	٢٠٠٩
	كِتَابُ: رِسَالَةُ ٱلْآدَابِ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ	١٤٢٠	٢٠٠٠	١٤٢٠	٢٠٠٠
	كِتَابُ: مَقَامَاتُ الصُّوفِيَّةِ	١٤٣١	٢٠١٠	١٤٣٣	٢٠١٢
	كِتَابُ: رِسَالَةُ آلِ ٱلْعَزَائِمِ	**تحت**	**الطبع**		
	كِتَابُ: مِنْ جَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ	١٤١٦	١٩٩٥	١٤١٦	١٩٩٥

ت- مَوْسُوعَةُ: ٱلسَّعَادَةُ ٱلْأَبَدِيَّةُ فِي ٱلسِّيرَةِ ٱلْمُحَمَّدِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (ٱلنَّجَاةُ فِي سِيرَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)	١٤١٩	١٩٩٨	١٤١٩	١٩٩٨
	كِتَابُ: (ٱلسِّرَاجُ ٱلْمُنِيرُ فِي مَوْلِدِ ٱلْبَشِيرِ ٱلنَّذِيرِ ﷺ)	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلْبَيَانُ ٱلْجَلِيُّ في ٱلسُّنَّةِ تَبْلِيغِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)	تحت الطبع			

م	الكتاب	الطبعة الأولى	آخر طبعة	
	كِتَابُ: (مُعْجِزَةُ ٱلْإِسْرَاءِ ٱلْكُبْرَىٰ وَآيَةُ ٱلْمِعْرَاجِ ٱلْعُظْمَىٰ)	تحت الطبع		

ث- مَوْسُوعَةُ: ٱلْعَقِيدَةُ ٱلْحَقَّةُ فِي ٱلذَّاتِ ٱلْأَحَدِيَّةِ وَٱلْأَسْمَاءِ ٱلْإِلَٰهِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (عَقِيدَةُ ٱلنَّجَاةِ).	١٣٢٣	١٩٠٥	١٤٠٣	١٩٨٣
	كِتَابُ: (ٱلْإِسْلَامُ دِينُ ٱللَّهِ وَفِطْرَتُهُ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا).	١٣٤٠	١٩٢١	١٤١٣	١٩٩٢

ج- مَوْسُوعَةُ: ٱلتَّنَزُّلَاتُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ فِي ٱلْمُنَاسَبَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (ٱلْجَفْرُ: تَنَبُّؤَاتُ ٱلْإِمَامِ أَبِي ٱلْعَزَائِمِ ﷺ لِمُسْتَقْبَلِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ)	١٣٧٦	١٩٥٧	١٤٣٤	٢٠١٢
	كِتَابُ: (ٱلْفُتُوحَاتُ ٱلْإِلَٰهِيَّةُ فِي ٱلْهِجْرَةُ ٱلنَّبَوِيَّةُ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلسِّرَاجُ ٱلْوَهَّاجُ فِي ٱلْإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ).	١٣٣٠	١٩١٢	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: (ٱلْفَوْزُ بِٱلْحُسْنَيَيْنِ فِي سِيرَةِ ٱلْإِمَامِ ٱلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلْمَوَاجِيدُ ٱلْعَزْمِيَّةُ فِي مُوَاجَهَةِ	١٣٥٥	١٩٣٦	١٤٠٨	١٩٨٧

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
	ٱلرَّوْضَةِ ٱلْحُسَيْنِيَّةِ).				
	كِتَــابُ: (ٱلْقُطْبَــانِ ٱلسَّــيِّدُ إِبْــرَاهِيمُ ٱلدُّسُوقِيُّ وَٱلسَّيِّدُ أَحْمَدُ ٱلْبَدْوِيُّ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (بَشَــائِرُ ٱلْأَخْيَــارِ فِــي مَوْلِــدِ ٱلْمُخْتَارِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).	١٣٤٠	١٩٢١	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: (حَجُّ ٱلْأَنَامِ لِبَيْتَ ٱللَّهِ ٱلْحَرَامِ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (خَتْمُ لَيْلَةِ ٱلنِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ).	١٤١٢	١٩٩٢	١٤١٢	١٩٩٢
	كِتَابُ: (غَزْوَةُ بَدْرٍ ٱلْكُبْرَىٰ).	١٤١٥	١٩٩٥	١٤١٥	١٩٩٥
	كِتَابُ: (فَضَائِلُ ٱلصِّــيَامِ فِــي شَــهْرِ ٱلْقُرْآنِ)	تحت الطبع			

ح- مَوْسُوعَةُ: ٱلْأَسْرَارُ ٱلْقُدْسِيَّةُ فِي ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (مَعَارِجُ ٱلْمُقَرَّبِينَ).	١٣٣١	١٩١٣	١٤١٤	١٩٩٣
	كِتَابُ: (ٱلْإِسْلَامُ وَطَنٌ وَٱلْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا أَهْلُهُ).	١٣٣٨	١٩٢٠	١٤٣١	٢٠١٠
	كِتَابُ:ٱلْإِسْلَامُ نَسَبٌ يُوَصِّلُ إِلَــىٰ سَــيِّدِنَا رَسُولِ ٱللَّهِ	١٣٣٨	١٩٢٠	١٤١٣	١٩٩٢
	كِتَابُ: (وَسَائِلُ نَيْلِ ٱلْمَجْدِ ٱلْإِسْلَامِيِّ)	١٤١٦	١٩٩٥	١٤٣٢	٢٠١١
	كِتَابُ: (جَمَالَاتُ ٱلدِّينِ ٱلْإِسْلَامِيِّ)	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلنُّورُ ٱلْمُبِينُ لِعُلُومِ ٱلْيَقِينِ وَنَيْلِ ٱلسَّعَادَتَيْنِ).	١٣٣٢	١٩١٤	١٤٠٣	١٩٨٣
	كِتَابُ: (آدَابُ آلِ ٱلْعَزَائِمِ)	تحت الطبع			

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
	كِتَابُ: (حَدِيثُ ٱلْجُمْعَةِ ٱلتَّوْبَةُ ٱلصَّـادِقَةُ وَٱلْعِبَادَةُ ٱلْخَالِصَةُ).	١٤٠٢	١٩٨٢		
	كِتَابُ: (وَصِيَّةٌ إِلَى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ).	١٤١٠	١٩٩٠		
	كِتَابُ: (وَصِيَّةٌ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْمُسْلِمِ).	١٤١٠	١٩٩٠		

خ- مَوْسُوعَةُ:ٱلْأَنْوَارُ ٱلْعَلِيَّةُ فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْفِقْهِيَّةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (أُصُولُ ٱلْوُصُولِ لِمَعِيَّـةِ ٱلرَّسُـولِ صلى الله عليه وآله وَسَلَّمَ).الجزء الأول.	١٣٢٩	١٩١١	١٤٢٣	٢٠٠٢
	كِتَابُ: (أُصُولُ ٱلْوُصُولِ لِمَعِيَّـةِ ٱلرَّسُـولِ صلى الله عليه وآله وسلم). الجزء الثاني.	١٣٢٩	١٩١١	١٤٢٣	٢٠٠٢
	كِتَابُ: (صِيَامُ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ).	١٣٤٣	١٩٢٥	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: (هِدَايَةُ ٱلسَّالِكِ إِلَىٰ عِلْمِ ٱلْمَنَاسِكِ).	١٣٤٠	١٩٢٢	١٤٠٦	١٩٨٦
	كِتَابُ: (ٱلْخَمْرُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ).	١٤١٣	١٩٩٢	١٤١٣	١٩٩٢
	كِتَابُ: (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ).	١٤٢٠	٢٠٠٠	١٤٢٠	٢٠٠٠

د- مَوْسُوعَةُ: ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْحَكِيمَةُ ٱلعَادِلَةُ وَٱلسِّيَاسَةُ ٱلْغَشِيمَةُ ٱلظَّالِمَةُ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (ٱلْجِهَادُ).	١٣٨٧	١٩٦٧	١٤٣٠	٢٠٠٩
	كِتَابُ: (فَتْوَىٰ تَحْـذِيرِ ٱلـدِّينِ مِـنْ بَيْـعِ أَرَاضِي فِلَسْطِينَ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلسِّيَاسَةُ فِي ٱلْإِسْلَامِ)	تحت الطبع			

ز- مَوْسُوعَةُ: ٱلذِّكْرَىٰ وَٱلْعِظَاتُ فِي أَحْسَنِ ٱلْقَصَصِ وَٱلْمَسْرَحِيَّاتِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	مِسْرَحِيَّةُ: (مَحْكَمَةُ ٱلصُّلْحِ ٱلْكُبْرَىٰ).	١٣٣٧	١٩١٩		
	مَجْمُوعَةُ قَصَصٍ قَصِيرَةٍ: (دُرُوسٌ فِي قَصَصٍ). أ- ٱلْقِصَّةُ ٱلْأُولَىٰ: (ٱلنَّاسِكُ وَٱلْمُخْتَرِعُ). ب-ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّانِيَةُ: (ٱلسِّيَاسِيُّ وَٱلْحَكِيمُ وَٱلْغَشِيمُ). ت-ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّالِثَةُ: (رَيَّانَةُ ٱلشَّرْقَاوِيَّةُ وَزُبَيْدَةُ ٱلْمِصْرِيَّةُ). ث-ٱلْقِصَّةُ ٱلرَّابِعَةُ: (ٱلْعَالِمُ وَٱلتَّاجِرُ وَٱلْفَلَّاحُ). ج-ٱلْقِصَّةُ ٱلْخَامِسَةُ: (ٱلْمُقْتَصِدُ وَٱلْمُسْرِفُ وَٱلْفَاسِقُ). ح-ٱلْقِصَّةُ ٱلسَّادِسَةُ: (ٱلْجَبَانُ وَٱلْمُتَوَسِّطُ وَٱلْمُتَطَرِّفُ). خ-ٱلْقِصَّةُ ٱلسَّابِعَةُ: (ٱلْمَجْذُوبُ وَٱلسِّيَاسِيُّ). د- ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّامِنَةُ: (ٱلصَّالِحُ وَٱللِّصُّ وَٱلسُّكَرِيُّ). ذ- ٱلْقِصَّةُ ٱلتَّاسِعَةُ: (ٱلْفَلَّاحُ ٱلْمِصْرِيُّ وَٱلتَّاجِرُ ٱلْهِنْدِيُّ وَٱلْمَخْدُوعُ ٱلْعِرَاقِيُّ). ر- ٱلْقِصَّةُ ٱلعَاشِرَةُ: (ٱلْفَلَّاحُ وَٱلْحَكِيمُ).	١٣١٤	١٩٩٣	١٤٣٢	٢٠١١

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
	ز- ٱلْقِصَّةُ ٱلْحَادِيَةَ عَشَرَةَ: (ٱلسَّائِحُ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّابِحُ فِي ٱلسَّمَاءِ). ح- ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّانِيَةَ عَشَرَةَ: (ٱلْجَنَّةُ ٱلْعَاجِلَةُ وَٱلْجَنَّةُ ٱلْآجِلَةُ). ط- ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّالِثَةَ عَشَرَةَ: (مُحَادَثَةُ ٱلدِّينِ). ى- ٱلْقِصَّةُ ٱلرَّابِعَةُ عَشَرَةَ: (مُحَادَثَةُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعُلَمَاءِ).				

س- مَوْسُوعَةُ: أَسْرَارُ ٱلنَّشْأَةِ ٱلْأُولَىٰ وَجَمَالَاتُ ٱلنَّشْأَةِ ٱلثَّانِيَةِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: نَعِيمُ ٱلْقَبْرِ وَجَمَالَاتُ الآخرة	١٤١٧	١٩٩٦	١٤١٧	١٩٩٦
	كِتَابُ: تَفْصِيلُ ٱلنَّشْأَةِ ٱلثَّانِيَةِ	١٣٣٣	١٩١٥	١٤٣٠	٢٠٠٩

ش- مَوْسُوعَةُ: ٱلْبُرْهَانُ ٱلْمُبِينُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْقَرْنِيِّينَ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ:(ٱلْوَسِيلَةُ وَمَا ٱخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْبِدْعَةِ)	١٣٥٢	١٩٣٤	١٤١٢	١٩٩٢
	كِتَابُ: (ٱلشِّفَاءُ مِنْ مَرَضِ ٱلتَّفْرِقَةِ)	١٣٢٤	١٩١٥	١٤٠٨	١٩٨٨

ص- مَوْسُوعَةُ: ٱلْحَقُّ ٱلْيَقِينُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْمُسْتَشْرِقِينَ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (وَسَائِلُ إِظْهَارِ ٱلْحَقِّ).	١٣٣٢	١٩١٤	١٤٣١	٢٠١٠
	كِتَابُ: (إِنْسَانُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْسَانُ ٱلْمُلْحِدِينَ).	١٤١٤	١٩٩٣	١٤٢٩	٢٠٠٨
	كِتَابُ: (سُجُودُ ٱلْوَهْمِ وَٱلْخَيَالِ لِلْوَلِيِّ ٱلْمُتَعَالِ).	تحت الطبع			

ض- مَوْسُوعَةُ: فَيْضُ ٱلْبَيَانِ فِي أَسْرَارِ ٱلْقُرْآنِ

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ).	١٣٦٩	١٩٥٠	١٤١٣	١٩٩٢
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي).	١٤٠١	١٩٨١	١٤١٤	١٩٩٣
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ).	١٤٠٣	١٩٨٣	١٤٠٣	١٩٨٣
	كتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ).	١٤٠٤	١٩٨٤	١٤٠٤	١٩٨٤
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ)	١٤٠٦	١٩٨٦	١٤٠٦	١٩٨٦
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ).	١٤١٠	١٩٩٠	١٤١٠	١٩٩٠
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجزْءُ ٱلسَّابِعُ).	١٤١٥	١٩٩٤	١٤١٥	١٩٩٤
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلثَّامِنُ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلتَّاسِعُ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – ٱلْجُزْءُ ٱلْعَاشِرُ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (أَسْرَارُ ٱلْقُرْآنِ – سُورَةُ هُودٍ وَيُوسُفَ).	تحت الطبع			
	كِتَابُ: (ٱلْجُمَعِيَّاتُ).	تحت الطبع			

ط- مَوْسُوعَةُ: (دِيوَانُ ضِيَاءِ ٱلْقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ عَلَّامِ ٱلْغُيُوبِ)

م	الكتاب	الطبعة الأولى		آخر طبعة	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
	ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ.	١٤١١	١٩٩١	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي.	١٤١٢	١٩٩٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ.	١٤١٣	١٩٩٣	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ.	١٤١٤	١٩٩٤	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ.	١٤١٧	١٩٩٦	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ.	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلسَّابِعُ.	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلثَّامِنُ.	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلتَّاسِعُ.	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢
	ٱلْجُزْءُ ٱلْعَاشِرُ.	١٤٣٣	٢٠١٢	١٤٣٣	٢٠١٢

ثانياً: السياق الإجتماعى والثقافى الذى عاش فيه الإمام ﷺ:

١ – الحياة الإجتماعية والدينية والثقافية فى عصر الإمام أبى العزائم: اذا كان التاريخ فى حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هى التغيرات، والتغيرات وليدة للزمان، أو لسير الزمان؛ انتهينا الى أن التاريخ هو الزمان، وإن أشد أوقات الليل ظلاماً هى ساعات الهزيع الأخير من الليل التى تسبق الفجر الصادق، وتنطبق هذه الحقيقة دائماً على عصور التاريخ وديناميةالمجتمعات.

إن علم الإجتماع ينظر الى إلمجتمع الإنسانى باعتباره حقيقة تاريخية(١)، ومن هذا المنطلق فإن المنهج التاريخى أو (التحليل السوسيولوجى التاريخى) فى

(١) ا. د مريم أحمد مصطفى (التحليل السوسيولوجى لتاريخ مصر الإجتماعى) دار المعرفة الجامعية الأسكندرية ١٩٩٨م، ص ٣٦-٣٧

دراسته للمجتمع الإنسانى يعتبر واحداً من أهم المناهج التــى يأخــذ بهــا علــم الإجتماع فى دراسته لظواهر المجتمع أو وقائعه، وهو النافــذة الحقيقيــة لفهــم دينامية الإنسان والمجتمع وما بذل لصناعة الحضارة الإنسانية، ومــا تــم مــن ذبذبات أدت الى ما يسمى بالمراحل التاريخية.

ولا يتيسر تقديم دراسة عن الإمام أبى العزائم كرائــد مــن رواد الإصــلاح الإجتماعى (١٨٦٩-١٩٣٧م) إلا بإلقاء الضوء على عصره من كافة النــواحى الاجتماعية، والدينية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية؛ وجميعها يتكامل ليشكل حقائق التاريخ، ويعكس صورة العصر.

وعند التعرض لدراسة الإمام أبى العزائم؛ فإن المواهب والفضائل والمكــارم والمناقب والآداب لتعرض نفسها فى مجالها، وتربيته وعلمه وحكمته وغيرته فى الله ورسوله وتفانيه فى خدمة الإسلام والمسلمين، ورحمته بالبؤســاء والفقــراء والأيتام، ورأفته بالعصاة والمذنبين حتى ينقذهم مــن بــؤر الفســاد؛ وسياســته الحكيمة فى نهضة الوطن ونصيحة الزعماء؛ برأيه الصائب وفكره الثاقب؛ كلها مواهب تفوق الحصر(١)، وكذلك خدمته للصــوفية والتصــوف حتــى أحياهــا، وأعادها شمساً ساطعة بعد غروبها وزوالها بعد أن حولها مدعو التصوف مــن حياة تجريد الى حياة ثريد، ومن معرفة إلى خرافة، ومن حياة نور إلى معيشــة ظلمة، ومن علم إلى جهالة؛ مما أدى ببعض المعاصرين فى العالم الإسلامى إلى ازدراء التصوف وأهله لما شاهدوه من بعض المدعين -المنتســبين زوراً إلــي التصوف- من بدع وخرافات؛ حيث كان شغلهم الشاغل هو الــدجل والشــعوذة والدفوف والطبول؛ وادعاء الكرامات، وخوارق العادات وترك العبادات، وتسفيه آراء الناصحين، والتقليل من شأن العلم والعلماء؛ بل إنهم يتهمون من يعتــرض على مسالكهم ومخالفاتهم أنه لم يتذوق وبالتالى لم يعرف، ومنهم من يشتغل ببيع وتوزيع الخلافة باسم الشيخ ويتكسب من وراء ذلك، إلى غير ذلك ممــا يطــول

ا.د أبوبكر اسماعيل الكوسوفى (الإمام أبو العزائم وأثره فى التربية الفكرية) مرجع سابق، ص١٧،٨)(

شرحه؛ هذا، مع وجوب العلم أن أئمة الصوفية رضى الله عنهم، بريئــون مــن أفعال هؤلاء، ومن أقوالهم ومن ادعاءاتهم التى تخالف هدى رسول الله ﷺ.

فى هذا المناخ أصبح صوت الحق خافتاً لا يكاد يسمع، ووقف ضعاف الخلق ينظرون من بعيد يرقبون الأمر ويمسكون أنفاسهم بعد أن تاهت الحقيقة؛ حتى إن منهم من ظن السوء بالدين وأهله متأثراً بما يراه قائماً أمامه. فضلاً عن تفشــى المخدرات والخمور والترخيص لحاناتها، وانتشار الدعارة؛ والترخيص لبائعــات الهوى لتوفير المتع لجنود الإحتلال الإنجليزى ومن شايعهم وتابعهم من الفساق؛ بالإضافة الى شيوع القمار. أما فى مجال حملات التنصير والتبشير؛ فحــدث ولا حرج خاصة أن سلطات الإحتلال البريطانى كانت تشجع وتدعم هذه الحمــلات التى شاعت وانتشرت خاصة فى جنوب السودان الذى كانــت تســوده الوثنيــة آنذاك.

وها هو الإمام أبو العزائم يصف الحالة الإجتماعية فى عصره وصفاً إجماليــاً فيقول:[ولما تحققت بما ألم بالمجتمع من الشدائد الفادحة: كالكساد فى محصولات الزراعة والتجارة، والفتن التى كقطع الليل المظلــم، والخصــومات التــى بــين الأقارب والجيران، والغفلة التى استولت على القلوب، فأنستها عــلام الغيــوب، وأليم عقوبته ﷻ وموقف يوم الحساب، ورأيت النفوس – مع تلك البلايا – تجهل أسبابها حتى بلغت الغفلة مبلغاً، جعلت الناس يسارعون إلى إزالــة البلايــا بمــا يزيدها من المعاصى، فأحببت أن أوقظ قلوب إخوتى جميعاً إلــى معنــى قولــه تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ * وَمَــا أَنــتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}(١)؛

وإن أسباب المصائب كلها هى معصية الله ومخالفــة ســنة رســوله، ومــن المعصية اعتمادنا على القطن ومحاربة بعضنا بعضا فى تأجير أرضه واغتــرار الملاك، ففسدت أخلاق الفلاحين مزاحمة لبعضــهم، فــأراهم الله عاقبــة ســوء

---

(١) سورة الشورى آية ٣٠،٣١.

أعمالهم. ثم فسدت أخلاق التجار فاستحلوا الربا، وحصلت المضاربة بينهم والحسد، وخالفوا ما أمر الله به من الإيثار والرحمة ومساعدة إخوتهم المسلمين، فعاقبهم الله بالسلب بعد العطاء.

اغتر الصناع فتجاهروا بالمعاصى، وأمنوا جانب الله تعالى، فأخذهم الله بكساد الأعمال وقلة المال.

جهل الناس أسباب البلايا، وهذه بيوت العاهرات وحوانيت الخمر ودور الميسر وأندية اللهو والخلاعة، تصعد منها ظلمات الكبائر فتحجب عنهم رحمة الرحمن، فأصبحت الغيبة صفة لازمة للعلماء، والكيد خلقاً من أخلاق النساء، والظلم خصوصية للحكام، والبخل للأغنياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فتنبهوا إخوتى وأقبلوا عل الله قبل أن يشتد غضبه، واعتبروا بما أصاب الأمم السابقة عند التهاون بأحكام الله ونسيان أيامه والغفلة عن ذكر الله تعالى، فقد كفى ما نزل من البلايا، فشت الأمراض الفادحة، قست القلوب حتى انتزعت الرحمة من قلوب الآباء، والطاعة من قلوب الأبناء، وتبرج النساء فى الأسواق، وتفضح الرجال بقبيح الأعمال، فسلط الله عليهم من لايخافه ولا يرحمهم، أصبح الرجل وابنه متخاصمين أمام من لا يرحمهما، والمرأة والزوج متعاديين وكأنهم صاروا كالوحوش فى الغابات فأين الرحمة الإسلامية، والعواطف الإيمانية والتعاون والتعاضد التى هى من صفات المسلمين؟؟ خربت المساجد فلا راكع ولا ساجد، وأقفلت أبوابها فى وجوه الفقراء، وازدحمت بيوت العاهرات حتى ضاقت بأهلها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

اعتبروا فقد ظهرت علامات انتقام الله ممن خالفه، وتلك بوادر غضب الله، فتداركوا قبل حصول الخطر الأكبر حيث لا تنفع التوبة. كثر الهرج والمرج، واحتقر الصغير الكبير، وظلم الكبير الصغير، وأصبحوا وكأن الإسلام لا يخطر

ببالهم، نسياناً لدينهم وغفلة عن ربهم، وجحدوا يوم الحساب، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه سبحانه][1].

أما على الصعيد العلمى والثقافى فقد امتاز تاريخ مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ببزوغ نهضة شاملة كان قوامها التوسع فى نشر التعليم الحديث، وما يتصل به من مقومات الحياة الحديثة، وكان من مظاهر هذه النهضة العلمية: إنشاء جمعيات عملت على نشر التعليم، ظهور الصحف وانتشارها بعد ليل طويل من عصور الجهل والأمية نتيجة اهمال التعليم .. وقد أسهم الامام أبو العزائم فى هذا المجال كما سنوضح فيما بعد.

٢- **الحياة الاقتصادية:** أما من الناحية الإقتصادية فقد انهارت موارد البلاد؛ نتيجة فساد الحكام واستبدادهم، وحياة الترف والبذخ التى عاشوها على حساب الشعب؛ الذى نهبوا ثرواته بالإضافة الى اقتراضهم من الأجانب -الخديوى سعيد، الخديوى اسماعيل- وكان لسياسة الإستدانه هذه عواقب وخيمة على مصر، فعندما عجزت الحكومة عن سداد الدين المستحق للدول الأجنبية تدخلت هذه الدول فى شئون البلاد لضمان استرداد أموالها؛ ويعتبر الإحتلال البريطانى المسئول من وجهة النظر الإجتماعية عن سوء حال طبقة الفلاحين والمعدمين، وظهور الفوارق الطبقية الصارخة[2]، مقابل الطبقة العليا الرأسمالية كنتيجة طبيعية لممارسات الإحتلال البريطانى، ومما زاد الأمر سوءاً انشاء البنوك الأجنبية التى تقرض بالربا بالإضافة الى ارهاق الفلاحين المعدمين بالضرائب، وفرار معظم زراع الأرض من قراهم هرباً من سياط الجلادين، فى وقت تم فيه تسريح الجيش المصرى بعد فشل الثورة العرابية، مما أدى الى انتشار البطالة، والنهب والسرقة؛ ثم فرضت الحماية البريطانية على مصر فأتت على الأخضر واليابس وابتلعت كل مواردها المالية ومنتجاتها الزراعية والحيوانية وسخرتها فى خدمة القوات البريطانية المشاركة فى الحرب العالمية الأولى، وكان كل ذلك

---

(١) الإمام أبو العزائم (الجهاد) ط٢، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٨٩، ص١٣، ١٤

(٢) ا.د مريم أحمد مصطفى (التحليل السوسيولوجى لتاريخ مصر الإجتماعى) مرجع سابق، ص٢١٥١

انعكاساً للأحوال السياسية المتردية التى عاشتها البلاد فى هذه الفترة من تاريخها.

٣- **الحياة السياسية:** السياسة ظاهرة اجتماعية معقدة، لها سمات مشتركة مع ظواهر أخرى فضلاً عن سماتها الخاصة بها؛ وتدخل السياسة فى عداد الظواهر الإجتماعية الأكثر جماهيرية، ومن هنا تبرز أهمية التحليل الاجتماعى للسياسة(١)، وإذا عرفنا أن الإمام أبا العزائم انتقل إلى جوار ربه عام ١٣٥٦هـ الموافق ١٩٣٧م فيكون عمره المبارك سبعين عاماً قمرية، فإن ذلك يعنى أنه عاش فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين تقريباً، وكانت مصر فى ذلك الحين احدى ولايات الدولة العثمانية وقد تعاقب على حكمها فى تلك الفترة ستة حكام هم: (الخديوى اسماعيل، والخديوى محمد توفيق، والخديوى عباس حلمى الثانى، والسلطان حسين كامل، والملك فؤاد، والملك فاروق) وكلهم من أسرة "محمد على" الذى نصب واليا على مصر عام ١٨٠٥م من قبل الدولة العثمانية؛ وقد شهدت الحالة السياسية فى مصر والسودان تدهوراً كبيراً، واضطراباً عظيماً فى تلك الفترة (١٨٦٩-١٩٣٧م) اذ كانت البلاد وقتها ترزح تحت وطأة الحكم الإستبدادى، ونيران الإحتلال الإنجليزى، فاجتمعت عليها ظلمات كثيرة؛ بل إن العالم الإسلامى بأسره قد تكالبت عليه ذئاب الاستعمار الأوربى (اتفاقية سايكس- بيكو ١٩٠٤م) فمزق الطواغيت أرجاءه، واقتسموا أشلاءه واختص كل منهم بنصيب من الأرض العربية؛ يسترق أهلها وينهب ثرواتها، ويستولى على مقدراتها، ولم يكن ثمة رادع أو مدافع(٢).

فى هذه الظروف العصيبة من تاريخ الأمة؛ واجهت الدولة العثمانية (دولة الخلافة الاسلامية) زحفاً خارجياً من الدول الإستعمارية عليها، وزحفاً داخلياً من حركة جديده تعرف بجمعية (الاتحاد والترقى) وكان القائمون على هذه الحركة

---

(١) ا.د عادل الهوارى (مدخل فى العلوم السياسية) دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ، ١٩٩٧، ص٣

(٢) د. سامى العسالة (جهود الامام السيد محمد ماضى أبو العزائم فى العقيدة) رسالة ماجستير ٢٠١٠، ص٣٤، غير منشورة.

مشهورين بعدائهم للإسلام؛ فضلاً عما كان يحيط بهذه الجمعية من شبهات صلة قادتها بالصهيونية العالمية؛ التى مهدت الطريق لتركيا العلمانية فعزلت السلطان العثمانى، وأعلن "مصطفى كمال أتاتورك" "الجمهورية"، ونقل عاصمة تركيا الى "أنقرة" وألغى الخلافة الإسلامية (١٣١٢هـ-١٩٢٤م) وفصل الدين عن الدولة، وتخلص من الشريعة، وتحرر من قيودها، فغمر الحزن الإمام أبا العزائم؛ على ضياع هذا المجد الذى بناه المسلمون خلال القرون السالفة؛ والذى كان يمثل تجمع المسلمين فى المشارق والمغارب، فتأتلف عليه قلوبهم، وتلتقى عنده آمالهم ويقوى حنينهم لأن الخلافة الإسلامية هى العروة الوثقى التى تجمع أمر المسلمين.

إن هذا التردى والتخلف فى جميع نواحى الحياة الاجتماعية، والدينية، والثقافية، والسياسية، كان سببا لظهور رجال دعاة أفذاذ؛ نادوا بالحرية؛ وحملوا راية الإصلاح فى كل جوانب الحياة، لكل فئات المجتمع وكان من أبرز هؤلاء الرجال الإمام المجدد السيد "محمد ماضى أبو العزائم" الذى سنتناول جهوده وآراءه بالبحث والتحليل فى مجال من أهم مجالات الدراسات الإجتماعية والفلسفية هو موضوع "الانسان" إذ لا يمكن لنا أن نصل إلى مجتمع إسلامى متقدم يشارك العالم من حولنا فى ثوراته العلمية وإنجازاته الحضارية إلا إذا كان الإنسان هو محل اهتمامنا الأول.

٤- **انتقال الإمام إلى جوار ربه:** كانت حياة الإمام مملوءة بالأعمال التي تنوء بحملها الجبال، فما رأى مرضاً استشرى في الأمة الإسلامية إلا وسعى أن يوجد له العلاج من الكتاب والسنة، ونصح الأمة، واتجه بالكلية إلى الله تعالى، يتذلل إليه ويدعوه أن يكشف الغمة ويحفظ الأمة[1]. فظل الإمام طيلة حياته الحافلة بجلائل الأعمال يدعو إلى الله تعالى على بصيرة، ويجاهد فى كل نفس من أنفاسه، حتى فى الوقت الذى أقعده فيه المرض في آخر أيامه، ونصحه كبار

---

(١) قنديل عبد الهادى (الإمام أبو العزائم سيرة تنبئ عن سريرة) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة،٢٠١٣، ص٤٣٠

الأطباء بلزوم الراحة والسكينة، ولكنه أبى إلا أن يقضى كل أوقاته فيمـا يعـود على المجتمع الإسلامي بالخير العام، فلم ينقطع عن دروسه إلا قبل إنتقاله بأيام.

وقد انتقل الإمام إلى جوار ربه فى فجر يوم الاثنين ٢٧ رجب ١٣٥٦هـ - ٣ أكتوبر ١٩٣٧م.

لقد عاش الإمام واعظاً، ومعلماً، ومرشداً، ومجاهداً؛ فكـان بحـق نموذجـاً للعالم الربانى، والإمام المجدد الذى جدد الله به سيرة السلف الصالح، لذلك بكـاه أتباعه، وتلاميذه فى كل أنحاء مصر والسودان، ومحبوه وعارفو فضله فى كـل أنحاء العالم الإسلامي بمراثٍ يصعب حصرها، نظماً ونثراً.

وبعد هذا التمهيد الذى تناول نبذة عن حياة الإمام أبى العزائم وتراثه العلمى، والسياق الإجتماعى الذى عاش فيه، يتبين لنا أن الإمام قد ساهم مساهمة عظيمة فى إثراء الحياة العلمية والثقافية فى عصره، وكان دوره فيها إيجابياً وبارزاً.

كما نلحظ أنه على الرغم من علو معارف الإمام أبى العزائم وسموها، فإننـا نجد فيه التواضع الجم، والأدب العالى، والذوق الرفيع وهو يقول لأحد تلاميـذه: [يابنى إذا وجدت من هو أعلم منى فدلنى عليه كى أبايعه معك، واستغفر الله لـى أننى قد حجبتك عنه].

كما نلحظ أيضاً أن حديث الإمام أبى العزائم عن الإنسان يدور حول ثلاث مراتب:

الأولى: الإنسان فى المطلق: أى رتبة الإنسان قبل تأثره بحدود الثقافة، والدين،..الخ.

الثانية: الإنسان الكامل: وهو الذي كملت فيه قوة التخيل والتصور والفكر والعقل، القابل للكمالات النفسانية؛ والروحانية، وهذا الإنسان هو موضوع هذا الكتاب.

الثالثة: الإنسان الكلى: وهو الإنسان الأكمل فى صورته البشرية سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهو ما سنفرد له -بإذن الله- كتاباً خاصاً يتناول هذا الموضوع.

ومن الجدير بالذكر أننى تقدمت بهذا البحث إلى المعهد العالى للدراسات الإسلامية بالقاهرة، لنيل درجة التخصص "الماجستير" وقد قررت لجنة المناقشة والحكم منحى درجة الماجستير فى الدراسات الإسلامية بتقدير "ممتاز" بتاريخ ١٠- ١٢-٢٠١٦م.

أسأل الله أن ينفعنا بعلوم الإمام أبى العزائم، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

إسلام النجار
الجمعة ٢٦ رجب ١٤٣٩هـ
١٣ أبريل ٢٠١٨م

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإنسـان ونشأتـه الروحانيـة

أولاً: تهيئة مسرح الوجود لإستقبال الإنسان.

ثانياً: فضل الإنسان ومكانته بين المخلوقات.

ثالثاً: الحكمة من خَلق الإنسان.

رابعاً: بداية ظهور الحقيقة الإنسانية (الخلق الأول).

مقدمة

إن موضوع الإنسان يعد من القضايا الكبرى فى هذا الوجود، وليس من قبيل المبالغة أن يُقال: إن هذا الموضوع هو قضية القضايا فى هذا الكـــون الكبيـــر، فالإنسان هو محور الوجود كله، وهو سيدٌ فى هذا الكون: فكل شيء فـــى هـــذا الوجود مسخرٌ له، والشرائع كلها جاءت من أجله، والوحى السماوى قـــد اتجـــه بالخطاب إليه، والقرآن الكريم كله يدور حوله، فكل ما فى القرآن الكـــريم إمـــا حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان، أو عن شيء يتعلق به بأى شكلٍ مـــن الأشكال.

وإذا نظرنا إلى الكون لوجدنا أن الإنسان هو موضوع كـــل العلـــوم ســـواء المباشرة أو غير المباشرة، فإذا سألنا عالماً فى الأحياء لأجابنـــا بـــأن موضـــوع علمه هو الإنسان معللاً ذلك بأنه يدرس الكائنات الحية بما فيهـــا الإنســـان؛ واذا سألنا طبيباً أو عالماً فى وظائف الأعضاء لأجابنا بأن موضوعه هـــو الإنســـان معللاً ذلك بأنه يدرس وظائف الأعضاء المختلفة وبنائها وانتظامها وعلاقاتها كما تظهر فى الإنسان فى الصحة والمرض؛ وإذا سألنا عالم (الأنثروبولوجى) علـــم تاريخ الإنسان لأجابنا بنفس الإجابة وعلل ذلك بأنه يدرس موقع الإنســـان فـــى البيئة وتكيفه معها سواء كانت بيئة مادية أو إجتماعية؛ وكذلك علماء الإجتمـــاع، والمؤرخون، والفلاسفة، والإقتصاديون، وعلماء الجغرافيا، والكيمياء، والفيزياء، جميعهم يقررون أن موضوع بحثهم هو الإنسان. وليس عجيباً أن يحظ الإنســـان بهذا الإهتمام فهو -كما يراه الإمام أبو العزائم- الصورة المُجْمَلة لهـــذا الكـــون، فيقول ﷺ:[الكون كتاب ظاهره الكائنات، وباطنه الآيـــات، وحـــده التجليـــات[1]، ومطلعه مجلى الذات، فالكون هو الصورة المفصلة، والإنســـان هـــو الصـــورة المجملة][2]، ومعلوم أن الظاهر هو ما ندركه بالحواس، والباطن هو القلب الـــذى

(١) تجليات أسماء الله وصفاته.

(٢) الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠١٢، ص٤٧٢

يمسك الصورة الحسية ويحفظها، أما الحد فهو ما يميز الموجود عن غيره من الموجودات، والمطلع هو غاية الموجود ونهايته.

ثم يبين فى حكمة أخرى أن الإنسان أيضاً له ظاهر وباطن وحد ومطلع فيقول: [لكل حقيقة ظاهرٌ وباطن وحد ومطلع، فالإنسان ظاهره الجسم، وباطنه القلب، وحده الروح، ومطلعه نفخة القدس](١).

يبين الإمام أبو العزائم أن كل حقيقة فى الكون ترمز إلى حقيقة فى الإنسان فيقول:[ٱلْكَوْنُ رَمْزٌ لِكَنْزٍ، إِنْ فُكَّ لَكَ وَجَدْتَهُ أَنْتَ وَأَنْتَ رَمْزٌ لِكَنْزٍ، إِنْ فُكَّ لَكَ وَجَدْتَهُ كِتَابَ ٱللَّهِ](٢)، وهنا يكشف الإمام عن العلاقة الوثيقة بين الكون والإنسان والقرآن، فالكون ما هو إلا كلمات الله المسطورة فى الآفاق، والإنسان هو كلمات الله المسطورة فى الأنفس، والقرآن هو كلمات الله المسطورة فى المصحف(٣).

فإذا أردنا أن نفهم أسرار الإنسان فلنقرأ كتاب الكون، وإذا أردنا أن نفهم أسرار الكون فلنقرأ كتاب الإنسان، يقول الإمام أبو العزائم:[خير كتاب تقرأه هو أنت](٤)، ومن خلال قراءة الإنسان لما فيه من المعانى يتمكن من التعرف على نفسه ومرتبته فى هذا الوجود، وبهذا يصل الإنسان لحقيقة القرب من الله، كما فى الحكمة :[ليس الوصول(٥) تلذذاً بالأعمال، وتجملاً بالأحوال، إنما الوصول معرفتك نفسك، وعلمك مرتبتك، وتحققك بفاقتك، واضطرارك له، فكم عامل بالكتاب والسنة وهو أشر على المسلمين من الجِنَّة، وكم من متظاهر بزيّ المساكين وهو أضر عليهم من الشياطين، فجمِّل باطنَك لمولاك يدوم رقيك وعلاك](٦). لذلك نتناول فى هذا الفصل ما يلى:

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣٤٢

(٢)المرجع السابق، ص٢٩

(٣) فالوجود كله ما هو الا كلمات الله

(٤) نفس المرجع السابق، ص ٣٤٢

(٥) القرب من الله جل فى علاه.

(٦) قنديل عبد الهادى (الإمام أبو العزائم سيرة تنبئ عن سريرة) مرجع سابق، ص٢٣٠

أولاً: تهيئة مسرح الوجود لإستقبال الإنسان: يرى الإمام أبو العزائم أن الإنسان يمثل ثلث مراتب الوجود فيقول:[مراتب الوجود ثلاث: وجود مؤقت وفناء: الكون، ووجود مؤقت وبقاء: الإنسان، ووجود دائم وبقاء: الملائكة] كما يؤكد أن الإنسان متى تعرف على هذه المراتب الوجودية ومدى الإتصال بينها، فإنه بهذا التعرف يكون قد ازداد قرباً من الله، فيقول:[مَتَىٰ شَاهَدْتَ ٱلاِتِّصَالَ بَيْنَ مَرَاتِبِ ٱلْوُجُودِ عَلِمْتَ كَيْفَ تَتَقَرَّبُ إِلَى وَاجِبِ ٱلْوُجُود][١]، ويرى الإمام أن الإنسان له وجودان: الأول: وجودٌ خَلقِى مادى مقيد بالجسم الترابى السفلى؛ والثانى: وجود حقَّى معنوى مطلق، يبقى بعد فناء الوجود المادى الجسمانى، فيقول الإمام[٢]:

وُجُودَانِ لِي قَدْ أَثْبَتَا تَفْرِيدِي — وُجُودٌ بِهِ حُجِّبْتُ بِٱلتَّقْيِيدِ
وُجُودِيَ فِي رَسْمِي ٱلَّذِي كَانَ حَجْبَتِي — بِهِ كُنْتُ فِي جَهْدٍ وَفِي تَرْدِيدِ
يُسَتِّرُ نُورَ ٱلرُّوحِ عَنِّي فَتَخْتَفِي — فَأَشْهَدُ نَفْسِي فِي ظَلاَمِ ٱلْبِيدِ
وَهَٰذَا وُجُودُ ٱلسُّفْلِ لَوْلاَ عِنَايَةٌ — مِنَ ٱللَّهِ تَجْذِبُنِي لَطَالَ صُدُودِي
وَثَمَّ وُجُودُ ٱلْحُبِّ بِٱلْفَضْلِ نِلْتُهُ — وُجُودٌ بِهِ عُلِّمْتُ سِرَّ وُجُودِي
وُجُودٌ بِهِ فِيهِ لَهُ صَحَّ لِي ٱلْفَنَا — وَبَعْدَ ٱلْفَنَا نِلْتُ ٱلْبَقَا ٱلتَّأْيِيدِي

وقد أنعم الله سبحانه على الإنسان بنعمتين عظيمتين- وهما أيضاً دليلين على وجوده سبحانه- فأول نعمة هي نعمة الإيجاد، ويلحق ذلك نعمة كبرى هي نعمة الإمداد، إذ لا بد للموجود من مدد يقيمه، والله تعالى هو الواجد قائم بذاته. كما يرى الإمام أنه لا تكتمل سعادة الإنسان فى هذا الوجود إلا اذا عرف حكمة ايجاده وسر إمداده، فيقول: [السعيد فى الخلق من عرف حكمة إيجاده وسر إمداده][٣] وعن هاتين النعمتين يقول[٤]:

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٨٨

(٢) الامام أبو العزائم (عقيدة النجاة) ط٤، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٤٢

(٣) د. مصطفى محمود (السر الأعظم) ط دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٦٦

(٤) الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص١٢٢

- **الإيجاد:** هو الإبداع ودليله إختراع جوهر الأشياء مثل اختــراع الحيــاة فــى الجماد، بل إختراع الجماد نفسه والقوى الحسية والعقل، وسائر المخلوقات التــي خلقت على غير مثال. فلو نظر الإنسان إلى نفسه بعين المتأمل لوجد فيــه مــن دلائل الإبداع ما يعجز عقله عن إدراك كنهه والوقوف على سر حقيقتــه، وإلا، فهل يدرك الإنسان مثلا كيف خلقه الله من نطفة قذرة؟ وكيف سواه وأنزله مــن مكان ضيق ثم أنشأه فإذا هــو إنسان سميع بصير متكلم عاقل؟ وهل يمكنــه أن يفهم كيف تبصر تلك العين، أو تسمع الأذن، أو ينطق الفم، أو يعقــل العقــل، أو تتحرك اليد والرجل؟ ثم إذا نظر إلى ما حوله من الكائنات فرأى تلــك الســماء المرفوعة بغير عمد نراها، وما فيها من كواكب وأفلاك، ونظر إلـــى مــا فـــي الأرض من أنواع الحيوان والنبات تنمو وتخرج الغذاء وهي لم تكن شيئاً، أفــلا يتحقق أن كل هذه المخلوقات آيات ناطقات بعجيب الاختراع على غيــر مثــال سبق؟! .

وإذن، فلا بد أن يكون لهذه المخترعات مخترع قادر حكيم، أوجد فيها هــذه القوة وتلك الروح، فصيَّرها حية متحركة بعد أن كانت ميتة جامدة. لذلك كــان من الواجب على من أراد معرفة الله حق

معرفته؛ أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الإختــراع الحقيقــي فــى جميــع الكائنات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هــذا الإشارة بقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنظُرُواْ في مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا خَلَــقَ ٱللهُ مِن شيء}[١].

- **الإمداد:** وهو العناية ودليله عناية الله التى سبقت للإنسان، فخلق له الكائنــات جميعها، وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٥

فهذان هما دليلا الإيجاد والإمداد اللذان نبتت عليهما طريقة الخـواص مـن العلماء الربانيين. وقد جاء ذكر هذين الدليلين في كثيـر مـن آيـات القـرآن المجيد، إما بتفصيل كل دليل على حدة و إما بذكرهما معاً.

فأما أدلة الإمداد ففى قـوله تعالى :{أَلَمْ نَجْعَـلِ ٱلأَرْضَ مِهَـاداً وَٱلْجِـبَالَ أَوْتَـاداً وَخَلَقْنَاكُـمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلْنَا نَـوْمَكُمْ سُبَاتاً و جَعَلْنَا ٱللَّيْـلَ لِبَـاساً وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً...}[١] وقـوله تعالى: {تَـبَارَكَ الذي جَعَلَ في ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فيهآ سِرَاجـاً وَقَمَـراً مُّنِيراً}[٢] ومثل قوله تعالى:{فَلْيَنظُرِ ٱلإنْسَانُ إِلَى طَعَـامِهِ أَناَّ صَبَبْنَا المَاءَ صَبّـاً ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأَرْضَ شَقّـاً فَأَنبَتْنَا فِيهـاَ حَبًّا وَعِنَبـاً وَقَضْـباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً}[٣].

وأما أدلة الإيجاد ففى قوله تعالى: {أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَـيْفَ خُلِقَتْ}[٤]، وقولـه تعالى:{إِنَّ الـَّذِينَ تَدْعونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُ}[٥] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

أما أدلة الإيجاد والإمداد التي ذكرت الدليلين معاً فهى الأكثـر، مثـل قولـه تعالى: {يأَيُّهاَ ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ وَٱلَّـذِينَ مِن قَـبلِكُمْ} إلى قوله:{فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[٦]

فـالقسم الأول دليل الإيجـاد، وقوله:{جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً} دليل الإمداد .

١- خلق السماوات والأرض: إن الله سبحانه قبل أن يوجد الإنسان فى هذا الوجود قد أمده بمقومات حياته، فخلق له هذا الوجـود قبـل أن يخلقـه وهيـأه لإستقباله. وأراد أن يلفتنا إلى هذه الحقيقة فقال تعالى: {قل سـيروا فـى الأرض

---

(١) سورة النبأ آية ٦ـــ ١١ .

(٢) سورة الفرقان آية ١٧.

(٣) سورة عبس ٢٩

(٤) سورة الغاشية آيه ١٧

(٥)سورة الحج آية ٧٢

(٦) سورة البقرة آيا ٢٢

فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة}[1]، ففى البدء كـــان الوجـــود كله فى طور العدم المحض، حيث كان الله ولا شيء معه، وقد بـــين القـــرآن أن الله خلق الأرض فى يومين، وقدر فيها أقواتها فى يومين، وخلق السماوات السبع فى يومين.. وهذه الأيام الستة هى التى قال الله فيها: {قل أئنكم لتكفرون بالـــذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلـــك رب العـــالمين* وجعـــل فيهـــا رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين* ثم استوى إلى السماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينـــا طائعين}[2]، والآيات تتحدث عن أمرين هما:

أ- **خلَق الأرض:** الأرض كما يعرفها الإمام: [هى جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام، وهى جسم كروى الشكل، وقفت فى الهواء بإذن الله تعالى بجميـــع مـــا عليها من الجبال والبحار، وهى محل ظهور النشأة العنصرية التى هى أصـــول المركبات وهى (النار والتراب والهواء والماء)، تألفت منها الأجســـام المختلفـــة الطباع من جماد ومعدن ونبات وحيوان وإنسان وشيطان بنسب مختلفة فى كـــل منها][3]. وحين خلق الله الأرض جعلت تتحرك فأرساها بالجبال كمـــا ورد فـــى الحديث:"عندما خلق الله الأرض، جعلت تميد، فأرساها الله بالجبال"[4]، ثم زودها بكل ما يحتاجه عمارها، فأودع فيها من الكنوز والمعادن، وجعل على ظهرهـــا البحار والأنهار، والنبات والأشجار، والرمال والأحجـــار، والهـــواء والريـــاح، والطيور والحيوان، ومهدها تمهيداً، وسلك فيها فجاجاً سبلاً، وجعل فيها من كـــلٍ زوجين وغير ذلك من النعم والخيرات التى لا تعد ولا تحصـــى؛ ممـــا يضـــمن للإنسان الحياة والعمران، والبقاء والإستمرار.

---

(١)سورة العنكبوت آية ٢٠

(٢)سورة فصلت آيات ١٠، ١١

(٣)الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٣٨

(٤)سنن الترمذي – كتاب التفسير – باب (٩٥) – (ح ٣٣٦٩)

* **هل سُكنت الأرض قبل الانسان؟** لم يكن الإنسان أول ساكن للأرض ولكن سبقه اليها الجن -أجسام لطيفة نارية، لا تدركها الحواس ولا سبيل للعقل إليها لأنها من عالم الغيب(١)- وهذا يعنى أن الجن قد خُلق قبل الإنسان، وهذا ما أكده القرآن: {ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماٍ مسنون(٢٦) والجان خلقناه من قبل من نار السموم}(٢)، وقال تعالى:{وخلق الجان من مارج من نار} والمارج إنما سمى مارجاً لأنه نارٌ مختلطٌ بهواء، وهو الهواء المشتعل، فكما أن الإنسان أصل خلقته عنصرين هما الماء والتراب، فإن الجان أصل خلقته عنصرين هما النار والهواء، قال القرطبى(٣) فى تفسيره لقوله تعالى:{قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}(٤)ما نصه:[إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء؛ ذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس(٥) فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال](٦)، وهذا ما أكده الإمام أبو العزائم فى سياق تفسيره لنفس الآية بقوله:[وكان الملائكة قبل ذلك حاربوا الجن الذين كانوا عمار الأرض لإفسادهم فيها... فسألوا ربهم جل جلاله مستفهمين استفهام من يريد كشف الحقيقة ومزيد العلم فقالوا:{أتجعل فيها من يفسد فيها} كما أفسد الجن الذين حاربناهم وسفكوا الدماء البريئة](٧).

ب- خلق السماء: وهى كما وصفها الإمام: [جسم محيط بالأرض ذو لون أزرق، وبعض أهل النظر من الباحثين بعقولهم وحواسهم يقولون: إن هذا اللون

---

(١) أ.د محمد السيد الجليند (موسوعة العقيدة الإسلامية) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج١٠، ص٤٦٢

(٢)سورة الحجر الآيات ٢٦، ٢٧

(٣) هو أبو عبد الله محمد الأندلسى القرطبى ، جمع فى تفسير القرآن كتاباً أسماه (الجامع لأحكام القرآن) توفى ٦٧١هـ

(٤)سورة البقرة آية ٣٠

(٥)وذلك قبل لعنه وطرده من رحمة الله.

(٦)الإمام القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ط٢، دار الشام للتراث، بيروت لبنان.

(٧)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) ط٣، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١، ص٩٨، ٩٩

الأزرق هو لون البحار، والسماء هى الأفلاك الثابتة والدائرة][1]، ويرى الإمام أبو العزائم أن لفظة (ثُم) فى قوله تعالى:{ثم استوى إلى السماء وهى دخان} ليست للتعقيب فيقول: [معلوم أن السماء جهة العلو، والأرض جهة السفل فذِكر (ثم) فى الآية لم يكن للتعقيب والتراخى بمعنى التأخير فى الزمان، ولكن (ثم) هنا تفيد رفعة السماء على الأرض فى معان مخصوصة: منها أن الأرض كل شيء فيها ناقص فيحتاج إلى نمو وكمال، والسماء سواها الله كاملة تامة منتظمة ليس فيها من فطور ولا تفاوت ولا احتياج إلى شئ آخر بعد تسويتها، بخلاف الأرض التى جعلها الله مظهراً لشئونه فى كل نفس، ومحلاً للتغيير والتبديل والمحو والإثبات][2]. فقضاهن سبع سماوات وزينهن بالنجوم والكواكب، فجعل فيها الشمس والقمر آيتين من آياته {لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون}[3].

* **سكان السماوات:** خلق الله الملائكة – مخلوقات نورانية مخلوقون من نور، وهم عبادٌ لله مكرمون مخلوقون لعبادته سبحانه، لا يعصون الله ما أمرهم[4]– وأسكنهم السماء، فهى مملوءة بالملائكة كما ورد فى الحديث: "أطَت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا"[5] فهم من الكثرة بمكان، فهم على الأرض، ومع كل إنسان ملائكة يحفظونه من أمامه ومن خلفه {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله}[6]، وما بين السماوات والأرض ملائكة، وفى كل سماء ملائكة، وقد كُلف كلٌ منهم بتكاليف خاصة.

---

(١)الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق ص٢٩٧

(٢) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق ج١، ص٩٣

(٣) سورة يس آية ٤٠

(٤)أ.د محمد السيد الجليند (موسوعة العقيدة الإسلامية) مرجع سابق، ص١٠٤٧

(٥) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة من حديث أبى ذ ر الغفارى رضى الله عنه.

(٦)سورة الرعد آية ١١

ومن هنا يتضح أن الله سبحانه قبل أن يخلق الإنسان خلق عــوالم الأرض ومــا عليها والسماوات وما فيها، وما وراء هذه العوالم، كل هذا قبل إبــراز الإنســان إلى الوجود، فكان عالم الإنس هو أخر العوالم فى الظهور، وهو العالم الوســط الذى خلق الله الكون بما فيه من أفلاك وأملاك ليستدل بها الإنسان على وجــود المكون. كما يقول الإمام أبو العزائم نظماً[(١)]:

فى كلِ طرفةِ عينٍ تشــهدن حكمــاً ... في صلبها العلــم عن تحقيق إيمــان
البرُ والبحــرُ والأفــلاكُ ناطــقــةٌ ... بما بها من علومِ الغيــبِ ومعــــانِ
الإنسُ والجانُ والأمــلاكُ شاهـــدةٌ ... بنورِ موجدها أحدٌ بــلا ثـــــانِ
منزةٌ عن شبيهٍ جــل خالقــــــنا ... مقدسٌ جلَ عن كيــفٍ وميـــــزانِ
هو العلى عظيمٌ مــنعمٌ صمـــــدٌ ... هو الولى حميدٌ بإسمِ حنــــــانِ
من محضِ عدمٍ لقد قام الكيــانُ بــه ... لحكمةٍ قدِّست هى فضــلُ منــانِ
تنزهت ذاتهُ والوصفُ عن غــرضٍ ... هو الغنىُ عن الأكوانِ وزمـــــان

٢- **حكمة خلق الكون:** فى بدء البدء، شاء الأول جل وعلا أن يُظهر فى الوجود صورةً تكون دالةً على وجوده، وجماله، وجلاله، وكماله، وأســمائه، وصــفاته؛ وبالإجمال أحب الحق أن يُظهر خليفة عنه؛ به يَظهر وبه يُعرف، ويكون مــثلاً أعلى يدل به عليه، لأن ظهوره بذاته مستحيل للأشياء، وكيف يظهر لها؟ وهــو ليس كمثلها ولا من نوعها، ولا يُدرك لها، وليس منها شــيئ بكنــه ذاتــه، ولا بحقيقة أسمائه وصفاته؛ كل هذا وذاك، إقتضى تعلق الأسماء والصــفات بــإبراز حقيقة تكون رمزاً مشيراً، ودالاً خبيراً، يدل على هذه الذات بما فيه مــن آيــات بينات؛ وبقدرة القدير وحكمة الخبير نفذت القدرة ما تعلقت به الإرادة؛ وأبــدعت الحكمة ما خصصته المشيئة، {إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون}[(٢)]، فخلق الله الإنسان، ليكون مظهراً لظهور الرحمن.

---

(١)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) ط٢، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠١٢م، قصيدة ٩٧٨٢، ج١٠، ص١٩٥

(٢)سورة يس آية ٨٢

وهنا ظهرت حكمة خلـق السـماوات والأرض، وايجـاد الـدنيا والآخـرة؛ فالموجودات جميعاً خُلقت قبل الإنسان، لتكـون مسـكناً ومقـراً لـه، ومعاشـاً لضرورياته وكمالاته، لأنه خليفة عظيم عن رب على عظـيم، وبقـدر عظمـة العظيم تكون عظمة الخليفة القائم عن العظيم. من هنا وقع الإختيار علـى هـذا الإنسان فى علمه القديم، فبنى له هذا الوجود وما فيه بيتـاً لتربيتـه وتعليمـه، وتهذيبه وتثقيفه وتأديبه، ثم خصص له مقراً أخيراً لإكرامه وتشـريفه، وإعـلاء شأنه، فى الدار الآخرة إذا حمل شهادة الخلافة عمـن أقامـه، وأطـاع أوامـره وأحكامه. أو لإهانته وتعذيبه، وعتابه وتأنيبه، إذا رسب فى الإمتحان، وخـالف الرحيم الرحمن(١).

٣- **الإنسان هو آخر المخلوقات ظهوراً:** نعم إن الإنسان هو آخر المخلوقـات، فالكل قد خُلق قبله، لذا فقد ختمت به دورة الإيجاد التى سبق الحديث عنها. فهـو كمال المخلوقات، فالسماوات والأرض وما فيها خلقهـا الله لـه وسـخرها لـه، {وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه}(٢)، فلم يستثن خلقاً من الخلائق ولا مرتبة من مراتب الوجود ولكنه خلق الكل للإنسان وسخره له لعظم قدره وسمو مرتبته. يقول الإمام:[أول الإرادة آخر العمل](٣) ولهـذا كـان آخـر المخلوقات ظهوراً بعد أن تهيأ الكون لإستقباله.

٤- **معنى كلمة إنسان:** إن أصل معنى كلمة إنسان في كلام العرب يرجع إلـى ثلاث فرضيات:

أ- **الفرضية الأولى:** أن معنى الإنسان يعني الظهور، لأن أصل كلمة "إنسـان"، وكذا "إنس"، و"أنس": في كلام العرب من الإيناس؛ ومعناه: الإبصـار. يقـال : أنَستُه، وأنِستُه؛ أي أبصرته. وقيل للإنس: إنس. لأنهم يؤنسون؛ أي يبصـرون،

---

(١) عبد الباسط محمد القاضى (حكمة أحكام الدين) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧، ٨

(٢) سورة الجاثية آية١٣

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص١٩٨

كما قيل للجن: جن لأنهم لا يؤنسون؛ أي لا يُرون. وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: {فإن آنستم منهم رشدا}[١]؛ أى رأيتم، فالإستئناس في كلام العرب بمعنى النظر. وبما أن الظهور هو أصل معناه، إذن فيفترض أن يكون الظهور سِمته البارزة فلا يستخفي ولا يتوارى كالجن، قال تعالى: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ..}[٢]. وهذه الآية دليل على تستر الجان، على العكس من الإنسان الذي يكون ظاهراً في حياته وأخلاقه ودينه الذي يؤمن به. فمقارنة طبيعة الإنسان بطبيعة الجان في القرآن لم تأت صدفة وإنما للتمييز بين طبيعة مادة مظلمة تدرك بحاسة البصر، وأخرى مشعة فوق إدراك حاسة البصر، فالإنسان أصل اسمه (إنسيان) لأنه يُصغر على (أنيسيان)[٣]، ويؤنس من الإيناس بمعنى يبصر ويُرى، خلاف الجان الذي يَجِن بمعنى يستتر ويختفي، ولهذا يسمى الإنسان إذا كان في بطن أمه مستتراً جنيناً، ونظراً لطبيعة الإنسان المادية المظلمة فقد التصق بالأرض ضرورة، بينما انطلقت المخلوقات النارية المشعة في الفضاء ضرورة أيضاً.

ب- **الفرضية الثانية:** وهي بأن كلمة إنسان مُشتقة من الأُنس وتعني: الوناسة، فهو الكائن الذي أنست الأرض بوجوده، وعكسها الوحشة والمكان الخالي والموحش والذي يخلو من وجود الإنسان. قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}[٤].

ج- **الفرضية الثالثة:** وهي بأن الكلمة مُشتقة من النسيان لأن الله عهد لآدم ولكن آدم كان قد نسي ما عهد الله له. فقد أورد "ابن منظور" عن ابن عباس قوله:[إنما

---

(١) سورة النساء آية ٥

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧

(٣)(مختار الصحاح) لأبى بكر الرازى، ط٩، وزارة المعارف، ١٩٠٤م، ص٢٨

(٤)سورة القصص آية ٢٩

سُمي الإنسان إنساناً؛ لأنه عهد إليه فنسي][1]، إذ يقول القرآن بهذا الصدد: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما}[2]. وبهذا قـال الكوفيـون: إنـه مشتق من النسيان. ولكن موضوع النسيان هنا متعلق بآدم عليه السـلام وحـده، حيث يحدثنا الله بالخصوص عنه، ولذلك لا يُمكن ومن غير المعقول لأن ينسحب حديثنا عن النسيان على الإنسان البدائي الأول والذي لم يكن الله قد عهِد إليـه أو كلَّفه وحمّله أى مسؤولية؛ كما وأنه ليس من العدل ربط الإنسـان بالنسـيان لأن التسمية لا تخدم المعنى، ولكن لو أتى التعريف ليخُص مصطلح (الناسْ) نقـول نعم فهو أقرب للنسيان من الإنسان وذلك لأن آدم نسي فأصبح يمكننا القول بأن: الناسْ أي نسي ما عُهد له، ونحن ذرية آدم: (الناسِ) الذي نسي مـا عُهـد لـه، ونحن منه، فإن كان هو من لُقِّب بالناسِ فنحن أيضاً ناس مثله، وأصبح مخاطبتنا نحن بذلك كما في مخاطبتنا بالآدميين نسبة لآدم وآدم نسبة للأديم، والنـاس هـم البشر الآدميون وهذه دلالة وتعريف على الجنس، أما في قول الله تعـالى {ومـا خلقت الجن والإنس}[3] وعدم قوله "الجن والناس" سوى دليل يخدم الفرضـيتين الأولى والثانية وهما الظهور والتوَنُس بوجوده، وليس النسيان كما في الفرضـية الثالثة.

٥- **تعريف الإنسان:** عندما نستعرض الفكر الإنسـاني الـذي تنـاول تعريـف الإنسان عبر تاريخ البشرية الطويل نصادف التعريفات المختلفة المتقاطعـة فـي بعض الجوانب والمتضاربة في بعضها الآخر، والمتباينة أحيانا، ومن المعلوم أن كل تعريف للإنسان هو مسألة خلافية دائمة بـدوام الحيـاة لتعـدد المعتقـدات والثقافات واختلافها.

---

(١)(مختار الصحاح) لأبى بكر الرازى، مرجع سابق، ص٢٨

(٢) سورة طه آية ١١٥

(٣)سورة الذاريات آية ٥٦

أما من ناحية اللغة فيُعرف الإنسان لغةً بأنه:[الكائن الحى المفكـــر][1]. وعنـــد الجرجانى بأنه: [الحيوان الناطق][2]. وهذا هو تعريف المناطقة للإنسان فيعرفوه بانه حيوان ناطق اي: الحي المفكر المدرك للكليات كصفة مميز عن غيره وليس كمجموع صفاته.

ويعرف عن الفلاسفة على انه كائن يتمتع بوجود مجموعـــة مـــن الصـــفات الكمالية والملكات والقابليات والقدرات.

ويعرف عند علماء الاخلاق على انه كائن حي كائن يتمتع بوجود مجموعة من الصفات الكمالية والقابليات والقدرات لا على نحو الملكات المستبطنة الكامنة على نحو القوة بل المتحققة فعلا وواقعا على نحو أعلى رتبة فان لم تظهر اثـــار الصفات فعلا وبقت كامنة فلا يمكن القول بان الانسان متصف بهـــا، فالإنســـان عندهم كائن له قيم، لأنه الوحيد فى هذا الوجود الذى له قيم يلتزم بهـــا أو يلـــزم نفسه بها.

ويعرفه الإجتماعيون: بأنه كائن إجتماعى.

ويعرفه علماء الدين فيقولون: الإنسان كائن متدين، لأنه لا يوجـــد علـــى ظهـــر الأرض كائن له خاصية التدين إلا الإنسان[3].

٦- الانسان عند فلاسفة الغرب والمسلمين:

يمكن ان نقول ان تناول الفلاسفة لموضوع الانسان قد سيطر عليه اشـــكالية البحث فى تحديد ما هو "الإنساني" في الإنسان؛ أي تحديد ما يكون به الإنســـان إنساناً، و ما يميز الإنسان بإطلاق عن الوجود الحيواني.

وقالوا بأن مما يجعل من تحديد "الإنساني" مشكلاً هو إمكان مقاربته –النظـــر اليه وتحليله- من خلال حدين متقابلين هما: "الانية" و"الغيرية".

---

(١)(المعجم الوجيز) مجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم، ١٩٩٤م، ص٢٧

(٢) الجرجانى (التعريفات) مطبعة البابى الحلبى وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨م.

(٣)أ.د محمود حمدى زقزوق (الإنسان والقيم فى التصورالإسلامى) ط١، مطابع الأهرام، القاهرة، ٢٠١٥، ص١١

الحد الاول: الانية: وهو ما يتحدد به وجود الشيء فيكون حقيقته و قوامـــه: إنية الإنسان هي ما يكون به الإنسان إنسانا سواء بالنظر إليه كفكـــرة أو كواقـــع متعين أي ما يثبت وجوده كإنسان متمايز بإطلاق عن الوجود الحيواني.

فالانية بهذا المعنى ترتبط بما هو جوهري في الإنسان أي بما هو ثابـــت لا يلحقه تغير، وقائم بذاته بحيث لا يحتاج في تحديد حقيقته أو لإثبات وجوده إلـــى غيره.

الحد الثانى: الغيرية: وهى ما يتعلق بوجود الإنسان كالجســد مــثلاً، إذ لا يمكن إنكار الوجود الجسدي للإنسان، غير أن هــذا الوجــود يظــل عرضـــي وهامشي، بمعنى أن وجوده مثل عدمه لا يؤثر في تحديد الانية.

ويثبت أفلاطون، وأرسطو، وديكارت أن الإنية بإقصاء كلّ أشـــكال الغيريـــة داخلية كانت أم خارجية فلا الجسد ولا العالم الخارجي يحددان ماهية الإنســـان. ومن هذا المنطلق تتحدد الذات باعتبارها واقعاً ميتافيزيقيا، أى باعتبارها المعنـــى المؤسس للإنسانية والأنا ليس إلا الوعي بوحدة الذات التي تربط وتجمـــع بـــين حالاتها المختلفة وأفعالها المتعاقبة في الزمان. والذات الإنســـانية عنـــد هـــؤلاء الفلاسفة تتحدّد في نهاية المطاف باعتبارها الجوهر وهو التحديـــد الـــذي أقـــرّه أرسطو بما أن الذات كجوهر تسند إليها كل الخصائص والأعراض بما في ذلك الجسد.

وتتدرج مسالة الإنية والغيرية في مسألة أهم هي مسألة الإنساني بين الكثـــرة والوحدة. وهذه المسألة تتحرك في سياق مطلب الكونية. ذلك أن تحديد الإنســـان يفترض إنتاج تعريف كوني يشارك فيه كل الأفراد، لكن هل أن هذه المشـــاركة تتم على نفس النحو؟ أم هل أن كلّ فرد يشارك في الكلّي بطريقة خصوصية؟

أفلاطون: يقرّ أفلاطون أن كمال الوجود الإنساني أي إنية الإنســـان تتحقـــق بالنفس وحدها ذلك أن أفلاطون يتبنى موقفاً ثنائيا إذ يفسر الإنسان بإرجاعه إلـــى مبدأين مختلفين:

* مبدأ روحاني هو النفس التي تتحدد تماماً مثلما سيكون الأمرعند أرسطو باعتبارها مبدأ حركة.

* مبدأ مادي هو الجسد، ويختزل الإنسان في بعده الواعي ويقر بأن النفس تتحكم كليا في الجسد. وخصوصية أفلاطون تتمثل في إقراره بأن النفس جوهر في حين يمثل الجسد عرض. لذلك يختزل أفلاطون الإنسان في بعده الواعي ويقصي الجسد من ماهية الإنسان، إذ أن الجسد بالنسبة إليه عاطل عطالة كاملة فالنفس هي التي تحرّكه، وهو مصدر رذيلة ويمثل عائقاً يعوق النفس في عملية صعودها نحو المثل.

أرسطو: يطرح أرسطو مشكلة علاقة النفس والجسد في إطار فهمه لعلاقة الصورة بالمادة أو إن شئنا الدقة علاقة الصورة بالهيولى (الهيولى هي المادة اللامتشكلة). ومن هذا المنطلق فإن الإنسان سيكون إنساناً بصورته أي بنفسه، فالنفس أو الروح هي ما يمثل حقيقة الإنسان. فتماماً كما تشكل الصورة المادة، تشكل النفس الجسد وبالتالي فإن أرسطو يختزل الإنسان في بعده الواعي وهذا ما يظهر بجلاء في إقراره بأن الإنسان حيوان عاقل. وهذا المنظور الأرسطي الذي يفهم الإنسان على شاكلة فهمه لعلاقة الصورة بالمادة جعله ينتهي إلى تحديد النفس بما هي مبدأ حركة. وعن هذا التحديد تنتج نظريته الشهيرة حول الأنفس الحيوانية.

ديكارت: لإثبات الذات موجودة ينطلق ديكارت من تجربة الشك. إذ أن ديكارت يشك في كل ّشيء يجد فيه مجرّد تردّد وهكذا لا يترك الشك مجالاً دون أن يطاله. إلا أن هذا الشك الذي طال كلّ شيء لا يستطيع أن يخامر الحالة التي أكون فيها بصدد الشكّ. فديكارت يستطيع أن يشك في كلّ شيء إلا في كونه يشك لأن الشك في الشك لا يقوم إلا بتدعيم الشك. وهكذا يأتي الشك على كلّ شيء إلا على اليقين الذي يتضمنه، يقين الذات بذاتها موجودة كفكر. وخصوصية ديكارت تتمثل في كونه على خلاف أفلاطون وأرسطو يحدد النفس كفكر لا كمبدأ حركة وبالتالي تماما مثل أرسطو وأفلاطون يعتبر أن النفس

جوهر ولكنه على خلاف أرسطو وأفلاطون يعتبر أيضا أن الجسد جوهرا من جهة كونه مستقل بذاته إذ أن حركة الجسد لا تفسرها النفس وإنما هي حركة آلية ميكانيكية نابعة من طبيعة الجسد ذاته كامتداد مادي.

سبينوزا: يمثل موقف سبينوزا أول موقف فلسفي يرد الاعتبار للجسد في تحديد الإنية ولكن أيضا موقف يسعى إلى إقحام الإنسان في الطبيعة وفي العالم عبر سلب الامتيازات الميتافيزيقية التي أضفاها التصور الثنائي على الإنسان. ذلك أن سبينوزا على خلاف أرسطو وديكارت يحدد الجوهر لا باعتباره المتصل بذاته ولكن باعتباره المسبب لذاته وهو ما يعني أنه لا يوجد إلا جوهر واحد هو الله أو الطبيعة، وأنّ هذا الجوهر يتكون من عدد لا متناهي من الصفات وأن كلّ صفة من هذه الصفات تتكوّن من عدد لا متناهي من الضروب أو الأحوال .وهذا يعني أن كلّ ما يوجد ما هو إما ضرب من ضروب صفة الامتداد وإما ضرب من ضروب صفة الفكر وإما ضرب من ضروب أحد الصفات الأخرى التي لا يعرفها الإنسان وإما علاقة ضربية بين ضربين وهو حال الإنسان. وهذا يعني أن الوحدة بالنسبة لسبينوزا تتمثل في الجوهر الواحد في حين تمثل الصفات اللامتناهية وضروبها الكثرة. والضروب بما فيها الإنسان تتحدد كانفعال أي كرغبة في المحافظة على البقاء. والصراع الذي كان يتحدث عنه ديكارت داخل الإنسان، بين العقل والانفعالات، أصبح مع سبينوزا صراعاً خارج الإنسان، صراع كلّ الضروب من أجل المحافظة على البقاء. الجسد مع سبينوزا يتماهى مع النفس في مستوى الماهية بما أن النفس والجسد شيء واحد تارة ننظر إليه من جهة صفة الفكر وطوراً ننظر إليه من جهة صفة الامتداد، ويتماهي معها في المستوى الانطولوجي[١] بما أن كلّ من النفس والجسد يمثل ضربا أو حال، ويتماهى معها في مستوى القوة والفعل بما أن ّفعل النفس هو

(١) العلم الذي يدرس الوجود بذاته، الوجود بما هو موجود، مستقلاً عن أشكاله الخاصة، ويُعنى بالأمور العامة التي لا تختص بقسم من أقسام الوجود، الواجب والجوهر والعرض، بل تعمم على جميع الموجودات من حيث هي كذلك

فعل الجسد وهو الفعل الذي ينحو إلى المحافظة على البقاء. مع سبينوزا إذاً لا أنية دون الغيرية الداخلية والخارجية معا، فالإنسان يتحدد بوعيه وجسده ويتحدد كرغبة تتطوّر في العالم أو الطبيعة.

مارلوبونتي: إنّ تجاوز سبينوزا لثنائية النفس والجسد يبقى رهين الإقرار بالحلولية لذلك تتقدم الفينومينولوجيا[١] مع مارلوبونتي وهو سر كردّ فعل ضد الثنائيات التي أنتجها الإرث الديكارتي بين الشيء والفكرة، الموضوع والذات والجسد والنفس... وردّة الفعل هذه كانت بالعودة للوجود في العالم لاستكشاف ارتباط الجسد بمختلف سجلات القصدية، بدءاً بالإحساس ووصولا إلى الحكم. فالجسد بالنسبة لمارلوبونتي لا يمكن اختزاله في كونه مجرّد تراكم الوظائف والميكانيزمات التي تصفها الفيزيولوجيا[٢]، فالجسد هو أكثر من مجرّد العضوية الارتكاسية التي تتمثله فيها الفيزيولوجيا، ذلك أنني لا أستطيع أن أفهم علاقة النفس والجسد في الإنسان إذا كنت أعتبر الجسد مجرّد موضوع لأن هذا الجسد الموضوع هو جسد الآخر كما أراه، إنه هذه الجثة الهامدة التي يشرحها طلبة الطب في غرفة التشريح، في حين أن جسدي الخاص لا يدرك مثلما تدرك المواضيع الخارجية بل إني أعيش حضوره الحي من الداخل. والجسد المعيش على هذا النحو يتقدّم منذ الوهلة الأولى باعتباره غير قابل للاختزال في الجسدية فحسب، إذ هناك تطابق بين حالاتي المختلفة وضروب وجود جسدي. فنحن مع الفينومينولوجيا لم نعد إزاء جسد ملطخ بنقص ما، إذ نكتشف أن الجسد ذات وأن الإنسان واحد وما كان يسميه ديكارت جسداً ليس إلا الشخص الموضوع أي الإنسان كما يبدو في الفضاء وفي نظر الآخر، و ما يسميه ديكارت نفساً ليس إلا

---

(١) هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة بداية (أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها.

(٢) علم وظائف أعضاء الإنسان هي دراسة الوظائف الكيمياوية الحيوية والطبيعية والميكانيكية للبشر أو الأنسجة أو الأعضاء الإنسانية.

الشخص الذات أي ما يمثله الإنسان بالنسبة للأنا وهو ما يسميه مارلوبونتي بالجسد الذات.

ماركس: إذا كان سبينوزا ومارلوبونتي قد استعادا الجسد والعالم كأشكال من أشكال الغيرية في تحديد الإنية من زوايا مختلفة، من زاوية الجوهرية والرغبة بالنسبة لسبينوزا ومن زاوية القصدية والمنظورية بالنسبة لمارلوبونتي، فإنّ ماركس يستحضر الغيرية من زاوية تاريخية. فالوعي بالذات بالنسبة لماركس ليس متعاليا وليس مستقلا بذاته بما أن الوعي هو انعكاس للواقع الاجتماعي التاريخي، فالوعي مكتسب ومتطور، مكتسب لأنه يعكس علاقة مع الواقع الطبيعي تتحدّد بالفعل في العالم وتشكيله من أجل المحافظة على البقاء والتكيف مع المحيط الخارجي، فالانسان لا يعيش إلا من الطبيعة ولكن من الطبيعة المشكلة وفي كلّ نشاط مشكل للطبيعة يشكل الإنسان ذاته، هذا يعني أن الإنسان يحقق إنسانيته ويكتسب وعيه بواسطة العمل، وتقسيم العمل هو ما يفسر تطور الوعي، لذلك تنعت نظرية ماركس في فلسفة التاريخ بالمادية التاريخية. إذ يرى ماركس أن وسائل الإنتاج هي التي تحدّد ضروب الوجودالإنساني، والحياة المادية للبشر تفسر كلّ الأنشطة وتحدّد سيرورة الإنسان. ومن هذا المنطلق يجب أخد فعل القوى المنتجة بعين الاعتبار لفهم التاريخ، والقوى المنتجة تمثل مجموع الوسائل المادية وكلّ أصناف القوى التي بحوزة المجتمع الإنساني، والوعي من هذا المنطلق هو البنية الفوقية المتولدة عن العلاقة الاجتماعية المحكومة بعلاقات اقتصادية. وهكذا فإن الوعي عند ماركس هو وليد نشاطه المشكّل للطبيعة في التاريخ.

فرويد: إن إضافة فرويد تتمثل في اكتشافه للاشعور، أو تفطنه لانبجاس الغيرية داخل الانية، إذ يتقدم اللاوعي باعتباره الآخر الذي على الوعي أن يتسع لاستيعابه. وهو ما يعني أن إقرار فرويد بأهمية اللاوعي في تركيبة الإنسان ليس اقصاءاً كليا للوعي بما أن الوعي يبقى المجال الذي يمكننا من إدراك اللاوعي إذ أن اللاوعي يتمظهر في اللاوعي الذي يفسره. وهكذا يبرز فرويد

وهم اختزال الإنسان في بعده الواعي فالإنسان لا يتحدّد إلا في إطار هذه الكثرة الداخلية التي تتجاوز الإقرار الميتافيزيقي بوحدة الأنا إذ تتكشف نفسية الإنسان متعددّة بل مركبة من منظمات ذات رغبات متناقضة منظمات تنزل هي ذاتها في التاريخ بما أنها تتطور في السيرة الذاتية لكلّ فرد ولكن أيضا تتمثل معطيات عامة ترتبط بالتاريخ الحضاري الإنساني العام مثل ما يتمظهر ذلك في العقد الكونية التي تحدث عنها فرويد عقدة أوديب وعقدة الخصي...الخ.

سبينوزا، مارلوبنتي، ماركس وفرويد بيّنوا إذا وهما لاعتقاد في إمكان تحقيق الإنية بإقصاء كلّ أشكال الغيرية فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن وجود كامل للذات إذا ما استبعدت الجسد والعالم والتاريخ واللاوعي، لا إنية إذا دون غيرية.

- ومن فلاسفة المسلمين نجد:

ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٧م): يعرفه في كتابه **(النجاة)** فيقول: "ليس الإنسان إنسانا بأنه حيوان، أو مائت، أو أي شيء أخر بل إنه مع حيوانيته ناطق" ويضيف في كتابة **(الشفاء)**: "الإنسان جوهر له إمتداد في أبعاد مادية تفرض عليه الطول والعرض والعمق، و من جهة أخرى يمتلك نفساً بها يتغذى ويحس ويتحرك، ومع ذلك يمتلك عقلاً به يفهم الأشياء ويتعلم الصناعات ... وعندما يتحدى كل ما سبق نحصل على ذات متحدة هي الإنسان(١).

ويظهر موقف ابن سينا من مسألة الإنية في برهان الرجل المعلق في الفضاء إذ هو يفترض أن الإنسان ولد دفعة واحدة فخلق يهوي في الفضاء دون أن تكون لأعضائه إمكانية التقاطع، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت ذاته موجودة. ومن هذا البرهان يستخلص ابن سينا أن النفس هي الإنسان عند التحقيق وان الجسد لا يمثل حداً في ماهية الإنسان. ذلك أن ابن سينا تماما مثل

---

(١) خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، دار الفكر اللبناني، ط١٩٩٥،١، ص (٢٥،٢٦).

أرسطو وأفلاطون يقرّ بأن النفس العاقلة هي ما يؤسس حقيقة الإنسان وماهيتـــه، فالأنا يدرك ذاته دون أن يكون في حاجة إلى أيّ علة خارجة عنه سواء كانـــت جسداً أو أي شيء آخر خارجي.

كما نجد عند " الفارابي" (٨٧٤م – ٩٥٠م): "أن الإنسان منقسم إلـــى ســـر وعلن، أما علنه فهو الجسم المحسوس بأعضائه وأمشاجه، وقد وقف الحس على ظاهره ودل التشريح على باطنه أما سره فقوى بروحه (١).

٧- الإنسان عند الإمام أبى العزائم ﷺ:

الإنسان الذى يريده الإمام أبو العزائم – فى هـــذا الســـياق- هـــو الإنســـان الكامل؛ ولكن فى البداية نتعرف على هذا الإنسان الكامل عنـــد الإمـــام فنجـــده يصفه قائلاً:[لا أريد بالإنسان الهيكل المعتدل القامة العريض الأظافر الذي يمشي على رجليه...؛ ولكن الإنسان المقصود في موضعي هذا هو الذي كملت فيه قوة التخيل والتصور والفكر والعقل، فإنه هو الإنسان القابل للكمالات النفسانية وهـــو المراد بشرح هذا الموضوع الجليل. وليس من كملت فية قوة النزوع كالنبات، أو قوة جلب الخير ودفع الضر عن نفسه كالحيوان، فإنه ليس عندى بإنسانٍ بمعنـــاه الحقيقي سر قوله:{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}(٢) وقوله تعالى: {لَهُمْ قُلُـــوبٌ لاَّ يَفْقَهُـــونَ بِهَـــا وَلَهُـــمْ أَعْـــيُنٌ لاَّ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}(٣)، فالإنسان هو المقصود من العالم كله، لأن الله خلقه بعد خلق جميع الكائنات، فهو زبدة الموجودات وخلاصتها بحكمةٍ عليّة تظهر لمن ذاق حلاوة قوله تعالى:{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}(٤) ومن تناول من طهور شراب: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

(١) المرجع السابق ص ٢٥،٢٦

(٢)الفرقان آية ٤٤

(٣) الأعراف آية ١٧٩

(٤)البقرة آية ٣٠

وَنَهَر * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}[1]، فالإنسان المقصود بالذات، خلقه الله تعالى ليجمل به ملكوته الأعلى. خلقه على صورته، جمله بمعانى صفاته، أشهده بديع جماله، هو الإنسان المتخيل المتصور المفكر العاقل، وما عداه فحيوان على صورة الإنسان أو أضل من ذلك لجهله بمبدئه ومعاده وغروره بعاجل حظه وهواه][2].

أ- **تعريف الإنسان عند الإمام أبى العزائم** ﷺ: يُعرف الإمام أبو العزائم الإنسان بتعريفاتٍ كثيرة نذكر منها تعريفين:

* **التعريف الأول:**[الإنسان هو هذا الكائن الحي المنتصب القامة، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة، والعواطف الجياشة، والإحساسات الصادقة، والمنطق السليم، والكلام الفصيح المبين][3]، ومن خلال هذا التعريف نجد الإمام ﷺ قد أبرز فيه أهم ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وجمع فيه كل ما تحدث عنه بقية العلماء؛ فحدده من الناحية التى تميزه عن باقى المخلوقات فقال هو الكائن الحى المنتصب القامة ذو العقل والتفكير، فميزه حديا عن كل المخلوقات بل ووصفه بالوصف الذى دائما ما يبرزه الفلاسفة والمناطقة من ناحية العقل والتفكير، ثم بالأخلاق الفاضلة، والعواطف والأحاسيس، والمنطق الذى يمكنه من الإستدلال السليم، ثم الكلام والبيان وهما وسيلة التعبير والتواصل مع من حوله. كما يوضح عقيدتنا فيه أنه صنع الرب مباشرة، وتفضل عليه بالنفخة القدسية وأسجد له ملائكته وخلقه فى أحسن صورة .

---

(١)سورة القمر الآيات ٤٥، ٥٥

(٢) الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص٤١، ٤٢

(٣) الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٦

* **التعريف الثانى:**[الإنسان هو ذلك النوع الوسط الجامع بين عوالم الملكوت الأعلى وبين أسفل سافلين؛ باعتباره رُوحاً وجسماً](1) وفي هذا التعريف يشير الإمام إلى قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}(2)، وجواذب كل جانب تميل به إلى فطرته، فجانب الرُّوح يميل إلى الخير ويحب العلم وينعم بالطاعة ويسعد بالقربة ويطمئن بذكر الله تعالى، وجانب الجسم ينعم بما هو من جنسه من شهوة مطعم أو مشرب أو منكح، ويجد في ذلك متعته ولذته. فكان التوفيق بين المطالب، والتوسط بين الجواذب، هو نوع الكمال المنشود الموضوع لهذا الإنسان، الذى لو اتبعه لبلغ الغاية هنا وهناك، فسعدت رُوحه ولم يُحرم جسمه، وذلك الكمال في جملتة متمثل فى الإسلام الذي وضعه الله تعالى كمالاً للبشرية فقال عز وجل: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}(3).

ب- أنواع الإنسان عند الإمام ﷺ: يرى الإمام أن أنواع الإنسان أربعة، هى كما يلى(4):

* **إنسان كلى:** وهو سيدنا رسول الله ﷺ .

* **إنسان كامل:** الرسل القائمون مقامه ﷺ قبل إشراق شمسه المحمدية فى عالم الإمكان؛ ثم أبداله ﷺ المجددون لسنته بعد رفعه ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

* **إنسان روحانى:** وهم السالكون المقتدون.

* **انسان حيوانى:** عاصى من المسلمين، أوشيطانى: غاوٍ كافر أو منافق.

ج- أصول الإنسان: يرى الإمام أن الإنسان له أصولٌ ثلاثة فيقول ﷺ:

---

(1) قنديل عبد الهادى(الإمام أبو العزائم سيرة تنبيء عن سريرة) ط1، دار الكتاب الصوفى،2013، ص293

(2)سورة التين الآيات 4، 5، 6

(3)سورة المائدة آية 3

(4) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص111

[الإنسان له ثلاثة أصول: العدم، والتراب، والمنى (وهو ماء الرجل والمرأة)][1].

وأرى أن هذه الثلاثة هى بمثابة أصول لبعضها، فالعدم أصلٌ للتراب، والتراب أصلٌ للمنى، وقد بين الإمام أن هذه الأصول هى مراتب يتنزل إليها الإنسان ليتعرف على بدءه فى هذا الوجود، فيقول:[إِذَا تَنَزَّلَ لَكَ وَهُوَ ٱلْغَنِيُّ عَنْكَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ، فَتَنَزَّلْ أَنْتَ لَهُ بِٱلأَوْلَىٰ إِلَىٰ رُتْبَةِ مَنِيٍّ، وَمِنْ رُتْبَةِ مَنِيٍّ إِلَىٰ رُتْبَةِ طِينٍ، وَمِنْ رُتْبَةِ طِينٍ إِلَىٰ رُتْبَةِ عَدَمٍ][2]، ويقول أيضاً:[ٱلإِنْسَانُ لَهُ نَظْرَتَانِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لِلنِّعْمَةِ، أَوْ نَاظِرًا لِلْمُنْعِمِ، فَإِذَا كَانَ نَظَرُهُ إِلَى ٱلنِّعْمَةِ تَذَكَّرَ مِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَإِذَا نَظَرَ إِلَى ٱلْمُنْعِمِ لاَحَظَ مَنْ هُوَ عَدَمًا وَمَنِ ٱلْوُجُودُ لَهُ][3]؛ وقد ذكرنا – سبحانه– بهذه الأصول الثلاثة فى غير موضع من القرآن الكريم، فقال فى العدم:{وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا}[4]، وقال فى التراب:{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشرٌ تنتشرون}[5]، وقال فى المنى: {ألم يَكُ نطفةً من منىٍ يُمنى}[6]. وبعد أن أوضح الإمام من هو الإنسان الذى يريده، يوضح لنا فضله ومكانته.

ثانياً: فضل الإنسان الكامل ومكانته بين المخلوقات كما بينها الإمام فى تراثه: ليس من شك فى أن وجود الإنسان قد احتل مكانة ممتازة فى التصور الإسلامى مقارنة بغيره من المخلوقات. وهو وإن كان محكوماً عليه بالموت –الإنتقال– إلا أنه قد حظى بتكريم لم يحظ به أحد من مخلوقات الله تعالى[7]. وليس أدل على مكانة وأهمية الإنسان من أنه كان ولا يزال كعبة بحث

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٠

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢١

(٣)المرجع السابق، ص٢٦

(٤)سورة مريم آية ٩

(٥)سورة الروم آية ٢٠

(٦)سورة القيامة آية ٢٧

(٧) د. أحمد محمود الجزار (الله والإنسان) ط٢، المركز الثقافى فى الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٩٤، ص٣

العلماء على مر الزمان، كما يقول الإمام ﷺ:[أفعمت الـدفاتر بشـرح خـواص الإنسان، فلم يبق طبيب ماهر إلا وشرح حقيقة جسمه وبين أسـرارها، وفصَّـل أعضاءه وبين وظائفها وما يحفظ عليها صحتها وما يعيدها لها إن فقدت، فما من مفصل من المفاصل ولا وريد ولا شريان ولا عضو من الأعضـاء العاملـة إلا واختص به طبيب ماهر، حتى صار للسن طبيب خاص، وللجلد كذلك، ولم يبـق فيلسوف إلا وجعل الإنسان كعبة بحثه، وأظهر غوامض أسراره، وقـام علمـاء النفس فبينوا أنواع النفوس وما يحفظ عليها صحتها وما يعيدها عليها إن فقـدت، وقسموا فضائل النفس ورذائلها وما به ترقى إلى منازل كمالاتها حتـى يكـون الإنسان إنساناً حقيقيًا بمعناه.

وكل تلك العلوم مأخوذة من القرآن الشـريف، لأن الله ﷻ بينهـا بصـريح العبارة، حيث جعل الإنسان خليفة لجنابه العلي، وصورة مذكرة لحضرته العلية، ومخلوقاً منحه القوة على أن يتحمل الأمانة، وجعله ﷻ إن زكى نفسه وطهرهـا ووفى بعهده وعمل بما أمره يجلس يوم القيامة على كرسـي مـن نـور حـول العرش في جوار ربه جلت قدرته وتنزهت ذاته، وإن ظلم نفسه وخالف أمر ربه وجحد نعمة المنعم هوى في هاوية البعد ولظى القطيعة وأليم العذاب][1].

١- الإنسان الكامل هو جوهرة عقد المخلوقات: [خلق الله الإنسان بيديـه فـي أحسن تقويم مبناه ومعناه: أما مبناه فمن كل معادن الأرض، فجمع أركان الوجود الماء والتراب والهواء والنار، ذلك هيكله، وأما معناه فقد جمع الله فيـه حقـائق الوجود سماءً وأرضا...، هذا هو الإنسان الذي خلقه الله ليعمر به ملكه وملكوته، وجعل الأرض له مقراً للإقامة، ومستقراً له بعد الموت، ثم ينشئه النشأة الثانية[2] فيمنحه الملك الكبير، وقد سخر الله للإنسان كل ما في الملك والملكوت، وصرفه تصريف الربوبية في الملك، لذلك جعل الله الإنسان خليفة عنه في هـذا العـالم،

(١) الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص١٦، ١٧

(٢) نشأة الإنسان بعد الموت.

ووعده عند الاستقامة أعظم الكرامة {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً}[١]؛ وخلق الله لبني آدم كل ما لابد لهم منه في حالتي الضروري والكمالي، ولا مانع من أن الله وضع في كل حقيقة كون منها الإنسان علماً ضرورياً بكل الأشياء اللازمة لتلك الحقيقة، فما من كائن في الوجود إلا والإنسان محتاج إليه، لا فرق بين ما في السموات من أفلاك وغيرها وما في الأرجاء من المكونات، وما في الأرض من نبات وحيوان وجماد، وما فوق ذلك من جمال الملكوت، وما في الجنات من نعيم مقيم][٢].

٢- **الإنسان ملك وأعلى وحيوان وأدنى وشيطان وأضر:** يؤكد الإمام على هذا المعنى فيقول: [الإنسان حيوان كيفاً وضروريات، مَلَك مقاماً وخصوصية، إن كان مسلماً عارفاً، وتحقق نسبه، وعمل بالقرآن. وهو إبليس حظاً وهوى إن جهل واستغنى. الإنسان قطب مدار العالم إلى أدنى مراتبه. ينتهى إلى ما دونه من الحيوانات ليكمل في نوعه وتتولى مؤانسته العلويات إذا كمل وكماله بالعلم الحقيقي، المؤيد بنور الحق، المطهر للنفوس من فساد الأخلاق، المزكى لها من سوء الاعتقاد حتى تطمئن القلوب إلى الله ﷻ، وتنفطر النفوس على حب النفع العام الذي يؤول بالعامل إلى التلذذ بالحياة الأبدية في روضات النعيم المقيم، بين الملائكة المقربين الذين يدخلون عليهم من كل باب بالتسليم والتعظيم.

ولا عجب فالإنسان بين نوعه قد تدفعه نفسه الفاضلة وأخلاقه الكاملة، وعقيدته الحقة ومعاملته الحسنة، وحبه لخير عامة بني نوعه من الخلائق أجمعين إلى رتبة الإجلال والإعظام والحب حتى يُفدى بالنفوس والأموال لما تجمل به من الصفات المحبوبة للنفوس، والأخلاق المقبولة للإنسان، وهو منهم وبهم. ينظرون إليه نظر الإكبار والإعظام وهو غريب عنهم، بعيد النسب منهم، وإنما قربته أخلاقه ورفعته أعماله، ورقته أحواله، لا ينكر فضله إلا عمي الطرف عن الفضيلة، كليل النظر عن المكارم محب لذاته، مبغض للخير العام

(١) سورة الإنسان آية ٢٠

(٢)الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص١٦

والإحسان الحقيقي؛ بينما نرى الآخر من الإنسان قد قلاه أرحامه، وكرهه أقاربه، وملّه عشراؤه، وسعى في ضرره أبناؤه، فكأنه مرض مُعدٍ أو بلاءٍ مؤذٍ، وهو القريب النسيب الحسيب. ما هذا ما ذاك؟! إلا لأنه إنحط عن أدنى مراتب الإنسان حتى التحق بأضر الحيوانات أو أشر الشياطين][1].

ويقول ﷺ فى موضع آخر:[وقد جمع الله في الإنسان كل حقائق الوجود مما خلقه في الأرض والسماء وما فيهما، فالإنسان: شيطان وأضل، ووحش وأضر، وملك وأفضل... قلت: (إنه شيطان وأضل) لأن حارب ربه، كما فعل فرعون ونمروذ وأتباعهما إلى يوم القيامة؛ وقلت: "إنه وحش وأضر" لأنه عق والديه، وهما اللذان أشهداه بعيني رأسه كمال إحسانهما إليه.

وقلت: "إنه ملك وأفضل" لأن الله تعالى أحبه وقربه، وأسمعه كلامه وأشهده على جماله. وقد عجز الشيطان – مع أنه عنصر الشر والعناد – عن أن يفعل ما يفعله الإنسان بشبيهه، وكيف لا؟ وهو يجاهر بما يخنس الشيطان عندما يقوم بأقل منه][2]. ثم يقول:[إن وقف الإنسان همه على حظوظ البهيمية. رضى من أمر دنياه بالتغذى وتنقية الفضلات، وإن صرفها إلى الحيوانية كان إما غضوباً كسبع، أو أكولاً كبقر، أو شرها كخنزير، أو جزعاً ككلب، أو حقوداً كجمل، أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب، أوجامعاً لكل تلك الصفات فيكون شيطاناً مَريداً وهو في صورة إنسان. فلا تغتر ياأخى بالصورة، فكم من إنسان جميل الصورة ذى هيئة وبزة ومال يعظمه الناس ويكون يوم القيامة أقل من الذر!. وإن صرف همته إلى الجهة المَلَكية يكن متوجها إلى العالم الأعلى ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدنى، فيكون مراداً بقوله عز وجل:{وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}[3].

---

(1)المرجع السابق، ص39

(2) الامام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق،ج1، ص97

(3) الإسراء آية 70

وبذلك فضل كثير من العلماء الإنسان الكامل على الملائكة، وذلك لأن الملك روح مجردة والإنسان دائم الجهاد لم يخلص من مقتضيات عناصره ودعوات حظوظه وشهواته مما لا خلاص منه إلا بشق الأنفس. قال الله تعالى:{لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}(١) فأنت أيها الأخ الراغب فيما عند الله تبلغ بجهادك الأكبر منزلة تكون بها أفضل من الملائكة لأنك مجاهد وهم ليسوا بمجاهدين](٢). يوضح الإمام هذا المعنى –مخاطباً هيكل الإنسان– فيقول ﷺ(٣):

جَمَعْتَ يَاهَيْكَلِي كُلَّ ٱلْحَقَائِقِ مِنْ ... كُلِّ ٱلْفَضَائِلِ مِنْ جَذْبٍ وَمِنْ ذَنْبِ
فِيكَ ٱلْمَلاَئِكُ فِيكَ ٱلْجَهْرُ وَٱلأَخْفَىٰ ... فِيكَ ٱلْبَهَائِمُ مِنْ شَرْقٍ وَمِنْ غَرْبِ
فِيكَ ٱلشَّيَاطِينُ فِيكَ ٱلآيَةُ ٱلْكُبْرَىٰ ... بَلْ فِيكَ نَفْخَتُهُ مِنْ عَالَمِ ٱلْغَيْبِ

ويُجمل الإمام كل ما سبق فيقول:[ٱلإِنْسَانُ: إِنْسَانٌ بِصُورَتِهِ وَمَطْعَمِهِ وَضَرُورِيَّاتِهِ، وَمَلَكٌ كَرِيمٌ مُقَرَّبٌ بِعَقِيدَتِهِ وَأَخْلاَقِهِ](٤).

وأرى أن الإمام أبا العزائم دائماً يؤكد أن الإنسان جامعٌ لصفات الحيوان والشيطان والملك، ليوضح فى النهاية كيف يرتقى الإنسان من مرتبة الحيوانية إلى الآدمية، ومن الآدمية إلى الإنسانية وصولاً إلى مرتبة المَلكية، فيقول الإمام:[سِرْ مِنْ حَيَوَانِيَّتِكَ إِلَىٰ آدَمِيَّتِكَ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ حِلْيَتِكَ، وَأَنْهَضْ مِنْ قُيُودِ ٱلآدَمِيَّةِ إِلَىٰ رَحِيبِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِمَا فِيكَ مِنَ ٱلْحِكَمِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ، وَتَخَلَّصْ مِنْ أَدْرَانِ إِنْسَانِيَّتِكَ بِنُورِ مَلَكِيَّتِكَ، وَأَنِبْ بِرَبِّكَ مِنَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ ٱلْمَلَكِيَّةِ إِلَيْهِ بِنُورِ ٱلْبَصِيرَةِ

---

(١) سورة النساء آية ٩٥
(٢) الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق ، ص٤٥، ٤٦
(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ، قصيدة ٣٣١، ج١، ص٢٣٧
(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٣

ٱلإِلَٰهِيَّةِ][1]، وهنا يرى الإمام أنه لا ينبغى للإنسان أن يركن إلى مرتبة أو إلى منزله ولكن عليه أن يرتقى من الحيوانية إلى الآدمية بما جمله الله به من حسن الخِلقة وما ارتضاه له من جميل الأخلاق، وأن يرتقى من الآدمية إلى الإنسانية بما فيه من الحكم، والصفات الإلهية، ثم يرتقى بجهاد نفسه من أدران الإنسانية إلى أنوار الملكية. ويُجمل الإمام ﷺ المعانى السابقة فيقول نظماً[2]:

بهجةُ الروحِ بالجمالِ العلى لا بمُلكٍ يفنى وحظٍ دنى
وابتهاجُ الحيوانِ أكلٌ وشربٌ ونكاحٌ وذاك قصدُ القصىِّ
وابتهاجُ الشيطانِ حسدٌ وكبرٌ وفسادٌ وفرقةٌ وبغى
وابتهاجُ النفوسِ بعدَ زكاها رغبةُ الفوزِ بالمقامِ الهنى
فى رياضِ الجنانِ فى رغدِ العيـ ـش بمرأى هذا الجمالِ الجلى
بين تلك النفوسِ بونٌ بعيدٌ فى خفاءٍ عن مدركِ الألمعى
هى نفسٌ إن طُهرت وتزكت تتهنى بحظوةٍ بالولى
وهى إبليسُ إن أبت وتعالت وتعامت عن سرها الآدمى
وهى حيوانٌ بل أضل سبيلاً إن تسلت عن حسنها بالدنى

٣- الانسان الكامل مملكة عظيمة: [الإنسان صوَره الله وهو منيٌ في رحم أمه، فهو المصور لأبيه أولاً والمصور لكل إنسان ثانياً، قال الله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}[3]. وقال ﷻ:{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}[4]، الإنسان جمع الله فيه الضدين، وأقامه حجة على عجز العقول عن اكتناه الغيب. جمع فيه العناصر المختلفة حقائقها المادية، وبين الروح المجردة كاملة النورانية، فألِفت الروح العناصر وهي مفارقة لها، فسبحان القادر الذي لا يعجزه شيء. الإنسان مركب من النفس والبدن، وهو الوسط

---

(١)المرجع السابق، ص٢٣

(٢)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٤١٣٢

(٣)سورة الحجر آية ٢٩

(٤)سورة آل عمران آية ٦

وخير الأمور الوسط ولذلك كان أهل القرآن خير بني الإنسان لأنهم أمة وسط. ركبه الله في أحسن صورة روحاً وبدناً. وميزه بالنطق والعقل سراً وعلناً. زين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى، وجمل باطنه بما هو أشرف وأقوى.

ومنحه الذكر والفكر والحفظ. فالإنسان مملكة عظيمة وعالم صغير: النفس سلطان المملكة، والعقل وزيرها، والقوى جنودها، والحس المشترك صاحب بريدها، والأعضاء خدمها، والبدن كله محل المملكة، والحواس تسافر في جميع الأوقات في عالمها، وتلتقط الأخبار الموافقة والمخالفة تعرضها على الحس المشترك الذي هو واسطة بين النفس والحواس، لأنه بواب المملكة وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق وتطرح ما يخالف، فسبحان من جعل هذا الجسم الصغير عالماً تنطوي فيه العوالم.

فإذا تحققت هذا يا أخي وعلمت أن الإنسان جهات شتى: جهة يكون فيها مقرباً من الله آنس بشهود جماله ﷻ، وجهة يكون بها في روضات الجنات، وجهة يكون بها في أسفل سافلين مع مردة الجنة والشياطين، ونظرت بعين بصيرتك فيما انطوى في هذا الجسم الصغير من الأسرار والحكم، ثم جاهدت نفسك أن تتكشف لك أسرار النفس[1] وكيف تعلقها بالبدن، أمتصلة هي أم منفصلة؟ وهل هي جوهر أم لا؟ وأين مكانها منه إن كانت متصلة؟ وظهرت لك من غرائب أسرارها أنها ليست جوهراً ولا عرضًا، ولا محل لها في الجسم، وأنها تعلقت به تعلق تدبير، فإنك إذا رأيت أنها تقبل صور الكائنات كلها معقولها وغير معقولها، ماديها ومجردها، وتحفظ ذلك ولا ينمحى بقبول غيره، ظهر لك أنها ليست جوهرًا وليست عرضًا لأن العرض لا يقوم به غيره، ثم تدبرت أفعالها الخاصة بها حكمت على نفسك بالعجز عن إدارك حقيقتها...، عند ذلك تحققت بعجزك عن إدراك ربك ﷻ، لأنك عجزت عن علم حقيقة مخلوق من مخلوقاته، فكيف تحيط علماً بالخالق، تنزه وتعالى عن أن تدركه الأبصار أو

---

(١)النفس الملكية

تحوم حوالي عزته وعظمته الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية](1)، وبهذا يكــون الإنسان هو العالَم الذى انطوت فيه العوالم، وقد عبر الإمام على ﷺ عــن هــذا المعنى بقوله(2):

دواؤكَ فيــكَ ومــا تشعــــرُ ... وداؤكَ منــكَ ومــا تُبصــــرُ

وتحسبُ أنّــكَ جــرم صــغيرٌ ... وفيــك انطــوى العــالم الأكبــر

وأنــت الكتــاب المبــين الــذي ... بأحرفــه يظهـــــر المُضــمَر

فكل الحقائق الكونية الظاهرة لها مثال من الحقائق الإنسانية الباطنــة يقــول الإمام ﷺ:[الإنسان هو العالم الأكبر، فظاهر القلب عرش الرحمن، وباطن القلب بيته المعمور، فإذا عمره سبحانه بشهود معانى صفاته فيه، كــان ســدرة المثــل الأعلى وزجاجة المثل (بفتح الثاء) العلى، وكان الهيكل صورة الرحمن، ويكــون الكون كله صورة هذا الإنسان الكامل، محل استجلاء معانى الصفات، فظهر بــه الجمال والجلال، ظهور الحقيقة لا المثال، وتشهد ذلك أرواح الحافين بــالعرش، ونفوس المهيمين فى العرش، حتى يعم كل تلك الأرجاء نور الشــمس، فيكــون نوراً على نور.. فى الغيبة والحضور.. من هذا القلب المعمور تعــرج أســرار البطون إلى السقف المرفوع (رأس الهيكل الكامل)، وتتشعشع تلك الأنوار علــى الرق المنشور (ظاهرالهيكل)، متفجرة ينابيعها من البحــر المســجور (ســويداء القلب)، فتُسخر العوالم علواً أو سفلاً للسدرة المغشاة بغيوب التجلــى، وتســارع أرواح عالين وأشباح أهل اليمين لخدمة هذا المظهر، من حيث الظهور فيــه لأن الله مواليه. وهذا سر {إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة}(3)](4)، يقول الإمام ﷺ(5):

عرش استواءِ حبيبى بــاطنُ القلــبِ ... والصدرُ كرسيهُ فى حالــةِ القــربِ

(1)الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص٤٥

(2)د.محمد عبد المنعم خفاجى (ديوان الإمام على) ط مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة، بدون تاريخ، ص٧١

(3)سورة البقرة آية ٣٠

(4) الإمام أبو العزائم (من المضنون) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٥٢، ٥٣

(5) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ، قصيدة ١٤٤٧

رسمى نعم سدرةٌ تُغشى بنـــورِ ســـنا شمسِ التجلى إذا ما فُزتُ بالحـــب
والروحُ نفخةُ قدسِ الحقِ شمسُ هدًى قد تجذبُ الهيكلَ الأدنى إلى الـــربِ
في باطنِ القلبِ زيتٌ قد يضيئ بـــلا نارٍ تلامســـهُ مـــن عـــالمِ الغيـــب
أفنى عن العرشِ والكرسى مرتشفاً من خمرِ قدسٍ مدارٍ حالةَ الشرب

وفى قصيدة رائعة يبين الإمام أن الإنسان عالم صغير انطوت فيـــه جميـــع الحقائق الكونية، ففيه مثالٌ للبيت المعمور والشمس والعرش واللـــوح المحفـــوظ والكرسى، ... وغيرها من الحقائق، فيقول رضي الله عنه[(١)]:

هَيْكَلِـــي عَـــالَمٌ كَبِيـــرٌ وَنَفْسِـــي صُورَةُ ٱلْحَقِّ فِي صَـــفَائِي وَأُنْسِـــي
وَفُؤَادِي مَا بَـــيْنَ عُنْصُـــرِ جِسْـــمِي وَمَعَـــانِي سِـــرِّي كَمِيـــزَابِ قُدْسِـــي
بَـــرْزَخٌ حَـــاجِزٌ يُلَطِّـــفُ حَـــالِي وَبِسِـــرِّي دُرِّيُّ كَشْـــفِي وَشَمْسِـــي
وَأَرَى ٱلْقَلْبَ عَـــرْشَ سِـــرِّ ٱلتَّجَلِّـــي وَٱلسُّوَيْدَا قَدْ طُهِّـــرَتْ مِـــنْ رِجْـــسِ
هَيْكَلِـــي مَظْهَـــرٌ صَـــغِيرٌ وَلَـــٰكِنْ فِيـــهِ سِـــرٌّ لاَ يُشْـــهَدَنْ لِلـــرَّأْسِ
فِيهِ كُلُّ ٱلْوُجُـــودِ يُطْـــوَىٰ وَتُجْلَـــىٰ لِي ٱلْمَجَالِي فِيـــهِ بِـــلاَ قَيْـــدِ حِسِّـــي
ضَاقَ كُلُّ ٱلْوُجُـــودِ عُلْـــوًا وَسُـــفْلاً وَوَسِـــعْتُ ٱلْعَلِـــيَّ وُسْـــعَةَ أُنْسِـــي
عَـــالَمُ ٱلْقَلْـــبِ كُـــلُّ عَـــالَمِ عَـــالِينْ عَالَمُ ٱلـــرُّوحِ فِـــي حَظَـــائِرِ قُـــدْسِ
كُلُّ مَـــا فِـــيَّ مِـــنْ مَعَـــانٍ وَحِكَـــمٍ غَيْبُ غَيْبٍ عَنْ كُلِّ مَلَـــكٍ وَحَـــدْسِ
كُلُّ مَا فِي ٱلْوُجُـــودِ سُـــخِّرَ فَضْـــلاً لِمَعَـــانٍ ظَهَـــرَتْ بِصُـــورَةِ نَفْسِـــي
قَلْبِـــيَ ٱلْبَيْـــتُ عَـــامِرٌ بِٱلْمَجَـــالِي ظَاهِرُ ٱلْعَرْشِ وَهْوَ لَـــوْحٌ وَكُرْسِـــي
لَـــوْحُ مَحْفُوظِـــهِ وَكُرْسِـــي جَـــلاَلٍ بَلْ وَعَرْشُ ٱلرَّحَمُوتِ فِي فَهْمِ دَرْسِي
هَيْكَلِـــي عَـــالَمٌ وَعِلْـــمٌ وَنُـــورٌ وَشِـــفَاءٌ مِـــنْ غَيْـــرِ كَـــدٍّ وَبَـــأْسِ
صَـــوَّرَتْهُ يَـــدُ ٱلْعَلِـــيِّ تَعَـــالَىٰ صُورَةً جُمِّلَـــتْ بِحُسْـــنٍ وَمَـــيْسِ[(٢)]

٤- الإنسان الكامل كون صغير والكون كله إنسان كبيـــر: [معلـــوم أن حكمـــة الحكيم القادر اقتضت أن يكون الإنسان عالماً وسطاً بين عوالم الملك والملكوت،

---

(١) المرجع السابق قصيدة رقم ٣٤٠

(٢) ميس: اختيال وتبختر

فأبرزته القدرة كأنه صورة لجميع العوالم مع صغر حجمه، فالإنسان كون صغير، والكون كله إنسان كبير، فأودع الله ﷻ فيه كل معاني الأنواع، فالإنسان جماد من حيث أنه من طينة ويميل إلى السكون والراحة، ونبات من حيث أنه يتغذى وينمو، وحيوان من حيث أنه يحس ويتحرك، وملك من حيث أنه يشهد الغيب بدلائل المشهود ولا يعصى الله ما أمره ويفعل ما أمره الله سبحانه به إذا صفا وتكمل، وإبليس إذا نزغ إلى هواه ورأيه وحظه ونسى يوم الحساب، وخليفة عن ربه إذا تجمل بأخلاق الربوبية.

الإنسان هو الكل في الكل، فسبحان القادر الحكيم يبلغ بكمالاته النفسانية إلى أن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وينحط باتباع حظه وهواه إلى أن يكون في هاوية السخط والمقت ولظى الجحيم وبينهما دركات أو درجات قال الله تعالى في التنبيه بقدر الإنسان: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}[١]. وقال ﷻ في بيان منزلة الإنسان العلية وما انحط إليه من البلية: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[٢] وقال الله تعالى: في بيان أن الإنسان قد يكون شيطاناً: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً}[٣]، فالإنسان هو الهيكل الصغير الضعيف كما قال الله تعالى: {خُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}[٤] وقال الله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٥] جامع لكل الحقائق الكائنات، يبلغ من المقامات في القرب من الله تعالى ما به يطيعه الله ويجيبه، وينحط

(١) سورة الحجر آية ٢٩
(٢) سورة التين آية ٥
(٣) سورة الأنعام آية ١١٢
(٤) سورة النساء آية ٢٨
(٥) سورة غافر آية ٥٧

بالمعصية والمخالفة إلى أسفل الدرجات حتى يتمنى أن يكون تراباً][1]. يقول الإمام ﷺ [2]:

جَمَعَ ٱلْكُلَّ فِيكَ وَهْوَ ٱلظَّاهِرْ ... فِيكَ غَيْبٌ مِنْ فَوْقِ قَدْرِ ٱلْبَصَائِرْ
فِيكَ كُلُّ ٱلْوُجُودِ عُلْوًا وَسُفْلاً ... سَخَّرَ ٱللَّهُ كُلَّ تِلْكَ ٱلْمَظَاهِرْ
وَيْ عَجِيبٌ وَأَنْتَ جُرْمٌ صَغِيرٌ ... جَمَعَ ٱللَّهُ فِيكَ سِرًّا ظَاهِرْ
فِيكَ مَعْنَى ٱلصِّفَاتِ فِيكَ ٱلْمَعَانِي ... فِيكَ ظِلُّ ٱلأَسْمَاءِ وَٱللَّهُ قَادِرْ
وَيْ عَجِيبٌ وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ هَـٰذَا ... فِي ٱشْتِغَالٍ بِمَا تَرَىٰ مِنْ ظَوَاهِرْ
آهِ لَوْ فُكَّ رَمْزُ كَنْزِكَ تُجْلَىٰ ... فِيكَ شَمْسٌ تُخْفِي جَمِيعَ ٱلسَّوَاتِرْ
كُلُّ شَيْءٍ لأَجْلِ مَا فِيكَ فَٱنْظُرْ ... تَشْهَدَنْ صُورَةَ ٱلْعَلِيِّ ٱلْغَافِرْ
أَنْتَ رَمْزٌ لِكَنْزِ مَجْلاَهُ يُجْلِي ... لِلْمُرَادِ ٱلْمَحْبُوبِ نُورَ ٱلْمَظَاهِرْ
سِدْرَةُ ٱلإِجْتِلاَ وَصُورُ ٱلْمَعَانِي ... قَدْ غَشَتْهَا ٱلأَنْوَارُ بَعْدَ ٱلسَّتَائِرْ
صُورَةُ ٱلْحَقِّ صَاغَهَا ٱللَّهُ بَدْءًا ... مَظْهَرًا لِلْجَمِيلِ وَٱلْقَلْبُ حَاضِرْ
كَيْفَ تَرْضَى ٱلْخُلُودَ لِلأَرْضِ جَهْلاً ... إِنَّ هَـٰذَا فِعْلُ ٱلْغَوِيِّ ٱلْكَافِرْ
فِرَّ لِلَّهِ مِنْ وُجُودِكَ وَٱرْحَلْ ... كَيْ تَرَى ٱلْخَيْرَ بِٱلتَّفَضُّلِ وَافِرْ
سِرْ تَرَ ٱلْوَجْهَ مُشْرِقًا قَدْ تَجَلَّىٰ ... بِٱلْعَطَايَا تُرَىٰ لِتِلْكَ ٱلنَّوَاظِرْ
وَٱسْمَعِ ٱللَّحْنَ لَحْنَ تَسْبِيحِ كَوْنٍ ... وَٱشْهَدِ ٱلآيَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْبَشَائِرْ
وَٱشْهَدِ ٱلْكَوْنَ لَوْحَ مَحْفُوظِ آيٍ ... قَدْ تَرَاءَىٰ لِكُلِّ فَرْدٍ سَائِرْ
آيِ مَوْلًى مُعْطٍ قَرِيبٍ مُجِيبٍ ... وَٱسْأَلْنهُ خَيْرًا بِحَلٍّ مُسَافِرْ

ويقول ﷺ:[إن الله ﷻ قد جمع في الإنسان قوى بسائط العالم ومركباته، وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته، فالإنسان من حيث أنه بوساطة العالم حصل، ومن أركانه وقواه أوجد: هو العالم. ومن حيث أنه صغر شكله وجميع ما فيه: كالمختصر من الكتاب، وهو الذي قلل لفظه واستوفى معناه، والإنسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم. ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم ولبابه

---

(١)الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ٤٦، ٤٧

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ، قصيدة ٤٤٣٦، ج٥، ص٢٨٩

وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض، والدهن من السمسم، فما من شــيء إلا والإنسان يشبهه من وجه، فإنه كالأركان(١) من حيث ما فيــه مــن الحــرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وكالمعادن من حيث هو جسم. وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيــل ويتلــذذ ويتــألم وكالسبع من حيث ما يحرض ويغضب. وكالشيطان من حيث ما يغوى ويضــل. وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويطيعه. وكاللوح المحفوظ مــن حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار. فقــد ذكــر بعض الحكماء في بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة وفى نفسه قريباً مــن ذلــك. وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس كمــا أن القلــم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ. ولكون الإنسان من قوى مختلفة قال تعالى: {إِنَّــا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ}(٢) أي مختلطة من قوى أشياء مختلفــة. ولكــون العالم والإنسان متشابهين، إذا اعتبرا، قيل: الإنسان عالم صغير، والعالم إنســان كبير. ولذلك قال الله تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}(٣) فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم. ولما كان كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعها معنى ليس بموجود فيها على انفرادها، كالمركبات من الأدوية والأطعمة، كــذلك في نفس الإنسان حصل معنى ليس فيه شيء من موجودات العالم وذلك المعنــى هو ما يختص من خصائصه التي بها تميز عن غيره من هيئات لــه كانتصــاب القامة وعرض الظفر، وانفعالات لــه كالضــحك والحيــاء، وأفعــال كتصــور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الأخلاق](٤)، يقول الإمام شارحاً بعض هذا المقام بلسان الإنسان(٥):

---

(١)الأركان الأربعة هى: النار، والهواء، والماء، والأرض.

(٢) سورة الإنسان آية ٢.

(٣)سورة لقمان آية ٢٨

(٤)الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص٤١، ٤٢

(٥)الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، ج٩، قصيدة٨٧١٩، ص١٥٩

ظَهَـرْتُ وَفِـيَّ ٱنْطَـوَى ٱلْعَـالَمُ   خَفِيـتُ وَقَـدْ لاَحَ لِـي ٱلْعَـالِمُ
ظُهُـورِي لأَنِّـي لَـهُ صُـورَةٌ   أَنَـا ظِلُّـهُ فَـاتِحٌ خَـاتَمُ
خَفِيـتُ لِيَظْهَـرَ لِـي فِـي ٱلْبَقَـا   خَفَـائِي شُـهُودِي لَـهُ دَائِـمُ
وَلِـي فِـي مَقَـامِ ٱلْفَنَـا نَشْـوَةٌ   بِهَـا لاَحَ لِـي مُـنْعِمٌ رَاحِـمُ
فَكُنْـتُ وَلاَ كَـوْنَ لِـي جَامِعًـا   وَفِـي ٱلْكَـوْنِ فَرْقِـي أَنَـا آدَمُ
وَلِـي غَيْبَـةٌ فِـي حُضُـورِي بِـهِ   وَحَـالُ حُضُـورِي فَـلاَ لاَئِـمُ
يُسَـتِّرُ ظِـلَّ ٱلْكِيَـانِ إِذَا   أَلاَحَ ٱلضِّـيَاءَ فَـلاَ ظَـالِمُ
تُفَـكُّ كُنُـوزِي ٱلَّتِـي سُـتِّرَتْ   بِظِـلِّ وُجُـودِي أَنَـا آثِـمُ
وَقَـدْ كُنْـتُ عِقْـدًا بِصَـوْغِ يَدَيْـهِ   وَلِـي سُـخِّرَ ٱلْفُلْـكُ وَٱلْعَـالَمُ

ويتفق الشيخ العز بن عبد السلام(١) مع الإمام أبى العزائم فى أن الإنسان ما هو إلا نسخة من هذا الكون، فيقول(٢): إعلم أن الكون نسخة منك، وتزيد على ما فى الكون بما خصك به من معارفه وحكمه وأسراره وأنواره وتجلياته ومنازلاته، وقد شرحت ذلك فى هذه الأبيات فافهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف   فشخصك لوحٌ به أسطرُ
وتمثالُ ذلك أنموذج   لكلِ الوجودِ لمن يُبصرُ
حروفُ معانيكَ لا تنقرى   لذى الجهلِ كلا ولا تظهر
لئن كان جزؤكَ جزءٌ صغيرٌ   ففيكَ انطوى العالمُ الأكبر
فلا ذرةٌ منكَ إلا غدت   بها يوزنُ الكونُ بل أكثر
ولا قطرةٌ منكَ إلا وفى   ينابيعِ أسرارها أبحر
وكل الوجودِ إذا قسته   إليكَ فذاكَ هو الأصغر
وما فيه من عرضٍ حاضرٍ   يزولُ وأنتَ به جوهر
فأنت الوجودُ وكل الوجودِ   وما فيكَ موجودُ لا يحصر

---

(١) هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقى، لقب بسلطان العلماء، وتوفى فى مصر سنة ٦٦٠هـ

(٢)العز بن عبد السلام (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) ط المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٦٣

وقد عبر الشيخ "محى الدين بن عربى" عن هذه الحقيقة فقال:[إعلم وفقك الله لطاعته أن الله سبحانه قد شاء أن يبرز العالم فى الشفعية لينفرد سبحانه بالوترية، فيصح اسم الواحد الفرد، ويتميز السيد من العبد، ولما وقفت –أوقفكم الله على حقائق نفوسكم، وأطلعكم على ما أورده فيكم من لطيف حكمته، وغريب صنعته– على قوله تعالى:{وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون}(١).

فأخذت فى الفكر والإعتبار فى هذه الآية فرأيت أن الإنسان من جملة الثمرات، ينموا كنموها، يتغذى بغذائها، ثم ينتهى كنهايتها، فتؤخذ منه الفوائد كما تؤخذ منها، ثم يأخذ فى النقص كالنقص منها ثم يهرم كهرمها، ثم يموت كموتها، ثم رأيناه يولد كتوليدها فيؤخذ بذرٌ منها فيزرع، فتحدث فيه الشباب كذلك حتى يصير مثل حالها، فقد يؤخذ منه كما أخذ منها، وقد يترك فينقطع النسل من تلك الشجرة المعينة، وكذلك الإنسان فى التوالد، فقلنا هذه شجرة فأين أختها التى تصح بها شفعيتها، وإطلاق هذه الآية عليها فكراً واعتباراً، فتتبعنا وجود الإنسان وتفضيله على سائر الحيوان، وتَقَصَّينا أسراره وحكمته، ولطائفه فرأيناها بأعيانها فى العالم المحيط الأكبر قدماً بقدم، فلم نزل نقابله حرفاً حرفاً، ومعنىً معنى، حتى وجدناه كأنه هو، فعلمنا أن الثمرة الواحدة هى العالم الأكبر المحيط، والثمرة الأخرى الإنسان الذى هو العالم الأصغر فطلبنا على ذلك تنبيهاً من الكتاب العزيز فوقفنا على آيات نيرات منها: {وفى أنفسكم أفلا تبصرون}(٢)، {سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم}(٣)، {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً }(٤)، {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً}(٥).

---

(١)سورة الرعد آية ٣

(٢)سورة الذاريات آية ٢١

(٣) سورة فصلت آية ٥٣

(٤) سورة ص آية ٢٧

(٥)سورة المؤمنون آية ١١٥

فانظر نور الله بصيرتك إلى ما تفرق فى العالم الأكبر تجده فى هذا العالم الإنسانى من ملك وملكوت حتى إذا ظهر فى العالم مَثَلُ النماء وجدته فى الإنسان كالشعر والأظفار وشبه ذلك، وكما أن فى العالم ماءً مالحاً وعذباً وذعاقاً(١)، فذلك موجودٌ كله فى الإنسان فالمالح فى عينه، والذعاق فى منخريه وأذنيه، والعذب فى فمه.

وكما أن فى العالم تراباً وماءً وهواءً وناراً، ففى الإنسان ذلك بعينه ومنها خلق جسمه، وكما أن فى العالم أرياحاً أربعاً: شمالاً، وجنوباً، وصباً، ودبور، ففى الإنسان أربع قوى: جاذبة، وماسكة، وهاضمة، ودافعة، وكما أن فى العالم أسباعاً وشياطين وبهائم، ففى الإنسان الإفتراس وطلب القهر والغلبة، والغضب، والحقد والحسد، والفجور، والأكل والشرب والنكاح والتمتع كما قال عز وجل: {يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم}(٢).

وكما أن فى العالم ملائكة بررة سفرة، ففى الإنسان طهارة، وطاعة واستقامة، وكما أن فى العالم ما يظهر للأبصار ومن يخفى، فللإنسان ظاهرٌ وباطن، عالم الحس وعالم القلب، فظاهره ملك وباطنه ملكوت، وكما أن فى العالم علواً وسفلا، ففى الإنسان علواً وسفلا، وامش بهذا الإعتبار على العالم تجده نسخة إلهية ما اختل حرف ولا نقص معنى](٣).

وكل المعانى السابقة تؤكد أن الله ﷻ جعل الكون حول الإنسان مجرد مثال لتقريب حقيقة، فالكون هو الصورة وأنت الحقيقة، "أَنْتَ بَاطِنُ ٱلْكَونِ، وَٱلْكَوْنُ ظَاهِرُكَ"(٤)، كل هذه الحقائق موجودة فى الإنسان، لكنه لا يعرفها ولا يلتفت إليها، فجعل الله سبحانه كل ما حوله رموز تشير إلى ما فيه من الكنوز، يقول

---

(١)الذعاق: شديد المرارة

(٢) سورة سيدنا محمد آية ١٢

(٣)الشيخ محى الدين بن عربى (كتاب التدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة الإنسانية)ص٢٩٥،وما بعدها

(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٨

الإمام أبو العزائم:[ٱلْكَوْنُ رَمْزٌ لِكَنْزٍ، إِنْ فُكَّ لَكَ وَجَدْتَهُ أَنْتَ][1]، فإذا تعرف الإنسان على من يفك له رمزه، ويكشف له عن كنزه، فإن ذلك بداية تعرُفه على نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه.

ويقول فى الفتوحات([2]): إن العوالم أربعة: العالم الأعلى؛ وهو عالم البقاء. ثم عالم الإستحالة؛ وهو عالم الفناء. ثم عالم التعمير؛ وهو عالم البقاء والفناء. ثم عالم النسب. وهذه العوالم فى موطنين: فى العالم الأكبر؛ وهو ما خرج عن الإنسان، وفى العالم الأصغر؛ وهو الإنسان.

فأما العالم الأعلى: فالحقيقة المحمدية؛ وفلكها الحياة نظيرها، من الإنسان، اللطيفة والروح القدسى

ومنهم العرش المحيط، ونظيره من الإنسان الجسم.

ومن ذلك الكرسى، ونظيره من الإنسان؛ النفس.

ومن ذلك البيت المعمور، ونظيره من الإنسان؛ القلب.

ومن ذلك الملائكة، ونظيرها من الإنسان؛ الأرواح التى فيه والقوى.

ومن ذلك زحل وفلكه، نظيره من الإنسان؛ القوة العلمية والنفس.

ومن ذلك المشترى وفلكة، نظيرهما؛ القوة الذاكرة ومؤخرة الدماغ.

ومن ذلك المريخ وفلكه، نظيرهما؛ القوة العاقلة واليافوخ.

ومن ذلك الشمس وفلكها، نظيرهما؛ القوة المفكرة ووسط الدماغ.

ثم الزهرة وفلكها، نظيرهما؛ القوة الوهمية والروح الحيوانى.

ثم عطارد وفلكه، نظيرهما؛ القوة الخيالية ومقدم الدماغ.

ثم القمر وفلكه، نظيرهما؛ القوة الحسية والجوارح التى تُحس.

فهذه طبقات العالم الأعلى ونظائرها من الإنسان.

وأما عالم الإستحالة: فمن ذلك كرة الأثير، وروحها الحرارة واليبوسة – وهى كرة النار– ونظيرها الصفراء؛ وروحها القوة الهاضمة. ومن ذلك الهواء،

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩

(٢) الشيخ محى الدين بن عربى (الفتوحات المكية) ج١، ص٣٩٦، ٣٩٧

وروحه الحرارة والرطوبة؛ نظيره الدم، وروحه القوة الجاذبة. ومن ذلك الماء، وروحه البرودة والرطوبة، نظيره البلغم، وروحه القوة الدافعة. ومن ذلك التراب، وروحه البرودة واليبوسة؛ نظيره السوداء، وروحها القوة الماسكة.

وأما الأرض فسبع طباق: أرض سوداء، وأرضٌ غبراء، وأرضٌ حمراء، وأرضٌ صفراء، وأرضٌ بيضاء، وأرضٌ زرقاء، وأرضٌ خضراء، نظير هذه السبعة من الإنسان، فى جسمه: الجلد، والشحم، واللحم، والعروق، والعصب، والعضلات، والعظام.

وأما عالم التعمير: فمنهم الروحانيون؛ نظيرهم القوى التى فى الإنسان. ومنهم عالم الحيوان؛ نظيره ما يحسُ من الإنسان. ومنهم عالم النبات؛ نظيره ما ينمو من الإنسان. ومن ذلك عالم الجماد؛ نظيره مالا يحس من الإنسان.

وأما عالم النسب: فمنهم العرَض؛ نظيره الأسود والأبيض والألوان والأكوان. ثم الكيف؛ نظيره الأحوال، مثل الصحيح والسقيم. ثم الكم؛ نظيره: الساق أطول من الذراع. ثم الأين؛ نظيره: العنق مكانٌ للرأس، والساق مكان للفخذ. ثم الزمان؛ نظيره: لغتى ولحنى. ثم أن يفعل؛ نظيره: أكلت. ثم أن ينفعل؛ نظيره شبعت. ومنهم اختلاف الصور فى الأمهات؛ كالفيل والحمار والأسد والصرصر؛ نظير هذا: القوة الإنسانية التى تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود: هذا فطنٌ فهو فيل، هذا بليدٌ فهو حمار، هذا شجاعٌ فهو أسد، هذا جبان فهو صرصر. {والله يقول الحق وهو يهدى السبيل}.

٥- الإنسان الكامل مثنوى التركيب: يبين الإمام هذه الحقيقة فيقول:[ٱلإِنْسَانُ مَثْنَوِيُ ٱلتَّرْكِيبِ، فَهُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ جَسَدٍ جُسْمَانِيٍّ وَنَفْسٍ رَوحَانِيَّةٍ، وَعَقْلٍ بَيْنَهُمَا رَقِيبٌ، وَهُمَا جَوْهَرَانِ مُتَضَادَانِ فِي ٱلصِّفَاتِ، مُتَبَاينَانِ فِي ٱلْغَايَاتِ، مُشْتَرِكَانِ فِي ٱلأَفْعَالِ ٱلْعَارِضَةِ، وَفِي ٱلصِّفَاتِ بِلاَ مُفَاوَضَةٍ](١).

(١)نفس المرجع السابق، ص٢٦١

وكثيراً ما تحدث الإمام عن المثنوية بشقيها: (مثنوية الوجود، ومثنوية الخلق) فمثنوية الوجود تتمثل فى وجود خالق وخلق، ويظهر ذلك فى كثير من آيات القرآن كقوله تعالى: {الله خالق كل شيئ}[1]، أما مثنوية الخلق، فتظهر فى أن الخالق سبحانه خلق من كل شيئ فى هذا الوجود زوجين، قال تعالى: {ومن كل شيئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون}[2]، فخلق ذكراً وأنثى، مادة وطاقة، مبانى ومعانى،...إلخ، والإنسان بوصفه سيد المخلوقات كان من الطبيعى أن يكون له نصيب من هذه المثنوية، فيكون جامعاً للأضداد، بل هو مجمع الأضداد، فالجسم من عالم الملك، والروح من عالم الملكوت، وهما ضدان لا يجتمعان، يقول الإمام ﷺ فى وصف هيكل الإنسان[3]:

مجمعُ الأضدادِ رسمى فى الشهود — فيهِ إطلاقٌ بهِ ظلُّ الحدود
مظهرٌ ينبى بغيبٍ غامضٍ — لاح فيه فى مزاولة الجهود
بل ظهورٌ للمعانى أشرقت — حالةَ الإطلاقِ من ربٍ ودود
وهو فى الإطلاقِ رمزُ حقائقٍ — برزخٌ بينَ الفنا بينَ الوجود
ظلُ أسماءٍ تعالت قُدِّسَت — ظللتهُ بعدَ تحقيقِ العُهود
من {ألستُ} فصلهُ فى طورهِ — بعدها لاحت فصحَ له السجود
كنت قبل الرسم نوراً سابحاً — فى صفاءٍ لا وصال ولا صدود

ويقول ﷺ[4]:

لوحُ آياتِ التجلى هيكلى — جامعُ الضدينِ ختمى أولى
مجمعُ البحرين برزخهُ الذى — يحفظُ البرَّينِ فيهِ ينجلى
مظهرُ العالين رسمُ ملائكٍ — لوحُ محفوظٍ لأول مُنزَلِ
بل وأم كتابِ أسرارِ البَها — ظاهرُ التفصيلِ بعدَ المُجمَل

---

(١) سورة الزمر آية ٦٢

(٢)سورة الذاريات آية ٤٩

(٣) الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٢٥٥١

(٤)المرجع السابق، قصيدة رقم ٥٥٦٩

ســـدرةٌ بـــدءاً وختمـــاً مظهـــرٌ   كنـــزُ أوصـــافٍ لآى المُنـــزلِ

فالصورة الإنسانية هى مجمع الأضداد، لأنها تجمع بين حضـيض العناصـر وسفلها، وعليين المواهب الإلهية وأنوارها، فهى الثلج والنار قد جُمعا برحمتـه، فالإنسان فى حالة البعد عن ربه، ترابٌ وطينٌ وشهواتٌ وغرائز، وفـى حالـة القرب من ربه، نورٌ على نور، يرى ببصر ربه ويسمع بسمعه، فالروح مجانسة للملكوت والملأ الأعلى فى صفائها ونورانيتها، والجسم الذى يشير إليـه الإمـام بالهيكل، أو الناسوت أو الرسم، مفارقٌ للملكوت والملأ الأعلى بكثافته وظلامتـه وغلظته، فالإنسان هو مجمع البحرين، يلتقيان ولا يمتزجان، بينهمـا بـرزخ لا يبغيان، بحر المادة وبحر الروح، يقول الإمام ﷺ [1]:

للروحِ مشـهَدُها التشـبيهُ فـى الوصـلِ   والجسمُ مشهدُهُ التنزيهُ فـى الفصـلِ
بحـرانِ بينهمـا نـورٌ يضـيئُ لمـن   قـد خصـهُ اللهُ بالإقبـالِ والطـولِ
والبـرزخُ الفـردُ يهـدى اللهُ بالحسـنى   بهِ فتىً سـالكاً فـى السـيرِ والحِـلِ
حتى ترى الروحُ معنى الوصف والأسما   فى صورةٍ هيكلٍ من طينـةِ السـفلِ
تـرى جمـالَ جميـلٍ لاحَ قـد يهـدى   إلى مقامِ التدانى فـى انمِحـا المِثـلِ
تشـبيهُ روحـى تقريـبٌ بـهِ ترقـى   من ظلمةِ السفلِ من مينى ومن ظلـى
حتـى تـرى الغيـبَ تشـبيهاً بعالمـهِ   يُلـيحُ أسـمائهُ للـروحِ لا العقـلِ
والجسـمُ مشـهدهُ التنزيـهُ قربتـهُ   تفويضهُ الأمـرَ تسـليماً بـلا ميـلِ
جمالـهُ فـى اتبـاعِ الشـرعِ بهجتـهُ   سيرٌ علـى مشـهدِ التنزيـهِ بالفعـلِ
مآلـه جنـةُ المـأوى يُـنَعَمُ فـى   سوابغِ الخيـرِ بالإحسـانِ لا السـؤلِ
الجسم مرآة روحى قـد تـرى المعنـى   والنور للـروحِ فيـهِ ظـاهرٌ مجـلِ

ويوضح الإمام أبو العزائم أن مثنوية الخلق فى الإنسان لها دور كبيـر فـى رقى هذا الإنسان إلى مراقى الكمال، ثم يبين أن إنفراد الإنسان بهذه المثنوية يعد من أسباب سجود الأملاك لذلك الإنسان، بعد أن أشرقت شـمس البـديع علـى

(١) نفس المرجع السابق، قصيدة رقم ٣٠٤

عناصر طينته فبدلت ظلمة أرضه وسماواته بنور يضيئ أمامه، سر قوله تعالى: {يومَ تبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات}(١)، يقول ﵁:

قد صـارَ هيكلـى المقيـدُ مظهـراً   للـروحِ بـل أفقـاً وحـانَ مـدام
يـا هـيكلاً للـروحِ أنـتَ براقُهـا   ترقى بها كى مـا أنـالَ مرامـى
روحى تُـنعمُ فيـكَ بـالنورِ الـذى   سـجدت لـهُ الأمـلاكُ بـالإحرام
قد كنـتَ طينـاً بـالقيودِ فأشـرقت   شمسُ البديعِ فصرتَ بيـتَ حـرام
وأرى سـماواتى وأرضـى بُـدلت   فشـهدتُها نـوراً يضـيئُ أمـامى

٦- **الإنسان الكامل متفرد بقوى متعددة:** يبين الإمام أن الله حبى كـل إنسـان بتسع قوى لا تفارقه وهى(٢):

أ- **القوة الغاذية:** رئيسها فى الفم وخدمها متفرقة فى سائر الأعضاء مثل المعدة والكبد والطحال والمثانة التى تخدم الكلية، والكلية التى تخدم الكبد، والكبد الـذى يخدم القلب وكذلك الرئتان تخدمان القلب.

ب- **القوة الحاسة:** رئيسها القلب وخدمها الحـواس الخمـس المشـهورة عنـد الجميع.

ج- **القوة المتخيلة:** محلها القلب، ليس لها خدم وهى حاكمة على المحسوسـات تفرد بعضها عن بعض، وتركب بعضها إلى بعض.

د- **القوة الناطقة:** الرئيسة على الكل لا يرأسها شيء، تدرك المعقـولات وهـى روح مجردة ليست بجسم.

هـ- **قوة الميل:** القوة التى تشتاق إلى الشيء أو تكرهه. وبهـا تكـون الإرادة، فإن الإرادة ميل إلى ما أدركته أو عنه. وهذه القوة لها خدم فإنها تتلقـى نتـائج أفعاله الخاصة إما بالحس أو بالتخيل أو بالقوة الناطقة وتحكم فيه بأنه ينبغـى أن

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٨

(٢) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٤٦١، ٤٦٢

يؤخذ ويترك، والميل قد يكون إلى علم أو عمل أو ترك، والعمل إما بالبدن جميعه وإما بعضو منه، ويكون بقوى منبثة من القوى الرئيسة.

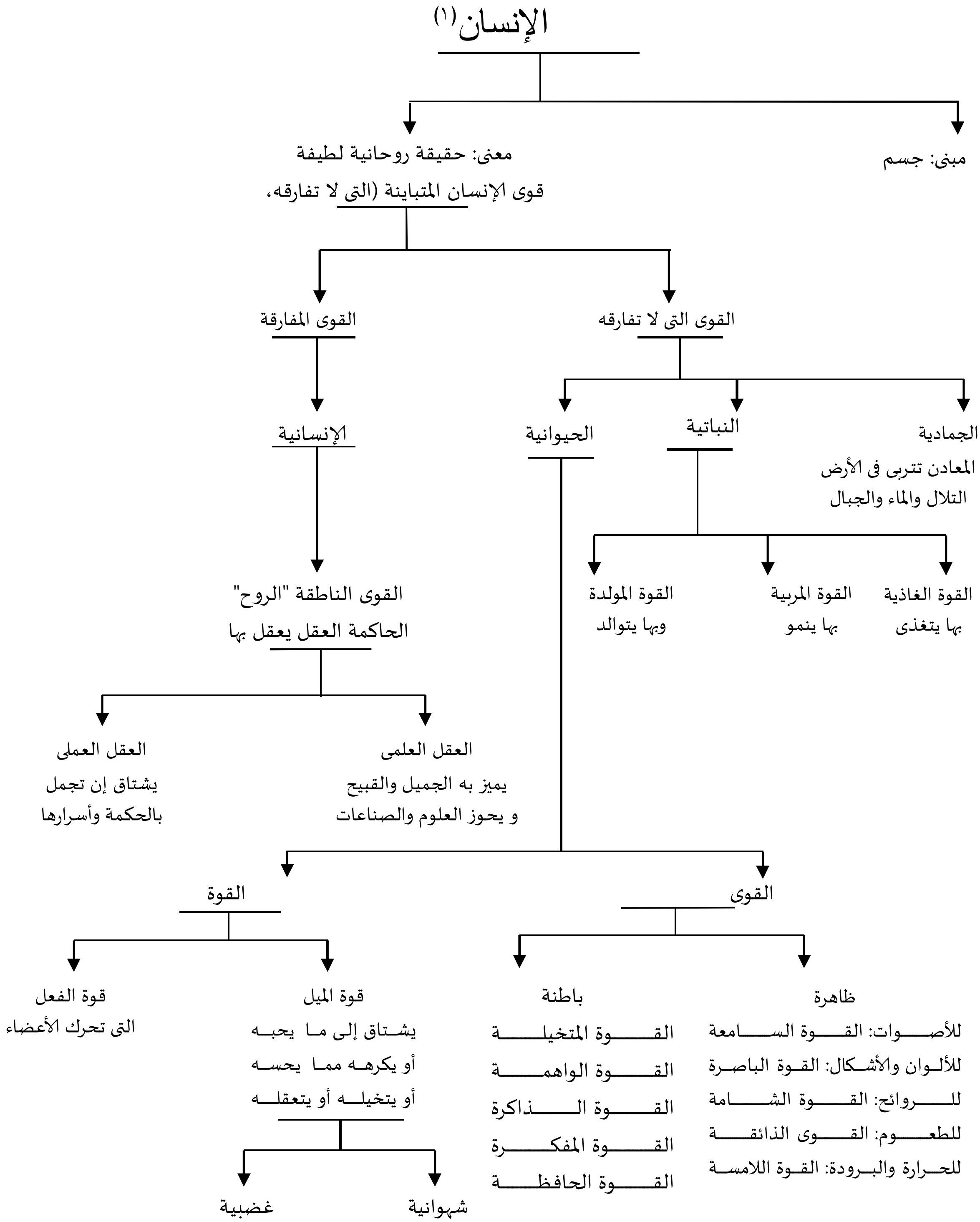
و- **القوة الواهمة:** مدير المعقولات.

ز- **القوة المفكرة:** تميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز العلوم والصناعات ويعرض على القوى الناطقة لتنفذ ما به حفظ المملكة الإنسانية من المضرات وما يجلب لها به الخيرات وهى بين الوهم والعقل.

ح- **القوة الذاكرة:** تستعرض ما فى الحافظة على جانب العقل أو الخيال والوهم.

ط- **القوة الحافظة:** خزانة للمدركات الحسية والوهمية والخيالية.

* وأرى أن الإنسان بقواه التسعة سالفة الذكر قد جمع بين عالميّ الملك والملكوت، فمثلاً القوة الغاذية ممثلة فى الفم والمعدة والكبد والطحال والمثانة والكلية والكبد والقلب والرئتان، والقوى الحاسة ممثلة فى السمع والبصر والشم واللمس والكلام هى من العالم المُلكى المادى المحسوس؛ وأما باقى القوى الإنسانية فهى من العالم الملكوتى المعنوى غير المحسوس.



رسم توضيحى لحقيقة الإنسان، (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص١١٥ (١)

٧- **الإنسان الكامل شجرة الرب سبحانه:** ويتأمل الإمام ﷺ فى هيكل الإنسان الظاهر فيجد أنه يبدوا وكأنه شجرة رأسها فى الأعلى وفروعها مدلاة إلى الأرض فيقول: [وهنا إشارة بديعة تشير إلى أن الإنسان شجرة الرب وأن النباتات شجرة الإنسان، ولذلك فإنك ترى يا أخى: الإنسان رأسه في العلو وأغصانه مدلاة على الأرض، فهو يتغذى وينمو وباب الغذاء عند رأسه، والأعضاء الباحثة عن جودة الغذاء وطيبه عند رأسه، فالأنف يشم الطعام قبل إدخاله في الفم ثم يأذن بقبوله، والعين تنظر إليه قبل إدخاله ثم تحكم بجودته، واللسان يذوقه قبل بلعه ثم يرى صلاحيته فيرسله إلى المعدة، والأسنان تهضمه الهضم الأول. وكذلك النبات فإن رأسه في جوف الأرض وله عروق شعرية كاشفة، وعروق نباتية ماصة، فإذا وجدت الرطوبة دنت فمصت وإذا وجدت اليبوسة إنكمشت وتحولت، وكما أن الإنسان يمرض بترك الأكل أو بفقده فكذلك النباتات تذبل بفقد الغذاء](١).

وبناء على ما سبق فإن الإمام ﷺ يرى أن الإنسان الكامل هو جوهرة عقد المخلوقات، وهو المملكة العظيمة، والكون الصغير، وشجرة الرب، وخليفة الله، وصورة الحسن، ومثال المحاسن، وآية الحق، وأفق التجلى، ومرآة المتجلى، وغيرها من المقامات العلية، والصفات القدسية، التى يُجملها الإمام فى قوله ﷺ مخاطباً هذا الإنسان(٢):

يَا صُورَةَ ٱلْحَقِّ بَلْ يَا آيَ مَعْنَاهُ ... وَنُسْخَةَ ٱلْحُسْنِ قَدْ لاَحَتْ بِمَبْنَاهُ
يَا مَظْهَرًا لِجَمَالاَتٍ مُقَدَّسَةٍ ... وَأُفْقَ شَمْسِ ٱلتَّجَلِّي بَلْ وَمَغْنَاهُ
وَيَامِثَالاً بَدَا يُبْدِي مَحَاسِنَ مَنْ ... أَنْشَاهُ مِنْ عَدَمٍ حَقًّا وَأَغْنَاهُ
ظَهَرْتَ مِرْآةَ حُسْنٍ لاَحَ فِيكَ ضِيَا ... أَسْرَارِ أَسْمَائِهِ مِنْهُ بِنُورِ سَنَاهُ
يَاهَيْكَلاً قَدْ تَحَلَّىٰ مِنْ عُلاَهُ بِمَا ... يُنْبِي بِأَنَّكَ رَمْزٌ قَدْ جَلَوْنَاهُ
فِيكَ ٱنْجَلَتْ آيَةُ ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ عَلَىٰ ... مَعَالِمٍ تُرْجِمَتْ وَٱلسِّرُّ صُنَّاهُ

---

(١) الإمام أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) مرجع سابق، ص٤٧

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، ج٩، قصيدة ٨٤٢٤، ص٣٣٧

عَدَمًا لَقَدْ كُنْتَ حِينًا فِي كُنُـــوزِ خَفًـــا | فِي دَوْرَةِ ٱلْغَيْبِ أَوْ فِي سِـــينِ أَدْنَـــاهُ
هَٰذَا جَمَالِي وَذَا حُسْـــنِي بَـــدَا عَلَنًـــا | وَٱلْكَـــوْنُ آيَـــةُ تَـــدْبِيرٍ وَمَعْنَـــاهُ
وَلَمْ يَكُنْ عَبَثًا هَـــٰذَا ٱلظُّهُـــورُ وَلاَ | لَهْـــوًا وَلَـــٰكِنَّهُ غَيْـــبٌ أَرَدْنَـــاهُ
وَسَطًا خَلَقْتُكَ بَـــيْنَ ٱلْعَـــالَمِينَ عَلَـــىٰ | مِثَـــالِ وَصْـــفِي لِسِـــرٍّ قَـــدْ أَبَحْنَـــاهُ
خَلِيفَةً وَجَمِيـــعُ ٱلْكَـــوْنِ فِـــي عَمَـــلٍ | مُسَـــخَّرٌ لَـــكَ مِنَّـــا قَـــدْ أَمَرْنَـــاهُ
فِيكَ ٱلْمَلاَئِكُ قَدْ شَهِدَتْ وَقَدْ سَـــجَدَتْ | لِمَـــا بَـــدَا ظَـــاهِرًا مِنَّـــا أَبَحْنَـــاهُ
نَطَقَ ٱلْكِتَابُ بِمَا فِي أُفْقِ ذَاتِكَ مِـــنْ | آيَـــاتِ حُسْـــنِي وَلِلرَّاجِـــي كَشَـــفْنَاهُ
وَبَيَّنَ ٱلْفَـــرْدُ فَـــرْدُ ٱلـــذَّاتِ خَافِيَـــهُ | لأَهْـــلِ وُدِّي وَفَهِـــمَ ٱلْكُـــلُّ مَبْنَـــاهُ
أَنْزَلْتُـــــهُ عَرَبِيًّـــــا بَيِّنًـــــا عَلَنًـــــا | وَبَـــيَّنَ ٱلْمُصْـــطَفَىٰ أَسْـــرَارَ مَعْنَـــاهُ
يَامَظْهَرَ ٱلْحُسْنِ فَكِّرْ فِيـــكَ مُـــدَّكِرًا | فَأَنْتَ كَنْـــزٌ لِسِـــرِّ ٱلْغَيْـــبِ صُـــغْنَاهُ

٨- **النسب الحقيقى للإنسان الكامل:** يوضـــح الإمـــام ﷺ أن النســـب الحقيقـــى للإنسان ليس هو نسبه الطينى لأبيه وجده، إنما نسبه الحقيقى هو نســـبه الإلهـــى وهو ينقسم إلى قسمين: نسب به يقبل عليك، ونسب به تقبل عليه، فـــإذا تجمـــل بهما إنسان كان مع الله وكان الله معه، وصار محبوباً لله مراداً لذاته، وأى شرف أعظم وأكمل من اتصال نسب العبد بالله تعالى.

أ- **نسب به يقبل عليك:** وهو النسب الذى به يقبل عليك إقبال إمداد وإحسان ووداد وامتنان وشفقة ورحمة ورأفة حتى يمنحك منه ما تشاء ويكون لك عنده ماتشاءـــ وهو تحققك بحقيقتك وانكشاف معانيك لك، حتى لاتنسى من أنت نفساً ولاطرفة عين، فتكون بهذا الإنكشاف دائم الاضطرار إليه والإعتماد عليه، والتفويض لجنابه العلى، والفقر لذاته الأحدية، فإذا تحققت بهذا النسب الذى هو حقيقتك أقبل عليك بمعانى الربوبية وقابلك بواسع الإحسان والعطية فكنت متمتعاً بجنته العاجلة التى تعجلها لأوليائه؛ لأنك باتصالك بنسبه العلى استحققت الولاية الخاصة، وخصصت بالكرامة والعناية، وهذا النسب الإلهي إذا انكشف لك فأدم شكر الله عليه، وأدم صلته بما به يكون متصلاً، وبره بما يكون به دائما، فإن

المتحققين به قليلون، والمتجملين به أفراداً لله مرادون، والتفصيل سهل عليك فهمه.

ب- نسب به تقبل عليه: النسب الذى تقبل به عليه سبحانه لا يتحقق الإ بعد أن تصل النسب الأول به سبحانه، فإذا تجملت بنسبه الذى يقبل به عليك سهل عليك أن تتحلى بنسبه الذى تقبل به عليه سبحانه وهو التخلق بأخلاقــه الإلهيــة فــي المضايق التى تدفعك بقوة إلى التخلق بأخلاقك الحيوانية أو الأخلاق الإبليســية، عند ذلك تجاهد نفسك بأخلاق الله في ذات الله، وتتخلق بخلقه الكريم عند مقتضى ذلك مقبلاً به عليه سبحانه؛ لأنه سبحانه يحب صفاته ويحب أخلاقه، وخصوصــاً إذا ظهرت في شخص يمكنه أن ينفذ من مرارة أخلاقه السيئة، وموجــب خلقــه القبيح بدون أن يحصل له بذلك مضرة فيكون تخلقه بخلق ربــه بهــذا المــوطن رفرفاً أعلى للدخول على حضرته الإلهية بدون حاجب ولا مــانع، ولا يترقــى مقرب على سلم أقرب من هذا النسب، فإن نفساً واحداً يتنفســه الرجــل متخلقــاً بخلق من أخلاقه سبحانه وتعالى بمقتضاه، به يكشف عن جميع الحجــب حتــى يتشرف بالمواجهة والشهود، ولا يتحقق ذلك إلا عند مقتضاها مع الزهد والورع والإخلاص والصدق حتى تحصل المشابهة في تخلقه فيكون عفواً عــن قــدرة، ومحسناً ولو إلي المسيء، ومواصلاً للمقاطعين وكريماً ولو للمهينين. والتفصــيل يعلمه أولو الألباب، والمثل والشواهد لا تخفى وقد سبق تفصيل بمعناها.

ثالثاً: ما الحكمة من خَلق الإنسان؟

علم الحكمة كما يعرفه الإمام هو: [علم الأمور الإلهية والإنسانية حتى ينــتج من العلم بها، أن تعرف ما يجب أن يُعمل شرعاً وعقلاً، وما يجــب أن يُتــرك شرعاً وعقلاً، فالحكمة هى وضع الشيء فى محله][(١)]، والسعادة الحقيقية تكمــن فى معرفة الإنسان لحكمة خَلقه فى هذا الوجود، لذلك يرى الإمام أن فهم الإنسان لهذا العالَم فهماً صحيحاً يتوقف على معرفته لحكمة خلقه ووجوده فيقول: [مــن

(١) الإمام أبو العزائم(إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٢٠٤

جهل حكمة إيجاده لم يفز بإمداده][1]، والإمداد قد يكون مادياً كالطعام والشراب، وهذا يشترك فيه الإنسان مع الأنعام كما قال تعالى:{متاعاً لكم ولأنعامكم}[2]، وقد يكون معنوياً كالفهم والعلم والإيمان.. وغيرها، وهذا ما اختُص به الإنسان.

ويرى الإمام أن حكمة خلق الإنسان فى هذا الوجود تتمثل فى ثلاثة أسباب فيقولﷺ :[خُلق الإنسان لأجل ثلاثة: ليستعمر الأرض، وليعبد الله، وليكون خليفة فى الأرض: {واستعمركم فيها}[3]، {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[4]، {إنى جاعل فى الأرض خليفة}[5]][6]، نتناولها فيما يلى:

١- **عمارة الأرض:** خلق الله الإنسان في الأرض من أجل عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته وحض الإسلام على الضرب في الأرض، والسعي الحثيث في مناكبها، والتنقيب عن موارد الرزق في البر والبحر، والإنشاء والتعمير وتوفير أسباب المعيشة والتنافس المشروع في كسبها، والتسابق في الخيرات كلها دنيوية أم أخروية؛ لأن السيطرة على الأرض بتمكين الله للبشر تقتضي استغلال كل أوجه الخير فيها من استنبات الزرع، وإحياء الضرع، وتشجير الأشجار، عملاً بما ورد فى الحديث: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة[7] فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[8]، وأيضاً استخراج المعادن والزيوت، واستثمار المناجم والمحاجر وإقامة المساكن والمصانع والقرى والمدن حتى يعرف بكل ذلك ونحوه عظمة الله وقدرته؛ لأنه هو مانح الحياة لكل الموجودات.

---

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ٢٨٨

(٢)سورة عبس آية ٣٢

(٣)سورة هود آية ٦١

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦

(٥)سورة البقرة آية ٣٠

(٦)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٨٩

(٧) الفسيلة: هى النخلة الصغيرة التى تقطع من الأم

(٨)الإمام أبو العزائم (حديث الجمعة) ط٢، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٥٧

وكل هذا لا يتحقق إلا بالإجتماع البشرى الذى يعد اللبنة الأولى للعمـــران، فالإنسان بمفرده يصعب عليه عمارة الأرض، يقول الإمام:[ٱلإِنْسَانُ: لاَ يَسْـتَقِلُّ وَحْدَهُ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، إِلاَّ بِمُشَارَكَةِ آخَرٍ مِنْ بَنِي جِنْسِـهِ][1]. ولكــن عمــارة الأرض واستغلالها يتقيدان في الإسلام بطاعة الله والاهتداء بهديه والامتناع عمـا نهـى عنه، والاعتقاد بأن الناس جميعاً شركاء في منتجات الطبيعة المباحة.

ويؤكد الإمام أن عمارة الأرض لا تكون بالتمنى وإنما تكون بالعلم والعمـل واغتنام الآجال والأوقات، فيقول:[اغتنم فرصة الأجل، وامكان العمـل، واقطـع ذكر المعاذير والعلل، فأنت فى أجل محدود، والعمل المطلوب غير محـدود][2]، ويقول:[أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وَفى بالعمل وُفى لــه بالأجر، ومن لا عمل له لا أجر له][3]، ويقول:[من عبد الله فى العَمَل خيرٌ مـن العابد فى كهف جبل][4]، ويؤكد على أهمية الوقت قائلاً:[الأيام: صحائف الآجـال فخلدوها بأحسن الأعمال][5]، ثم يبين أن العمل ثمرة العلم، ولا يستغنى أحـدهما عن الآخر فيقول:[عِلْمٌ بِلاَ عَمَلٍ وَبَالٌ، وَعَمَلٌ بِلاَ عِلْمٍ ضَلاَلٌ][6]، ويقول نظماً[7]:

ٱلْعِلْــمُ يَهْتِــفُ بِٱلْعَمَــلْ ... فَٱعْمَــلْ تَنَــلْ كُــلَّ ٱلأَمَــلْ
بِــٱلْعِلْمِ يُخْشَــى ٱللَّــهُ مِــنْ ... كُــلِّ عَلِــيمٍ قَــدْ وَصَــلْ
بِــٱلْعِلْمِ كَشْــفُ ٱلْحَجْــبِ عَــنْ ... سِــرِّ ٱلْحَقَــائِقِ فِــي ٱلأَزَلْ
عِلْــمٌ يَقِــينٌ بَعْــدَهُ ... عَــيْنُ ٱلْيَقِــينِ بِــلاَ وَجَــلْ
مِــنْ بَعْــدِهِ حَــقٌّ جَــلِ ... حَــقُّ ٱلْيَقِــينِ لِمَــنْ عَقَــلْ

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٤

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣١٩

(٣) المرجع السابق ص٣١٩

(٤)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣١٨

(٥)المرجع السابق ص ٣١٨

(٦) نفس المرجع السابق، ص٣١٧

(٧)الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة٢٤٢١، ص٣٠٤

٢- **عبادة الله:** يبين الإمام أبو العزائم أن العبادة هى أساس خلق الكــون كلــه فيقول ﷺ: [مَرْتَبَةُ ٱلْعُبُودِيَّةِ لأجْلِهَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَكُــلَّ ٱلْعَــوَالِمِ، فَحِكْمَةُ ٱلْوُجُودِ أَنْ يَكُونَ ٱلإِنْسَانُ عَبْدًا، وَكُلُّ ٱلْعَوَالِمِ عَبِيدًا لَهُ سُــبْحَانَهُ حَتَّــى إِذَا جَاءَ يَومُ ٱلْقِيَامَةِ، يَنْطَبِقُ مَا فِي نَفْسِ ٱلْعَبْدِ مِنَ ٱلْعُبُودِيَّةِ، وَمَا فِي عِلْمِ ٱللَّهِ مِمَّا هُوَ مَثْبُوتٌ لِلْعَبْدِ مِنَ ٱلْعُبُودِيَّةِ فَيَنْجُو][1]، ويقول:[أَنْتَ خُلِقْتَ لِشَيْءٍ، وَشَيْءٌ خُلِقَ لَــكَ، فَإِذَا شُغِلْتَ بِمَا خُلِقَ لَكَ عَمَّا خُلِقْتَ لَهُ، كُنْتَ ظَالِمًا لِنَفْسِكَ][2]، ثم يبين الإمــام أن العبادة هى المقصد الأسمى فيقول: [العبادة هي المقصد الأسمى للخلق أجمعــين، التي لأجلها خلق العرش والكرسى، والإنس والجن، والملائكة قال تعالى:{وَمَــا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ* مَا أُرِيــدُ مِــنْهُم مِّــن رِّزْقٍ وَمَــا أُرِيــدُ أَن يُطْعِمُونِ}(٣)، فالمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظــم، والمتســاهل فيهــا متساهل بالحكمة التي لأجلها خلق. وكل عابد لله متحقق بمعونة الله، و ليس كــل مستعين بالله متحققاً بعبادة الله، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس بعبــادة. وإذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخير كله. إذ العابد محب لله، خاضع لله، عامل بأحكام الله، محافظ على سنة رسول الله ﷺ قائم بتأدية جميع شعب الإيمان، من بر وصلة وعفو وإحسان وإكرام وتواضع وتوبــة وإنابــة ويقــين وتوكــل وتفويض وغير ذلك من المعاني التي يحبها الله. ولذلك فإن الله ﷻ عنــد ثنائــه ومدحه لطائفة من عباده يصفهم بالعباد، وهم الملائكة قال عــنهم: {بَــلْ عِبَــادٌ مُّكْرَمُونَ}(٤)، وعند ثنائه على عباده من الإنس بما جملهــم بــه مــن الصــفات قال:{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ}(٥)، وقال: {وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}(١) وقال:{قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّــذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}(٢)، {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}(٣)][4].

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٥١

(٢) المرجع السابق، ص٢٨

(٣) الذاريات الآيتين ٥٦، ٥٧

(٤) الأنبياء آية ٢٦.

(٥) الفرقان آية ٦٣.

أ- **تعريف العبادة:** [العبادة اعتقاد عند أهل التسليم، وشهود عند أهل الكشف أن للمعبود سبحانه قوة غيبية فوق الأسباب يقدر بها على النفع والضر، مع غاية الحب، ونهاية الذل والخضوع - ففي اللغة التعبد الخضوع والتذلل - فمن أحببتَه ولم تكن ذليلاً خاضعاً له لم تكن عابداً له. ومن خضعت له ولم تكن محباً له لم تكن عابداً له حتى تكون محباً ذليلاً خاضعاً](٥).

ومن معانى العبادة أنها المعرفة، يقول "الفخر الرازى"(٦) فى تفسير قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: [قيل: إن معناه ليعرفونى، روى عن النبى ﷺ أنه قال عن ربه: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى"(٧)](٨)، والمعرفة فى الإصطلاح تعنى:[إدراك الشيئ على ما هو عليه، وهى مسبوقة بجهل، بخلاف العلم، ولذلك يسمَى الحق تعالى بالعالم دون العارف](٩)، والإمام أبو العزائم يؤكد على هذا المعنى بقوله: [لا عبادة إلا بعد المعرفة، لأن عبادة الجاهل لا تخلوا من الشرك](١٠)، ثم يوضح معنى المعرفة بقوله: [المعرفة أن تعرف نفسك فتعرف بمعرفتها ربك](١١).

وأرى أن ما قاله الإمام رضي الله عنه عن سبق المعرفة على العبادة، يفسر لنا ثلاثة عشر عاماً قضاها رسول الله ﷺ مع الصحابة فى مكة - منذ البعثة وحتى الهجرة- لم يكن فيها صلاةً ولا صياماً ولا حجاً ولا زكاة -فلم تكن العبادات قد

---

(١) الأنبياء آية ٧

(٢) سورة الزمر آية ٥٣.

(٣) سورة الزمر آية ١٦

(٤) الإمام أبو العزائم (حديث الجمعة) مرجع سابق، ص٥٧

(٥)الإمام أبو العزائم (الفرقة الناجية) ط٤، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٤٧

(٦)أبو عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ، ١١٥٠ - ١٢١٠م)

(٧)أورده السيوطى فى تفسيره (الدر المنثور)

(٨) الإمام فخر الدين الرازى (مفاتيح الغيب) ط١، دارالغد العربى، القاهرة، ١٩٩٣م، ج١٤، ص٥٤٦

(٩)الجرجانى (التعريفات) مطبعة البابى الحلبى وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨م، ص١٩٧

(١٠) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٤٠٣

(١١)الإمام أبو العزائم (الطهور المدار على قلوب الأبرار) ط٣، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٢،ص٤٤

فرضت بعد- هذه الفترة هى التى زكى رسول الله ﷺ فيها نفوس الصحابة فعرفوا نفوسهم ومن ثَم عرفوا ربهم، فلما فرضت العبادة بأنواعها سارعوا إليها بنفوس راضية، وصدور منشرحة.

ب- أركان العبادة:[للعبادة ركنان:علم وعمل، وحقهما أن يتلازما، لأن العلم كالأساس، والعمل كالبناء، وكما لا يغني أساس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أساس، كذلك لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم. ولذلك قال الله تعالى:{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}(١). والعلم أشرفهما لكنه لا يغني بغير عمل، ولشرفه قال رجل للنبي ﷺ أي الأعمال أفضل يارسول الله؟ فقال: العلم. فأعاد عليه السؤال فقال العلم. فقال الرجل في الثالثة: أسألك عن العمل لا عن العلم. فقال عليه الصلاة والسلام:"عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل" وقال عليه الصلاة والسلام: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٢]. والعلم ضربان. نظري وعملي. فالنظري: ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل. كمعرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ومعرفة السموات والأرض، وما أشبه ذلك. والعملي: ما إذا علم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، وبر الوالدين][٣].

ج- أنواع الأعمال في العبادة:[والأعمال ثلاثة أضرب: عمل يختص بالقلب، وعمل يختص بالبدن، وعمل يشترك فيه البدن والقلب. والعلم إذا نظر إليه من حيث تحصيله فاكتسابه عمل، وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور في القلب خرج في تلك الحال عن أن يكون عملاً][٤].

---

(١) سورة فاطر آية ١٠

(٢)أورده السيوطى فى الجامع الصغير، والبيهقى فى الشعب، والطبرانى فى الصغير والأوسط والكبير.

(٣)الإمام أبو العزائم (حديث الجمعة) مرجع سابق، ص٦٠

(٤)المرجع السابق ص٦١

د- العبادة روح الأعمال: [ليست العبادة مجرد أعمال تؤدى بحركات وسكنات، أو تكاليف يقوم بها العابد في آنات مخصوصة، ولحظات معدودة، فإن تلك الأعمال ليست هي المقصودة بالذات، بل المقصود روحها وسرها وحكمتها، قال الله تعالى:{ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}(١)، وقال الله تعالى:{إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}(٢)، وقال عز من قائل:{وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}(٣) وقال جلت قدرته: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}(٤)، فالمصلى المشاهد روح الصلاة لا يقع في فحشاء ولامنكر، والصائم التارك ملاذه وشهواته، المتألم بالجوع والعطش، هو فى خير ولذة بما يتألم به غيره. وباذل الأموال مع كونها خرجت من ملكه، ونقصت من ماله، تزكت نفسه بها وتطهرت][٥].

هـ-العبادة تزيل أمراض الإنسان: [يصاب الإنسان بأمراض نفسانية لا يمكن أن تزول عنه إلا بالعبادة كالجهل والشره، والعجلة والشح، والظلم، قال تعالى: {خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ}(٦)، ثم أمره أن يزيل العجلة من نفسه فقال: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ}(٧)، وقوله تعالى:{ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}(٨) ثم أمره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه، قال تعالى:{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ}(٩)، ثم قال تعالى:{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(١٠)، وأمره باتقاء الشح

---

(١) سورة الحج آية ٣٧

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٤

(٤) سورة التوبة آية ١٠٣

(٥) الإمام أبو العزائم (حديث الجمعة) مرجع سابق، ص٥٩

(٦) سورة الأنبياء آية ٣٧

(٧) سورة الأنبياء آية ٣٧

(٨) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٩) سورة النساء آية ١٣٨

(١٠) سورة الحشر آية ٩

بقوله تعالى:{ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}(١)، ووصفه بالكفور، والقتور، في قوله تعالى: {فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}(٢)، وقوله تعالى: {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا}(٣)، فالتقتير شيء غريزي موجود في الإنسان، وليس بشيء طاريء عليه: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}(٤)، ثم نهى عن أكثر الجدل، فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى في حياته الدنيا، كما يجب، ووقت ما يجب، وبقدر ما يجب، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة، فإنه إن لم يتطهر من هذه النجاسات ولم يزل عنه أَمراض نفسه، لم يجد سبيلاً إلى نعيم الآخرة، بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا](٥).

و- **الحكمة من تنوع العبادات:** لقد نوع الله العبادات لنيل الدرجات؛ وشرع الشرائع لتطهير الطبائع؛ ولم يكلف النفس إلا وسعها مراعياً أحوالها وما يطرأ عليها ليشهد الإنسان في عبادته رحمة الله به. فكان تنوع العبادات لملاءمة أنواع النفوس وأحوالها وطباعها المتغيرة؛ ففرضت العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وأعمال البر وطلب العلم النافع حتى لا يمل الإنسان، فلو عبد ربه بنوع واحد منها لتاقت النفوس إلي التغيير؛ لما فيه من الإقبال وتجدد النشاط؛ وقد ورد فى الحكمة:[لما علم منك وجود الملل، لون لك الطاعات](٦)، كما أن أمراض النفوس كثيرة وأمراض القلوب خطيرة؛ لذلك تنوعت العبادات لمعالجة هذه الأمراض المتباينة والطباع المتغايرة؛ فمنها ما لا يشفي إلا بالصيام؛ ومنها ما يعالج بالإنفاق في الصدقات؛ ومنها ما يحتاج إلي السفر والمشقة والنفقة كما في

---

(١) سورة المعارج آية ١٩، ٢٠، ٢١

(٢) سورة الشورى آية ٤٨

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٠

(٤) سورة الكهف آية ٥٤

(٥)الإمام أبو العزائم (حديث الجمعة) مرجع سابق، ص٦٧

(٦) أحمد بن عجيبة الحسنى (إيقاظ الهمم فى شرح الحكم) ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٧٩

الحج؛ لذلك يقول الإمام:[إن الله تعالى نوع العبادات من عقيدة وصلاة وصيام وزكاة وحج، ليطهر بالعقيدة من الشرك، وبالصلاة من المخالفة، وبالصيام من الشهوة والهوى، وبالزكاة من الحرص البهيمي، وبالحج من اتخاذ الأنداد، حتى يكمل الإنسان الكمال الذي يكون به مع الله تعالى، والله تعالى معه][1] وهكذا تكون العبادات بتنوعها سبباً في شفاء كل الأمراض التي جبلت عليها النفوس، يقول الإمام نظماً[2]:

تَنَوَّعَتِ ٱلْعِبَادَةُ لِلتَّدَانِي   لِتُشْرِقَ شَمْسُ أَسْرَارِ ٱلْقُرَآنِ
ظُهُورُ ٱلْمَثْنَوِيَّةِ حَالَ جَمْعِي   وَمَحْوُ ٱلْبَيْنِ فِي فَرْقِ ٱلْبَيَانِ
بِهَا ٱلنَّسَبُ ٱلْقَرِيبُ مَقَامُ عَبْدٍ   يَصِحُّ لِمَنْ تَحَصَّنَ بِٱلأَمَانِ
وَأَهْلُ ٱلْقُرْبِ قَدْ فَقِهُوا فَقَامُوا   فَجَمَّلَهُمْ بِأَنْوَارِ ٱلْمَعَانِي
صَلاَةٌ فِي صِيَامٍ فِي قِيَامٍ   جِهَادٌ لِلشُّهُودِ لَدَى ٱلْكِيَانِ
أَرَانِي فِي ٱلْعِبَادَةِ عَبْدَ رَبِّي   أَرَاهُ ظَاهِرًا عَيْنَ ٱلْعِيَانِ
يُوَفِّقُنِي لِمَا يُرْضِيهِ عَنِّي   وَيُرْضِينِي بِرِضْوَانِ ٱلْجِنَانِ
وَحَجٌّ فِي زَكَاةٍ فِي ٱبْتِهَالٍ   إِلَيْهِ ضَارِعًا فِي كُلِّ آنِ
مَقَامُ عُبُودَةٍ قُرْبُ ٱتِّحَادٍ   وَنُورُ أُلُوهَةٍ وَٱلْعَبْدُ فَانِ
أَنَا عَبْدٌ أَرَىٰ رَبِّي عِيَانًا   تَنَزَّهَ عَنْ حُلُولٍ أَوْ مَكَانِ
تَرَاهُ ٱلرُّوحُ فِي ٱلإِقْبَالِ رَبًّا   سَقَانِي خَمْرَةً رَسْمِي دِنَانِي
هِيَ ٱلآيُ ٱلَّتِي لاَحَتْ لِرُوحِي   بِهَا جَذْبِي إِلَيْهِ بِلاَ تَوَانِ
أَمَامِي ظَاهِرًا حَيْثُ أُوَلِّي   أَنَالُ ٱلْفَضْلَ إِحْسَانَ ٱلْحَنَانِ
يُوَفِّقُنِي فَأَعْبُدُهُ تَعَالَىٰ   عَجَزْتُ عَنِ ٱلثَّنَا قَلْبِي لِسَانِي
أَمَدَّ ٱلْعَبْدَ بِٱلإِيجَادِ فَضْلاً   أَعَانَ عَلَى ٱلْعِبَادَةِ وَٱلتَّدَانِي
عَجَزْتُ عَنِ ٱلثَّنَا عَنْ حَصْرِ نُعْمَىٰ   تَوَالَتْ مِنْ أَيَادِيهِ ٱلْحِسَانِ
صِيَامٌ فِيهِ زَكَّى ٱلنَّفْسَ رَبِّي   فَأَشْبَهْتُ ٱلْمَلاَئِكَ بِٱلْجِنَانِ

---

(1)الإمام أبو العزائم (لبيك اللهم لبيك) ط٦، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٤

(2)الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٠٧،ج١، ص٧٣

كَــأَنِّي سَــائِحٌ فِــي نُــورِ قُــدْسٍ   يُحِيطُ ٱلْوَجْهُ بِــي فِــي كُــلِّ شَــانِ
وَشُــكْرِي نِعْمَــةٌ مِنْــهُ تَعَــالَىٰ   عَلَيَّ وَقَــدْ عَجَــزْتُ عَــنِ ٱلْبَيَــانِ

ثم يعطينا الإمام حِكماً أخرى لتنوع القربات فيقول[١]:

لِتُــرَى ٱلْمَعَــانِي نَــوَّعَ ٱلْقُرُبَــاتِ   وَلِتَظْهَــرَ ٱلْمَجْلَــىٰ بِــذِي ٱلآيَــاتِ
وَتَلُــوحَ أَنْــوَارُ ٱلتَّجَلِّــي قُــدِّرَتْ   رُتَــبُ ٱلْوُجُــودِ بِسَــلْبِهَا ٱلإِثْبَــاتِ
فَتَنَــوُّعُ ٱلْقُرُبَــاتِ رَمْــزٌ مُنْبِــيءٌ   بِجَمَالِــهِ وَجَــلاَلِ مَجْلَــى ٱلــذَّاتِ
وَأَنَا ٱلْمُكَلَّــفُ مَظْهَــرٌ لِظُهُــورِ مَــا   هُوَ سِرُّ إِيجَــادِي بِسُــورِ جِهَــاتِي
وَمَــعَ ٱلتَّكَلُّــفِ بِــٱلظُّهُورِ أَنَــا أَنَــا   مُتَجَمِّــلٌ بِــٱلآيِ فِــي ٱلْكَلِمَــاتِ
فَأَصُــومُ تَجْرِيــدًا أَحُــجُّ مُوَجِّهًــا   وَجْهِــي إِلَيْــهِ بِــهِ لَــهُ إِخْبَــاتِي
وَبِفَكِّ هَٰــذَا ٱلرَّمْــزِ تَظْهَــرُ رُتْبَتِــي   هِــيَ كَنْــزُهُ طِلَّسْــمُهُ صَــلَوَاتِي
فَلِــيَ ٱلْجَمَــالُ إِذَا أَفَــاضَ جَمَالَــهُ   بِجَمَالِــهِ تُخْفَــىٰ بِــهِ هَيْئَــاتِي
وَظُهُــورُ بَــدْئِي لِلْعُهُــودِ لأَحْتَسِــي   رَاحَ ٱلصَّــفَا مُــتَجَمِّلاً بِصِــفَاتِي
فَأَنَــا ٱلْجَمِيــلُ مُجَمَّــلٌ بِمَحَاسِــنٍ   مِنْــهُ لَــهُ فِيهَــا ٱلْمَمَــاتُ حَيَــاتِي
وَأَنَا ٱلــدَّنِيءُ بِنَشْــأَتِي ٱلأُولَــىٰ بِهَــا   ظَهَــرَ ٱلضِّــيَاءُ بِرَسْــمِيَ ٱلْمِشْــكَاةِ
رُتَــبُ ٱلْــوُجُــودِ جَلِيُّهَــا وَخَفِيُّهَــا   مُثُــلٌ لِــذَاتِــي وَهْــيَ كَــٱلْمِــرْآةِ
فَيُرَىٰ جَمَــالُ تَقَرُّبِــي فِــي قُرْبَتِــي   مُتَسَــتِّرًا بِتَنَــوُّعِ ٱلطَّاعَــاتِ
فَــأَحُــجُّ قَصْــدًا لِلــرُّجُــوعِ لِمَبْدَئِي   وَجِهَــادُ نَفْسِــي مَبْــدَأُ ٱلْقُــرُبَــاتِ

وأرى أن العبادة بمعناها الكامل والحقيقى لا تتحقق إلا فى الإنسان، فكل ما سواه من المخلوقات إما مفطور على العبادة، أو مقهورٌ عليها، لذلك كانت العبادة الحقة لله تعالى فى هذا الوجود لا تتحقق إلا بهذا الإنسان الذى منحه الله حرية الإختيار، لذلك اختصه الله بتعلق أعلى من كل المخلوقات، فالله سبحانه رب الإنسان ورب غيره من المخلوقات، لكن تميز الإنسان بأن الله ربه، وإلهَهُ،

(١) المرجع السابق، قصيدة ١١٢٢،ج٢، ص١٠٣

وأصلها:(أَلَهَ) أى: (عَبَد)[١]. قال تعالى:{قل أعوذ برب الناس* ملك الناس* إلـــهِ الناس}[٢] فلم يخاطب الله مخلوقاً بهذه المرتبة –الألوهيـــة– إلا الإنســـان، لأنـــه المخلوق الذى تتحقق فيه أكمل معانى العبودية.

كما أرى أن الإسلام قد أوجب على أفراده العبـــادات ممثلـــة فـــى الصـــلاة والزكاة والصيام وغيرها، ثم أرشدهم أنه ليس القصد أن يولوا وجـــوههم قبـــل المشرق والمغرب، وإنما القصد أن تعصم نفوسهم من الفحشـــاء والمنكـــر، وأن تُغير فيهم أخلاق الشر والبغى والتقاطع، بأخلاق الخيـــر والعـــدل والتعـــاطف، وبذلك يتحقق الشعور الجَمَاعى الذى يُكوِن مجتمعاً فاضلاً، يقوم بعمارة الكـــون، وينشر دعوة الله فى الأرض، ويبث مبادىء العدل والسلام والأمن بين النـــاس. فالدين يقرر فى نصوصه: أن سائر العبادات إذا لم تصل بصاحبها إلـــى درجـــة الشعور بجزئيته فى المجتمع، وتدفعه إلى القيام بواجبه نحوه، فإنها لا يقـــام لهـــا وزن عند الله، ولا يكون صاحبها مقبولاً عنده سبحانه. كما فى الحـــديث: "قِيـــلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَـــا بِلِسَانِهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ"[٣]، ومن هنـــا جـــاء الحديث الشريف :"الدين المعاملة"[٤].

٣- أن يكون خليفةً لله فى أرضه: أقام الله الإنسان خليفـــة فـــى هـــذا الوجـــود مصداقاً لقوله: {إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة} والإمام أبو العـــزائم يفـــرق فـــى المعنى بين كلمتى الجعل، والخلق، فالحق سبحانه لم يقل: إنى خالق فى الأرض، وإنما قال: {إنى جاعل}، يقول الإمام: [الجعل: إيجـــاد الأشـــياء مـــن الأشـــياء، والخلق: إيجاد الأشياء من العدم][٥]، فالله خلق آدم ثم جعله خليفة فـــى الأرض.

---

(١)المعجم الوجيز، ص٢٣

(٢) سورة الناس الآيات ١، ٢، ٣

(٣) أورده البخارى فى صحيحه .

(٤) الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الإسلام وطن والمسلمون جميعاً أهله) مرجع سابق، ص٧٨

(٥)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٨٨

لسابق علمه تعالى أن الأرض لا تعمر وتصلح إلا بهذا الخليفة، يقول الإمام: [لقد ابتلى الله الإنسان بأن سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، وصرفه تصريف الربوبية في الملك، فكل ما في الملك والملكوت مسخر له بإذنه تعالى، فإذا ذكر الله وأطاعه من غير أن يعصاه، وشكره فلم يكفره، ووحده فلم يجحده، تفضل عليه بالملك الكبير، قال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}(١)، وهذا الملك الكبير هو للإنسان –الكامل- الذي اتبع رسول الله ﷺ، حق الاتباع. لتلك المعاني احتاجت الأرض لأن يكون فيها خليفة، لأن السماء وما فيها لا تحتاج إلى خليفة، والخليفة في الأرض هو سيد من في الأرض ومن في السماء، لأن ملائكة السماء أجسام نورانية، لا تقع منهم الخطايا، فهم لا يحتاجون إلى خليفة](٢).

والخلافة عن الله هى أشرف مقامات الإنسان، لذا حصنه الله من شهود هذا المقام فيصيبه العجب والخيلاء، يؤكد الإمام على هذا المعنى فى سياق بيانه لحكمة تقدير المعصية على آدم فيقول:[لما رُفِع آدم إلى هذا المقام (الخلافة) حصَّنه الله من شهود هذا المقام، فقدر عليه المعصية ليُذَلَّ لله تعالى](٣).

* **ما هو المراد بالخليفة؟** يجيبنا الإمام عن هذا السؤال فيقول: [المراد من الخليفة – والله أعلم- هو الإنسان الذي جمله الله تعالى بالعلم والحكمة، والعدالة والرحمة، فقد صاغ الله نفسه، من أصفى الجواهر النورانية، وجعله وسطًا، وأيده بروح وقوة منه سبحانه ليدفع ظلم الظالمين، وكيد الكائدين، ويكبح جماح النفس الشهوانية والغضبية، ويحفظ الثغور من شرور الأعداء، ويقيم الحدود لتعيش الأمة في هناء وصفاء، ويقطع شأفة ما يضر بالقوى النفسانية مثل الخمور والمخدرات والمنومات، وما يضر بالأجسام ويفنى الأموال، كلعب الميسر، وفتح أبواب المناظرات، والجدل والتفاخر، ويمحو الخلافات الناشئة

---

(١)سورة الإنسان آية ٢٠

(٢)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق،ج١، ص٩٨

(٣)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق ص٢٥٦

بسبب الزنادقة والغلاة في الدين، وأهل الآراء الباطلة، والمذاهب المضلة ليكون المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى][1].

وأرى أن كل من توافرت فيه هذه الصفات فهو خليفة فى الأرض، فآدم أول خليفة وكل نبى أو رسول خليفه، {يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق}[2]، وكل من سار على نهجهم فهو خليفةٌ للخليفة، كما ورد فى الحديث:"اللهمَّ ارحم خلفائي، قلنا: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلِّمونها الناس، يقول الألوسى[3]: [ومعنى كونه (خليفة) أنه خليفة الله تعالى فى أرضه، وكذا كل نبى؛ إستخلفهم فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه، لما أنه فى غاية الكدورة والظلمة الجسمانية، وذاته تعالى فى غاية التقديس، والمناسبة شرط فى قبول الفيض[4]على ماجرت به العادة الإلهية، فلابد من متوسط ذى جهتى تجرد وتعلق ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى][5]. يقول الإمام أبو العزائم[6]:

هُوَ ٱلْخَلِيفَةُ مَلْحُوظٌ بِأَعْيُنِهِ عَلَىٰ كَمَالِ يَقِينٍ فِي مَرَاقِيهِ
حِصْنُ ٱلْمَعِيَّةِ نُزُلٌ لاَ يُفَارِقُهُ وَٱللَّهُ مَعَهُ بِتَحْقِيقٍ وَتَنْزِيهِ
صَلَّىٰ وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ ٱللَّهُ قَدْ خُفِيَتْ إلاَّ عَلَىٰ مُخْلَصٍ مَوْلاَهُ يَهْدِيهِ
أَنَا ٱلْمُصَلِّي وَقَدْ صَلَّىٰ عَلَيَّ وَكَمْ بَيْنَ ٱلصَّلاَتَيْنِ مِنْ فَرْقٍ لِدَارِيهِ
وَلَمْ أُصَلِّ إِذَنْ إِلاَّ وَلِي نَسَبٌ أُدْلِي بِهِ عِنْدَ تَحْقِيقِي بِتَشْبِيهِ

---

(١) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ص٩٦

(٢) سورة ص آية ٢٦

(٣) العلامة محمود شهاب الدين الحسيني الآلوسي (١٢١٧-١٢٧٠ هـ)(١٨٠٣ - ١٨٥٤م) وهو مفسر ومحدث وفقيه.

(٤)الشرائع والرسالات.

(٥) الإمام الألوسى (تفسير روح المعانى) ط٤، دار إحياء التراث العربى، بيروت لبنان، ١٩٨٥م، ص٢٢٠

(٦)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيده٣١٤٣،ص١١٠

إِلَىٰ مَقَامِ ٱقْتِرَابٍ فِيهِ قَدْ ظَهَرَتْ حَقِيقَتِي مُقْتَضَىٰ مَعْنَىٰ مَجَالِيهِ
فَوَاحِدٌ هُوَ فِي كُلِّ ٱلشُّئُونِ وَلاَ تَعَدُّدٌ إِنْ بَدَتْ أَنْوَارُ خَافِيهِ
وَمَنْ أَنَا؟! هَلْ أَتَى حِينٌ عَلَيَّ وَلَمْ فِيهِ أَكُنْ ظَاهِرًا حَقًّا أُنَاجِيهِ؟!

وإذا تأملنا قوله تعالى: {إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة} ولم يقل سبحانه سأجعل، ولم يقل جعلت، بل قال سبحانه {إنى جاعل} فعبر سبحانه باسم الفاعل الذى يفيد الماضى والحاضر والمستقبل، يفيد الأزلية والأبدية والدوام، فديمومة الخلافة الربانية للإنسان هى من الديمومة الإلهية، فهو سبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم، يقول الإمام ﷺ موضحاً هذا المعنى:

أهى المدامةُ هيجت أشواقى كلا ولكن حسنُ وجهِ الساقى
شوقى قديمٌ من {ألستُ} وقبلها وأنا الضيا فى حضرةِ الخلاقِ
قبل التجلى كنتُ نوراً مشرقاً وأنا المديرُ لصحبتى ورفاقى
وأنا المدامةُ فى الدنانِ تعتقت هامت بها الأملاكُ شوقَ تلاقى

وفى البيت الأخير من هذه المقطوعة، إشارة فى منتهى الدقة والجمال حيث يوضح الإمام أنه رغم أن الحقيقة الإنسانية الكاملة كانت أول التعيين فى الخلق، إلا أنها لم تكن كذلك فى الظهور الكونى، حين ظهور أول إنسان فى هذا الوجود وهو آدم عليه السلام، ولذلك حكمة عالية وسر خفى، وتوضيح ذلك أن الوجود الكونى كله من الله وإلى الله يعود، سر قوله تعالى: {وإليه يرجع الأمر كله}، ومنذ خلق الله الكون ودارت الأفلاك وبدأ الزمان والمكان، وتعاقب الليل والنهار، وكل ذرة من ذرات الكون فى حركة مستمرة، وسعى حثيث، وشوقٍ دائم للوصول إلى الكمال، ولا كمال إلا منه سبحانه، فاحترق الكون لهفة وحنيناً إلى مطالعة أنوار الأصل، ومعاينة آلاء الجمال والكمال والبهاء والضياء، لتأنس بعودة الفرع إلى الأصل والجزء إلى الكل، وذوبان التعددية فى الوسعة الواحدية، ولسابق العلم الإلهى بكل ذلك، قدرت المشيئة الإلهية، أن تجعل فى الكون خليفة، يمثل صورة كنز الحسن والجمال، ونسخة مجملة بالنور والكمال، ومدامة تعتقت فى دنان القرب والوصال، حتى توقدت من حرها الأفلاك شوقاً ولهفة، وتحرقت

للقائها الأملاك ضنى ولوعة، فأخرج الله للكون هذه الصورة، التى هى صورة الخلافة الإلهية، فكانت آخر المخلوقات ظهوراً –مع أنها أول التعيين– ليشتاق إليها كل المخلوقات، لأنها صورة الإنسان الكامل، الذى هو فوق الملائكة منزلة وقدراً، يقول الإمام فى لفتة عرفانية عالية:

وفى {أنتم الأعلونَ} سر مكانتى * تجاوزت {العالين} فى فلكِ القرب

وهنا يشير الإمام ﷺ إلى وصف القرآن الكريم للملائكة المقربين الذين لم يؤمروا بالسجود بأنهم {العالين} سر قوله تعالى: {أستكبرت أم كنت من العالين} فى حين أنه سبحانه يصف الإنسان المؤمن الكامل بـ {الأعلون} سر قوله تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}[1].

وأرى أن أهم حكمة لخلق الإنسان بين الثلاثة – سالفة الذكر– هى كونه خليفة عن ربه لأنها الحكمة الوحيدة التى تفرد بها الإنسان فلم يشاركه فيها غيره، فالعبادة يشاركه فيها الجن والملائكة، وأما عمارة الأرض فهى توصيف لوظيفة الإنسان وحالته على الأرض، {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها}، فعمارة الأرض تعتبر وسيلة لتحقيق الخلافة على الأرض.

رابعاً: بداية ظهور الحقيقة الإنسانية (الخلق الأول): لعل أهم ما تميز به حديث الإمام أبى العزائم فى موضوع الإنسان، أنه تحدث عن الحقيقة الإنسانية قبل ظهورها في العالم المادى المحسوس المتمثل في عالم الدنيا، فقد أكد الإمام أن عالم الأرواح متقدم على عالم الأجسام، مستدلاً بقوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}(٢)، وقوله: {ثُمَّ} تفيد التراخي، أي {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ..} في عالم الروح {..ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ..} كما سبق في علمنا أن نصور كلاً منكم في صورة معينة فى عالم الأرحام.

---

(١)سورة آل عمران آية ١٣٩

(٢)سورة الأعراف آية ١١

وقد بين القرآن هذه الحقيقة فى قوله تعالى:{كما بدأنا أول خلــقٍ نعيــده}[١]، وقوله:{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}[٢].

والخلق الجديد هو هذا الهيكل الجسمانى الذي طوره الحق أطواراً في عــالم بطن الأم ليؤدي دوره في الدنيا إلى أن تنتهي منه الأنفاس، واللبس جاءنــا مــن ظن الإنسان أن هذا الهيكل هو (أنا) أى حقيقته، ولو أدرك الحقيقة لعلم أن هــذا الهيكل سكن مؤقت لحيقيقته، وأن الإنسان إنسان بمعناه لا بمبناه، يوضح الإمــام أبو العزائم ذلك فيقول:[الخلقُ الأولُ هو أنتَ، والخلقُ الجديدُ جاء ليُعرفــك مــن أنتَ][٣]. فالخلق الأول خلق حقيقة الإنسان ومعناه، والخلق الجديد خلــق جســم الإنسان ومبناه، ووظيفة الخلق الجديد (الجسم) أن يتعرف الإنسان من خلاله على ما أودعه الله فيه من المعانى والحكم والأسرار، فإذا انقضت مدة الجسم المحددة بالموت، رجع الى أصله وهو التراب وبقيت حقيقة الإنســان بمكوناتهــا لتكمــل رحلتها فى عالم جديد هو البرزخ.

أما النشأة الأولى فقد حدثنا عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى:{وَلَقَدْ عَلِمْــتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ}[٤]، ويؤكد الإمام على أهمية تعرف الإنســان علــى نشأته الأولى فيقول ﷺ: [من عرف نشأته الأولى، سارع إلى نيل الســعادة فــى النشأة الأخرى. ومن جهل نشأته الأولى، اعتقد الخلود فى الدنيا فعمل لها فهلــك وأهلك ولا خلود فيها؛ وإنما يتميز الإنسان عن الحيوان بمعرفة نشــأته الأولــى، وإلا فهو حيوان وأضل منه][٥]

وقد أورد الإمام في سياق تفسيره لسورة الفاتحة فــي "أســرار القــرآن" مــا نصه:[فإذا شاء سبحانه أن يعيد النشأة الأخرى أمر السماء أن تمطر ماء كمنــي

(١)سورة الأنبياء آية ١٠٤

(٢)سورة ق آية ١٥

(٣) قنديل عبد الهادى(الإمام أبو العزائم سيرة تنبيء عن سريرة) مرجع سابق، ص٢١٤

(٤) سورة الواقعة آية ٦٢

(٥)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ٢٥١

الرجال أربعين سنة، حتى تذوب فتصير كالعجينة، فيأمر سبحانه وتعالى أربع رياح عاصفة تعتقم الأرض من جهاتها الأربع فترجها رجاً وتدكها دكا حتى تصبر الجبال كثيباً مهيلا، وتقوى صدمات الرياح فتجعل الجبال هباء منثوراً، وهي ما نعرف صلابة وقوة فيكف بالأرض، ويُوجِد سبحانه في كل ذرة من ذرات الهيكل الإنساني قوة جاذبية تجمع بعضها ببعض لشدة رج الأرض ودكها، حتى إذا تكونت الأجساد وصارت الأمم أطواراً طبقة فوق طبقة أسكن الرياح – سبحانه – وأعادها إلى مهابها، ثم أمر بالنفخة الثانية فتفيق الأرواح من صعقها وتهب كالجراد المنتشر، كل روح تسارع إلى بيتها الذي سكنت فيه في حياتها الدنيا وهو جسمها.

وهذه هي كيفية النشأة الأخرى، وهي أشبه بالنشأة الأولى لآدم عليه السلام، وليست كالنشأة الأولى لأبنائه تحتاج إلى إمناء وحمل ووضع ورضاع، فإن لكل نشأة أسباباً وضعها سبحانه].

وبناءً على ما تقدم، فإن الإمام يوضح لنا أن الإنسان قد مر بسبعة أطوارٍ بدءاً قبل إبرازه إلى الكون المحسوس فيقول ﷺ:[للإنسان أطوارٌ سبعة يتطور فيها طوراً بعد طورٍ بدءاً وختما فكان فى حضرة العلم، ثم خصصته الإرادة، ثم كان حقيقة إنسانية أمام الله تعالى بدليل قوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}(١)، والله إنما يخاطب الموجود لا المعدوم، ثم تعلقت به كن إيجاداً للحقيقة الإنسانية أولاً، ثم واثق الأنبياء لرسول الله ﷺ، ثم كان يوم "ألست بربكم"، ثم كان الخلاف بين الملائكة والله تعالى؛ وكل هذه الأطوار قبل إبرازه فى الكون المحسوس](٢)، يقول فيها الإمام نظماً(٣):

تَطَوَّرْتُ فِي أَدْوَارِ أَوَّلِ نَشْأَتِي ... وكُنْتُ ضِيَاءً مُشْرِقًا فِي ٱلْحَظِيرَةِ
وَفِي سِرِّ أَطْوَارِي بَيَانٌ لآلِهٍ ... تَحَلَّىٰ بِمَعْنَىٰ غَيْبِ سِدْرَةِ صُورَتِي

---

(١)سورة الأعراف آية ١١

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦٠

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم٢٥٣٧

أَدُورُ وَفِـــي سِـــرِّ ٱلتَّجَلِّـــي تَنَقُّلِـــي   وَحَوْلِيَ نُورُ ٱلْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ حَيْطَـــةِ

أ- أطوار الإنسان السبعة قبل إبرازه فى الكون المحسوس:

١- كان في حضرة العلم: فما من كائنٍ فى الوجود إلا وقد أحـــاط بـــه العلـــم، وخصصته الإرادة، ونجَّزَته القدرة، وصدر عن المشيئة؛ فكـــان الإنســـان فـــى حضرة علم الله الأزلى الذى أحاط بما كان وما يكون وما هو كـــائن، فالإنســـان قديم من ناحية كونه فى حضرة العلم، حادث من حيث وجوده الإنسانى، ولعـــل اليقين بهذا من ثوابت الإيمان لما ورد فى الحديث الشريف: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شـــيء حتـــى تقوم الساعة، من مات على غير هذا فليس مني"(١). يقول الإمـــام واصـــفا تلـــك الحضرة(٢):

حضرةُ العلـــمِ حضرةٌ قـــد تعالـــت   عن قيـــودِ التخصـــيصِ بالأحديـــة
خصصت ما تشـــاءُ وهـــي تعالـــت   لا تخصـــــص إذا فهمـــتَ أُخيـــه
أشرقت شمسُ مجدها فـــي علاهـــا   بجمالٍ عـــن فضلهـــا الواهبيـــة
فأضاءت في كونـــــــا بقيـــودٍ   عن رموزٍ تجلـــى لنـــا علنيـــة
ثم لاحت شموسُها مشرقـــــات   في مُرادٍ سمـــا إلى الفـــرديـــة

ويحدثنا الإمام عن العلم الإلهى فى سياق تفسيره للآية (٣٣) من سورة البقرة فيقول: [قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَـــمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} حجة قائمة على أن علمه أحاط بالكليات والجزئيـــات رغم أنف الفلاسفة، لأن العلم الإلهي سبب لإيجاد الكائنات، فالأشـــياء توجـــد، وسبب إيجادها علم الله بها، فما علم سبحانه بشـــيء إلا أوجـــده، ولكـــن علـــم الحوادث لا يحصل إلا بعد وجودها، فنحن لا نعلم بالأشياء إلا بعد وجودها، لأن علمنا حادث وعلم الله قبل الأشياء، وبه وجدت الأشياء. فإرادة الله تخصص ما

(١)رواه أبو داود فى السنن حديث رقم (٤٧٠٠)

(٢)الإمام أبو العزائم (ختم ليلة النصف من شعبان) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٦

علم الله إيجاده، وقدرة الله تبرز ما خصصته الإرادة من حضرة العلم، ومن قاس العلم الحادث بالعلم القديم نحكم عليه بالجهل المركب، ومثل هذا لا نعتني به مهما أبدى من السخافات][١].

٢- **ثم خصصته الإرادة:** يصف الإمام صفة "الإرادة" بقوله:[إرادة الله تعالى صفةٌ واحدةٌ، وتختلف أسماؤها بحسب تفاوت متعلقاتها؛ فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً، واذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة، واذا تعلقت بخصوص النعم تسمى محبة، فهى صفة قديمة، تخصص الممكن بالوجود أو العدم، وبالطول أو القصر، وبالحسن أو القبح، وبالعلم أو الجهل، إلى غير ذلك من الشئون والأحوال. وإرادة الله تعالى قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها، فوُجِدَت فى أوقاتها كما أراد فى أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه، وإرادته، من غير تبدلٍ ولا تغير، دبر الأمور بلا ترتيب أفكار، ولا تربص زمان، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن][٢].

* **أنواع الإرادة:** الإرادة نوعان[٣]:

- **إرادة مكونة:** وهى قدر الله الذى قدره بتخصيص إرادة ما فى علم الله من إيجاد وإمداد، ووجودٍ وعدم وهداية وإضلال، وإحياء وإماتة، ووسعة وضيق، ومرض وشفاء وغير ذلك مما قدره الله تعالى.

- **وإرادة محبوبة:** وتنحصر فى الأمر والنهى، والإرادة فى هذه الآية[٤] هى ما يحبه الله تعالى، فقد يكون وقد لا يكون. وأما الإرادة المكونة فهى كائنة لا محالة؛ فقوله تعالى: {يريد الله} هنا أى يحب الله ليبين لكم ما يحبه منكم لتسارعوا إلى القيام به بحسن توفيقه، والهداية بيان مؤيد بتوفيق من الله وإقامةً

---

(١) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج١، ص١٠٣

(٢) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٣٧

(٣) الامام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق ج٥، ص١٢، ١٣

(٤) قوله تعالى {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم} الآية :٢٦سورة النساء

فيما يرضيه جل جلاله، ولذلك فقد أمرنا الله أن نسأله فى كل يوم أربعاً وثلاثين مرة:{اهدنا الصراط المستقيم}.

* **إتحاد الأمر والإرادة:** يبين الإمام أن السعيد من الناس حقاً هو من اتحد أمر الله له، بإرادة الله فيه فيقول: [أسعد الناس: من وافقت إرادة الله فيه أمرَه][(١)]، وهذا كثيراً ما يحدث، فمثلاً: أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، وأراد لهم السجود فسجدوا فكانت لهم السعادة، ولكنه تعالى أمر ابليس بالسجود ولم يُرد له أن يسجد، فلم يسجد فكان له الشقاء.

* **أول الإرادة آخر العمل:** وكما قلنا سابقاً: الإنسان هو أول مراد الله فى هذا الوجود، يقول الإمام: [إن أول الإراده هو آخر العمل، فمثلاً: إذا أراد رجل أن يرتبط بفتاه – وهذا أول الإرادة– تأتى اجراءات عديدة من شبكة الى عقد قران إلى مجلى العروس.. وبذلك يكون أول الإرادة هو آخر العمل][(٢)]، وقد وضح القرآن هذه الحقيقة فى قوله تعالى:{إنى جاعل فى الأرض خليفة}[(٣)]. يقول الإمام نظماً[(٤)]:

فِي ٱلإِرَادَةِ قَبْلَ تَعْيِينِي مَكُونْ   كُنْتُ إِشْرَاقًا لِمَجْلاَهُ ٱلْمَصُونْ
وَهْيَ بَدْئِي مَحْتِدِي فِيهَا ٱنْجَلَتْ   لِي مَعَانِي سَرِّهِ غَيْبِ ٱلْبُطُونْ
دُرْتُ فِي ٱلأَسْمَا بِغَيْبٍ غَامِضٍ   نَزِّهَنْ عَنْ حَيْطَةٍ أَوْ عَنْ كُمُونْ
أَوَّلُ ٱلْبَدْءِ ظُهُورِي آخِرًا   مُقْتَضَىٰ قَدْرِي بِهِ سَبْقُ ٱلشُّئُونْ
مِنْ حَضِيضِ ٱلأَرْضِ مِنْ نُورِ ٱلْبَهَا   رُتْبَتِي قَافٌ وَهَاءٌ بَعْدَ نُونْ
مَجْمَعُ ٱلأَضْدَادِ كَنْزٌ غَامِضٌ   لَمْ تَرَىٰ أَسْرَارَهُ كُلُّ ٱلْعُيُونْ
فِيَّ نَفْخَتُهُ وَفِيَّ جَمَالُهُ   صُورَةٌ مِنْهَا ٱلْمَلاَئِكُ فِي شُجُونْ
لَمْ أَبُحْ بِٱلْغَيْبِ فِيَّ لأَنَّنِي   إِنْ أَشَرْتُ إِلَيْهِ أُرْمَىٰ بِٱلْجُنُونْ

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص١٩٨

(٢)طاهر مخاريطة (أيام الله) ط١، دار الكتاب الصوفى، ٢٠٠٠م ، ص٦٨

(٣) سورة البقرة آية ٣٠

(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٢٤٢٤، ص٣٠٥

يَعْقِلُ ٱلْعَقْلُ ٱلْمَعَانِي أَشْرَقَتْ فِي ٱلْمَبَانِي لَمْ يُرَىٰ كَانَ يَكُونْ
نُورُهُ ٱلأَعْلَىٰ عَلَىٰ نُورٍ بِهِ فِي ٱلْعُبُودَةِ وَٱلسِّيَاحَةِ فِي سُكُونْ
وَٱلإِرَادَةُ مَبْدَئِي لِي أَشْرَقَتْ شَمْسُهُ فِيهَا ٱلْحَيَاةُ هِيَ ٱلْمَنُونْ
بَعْدَهَا أَسْرَارُ قُدْرَتِهِ ٱلَّتِي عَيَّنَتْنِي مَظْهَرًا قَبْلَ ٱلدُّيُونْ

والمقصود فى قوله: مَكون: هو أن الإنسان كان كائنا قبل التعيين في **(محتده)** أي أصله الذي هو في الإرادة، وأن أول هذا البدء هو بعينه ظهور الإنسان آخراً، لأنه أول الإرادة كما تقدم.

٣- ثم كان حقيقة إنسانية أمام الله تعالى: بدليل قوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}(١)، والله إنما يخاطب الموجود لا المعدوم. ويعلق الإمام على هذه الآية قائلاً:[تأول بعض المفسرين هذه الآية الشريفة بما لا يطابق ظاهرها، فقال بعضهم: خلقناكم آدم، ثم صورناكم آدم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وقال بعضهم غير ذلك مما يقرب منه. وتأويلها أن الله تعالى يخاطب حقائقنا المعلومة له الموجودة لديه قبل إبرازنا في الأعيان الظاهرة، فيقول ﷻ: {ولقد خلقناكم} يعني من العدم حيث لم تكونوا شيئاً {ثم صورناكم} هذا أيضاً خطاب من الله تعالى لنا، يخاطب حقائقنا في البدء قبل النشأة الأولى، أي: ثم بعد أن خلقناكم في يوم من أيامنا، صورناكم في أحسن تقويم، فخلقنا أصلكم الأول، يعنى سبحانه {آدم} في يوم من أيامنا، ثم أتممنا خلقه، ثم بعد ذلك كله نفخنا فيه من روحنا، فأبرزناه إنساناً سوياً وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فحقائقنا قبل إبرازنا في هذا الكون المحسوس كانت معلومة ومخاطبة](٢).

٤- ثم تعلقت به كن إيجاداً للحقيقة الإنسانية أولاً، التي هي الإنسان قبل بروزه في الأعيان الكونية: يوضح الإمام بعض معانى كلمة **(كن)** قائلاً:[كن هى سر القدرة التى تبرز ما قدره الله تعالى أزلاً فى آناتٍ معلومة، وبها تمام الوجود كله، وبها صار دالاً بوجوده على قدرة الله، فى إبراز ما يشاء وفق مراده

---

(١)سورة الأعراف آية ١١

(٢)الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٣٧، ٣٨

سبحانه. فكلمة كن ليست مركبة من حرفى الكاف والنون، ولكنها فى حقيقتها إرادة إلهية، ومشيئة ربانية، تبرزها قدرة أزلية، وحيطة علمية، وحكمة إبداعية، ووسعة أبدية، تجلت بمقتضى ظهور أسماء الله الحسنى، وصفاته الأسنى، التى بمقتضاها تكون كلمات الله فى غيب بطونها ظاهرةٌ جلية، كما تكون فى نفس الوقت فى نور ظهورها باطنةٌ خفية](١)، ويشرح الإمام بعض أسرارها فى مواجيده قائلاً(٢):

﴿كُنْ﴾ فِي ٱلْوَفَا مَرْأَىٰ عُيُونِ ٱلرُّوحِ ... وَلَدَى ٱلصَّفَا أَرْأَىٰ سَنَا ٱلسُّبُّوحِ
تُجْلَىٰ لِقَلْبِي فِي ٱلصَّفَا شَمْسُ ٱلْخَفَا ... فِي أُفْقِ أَعْلَىٰ بِٱلضِّيَا ٱلتَّصْرِيحِ
﴿كُنْ﴾ قَبْلَ تَكْوِينِي نَعَمْ لِي مَحْتِدِي ... تُنْبِي عَنِ ٱلأَسْرَارِ بِٱلتَّلْوِيحِ
أَخْفَتْ مَعَالِمِيَ ٱلأُولَىٰ بِضِيَائِهَا ... حَتَّىٰ بَدَا ٱلإِطْلاَقُ بِٱلتَّوْضِيحِ
فِي ﴿كُنْ﴾ أَنَا نُورٌ جَلِيٌّ مُشْرِقٌ ... خَافٍ فَلاَ أُدْرَىٰ بِغَيْرِ ٱلرُّوحِ
مِنْ قَبْلِهَا فِي ٱلْعِلْمِ كُنْتُ مُخَاطَبًا ... سِرِّي خَفِيٌّ لاَ تَفِيهِ شُرُوحِي
أَزَلاً لَقَدْ خُوطِبْتُ فِي ٱلأَعْرَافِ فِي ... آيِ ٱلسُّجُودِ لآدَمٍ مَمْنُوحِ
كَشْفٌ عِيَانٌ ﴿كَانَ﴾ لاَ فِي حَيْطَةٍ ... فِي حُظْوَةِ ٱلتَّقْدِيسِ وَٱلتَّسْبِيحِ
ٱلْعِلْمُ حَيْطَةُ صُورَتِي وَحَقِيقَتِي ... وَٱلْوَجْهُ نُورٌ مُشْرِقٌ لِلرُّوحِ

٥- ثم واثق الأنبياء لرسول الله ﷺ: ويصف الإمام هذا الطور من أطوار الحقيقة الإنسانية أنه يعد أول ميثاق يؤخذ على هذه الحقيقة ممثلة فى حقائق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، تصديقاً لقوله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه}(٣)، يقول الإمام:[واثق الله الرسل بدءاً له فكان المواثِق هو الله، والمواثَق حقائق الرسل صلوات الله عليهم، فأشهدهم ﷻ ظهوره حقاً في حقيقة حبيبه ومصطفاه(٤)، ليلحظوا بالعيون التي وهبها لهم محاب الله ومراضيه فيما تقتضيه تلك الحقيقة، فصارت بكمال الإستحضار معالم بين أعينهم في طورهم

---

(١) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٤٦٩، ٤٧٠

(٢)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٥٥٨، ص٤٥

(٣)سورة آل عمران آية ٨١

(٤) أى ظهور معانى أسمائه وصفاته وكمالاته فيه ﷺ، كقوله تعالى فى حق النبى: {بالمؤمنين رؤوف رحيم}.

الدنيوي، يمثلونها للأمم، ويرسمون صورتها على جواهر نفوس العالم، وتشرق بهم شمسه ﷺ.

ولم يخل سفر من الأسفار من لدن آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام إلا وتجمل بذكر اسمه، والحث على اتباعه والتوسل إلى الله تعالى بجاهه، كتم ذلك أعداء الحق من أهل الكتاب، ولكن القرآن الكريم بين لنا ذلك جلياً][1]، وعن هذا الميثاق الروحانى يبين الإمام أن الله سبحانه أخذ العهد بدءاً على سائر أرواح النبيين أن يؤمنوا به ﷺ وينصروه؛ ثم جاء ﷺ وأخذ البيعة لله ختماً وذلك فى قوله تعالى:{إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم}[2] فيقول[3]:

مِنَ ٱلْبَدْءِ فِي ٱلْمِيثَاقِ بَدْءُ حَنِينِي ... إِلَيْكَ أَيَاشَمْسَ ٱلْهُدَى ٱلتَّعْيِينِي
أَضَأْتَ عَلَى ٱلأَرْوَاحِ فِي ٱلصَّفْوِ مُشْرِقًا ... فَكُنْتَ إِمَامَ ٱلرُّسْلِ بِٱلتَّمْكِينِ
فَوَاثَقَهُمْ فِي ٱلْبَدْءِ لِلْفَرْدِ عُوهِدُوا ... وَمِنْكَ لَقَدْ شَرِبُوا طَهُورَ مَعِينِ
فَكُنْتَ بِمِشْكَاةِ ٱلنَّبِيِّينَ سَيِّدِي ... حَقِيقَةَ مِصْبَاحٍ ضِيَا ٱلْمَكْنُونِ
رَأَتْكَ نَعَمْ أَرْوَاحُهُمْ فَتَهَيَّمُوا ... فَكَانُوا هُمُو ٱلأُمَنَا لِحَمْلِ ٱلدِّينِ
أَنَابُوا عَنِ ٱلشَّمْسِ ٱلْعَلِيَّةِ قَبْلَ مَا ... تَلُوحُ عَلَى ٱلآفَاقِ فِي ٱلتَّكْوِينِ
فَكَانُوا هُمُو ٱلْمُثْلَ ٱلْعَلِيَّةَ بَيَّنُوا ... مَقَامَكَ بِٱلتَّلْوِيحِ وَٱلتَّبْيِينِ
نَعَمْ أَنْتَ نُورُ ٱللَّهِ فِي نَصِّ آيَةٍ ... لِكُلِّ رَسُولٍ بَلْ وَكُلِّ أَمِينِ
مَقَامُكَ فَوْقَ ٱلْعَقْلِ قَدْرًا وَرِفْعَةً ... فَأَظْهِرْ جَمَالَكَ كَيْ تَرَاكَ عُيُونِي
مَكَانَتُكَ ٱلْعَلْيَاءُ غَيْبٌ عَنِ ٱلنُّهَىٰ ... لأَنَّكَ ظِلُّ ٱللَّهِ فِي ٱلتَّعْيِينِ
لَقَدْ وَاثَقَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ سَيِّدِي ... لِيَنْتَظِمُوا فِي حِصْنِكَ ٱلْمَأْمُونِ
فَكُنْتَ إِمَامَ ٱلرُّسْلِ بَدْءًا وَخَاتَمًا ... وَمَبْنَاكَ لِلأُمَنَاءِ حِصْنٌ حَصِينِ
وَمَعْنَاكَ يَاخَيْرَ ٱلنَّبِيِّينَ غَامِضٌ ... عَنِ ٱلرُّوحِ فِي غَيْبِ ٱلْخَفَا ٱلْمَضْنُونِ
ظُهُورُكَ فَضْلُ ٱللَّهِ رَحْمَتُهُ لَنَا ... هُوَ ٱلشَّمْسُ قَدْ لاَحَتْ بِأُفْقٍ مُبِينِ
وَمِنْ فَوْقِ أَيْدِينَا يَدُ ٱللَّهِ سَيِّدِي ... لَدَىٰ بَيْعَةِ ٱلرِّضْوَانِ حَقٌّ يَقِينِ

---

(١) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص١٠

(٢)سورة الفتح آية ١٠

(٣)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٢٠٦٣، ص٤٣

٦- ثم كان يوم {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}: وفى هذا الطَور من أطوار الحقيقة يتحدث الإمام عن يوم من أيام الله يسميه "يوم ألست" وهو اليوم الذى خاطب فيه ربنا حقائقنا المجرده عن الماده، فأجابت الحقائق ناطقة بإجابة واحدة، قالها أهل الإيمان طوعاً، وقالها أهل الكفر والنفاق كرهاً، تمثل ذلك فى قوله تعالى:{وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى}(١). ونتحدث عن هذا اليوم تفصيلاً فى الفصل الرابع.

٧- ثم كان الخلاف بين الملائكة وبين الله تعالى: والخلاف الذى يعنيه الإمام: هو أن الملائكة فهموا شيئاً يخالف ما أراده الله من خلافة الإنسان، فسارعوا إلى سؤال ربهم على سبيل الإستفهام لا الإعتراض، يقول الإمام فى تفسير آية الخلافة: [ولما كان خليفة ربنا في الأرض سيد العالمين، وكان الملائكة قبل ذلك حاربوا الجن الذين كانوا عمار الأرض لإفسادهم فيها، وقد علموا من لفظة **(خليفة)** أنه لابد أن يكون وازعًا(٢) بين هذا النوع المختلف المتباين، الكثير الخطايا والمعاصي، لذلك كلِه: أرادوا أن تنكشف لهم الحكمة في جعل الخليفة في الأرض بين بنى جنسه من أبنائه، فسألوا ربهم -جل جلاله- مستفهمين استفهام من يريد كشف الحقيقة ومزيد العلم، فقالوا: {أتجعل فيها من يفسد فيها} كما أفسد الجن الذين حاربناهم، وسفكوا الدماء البريئة؟ ولما قالت الملائكة ما قالوا، لكشف الحكمة وعلم مراد الله تعالى من هذا، أجابهم سبحانه إجابة من علم نواياهم، واطلع على خفاياهم، وهم يسألون ربهم بقدر ما علموا، وهو سبحانه أعلم بهم..](٣). وكل هذه الأطوار قبل إبرازه في الكون المحسوس.

ب- أطوار الإنسان السبعة فى الكون المحسوس(٤):

١- كان الإنسان طينا.

٢- ثم كان نطفة.

٣- ثم كان علقة.

---

(١)سورة الأعراف آية ١٧٣

(٢)وازعاً أى : مانعاً

(٣)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج١، ص٩٨، ٩٩

(٤) الإمام أبو العزائم (هداية السالك الي علم المناسك) ط٤، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٦

٤- فمضغة.

٥- فعظاما.

٦- فكسيت العظام لحما.

٧- ثم أنشأه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وسنتناولها بالتفصيل فى حديثنا عن عالم الأرحام (وطن بطن الأم) فى الفصل الرابع.

ج- ثم جعل فوقنا سبع طرائق لا يصل الواصل إلى الله سبحانه إلا بمجاوزتها، وهي[1]:

١- الحظوظ الشهوانية.

٢- ثم حب الدنيا.

٣- ثم الآخرة.

٤- ثم الرؤية.

٥ - ثم الشهود.

٦- ثم الفناء عن كل ذلك بتركه.

٧- ثم الفناء عن الترك بترك الترك.

وبعد ما سبق نستطيع أن نقول أن نشأة الإنسان الروحانية قد سبقت نشأته الجسمانية، وأن الله تعالى قبل أن يُبرز الإنسان على مسرح هذا الوجود – المادى- فقد هيأه وأعده لإستقباله، ثم بين الإمام فضل هذا الإنسان على سائر المخلوقات. ثم وضح الحكمة والغاية من خَلق الإنسان، وأخيراً وضح الإمام أطوار الإنسان السبعة قبل إبرازه للكون المحسوس وهى أنه كان فى حضرة العلم، ثم خصصته الإرادة، ثم كان حقيقة إنسانية أمام الله تعالى، ثم تعلقت به كن إيجاداً للحقيقة الإنسانية أولاً- التى هى الإنسان قبل بروزه للأعيان الكونية- ثم واثق الأنبياء لرسول الله ﷺ، ثم كان يوم "ألست بربكم"، ثم كان الخلاف بين الملائكة والله تعالى.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦

الفَصْلُ الثَّانِي

مكونات الحقيقة الإنسانية

أولاً: الروح.

ثانيــاً: العقل.

ثالثــاً: الحس.

رابعــاً: النفس.

خامساً: الجسم.

مقدمة

يقول الله تعالى: {كما بدأنا أول خلقٍ نعيده}(١) وقد بدأ الإنسان نوراً(٢)، لأنه خلق الحقيقة الإنسانية قبل أن يخلق الكون، والإنسان أول مراد الله، وأول المراد آخر العمل، فخلق الله الكون على أكمل إبداع وأحكم صنع، لأن الحقيقة الإنسانية اقتضته، قال تعالى:{وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه}(٣)، وقد بيَّن الإمام فى غير موضع من تراثه أن الحقائق التى انطوت فى الإنسان خمس حقائق تكوِّن بمجملها الصورة الكاملة للحقيقة الإنسانية، وهذه الحقائق هى: الروح، العقل، الحس، النفس، الجسم؛ ولكل حقيقة من هذه الحقائق غذاؤها الذى يناسبها، فالروح غذاؤها الحكمة والمحبة، والعقل غذاؤه التعقل عن الله فى آياته، والحس غذاؤه المسرات الملكوتية، والنفس غذاؤها المحبة والعلم، والجسم غذاؤه الأكل والشرب، ولا يسعد الإنسان السعادة الحقيقية إلا إذا أعطى كل حقيقة فيه غذاءها المناسب لها، لذلك سنحاول التعرف على رؤية الإمام لهذه الحقائق من خلال تراثه النثرى والنظمى، لا سيما روايته (محكمة الصلح الكبرى) والتى اتضح فيها جزءاً كبيراً من رؤية الإمام لحقائق الإنسان، وقد صاغها بأسوب سهل ويسير، وكلمات مسجوعة حتى لا يملها القاريء، ولعله جعلها فى صورة رواية مسرحية ليبرز الدور الإيجابى لفن (المسرح) بوصفه وسيلة عصرية ملائمة لرقى الأمم ونهضة الشعوب، إذا أُحسن توجيهها، فعن طريقه يمكن توجيه الشعوب إلى المثل الإنسانية العالية، والحياة الإسلامية الفاضلة.

وتبدأ رواية (محكمة الصلح الكبرى) بلقاء بين (الخيال) المتجرد من كثافة الظلال، وهو مرآة المحسوسات، وبين (الوهم) بلا محيطات وهو مرآة

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٤

(٢)لأن روحه لطيفة نورانية وهى أول مكونات الحقيقة الإنسانية

(٣)الجاثية آية ١٣

المعنويات، وأخذ (الوهم) يبين (للخيال) عناءه مما شغله به الإنسان، من هجر للشريعة وارتكاب ما يخالفها، فإذا بالخيال يبادره نفس الشكوى، ثم يتوجهان سوياً إلى (العقل) ويعرضان عليه الحال ليهتديا إلى حسن المآل، فنصحهما (العقل) برفع هذه المظلمة إلى (محكمة الصلح الكبرى).. وهنا يتدخل الإنسان المتجرد بإملاء صحيفة افتتاح الدعوى.

وقد نُظرت الدعوى فعلاً أمام (محكمة الصلح الكبرى) التي شكلت هيئتها من رئيس المحكمة (العدل) وعضوية كل من (القسط والعلم والهدى والتوفيق) وكاتب الجلسة (أمين).

ومَثُل أمام المحكمة المدعون وهم العقل والفكر والروية والعفة والشجاعة والكرم والعدالة والنور والعزة والرحمة والنطق والخشية والحكمة. كما مثُل أمام المحكمة المتهمون وهم: النفس السبعية والنفس البهيمية والشهوة والجبن والبخل والتهور والغدر والحس والضيم والقسوة والجسم والتيه والحماقة.

وتقف كل نفس من هذه النفوس تبدي أوجه دفاعها بالحجج والبراهين، وبعد ثلاث جلسات من الاستماع إلى المرافعة ومواجهة بين الخصوم كل منهم للآخر، تصافحت النفوس المتصارعة في الإنسان، واصطلحت أمام هيئة المحكمة وجاء عقد الصلح يتضمن البنود الآتية:

١- أن تسارع النفوس إلى القيام بما أمرها الله به سبحانه بقدر الاستطاعة، وأن تترك ما نهاها الله عنه جملة واحدة.

٢- أن تجاهد النفوس ذواتها في الله حتى تطيع المنعم الجواد لتفوز برضاه.

٣- أن تحب النفوس الآخرة؛ لأن الله مدحها ورغبنا فيها، وتكره ما ذمه الشرع من الدنيا لأن الله ذمه وكرهنا فيه، كما فى قوله تعالى:{وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان}[1].

---

(١) سورة الحجرات آية ٧

٤- أن تحب رسول الله ﷺ حباً يجعلنا نتشبه به؛ فنحيي سـنته ونصـونها مـن التغيير والتبديل.

وقد تأشر على عقد الصلح هذا من رئيس المحكمة وحكمت المحكمة بإلحـاق عقد الصلح بمحضر الجلسة وإثبات محتواه فيه بما ينهي المنازعة.

ونبدأ فى عرض رؤية الإمام للحقائق الخمسة للإنسان الكامل، علماً بأن كـل حقيقة من هذه الحقائق الكبرى تنطوى فيها آلاف الحقائق الصغرى، يقول الإمام: [فِي ٱلإِنْسَانِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ حَقِيقَةٍ، بِحَيْثُ لَوْ عُرِفَ مُسَمَّى ٱلْحَقِيقَةِ مَا عُرِفَ كَنْهِيَّتُهَا، سُبْحَانَ ٱلْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا](١)، والحقائق الخمسة هى:

أولاً: الروح: لقد ذُكرت الروح فى القرآن الكريم فى خمسة وعشرين موضعاً، كما أنها كانت ولازالت محط اهتمام الفلاسفة والعلماء، والحكماء والأدباء، لما يحيط بها من غيوب وأسرار، فقد جاء قوم إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن الروح حين تحيروا فى فهمها، فقال سبحانه:{ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً}(٢)، والمتأمل فى الآية يجد أن رسول الله يخاطبهم بقوله:{وما أوتيتم} يعنى: أنتم، ولم يقل: وما أوتينا، لأنه لو قال: أوتينا لعاد الضمير عليه معهم، وهذا دليل على أنه قد أوتى ﷺ علم الروح، ولكن هذا العلم نفيس لا يباح إلا لأهله فقد كان رسول الله ﷺ يخص بعض أصحابه بعلوم لا يعلمها لغيرهم، بدليل ما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال:"حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم"(٣). وما دام الرسول ﷺ يعلم، فإن ورثته العلماء أيضاً يعلمون حقائق الروح من سر قوله ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء"(٤).

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص١٨

(٢) سورة الاسراء آية ٨٥

(٣) رواه البخارى حديث رقم (١٢٠)

(٤) أورده أبوداود (٣٦٤١)، وابن ماجة(٢٢٣)، والدارمي(٣٤٣)، وابن حبان(٨٨)، والبيهقي في الشعب(١٥٧١).

١- تعريف الروح: يعرف الإمام أبو العزائم الروح بقوله:[الروح هى الجـوهرة الربانية، واللطيفة النورانية، والحقيقة الإنسانية، والجسم ثوبٌ لها، وقد سـخر الله جميع العوالم للإنسان إكراماً لحقيقة الروح، والجسم يتمتع بذلك](١).

٢- ماهية الروح: يصفها الإمام بأنها:[ليست عرضاً ولا جوهراً؛ لأنها لو كانت كذلك لحيزها المكان، ولأدركتها الصبيان، ولم يختلف فيها اثنان، وكيف لا؟ وقد عجز العقل عن دركها، ورجع البصر خاسئاً عن أن تلوح له بارقة من أنوارها، ظاهرة الأثر خافية العين، بلا ريب ولا مين، لأنها من عـالم الأمـر وليسـت مجانسة للأشباح، ولا محيزة بالأفلاك والبطاح، وغاية ما وصل إلينا عنها، عجز أهل التحقيق عن درك شيء منها، إلا من اصطفاهم الله تعالى فزكـى نفوسـهم، وحفظ من الخطيئة حسهم، وأزال عنهم بنور اليقين لبسهم، وأشهدهم ملكوته فـي كل شيء، فمحت أنوار الملكوت الظل والفيء، فحصل اتحـاد الجسـم بـالنفس واتحاد الجسم بالحس، مسارعة إلى طاعة النفس، ولديها تلوح أنـوار الـروح، تجذب الكل إلى حضرة السبوح، فيفر الإنسان الكامل إلى فسيح الأرواح، مفارقاً لمقتضيات الأشباح، إلا ما لابد منه من لقيمات يقمن الصـلب، بعمـل مشـروع يطيب فيه الكسب، وقيام بواجبٍ فرضه الله، لمن كلفه به ﷻ لنيل رضاه، فراغـاً لقلبه من الشئون، وطهارة لسره ليفوز بالثواب حتى تكون النفس مـرآة لصـور الغيب المصون، والجسم مشكاة مضيئة بالفضائل للعيون، ولديها يكون الإنسـان كاملاً في نوعه، عاملاً لله في طوعه، لا يعصي الله ما أمره، ويفعل مـا يـؤمر شرح الله صدره، هل تلك الحقيقة النورانية تلوح للأبصـار؟ لا، بـل للبصـائر بمقدار، قال الله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِـيلاً}(٢) فهـى محجوبـة عـن الأبصار، لأنها مفارقة للمحيز من الآثار، وتعرف بأعمالها الحسان، ولا تظهـر جلية إلا في الجنان أو لنبي مرسل، وكيف تظهر وهي من نورٍ صـاغها الله، لا يشهدها إلا من صافاه، قال الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥٠

(٢)سورة الإسراء آية ٨٥

رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً}(١)](٢). ثم يوضح الإمام بعض معانى الروح على لسان العقل مخاطباً العدل -وهو رئيس محكمة الصلح- فيقول ﷺ (٣):

ٱلرُّوحُ يَا عَدْلُ فَوْقَ ٱلْعَقْلِ إِدْرَاكَا لَمْ تُدْرِكَنْ وَبِذَاكَ ٱلْعَقْلُ أَنْبَاكَا
قَدْ أَعْجَزَتْ وَهِيَ مِنْ آيَاتِ خَالِقِهَا فَكَيْفَ تُدْرِكُ يَا مَخْلُوقُ مَوْلَاكَا
ٱلرُّوحُ صِيغَتْ مِنَ ٱلنُّورِ ٱلْعَلِيِّ فَلَمْ تُدْرَكْ بِعَقْلٍ وَهَذَا ٱلْعَقْلُ أَفْتَاكَا
ٱلْكُلُّ فِيهَا حَيَارَىٰ جَلَّ مُبْدِعُهَا سَلِّمْ لِمَنْ بِجَلِيِّ ٱلْعِلْمِ نَاجَاكَا
يَا عَدْلُ تَسْأَلُ عَنْ رُوحٍ لَقَدْ حُجِبَتْ صَوْنًا عَنِ ٱلْحِسِّ وَٱلتَّحْقِيقُ وَافَاكَا
نَصُّ ٱلْقُرْآنِ بِأَنَّ ٱلرُّوحَ غَامِضَةٌ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ مَنْ بِٱلْفَضْلِ وَالَاكَا
ٱلْعَقْلُ نَائِبُهَا وَٱلْعَقْلُ رَائِدُهَا وَٱلْعَقْلُ غَيْبٌ وَبِٱلْإِحْسَانِ دَانَاكَا

٣- خَلق الروح: ثم يوضح أن الله ﷻ خلق الأرواح قبل الأشباح (الأجسام) فيقول ﷺ:[الله ﷻ خلق الأرواح قبل الأشباح وجملها بأربعة أسماء: حية، وسميعة، وبصيرة، ومتكلمة، قبل دخولها الأشباح، فللأرواح عيون ولكنها لا تبصر إلا بالبصير إذا سعدت بموالاة العليم الخبير](٤).

٤- ترقى الروح: ثم يكشف الإمام أن الروح تترقى فى المشاهد بحسب صفائها من أدران سُفلها، ونقائها من كثافة المادة التى تحجبها عن شهود مبدعها سبحانه، فيقول ﷺ:[ٱلرُّوحُ: مَشْهَدُهَا ٱلْمَلَكُوتُ، فَإِذَا صَفَتْ فَمَشْهَدُهَا حَضْرَةُ ٱلْعِزَّةِ، فَإِذَا تَجَمَّلَتْ بِنَفْخَةِ ٱلْقُدْسِ، فَمَشْهَدُهَا ٱلْجَبَرُوتُ، وَلِكُلِّ مَشْهَدٍ أَنْوَارٌ وَأَسْرَارٌ وَأَحْوَلٌ](٥)، فالروح: مشهدها الملكوت لأنها تكون فى مقام اليقين الذى أشهده الله لخليله إبراهيم عليه السلام فى قوله سبحانه:{وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت

(١) سورة الاسراء آية ٨٥
(٢) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص٦٠، ٦١
(٣) المرجع السابق، ص٦٢
(٤) المرجع السابق، ص٥١
(٥) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥٠

السموات والأرض وليكون من الموقنين}(١)، فإذا صفت فمشهدها: حضرة العزة، فتستمد من عزة العزيز سبحانه عزتها، تحقيقا لقوله تعالى:{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}(٢)، فإذا تجملت بنفخة القدس، وعادت إلى بدنها بعد التسوية باليدين فمشهدها الجبروت، وهى تجليات الجلال والهيبة والعظمة، ولكل مشهد من هذه المشاهد تجليات وأنوار وأسرار وأحوال، ولولا أن الروح تشتاق إلى العُلا، فتتلذذ بالحنين للرحمن، وتتنعم بالذكر والقرآن، لما صبرت وتحملت عزلتها عن عالم صفائها الأول، وبقائها فى سجن نأيِّها وهو الهيكل الجسمانى، فهى فى حالة اشتياق دائم لوجه ربها، يقول الإمام(٣):

لَوْلاَ حَنِينُ ٱلرُّوحِ لِلرَّحْمَٰنِ ... وَنَعِيمُهَا بِٱلذِّكْرِ وَٱلْقُرْآنِ
لَمْ تَصْطَبِرْ نَفَسًا بِهَيْكَلِهَا ٱلَّذِي ... هُوَ سِجْنُهَا عَنْ سِرِّهَا ٱلرُّوحَانِي
فَٱلرُّوحُ إِنْ لاَحَ ٱلْجَمِيلُ بِنُورِهِ ... حَنَّتْ إِلَيْهِ بِلَهْفَةٍ وَحَنَانِ
وَحَنِينُهَا أَبَدًا لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ ... حَتَّىٰ لَهَا يَبْدُو بِغَيْرِ مَكَانِ
أَيَاهَيْكَلَ ٱلتَّقْيِيدِ مَالَكَ كُلَّمَا ... ظَهَرَ ٱلْجَمِيلُ تَمِيلُ لِلأَكْوَانِ
هَٰذَا ٱلْجَمِيلُ إِذَا تَجَلَّىٰ لَحْظَةً ... مَالَتْ لَهُ ٱلأَرْوَاحُ بِٱلإِمْكَانِ
وَٱلْهَيْكَلُ ٱلأَدْنَىٰ يُقَيِّدُهَا إِلَىٰ ... نَيْلِ ٱلْقَلِيلِ وَبَهْجَةٍ بِٱلدَّانِي
خَلِّ سَبِيلَ ٱلرُّوحِ تَشْهَدْ سِرَّهَا ... فَهْيَ ٱلْمُرَادَةُ لِلصَّفَا ٱلصَّمَدَانِي

٥- **العلاقة بين الجسم والروح:** معلوم أن الروح فى ولهٍ دائم وشوق للوصل للأحدية التى شهدتها فى يوم العهد والميثاق المذكور فى قوله تعالى:{واذ أخذ ربك من بنى أدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم ...}(٤)، ولولا ما تتنعم به الروح فى دار الدنيا من الذكر والقرآن، لفرت من هذا الجسم الطينى لتكون فى حضرة

(١) الأنعام آية ٧٥
(٢) المنافقون آية ٨
(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيده ٣٤٦٨، ج٤
(٤) سورة الأعراف آية ١٧٢

الإطلاق، تسبح فى أنوار العزة كما كانت قبل أن ترتبط بالجسم وتحجب بالكون عن شهود الأسرار الإلهية، يعبر الإمام عن هذا المعنى فيقول بلسان الروح(١):

لِـــي غَـــرَامٌ مِـــنْ نَشْـــأَتِي ٱلأَوَّلِيَّـــهْ   حِينَ وَاجَهْــتُ وَجْــهَ رَبِّ ٱلْبَرِيَّـــهْ
لاَحَ لِي ٱلْوَجْهُ فِي صَفَا ٱلرُّوحِ أَحْيَىٰ   ذَا غَـــرَامٍ إِلَـــى ٱلْمَعَـــانِي ٱلْعَلِيَّـــهْ
كُـــنْتُ رُوحًا أَشْتَاقُ وَٱلنُّورُ حَـــوْلِي   صِرْتُ جِسْمًا فِـــي دَارِ دُنْيَـــا دَنِيَّـــهْ
كَيْفَ صَبْرِي مِنْ بَعْدِ رُؤْيَـــةِ وَجْـــهٍ   فِي صَفَاءٍ عَـــنْ صُـــورَةٍ مُثْوِيَّـــهْ؟!
ظِلُّ كَوْنِي قَدْ حَجَّبَ ٱلرُّوحَ وَيْحِـــي   عَنْ شُهُودِ ٱلأَسْرَارِ فِـــي ٱلصَّـــمَدِيَّهْ
أَنْتَ يَاجِسْـــمُ قَـــدْ سَـــتَرْتَ حَبِيبِـــي   صِـــرْتَ يَاجِسْـــمُ لِلْقَرِيـــبِ بَلِيَّـــهْ
خَـــلِّ رُوحِـــي تَفِـــرُّ لِلَّـــهِ إِنِّـــي   فِي هُـــيَامٍ لِلْوَصْـــلِ فِـــي ٱلأَحَدِيَّـــهْ

ثم يرد بلسان الجسم:

قَالَ لِي ٱلْجِسْمُ: صَاغَنِي ٱللَّـــهُ رَبِّـــي   بِٱلْيَـــدَيْنِ فَأَشْـــهَدْ جَمَـــالَ ٱلْعَطِيَّـــهْ
كَانَتِ ٱلرُّوحُ قَـــبْلَ حِـــينِ وُجُـــودِي   فِي حِجَابٍ مِـــنْ مَشْـــهَدِ ٱلْوَاحِدِيَّـــهْ
فِـــيَّ قَـــدْ شَـــاهَدَتْ جَمَـــالَ جَمِيـــلٍ   فِي مَقَامِ ٱلأَعْلَـــيْنَ فَٱشْـــكُرْ أُخَـــيَّهْ
سَـــخَّرَ ٱلْعَـــالَمِينَ عُلْـــوًا وَسُـــفْلاً   لِيَ يَارُوحُ كُـــونِ عَـــنِّي رَضِيَّـــهْ
إِنَّنِي ٱلْكَـــنْزُ فِيَّ غَـــيْبُ ٱلْمَعَـــانِي   صَـــاغَكِ ٱللَّـــهُ بِٱلْيَـــدِ ٱلرُّوحِيَّـــهْ
صَـــاغَنِي ٱللَّـــهُ بِٱلْيَـــدَيْنِ وَأَنْـــتِ   بِـــيَ نِلْـــتِ طَهُـــورَهُ ٱلأَحْمَدِيَّـــهْ
قَالَـــتِ ٱلـــرُّوحُ: أَنْـــتَ يَاجِسْـــمُ رَقٌّ   أَشْـــرَقَتْ فِيـــكَ شَمْسُـــهُ ٱلأَوَّلِيَّـــهْ

ثم يوضح أن كلاً من الروح والجسم منجذب إلى عالمه وإلى ما يجانسه مـــن أصل خلقته، فيقول بلسان الروح(٢):

تُجَانِسُ يَاجِسْـــمِي عَـــوَالِمَ تَكْـــوِينِي   لِذَاكَ حَنِينُ ٱلْجِسْمِ لِلْحُـــورِ وَٱلْعِـــينِ
وَجَوْهَرِيَ ٱلْعَالِي مِنَ ٱلنُّـــورِ شَـــوْقُهُ   إِلَىٰ غَيْبِ غَيْبٍ فِي صَـــفَا تَمْكِينِـــي
مِنَ ٱلْبَدْءِ كُنْتُ ٱلنُّورَ مَعْنَىٰ صِـــفَاتِهِ   وَأَنْتَ أَيَاجِسْـــمِي بِأَسْـــوَارِ تَلْـــوِينِي

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيده ٢٤٤٠، ص ٣١٨

(٢) المرجع السابق، قصيدة ٣٠٣، ص٢١٤

وَضِدَّانِ يَاجِسْــمِي وُجُــودُ حَقِيقَتِــي بِسُــورِكَ وَٱلْقَهَّــارُ فِيــكَ مُعِينِــي
تُجَانِسُ هَٰذَا ٱلسُّفْلَ سُورِي وكَيْــفَ لاَ وَجِسْمِيَ مِنْ طِينٍ وَمَــاءٍ مَهِــينِ؟!
وَجَوْهَرِيَ ٱلصَّافِي مِنَ ٱلْمَلاِ ٱلْعَلِــي يَرَى ٱلْوَجْهَ مَا وَلَّيْتُ لِلَّــهِ يَهْــدِينِي

فيجيبها الجسم مبيناً ما نالته الروح بسببه من الإكرام والإنعام:

بُرَاقٌ أَيَــارُوحُ لَــكِ ٱلآنَ فَٱشْــكُرِي عَلَــىٰ نِعْمَــةِ ٱلتَّحْقِيــقِ وَٱلتَّعْيِــينِ
لَقَدْ صَاغَكِ ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْ نُورِ وَصْــفِهِ وَقَدْ صَاغَنِي ٱلرَّحَمَٰنُ مِنْ حَمَإِ ٱلطِّينِ
فَكُنْتُ لَكِ ٱلْمِعْــرَاجَ لِلْقُــرْبِ وَٱللِّقَــا وَكُنْتِ لِيَ ٱلْمِصْــبَاحَ نُــورَ مُبِــينِ
هَلُمَّ بِنَا يَارُوحُ لِلْقُــرْبِ كَــيْ تَــرَيْ جَمَالَ ٱلتَّجَلِّي بَعْــدَ رَشْــفِ مَعِــينِ
لأَجْلِــيَ يَاإِنْسَــانُ جِسْــمًا لَطِيفَــةً لَقَدْ سَخَّرَ ٱلأَكْوَانَ لِــي فِــي ٱلــدِّينِ
وَهَأَنَــا يَــارُوحِي لأَجْلِــكِ هَــائِمٌ صَبَاحًا مَسَــاءً فِــي شَــدِيدِ جُنُــونِ
خُذِينِى وَفِرِّي بِي إِلَىٰ عَــالَمِ ٱلصَّــفَا فَإِنَّكِ مِنْ غَيْــرِي بِحَجْــبِ سُــكُونِ
لأَجْلِيَ هَٰذَا ٱلْبَحْــرُ وَٱلْبَــرُّ وَٱلسَّــمَا وَبِي صِرْتِ يَارُوحِي بِحِصْنِ أَمِــينِ
لأَجْلِــيَ جَنَّــاتُ ٱلنَّعِــيمِ وَحُورُهَــا إِلَيْهَــا أَيَــارُوحِي يَطُــولُ حَنِينِــي
وَأَنْتِ لَكِ ٱلْغَيْبُ ٱلْمَصُونُ فَلاَ يُــرَىٰ لأَنَّــكِ يَــارُوحِي ضِــيَاءُ مَتِــينِ

فالروح من عالم الملكوت الأعلى، وهو عالم الأمر، قال تعالى: {ويســئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي}(١)، والجسم من عالم الملــك، وهــو عــالم الخلق، قال تعالى: {إنى خالق بشراً من طين}(٢) وهما ضدان لا يجتمعان، فكيف اجتمعا؟ وما الذي ألف بينهما؟

مسألة تدعوا إلى الحيرة!!، ولكن وجدت جوابها فى قول الإمام ﷺ: [الجسم من الملك والروح من الملكوت، وهما ضدان لا يجتمعــان إلا بــإذن خالقهمــا، والإذن نفخة القدس(٣)](٤)؛ ولا تتم سعادة الإنسان الا إذا حدث التوازن مــا بــين

---

١) سورة الإسراء آية ٨٥

٢) سورة ص آية ٧١

٣) إشارة إلى قوله تعالى: {ونفخت فيه من روحى} فألفت النفخة بين الروح اللطيف والجسم الكثيف.

٤) المرجع السابق ص٤٠

متطلبات الروح ومقتضيات الجسم؛ وهذا هو الكمال المنشود. ولا يكون ذلـك إلا باتباع الشرع الشريف، الذى يعطى كل حقيقة مقتضاها، أما إذا تغلـب أحـدهما على الآخر –بمخالفة الشريعة– فهذا نقص ينافى الكمال كما يقول الإمام: [لـيس بكامل من قهرت روحه جسمه، وليس بمسلم من قهر جسمه روحه، والكامل من أعطى كل حقيقة من نفسه قسطها](1). ويقول ﵁: [الجسم يتألم من تغيرات الجو، من حر وقر، والروح تأنس وتوحش، بالكشف أو الحجب، بعمل الخير أو الشر، ومسلم لا روح له، تحس بالنور والظلمة، أو الأنس والوحشة، فليس بمؤمن، لأنه مع الأموات، وعدو نفسه، وجسم حى يحس بالتغيرات الجوية، وليس لـه روح، تحس بالطاعات والمخالفات، فهو مع الأمـوات... أيهـا المسـلم: تعـد للحـر الملطفات، وتعد للبرد المدفئات، وتغفل عما يؤلم الروح وهـو شـر البليـات!! فالجسم الذى لا يتأثر ولا يتدبر، أضل من البهائم فى دنياه، وهو بعد موتـه فـى العذاب الدائم، أنت لا تطيق حرارة الصيف، ولا بـرد الشـتاء، فكيـف تطيـق بالمعصية عذاب الحطمة فى الشقاء؟!!](2).

ثم يبين الإمام أن الجسم هو صورة قد براها الحق سبحانه، فهو كنز الآيات، ومظهر التجليات، وبيت المعالى، وأفق الأنوار، يقول ﵁(3):

ما هو الجسم؟! صورة قـد براهـا	واهب الفضـل والعطـا الإمـداد
وهو كنز الآيات لـو فـك لاحـت	شمس حق تضـيئ كـل الوهـاد
كـان طينـاً فصـورته يمـينٌ	قد تعالـت عـن نسـبة الأعـداد
هو كنـز العلـى بيـت المعـالى	هو أفـق الأنـوار سـرُ الـوداد
يا عذولى جسـمى لآى المعـانى	لوح محفوظها وكرسـى رشـادى
فيه قلبى عـرش اسـتواءٍ وبيـتٌ	عـامرٌ بالجميـل نـور الهـادى
ليس جسمى جسمٌ يحجِّـبُ سـرى	عـن شـهودى تنـزل الجـواد

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥١

(٢)الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص١٨١

(٣)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٤٤٣٨

من بيمناه صـــور الجســـم فـــافهم وحبــــــاه بنفخـــــــة الإســـــعاد
أســـجد الأنفـــس الزكيـــة شـــرفاً لجمالٍ فى صـــورتى صـــار بـــاد
صـــورتى صـــورة تبـــين معنـــى مـــن معـــانى التوحيـــد والإتحـــاد
صورة الحق مـــن يراهـــا بقلـــبٍ يحظ بالقرب بعـــد طـــول البعـــاد
كيف لا أشـــهد التجلـــى بجســـمى وهو كنز الأسرار بيـــتُ الأيـــادى

ثم يبين الإمام ما نالته وشهدته الروح بفضل اتصالها بهذا الجسم فيقول بلســـان الروح:

أنـــا روح والجســـم ســـر رقـــى وكمـــالى بـــه ونيـــل مـــرادى
كنت روحاً مجـــرداً قبـــل جســـمى فـــى فســـيح الملكـــوت بالإعتقـــاد
صـــرت بالجســـم والهـــاً ومعنـــى بجميـــــل بـــــه إليـــــه قيـــــادى
آه لـــو لحظـــةً تطهـــر جســـمى خدمتـــــه الأمـــــلاك بالإنقيـــــاد
أنت يا جسم مقعـــد الصـــدق بيـــتٌ لك ســـارع إلـــى الـــولى الهـــادى
فيـــك راح وفيـــك نـــورٌ مبـــينٌ لـــو تـــراءى بلغـــت كـــل المـــراد
صـــلوات علـــى وســـيلة قلبـــى حصن جسمى المضيئ لى فى فؤادى

فالهيكل الجسمانى قد صاغه الله باليدين ليكـــون ســـدرة لظهـــور المعـــانى الروحانية، وليكون بيتاً عامراً بتجليات معانى الأسماء والصفات الإلهية، تظهـــر هذه المعانى جلية فى وصف الإمام لهذا الهيكل الإنسانى بقوله(١):

هيكلـــى ســـدرةٌ غشـــتهُ المعـــانى ظللتـــــهُ بنورِهـــــا الرحمـــــانى
بعد صوغِ اليـــدينِ بـــدءاً تـــراءت فيـــهِ أوصـــافه لعـــينِ العيـــان
صـــاغَ عرشـــاً للإســـتواءِ وبيتـــاً عـــامراً منـــهُ بالجمـــالِ المصـــان
ثم ســـواهُ أفـــقَ شـــمسٍ أضـــاءت نفخـــة القـــدس.. صـــورة الـــديان
ظللتـــهُ الأســـماءُ مـــن مقتضـــاها عينتـــــهُ زجاجـــــةً للبيـــــان

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ١١٦٥

وهو فى السفلِ فوقَ أعلى وعــالٍ كنزُ غيبٍ فــى الهيكــل الإنســانى
فيه غيــبٌ يجلــى لعــالين عينــاً وهو خافٍ عــن كــل عــالٍ ودان
وهو طينٌ.. بل وهو مــاءٌ مهــينٌ أعجــزَ العــالمينَ فــى الإمكــان
فوق تربٍ يمشى وفى أفق أعلــى نــوره مشــرقٌ لأهــلِ التــدانى
ذا عجيبٌ جسم من التربِ تخفــى فيــهِ آى فــى حيطــة الأكــوان
ســخر العــالمين علــواً وســفلاً مبــدعُ الكــونِ للمحــاطِ الــدانى
كيف لو لاحَ بــارقٌ مــن جمــالٍ مــن علــيٍ ومبــدعٍ للكيــان
أثبــت العجــزَ للعــوالم طــراً عن شهودِ المَكُونِ فى ذى المبــان

ثم نراه ﵁ يخاطب هذا الهيكل الجسمانى ويحثه على اتباع منهج الحبيــب ﷺ ، وأن ينفذ من أقطار إنسانيته ليمنح الصفا، وضيا الرضــوان الإلهــى، ويفــوز بمقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، فيقول ﵁:

فــالزمن رتبــة العبــودة واعلــم أن مــا فيــك آيــةَ البرهــان
ظــلُ معنــاهُ للتقــربِ منــهُ أنتَ طينٌ فاحــذر مــن النســيان
نــورهُ أنــتَ لا لتظهــرَ لكــن كــى يــرى نــورَهُ بــهِ العينــان
وادكــرهُ بــاليقينِ عهــداً وثيقــاً وانفُــذَن بالصــفا مــن الإنســان
واتبــع مــنهجَ الحبيــبِ وســارع للصفا تُمــنحن ضــيا الرضــوان

فإذا اتبع الجسم المنهاج، تنورت ظلماته، وصفا ورق وجانس الروح، ورقى بها ومعها إلى عليين وأعلى عليين، وصار مســطور البهــاء الأكمــل، ومــرآة الصفات، وصورة قد غشاها النور، ولوحٌ للمعانى تومى للجمال المُجمَــل، كــل هذه المعانى يعبر عنها الإمام ﵁ بقوله:

هيكلــى طــينٌ ونفخــةُ قدســه أســجدت أملاكــهُ فــى المنــزل
غابَ فى بــدئى جمــالاً لاحَ لــى فى رسومى حيثُ رســمى هيكلــى
هيكلــى لــوحُ المعــانى سُــطرت فيــه تــومى للجمــالِ المُجمَــل
فصّل الهيكلُ مُجمَــلَ مــا خفــى فى شــهودِ الــروحِ معنــى الأول
هيكلــى كــانَ الحجــابُ وظلمــةً صارَ مســطورَ البهــاءِ الأكمــل

صرتُ مرآةَ الصـفاتِ وصـورةً قد غشـاها النـورُ جـذباً للعلـى

هذا عن الهيكل، أو الناسوت، أو الرسم، فماذا عن الشق الثانى من طرفى المثنوية فى خلق الإنسان؟ إنها الروح التى هى اللطيفة النورانية، والمدامة الربانية، والراح الطهور، التى حدثنا عنها الإمام قائلاً[1]:

روحى لقد سكِرت لما لها ظَهَـرت شمسُ الحقيقةِ بـالأنوارِ واتضـحت
هامـت فقيـدَها ناسـوتُها فغـدت تومى إلى أصلِها حتـى بـه لحقـت
ومزَّقَت عرضاً فى السيرِ عارضها فعاينَت حِكمـاً منهـا لهـا لَمَعـت
تنوَّرَت عندما كُشِف الحجابُ لهـا وميضُ أصلٍ سما منهُ لقد سـطعت
حنت إليهِ ومالـت نحـوهُ وعـلا غرامُها وبمـا فيهـا لقـد مُحقـت
وترجمت وهى فى بستان نشـوتها وحالةُ السكرِ والأشواقِ قـد غلبـت
طربت وغنت بألحـانٍ مطلسـمةٍ تَخفَى على نسبةٍ بالعقلِ قـد عُقِلَـت
هذا الجمالُ تجلى وهـى مظهـرُه والنورُ منها لها والحُجُب قد كُشـفت
كيفَ التسترُ والأشـواقُ تـدفعنى وآيةُ الحسنِ فى ذاتى بـه نُسـخت؟!
وهـذه الـراحُ لا أنفَـكُّ أشـربُها من غيرِ مزجٍ بلا قدحٍ سَمت وصَفت
قم يا مرادى تناول منك مظهرهـا وشُم طيبَ شـذاها عنـدما مُزجـت
واسمَع أحاديثها واعدَم وجودَك في وجودِها واحفظِ الأسرارَ إن سَـمحَت

يوضح الإمام ﷺ في الأبيات السابقة أن الروح كانت حبيسة سجن نأيها الطينى، خلف كثافة حجاب جدران الجسم، بعيدة عن أوطانها النورانية الأولى، مشغولةً في غفلتها بمتطلبات الجسم من حظٍ دنى، وشبعٍ وريَّ، فلما أدركتها عناية الرؤوف الرحيم، وفك قفلها ورفع غطاؤها، ورق حجابها، نظرت أنوار شموس الحقائق من خلف ستارة الآثار والأكوان، ورشفت من طهور معانى أصلها النورانى الأول، فسكرت، وهامت، وحنت، واشتاقت، ثم سارعت إلى الفرار منها إليه – سر قوله تعالى {ففروا إلى الله}– من ظلمة سجنها إلى نور

---

(١) الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٥٤٣١

أصلها، ومن غربة نأيها إلى أوطان أنسها وقربها ووصالها، ولكن هيهات لها ذلك، وهى مازالت مقيدةً بطينة جسدها، وكثافة ناسوتها، فأخذت ترغِبهُ في هذا الجمال، وتحثهُ على الجهاد والكفاح، وتومى له إلى عالم الطهر، وتذكره بأيام الصفو والأنس في أوطانهما الأولى حينما كانا مجرد حقائق ومعانى، وما زالت به حتى رق جسدها، وصفت زجاجة ناسوتها، وجانسها في لطافتها، فصفت المادة في تكوين هذا الإنسان الذى تكمل بالشرع على الوجه الأكمل، فما عادت العين المشاهدة تلحظ وجوده من شدة صفاء زجاجة هيكله، وسطوع أنوار الروح عليه.

وهذا التصور لصفاء ورِقة مادة الجسم في هذا الإنسان الكامل ليس غريباً، فهو نفس التصور القرآنى لصفاء ورقة مادة الجسم في الإنسان الأول – آدم وحواء– حينما كانا في صورة أحسن التقويم، يرتعان في رياض الجنة، قبل أن يُردا إلى أسفل سافلين، ويعصيا ربهما، ويأكلا من الشجرة، فكانت النتيجة: فبدت لهما سوآتهما، ولتتدبر معى كلمة (بدت) أى: ظهرت، وهذا دليلٌ على أنها كانت موجودة، أى أن مادة الجسم في الإنسان الأول كانت موجودة، ولكن لشدة صفائها ورقتها مع شدة توهج أنوار الروح عليها، لم تكن تبدوا للعيان، فلما عصى آدم ربه وأكل من الشجرة، ظهرت كثافة المادة، وحجبت أنوار الروح، فبدت لهما سوآتهما، وهذا دليل على أن التغير لم يكن في الوجود –وجود المادة– وإنما كان التغيير والتبديل في الشهود – شهود كثافة المادة بعد فقدها لصفائها ورقتها– ولذلك كان لابد لذلك الإنسان الأول من الخروج من عالم اللطافة والصفاء، والهبوط إلى عالم الأرض والكثافة والحجاب، وذلك لعدم مجانسة هذا الإنسان بمادته الكثيفة لعالم الملأ الأعلى، حتى يجاهد نفسه ومقتضيات جسمه ليصفوا به ويرق، للعودة إلى أوطانه الأولى ويتبوأ مكانته في أعلى عليين سُلم الوجود، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وذلك هو الكمال الحقيقى للإنسان.

ويختصر الإمام جزئية العلاقة بين الجسم والروح فيبين أن العلاقة بينهما هى كالعلاقة ما بين لفظ الكلمة ومعناها، فيقول ﷺ[1]:

أنا الاهوتُ إن حققتَ وصفى * وناسوتى هو الرمز المربى

وفى هذا البيت يقول الإمام (أنا اللاهوت) ويقصد باللاهوت كل ما فى الإنسان من حقائق روحية وأنوار إلهية وجمالات ربانية وتجليات عرفانية لمعانى كلمات الله فى هذا الوجود، سر قوله تعالى:{فإذا سويته ونفخت فيه من روحى}، وقوله تعالى:{قل الروح من أمر ربى}[2]، وقوله تعالى: {إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه}[3]، وهذه حقيقة الإنسان، كلمة الله وروحٌ منه، وكل ما سبق يمثل الشق اللاهوتى – الروحانى– فى الإنسان.

وفى هذا البيت أيضاً يشير الإمام إلى أن حقيقة الإنسان الكامل فى جوهره ومعناه وليست فى ظاهره ومبناه مصداقاً لقول سيدنا رسول الله ﷺ: "رب أشعث أغبر مدفوعٌ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره"[4]، ثم يشير الإمام إلى الشق الآخر فى الإنسان فيقول: (وناسوتى هو الرمز المربى) والناسوت هو كل ما فى الإنسان من عالم المادة والتراب، والمظاهر والآثار، وفى هذه الإشارة الكثير من المعانى.

أول هذه المعانى أن الإنسان هو كلمة الله المرموزة فى هيكله الجسمانى، والكلمة كما نعرفها لها معنىً يُفهم، ولفظ ينطق، ولا تكتمل إلا بهما، فالمعنى بدون لفظ ما هو إلا فكرة أو خاطر، وليس كلمة، كما أن المعنى جوهر لا يتجزأ فالخوف والرحمة وغير ذلك من المعانى هى جواهر لا تتجزأ فى معناها، ولكن

---

(١) الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٨١٨٧

(٢) سورة الإسراء آية ٨٥

(٣) سورة النساء آ١٧١

(٤) رواه مسلم فى صحيحه

لفظ الكلمة هو مبنى، يتكون من أجزاء وهى حروف الكلمة، وعند نطق الكلمة نلاحظ أن اللفظ يظهر المعنى شيئاً فشيئاً حتى تكتمل الكلمة، فيظهر المعنى.

وإذا تأملنا أكثر فإننا نلاحظ أن المعنى يتربى كما يتربى الطفل الوليد شيئاً فشيئاً بين حروف الكلمة، فيبدوا معنى ما قصده الإمام فى قوله:

أنا الاهوتُ إن حققتَ وصفى * وناسوتى هو الرمز المربى

أى أن الإنسان فى كماله يتكون من معنى ومبنى، لاهوت وناسوت، روح وجسم، وحقيقة الإنسان فى معناه لا فى مبناه، وهذا المعنى الحقيقى فى الإنسان يظهر فى الوجود الكونى شيئاً فشيئاً مع توالى نمو الجسم أو الناسوت، حتى تكتمل دورة تربيته ببلوغ الجسم أشده، فيبدوا على الصورة التى هداه الله إليها: {إما شاكراً وإما كفورا}(١).

وبذلك شبه الإمام حقيقة الإنسان الكامل بمعنى الكلمة، وشبه جسمه برمز الكلمة، كما شبه المعنى بالطفل الذى يتربى بين حروف اللفظ حرفاً حرفاً، حتى يبلغ أشده باكتمال حروف اللفظ، ونطق الكلمة كاملة الحروف واضحة المعنى.

٦- **أحوال الروح:** ويقربنا الإمام أكثر إلى حقيقة الروح فيقول رضي الله عنه: [والروح أقرب للإنسان منه إذا فكر؛ فالروح فى النوم تسبح فى الملكوت، لأنها تكون فى الموتة الصغرى غير مقيدة بكثافة الجسم، أو محددة بقيود المُلك، أما فى اليقظة فإنها تسبح فى القدس الأعلى وهى فى حال الصلاة، لأنها تكون مواجهة للطيف الخبير فى حال الشهود لأنوار الملك القدير](٢)، وهذا يعطينا فهماً لما جاء فى الحديث الشريف "والصلاة معراج"(٣) أى أن الصلاة هى محل عروج الأرواح وترقيها. أما فى النوم فالروح لا تنام لأن النوم أخو الموت وهو من مقتضيات

---

(١) سورة الإنسان آية ٣

(٢) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٥٠

(٣) أورده النيسابوري في تفسيره، والسيوطي في شرح سنن ابن ماجة.

البشرية ومتطلبات الجسمية، فينام الجسم وتبقى الروح يقظى لا تنام، فتشهد ما يراه النائم حال الرؤيا والمنام، يقول الإمام ﷺ[1]:

وما النومُ إلا الموتُ قهراً، لطيفتي حرامٌ عليها النومُ ليست من التُربِ
فنم هيكلى فالروحُ يَقظَى مشوقةٌ إلى أصلِها العالى من النورِ و الغيبِ

٧- **غذاء الروح:** يقول الإمام:[فَاقِدُ ٱلأَب: ٱلرُّوحُ، فَهِيَ ٱلْيَتِيمَةُ ٱلَّتِي لاَ أَبَ لَهَاَ، وَإِنَّمَا نُفِخَتْ فِيكَ لِتَنْفَعَكَ بِغِذَائِهَا، وَإِنَّمَا غِذَائُهَا تَفْرِيدُ ٱللَّهِ –تَعَالَىٰ– بِٱلْقَصْدِ بعد تحقُقِكَ بتوحيدِ الإتحاد، وبعد مطالعةِ الحدِ والإيمانُ بظاهرِ القرآنِ وشهودِ باطنه][2]. ويقول ﷺ:[ٱلْعِلْمُ: غِذَاءُ ٱلأَرْوَاحِ، وَهُوَ عِبْءٌ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلأَشْبَاحِ، لاَ تَميلُ إِلَيْهِ إِلاَّ بِخَوْفٍ وَطَمَعٍ][3]، يقول الإمام شارحاً بعض معاني الروح [4]:

هِيَ ٱلرُّوحُ تُسْتَجْلَىٰ بِهَا ٱلأَوْصَافُ يُفَاضُ عَلَيْهَا ٱلنُّورُ وَٱلأَلْطَافُ
وَهَيْكَلُ ذَاتِي ثَوْبُهَا سَاتِرٌ لَهَا وَلَوْحٌ بِهِ قَدْ يَشْهَدُ ٱلْعَرَّافُ
هِيَ ٱلرُّوحُ سِرُّ ٱلْغَيْبِ صُورَةُ رَبِّهَا وَجِسْمِي هُوَ ٱلْمِعْرَاجُ أَوْ خَلاَّفُ
يُحَجِّبُهَا عَنْ أَنْ تَسُوحَ إِلَى ٱلْبَهَا بِهِ يُمْنَحُ ٱلإِقْبَالَ وَٱلإِشْرَافُ
يَلُوحُ لَهَا مِنْ نَفْخَةِ ٱلْقُدْسِ سَاطِعٌ فَتَشْهَدُ غَيْبًا بَيَّنَتْ أَعْرَافُ
هِيَ ٱلرُّوحُ مِصْبَاحٌ وَقَلْبِي زُجَاجَةٌ وَهَيْكَلِيَ ٱلْمِشْكَاةُ وَٱلإِسْعَافُ
إِذَا نَوَّرَ ٱلْمِشْكَاةَ فِيَّ زُجَاجَةٌ لَدَيْهَا فَخَوْفِي رَهْبَتِي إِنْصَافُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ ٱلرُّوحُ إِلاَّ عَنَاصِرًا تُدَارُ لَدَىٰ صَفْوِي عَلَيَّ سُلاَفُ
فَتَسْكَرُ رُوحِي مِنْ مُدَامٍ طَهُورَةٍ وَيَعْجِزُ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَقِيقَةِ عَرَّافُ
أَنَا مَنْ لَدَيْهَا غَيْبُ غَيْبٍ مُجَمَّلٌ جَمَالِيَ نُورُ ٱلْغَيْبِ بَلْ أَوْصَافُ
تُضِيءُ بِيَ ٱلأَوْصَافُ لِلْعَاشِقِ ٱلَّذِي لَقَدْ فَرَّ لِلْمَحْبُوبِ صَحَّ طَوَافُ
يَطُوفُ حَوَالَيْ كَعْبَةِ ٱلذَّاتِ وَاجِدًا وَكُلُّ سِوَى ٱلْمَحْبُوبِ ثَمَّ يُعَافُ
وَلِي فِي ٱلصَّفَا حَالٌ عَلِيٌّ إِذَا ٱنْجَلَىٰ لأَهْلِ ٱلصَّفَا نِيلَتْ بِهِ ٱلأَلْطَافُ

---

(١)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٥٧٠٥،ج٦، ص١٥١
(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥٠
(٣) المرجع السابق، ص٣١٠
(٤) لإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيده ٢٤٤٦، ص٣٢٣

فالروح بغيتها الشهود فى كل أوطانها، فى وطن {ألست} كانت تشهد وجه ربها، وفى بقية الأوطان تشهد تجليات معانى الأسماء والصفات الإلهية، وشهود الآيات المسطرة فى الكائنات. وشهود المعانى وراء المبانى، فتشهد فى الرزق الرزاق، وفى العطاء المعطى، وفى النعمة المنعم، وفى الذكر المذكور...إلخ، وقد أكد الإمام على هذا المعنى فى الكثير من المواجيد، فنراه يبين أن الروح قد شهدت وجه ربها فى يوم {ألست} فيقول ﷺ(١):

ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ حَالَ ٱلْبَدْءِ مَوْلاَهَا لَمَّا ﴿أَلَسْتُ﴾ تَجَلَّىٰ ثُمَّ نَادَاهَا

ثم يبين فى قصيدة أخرى أن الروح تشهد فى الذكر أنوار المذكور فيقول ﷺ(٢):

ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ مَوْلاَهَا إِذَا ذُكِرَا تَفْنَىٰ بِهِ إِذْ جَمَالُ ٱلْوَجْهِ قَدْ ظَهَرَا

ويبين أن الروح لا تحجب بالعطاء عن المعطى ولكنها تشهد أنوار المعطى فى كل عطاء فيقول ﷺ(٣):

ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ نُورَ مُعْطٍ بَارِ قَدْ لاَحَ لِي فِي حَيْطَةِ ٱلآثَارِ

ثم يوضح أن هذا الشهود لأنوار المعبود بلا أمثال ولا حدود، ولا تكييف ولا تشبيه، فيقول ﷺ(٤):

ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ وَجْهَ ٱلْمُنْعِمِ ٱلْوَالِي نُورًا يَلُوحُ بِلاَ حَدٍّ وَأَمْثَالِ

ويقول أيضاً(٥):

ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ نُورَكَ ٱلتَّنْزِيهِي مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ لاَ وَلاَ تَشْبِيهِ

وفى قصيدة بديعة عجيبة يبين لنا ﷺ غذاء الأرواح وشرابها وحنينها وشهودها..، يقول فى مطلعها(٦):

---

(١) المرجع السابق، قصيده ٩٧٣٧، ص١٥٩

(٢) نفس المرجع السابق، قصيدة ٥٢١٢، ص١٥٣

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٤٣٩٤، ص٢٥٨

(٤) المرجع السابق، قصيده ١٢٦٠، ص١٩٢

(٥)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٠٤٦، ص٤٣

(٦) المرجع السابق، قصيدة ٥٤٢٤،ص ٢٨٤

هِيَ ٱلأَرْوَاحُ مَشْهَدُهَا ٱلْمَعَانِي   فَتُدْرِكُهَا إِذَا صَفَتِ ٱلْمَبَانِي
وَخَمْرَتُهَا ٱلْيَقِينُ إِذَا أُدِيرَتْ   عَلَى ٱلأَشْبَاحِ بَعْدَ سَنَا ٱلْبَيَان

وفى حوارٍ غاية فى الروعة والبيان، بين الروح والإنسان، يقول الإمام سائلاً الروح بلسان الإنسان(١):

تَرْجِمِي رُوحِي عَنِ ٱلسِّرِّ ٱلْمَصُونْ   بَيِّنِي ٱلأَخْفَىٰ لِتَشْهَدَهُ ٱلْعُيُونْ
هَلْ أَنَا ٱلطِّلَّسْمُ؟! أَمْ أَنَا رَمْزُهُ؟!   أَمْ أَنَا ٱلْكَنْزُ ٱلْمُجَمَّلُ بِٱلشُّئُونْ؟!
أَمْ أَنَا ٱلصُّورَةُ فِيهَا أَشْرَقَتْ   شَمْسُ حَقٍّ لِلظُّهُورِ وَلاَ كُمُونْ؟!
أَمْ أَنَا ٱلآيُ ٱلَّتِي قَدْ أَعْجَزَتْ   كُلَّ عَقْلٍ رَاسِخٍ فِي ذَا ٱلْمَكُونْ؟!
أَمْ أَنَا ٱلطِّينَةُ أَوَّلَ نَشْأَتِي   صَاغَنِي بِيَدَيْهِ تَحْقِيقًا يَكُونْ؟!
تَرْجِمِي لِي بَيِّنِي لِي رُتْبَتِي   حَيْرَتِي تَنْمُو كَأَنِّي فِي جُنُونْ
سِرُّ إِيجَادِي وَإِمْدَادِي بِهِ   تَرْجِمِي حَتَّىٰ أُهَنَّىٰ بِٱلسُّكُونْ

ثم يرد بلسان الروح فيقول ﷺ:

أَنْتَ طِينٌ فِيكَ نَفْخَتُهُ ٱلتِي   أَسْجَدَتْ أَمْلاَكَهُ قَبْلَ ٱلدُّيُونْ
أَنْتَ مِنْ سُفْلِ ٱلْحَضِيضِ وَفِيكَ مِنْ   نُورِهِ ٱلْقُدْسِيِّ أَسْرَارَ ٱلْمَصُونْ
أَنْتَ صُورَتُهُ ٱلْعَلِيَّةُ أَشْرَقَتْ   لاَحَ فِيهَا ٱلْغَيْبُ جَهْرًا لِلْعُيُونْ
مَظْهَرُ ٱلأَسْمَاءِ مِشْكَاةُ ٱلْبَهَا   رَقُّهُ ٱلْمَنْشُورُ فِي حَالِ ٱلرُّكُونْ
بَيْتُهُ ٱلْمَعْمُورُ بِٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي   أَظْهَرَ ٱلأَكْوَانَ لاَحَ بِهِ ٱلشُّئُونْ

ثانياً: العقل: لقد ذُكر العقل ومشتقاته فى القرآن الكريم فى تسعة وأربعين موضعاً، وإذا نظرنا إلى مكانة العقل فى السنة النبوية المشرفة، نجد أنه يعد من أعظم وأكرم خلق الله على الله، فقد ورد فى الحديث أن الله تعالى لما خلق العقل قال له:"أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك الثواب وعليك العقاب"(٢)، وقد أكد الإمام

---

(١) نفس المرجع السابق، قصيدة ٢٠١٣، ص٩

(٢) رواه الطبرانى في الكبير ج٨/٨٠٨٦.

أبو العزائم على الأهمية البالغة للعقل بالنسبة للإنسان، كما أكد على أنه من أعظم نعم الله فقال:[من خير المواهب عقلك ومن شر المصائب جهلك][١]، وفى المقابلة بين العقل والجهل دليل على أن الجهل ضد العقل، لأن العقل إدراك الأشياء على حقيقتها، أما الجهل فهو اعتقاد الشئ بخلاف ما هو عليه، ولذا كان السعيد فى الخلق من رزقه الله العقل والشقى من حُرم منه.

١- **تعريف العقل:** ونظراً للأهمية العظمى لهذا العقل فى الإنسان ـ باعتبار أنه الميزان ـ اهتم الإمام به اهتماماً خاصاً، فنجده يعرف العقل بتعريفات عديده نذكر منها[٢]:

* العقل نور من الله تعالى يجعله فى قلب الإنسان يتصل شعاعه برأسه، قال تعالى:{ومن لم يجعل الله له نورا} أى: عقلاً يعقل عن الله، {فما له من نور}[٣].

* العقل غمام بين الروح والجسم فهو البرزخ، وهو بالنسبة للروح خادم أعتابها وبواب جنابها، والسفير بينها وبين رعيتها والوسيط لإبلاغها شئون مملكتها.

* العقل المصباح والشريعة زيته، والأساس والدين بيته.

* العقل كمال القوة المُلكية، والروح كمال القوة المَلكوتية، والنفس القدسية كمال المشاهد القدسية.

٢- **أنواع العقل:** يرى الإمام أبو العزائم أن العقل نوعان: عقل **(عملى)** فطرىّ وهبىّ، وعقل **(علمى)** كسبىّ، أو وهبى. الاول يدرك الآثار والأخبار والثانى يشهد المعانى والأسرار فيقول[٤]:

عَقْلاَنِ : عَقْلٌ يَعْقِلُ ٱلآثَارَا   مِنِّي ، وَعَقْلٌ يَشْهَدُ ٱلسَّتَّارَا
تُجْلَىٰ لِيَ ٱلآيَاتُ بِٱلْعَقْلِ ٱلَّذِى   أَعْطَيْتَهُ ٱلْمِيزَانَ وَٱلأَخْبَارَا

---

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٢

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٢، ٤٣

(٣) سورة النور آية ٤٠.

(٤)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ج٢، ص٧٠ ، قصيده ١٥٩٣

وَٱلْعَقْلُ: نُـــورُ ٱللَّـــهِ يَشْـــهَدُ وَجْهَـــهُ فَضْـــلاً تَجَلَّـــىٰ مُشْـــرِقًا إِظْهَـــارَا
شَــــتَّانَ بَيْـــــنَهُمَا ثُبُوتًـــا وَٱنْتِفَـــا كَٱلْمُلْـــكِ وَٱلْمَلَكُـــوتِ لاَحَ جِهَـــارَا

أ- **العقل العملى**(١): وهو الذى يستنبط ما يجب فعله من الأفعال الإنسانية، ويقـيس الأشباه والنظائر التى لم يرد بها نص، وبِهِ يدرك الإنسان ما يحيط به من آثـار وأخبار ومتطلبات معيشته ومقتضيات حياته، وهذا العقـل قاصـر عـن إدراك الغيبيات، ولكنه يستطيع أن يعقل الكون بما ظهـر فيـه، وأن يسـتدل بـالآلاء الظاهرة على قدرة الحق الباهرة. وفوقه غيوب جمة لا يعلمها إلا من اتقـوا الله فعلمهم الله، يقول فيه الإمام نظماً(٢):

يعقـلُ العقـلُ التصـورَ والمبـانى يفهمُ العقـلُ المكـوَّنَ و المعانـى
فوقَـهُ غيـبٌ علـيٌّ غامـضٌ أعجزَ الأرواحَ فـى حـالِ التـدانى

هذا العقل العملى هو الذى يدرك ظاهر الكون وظاهر الحياة الـدنيا، يـدرك نسبة الأشياء وتناسبها ويُحسن المخترعات وهو موجود عنـد المـؤمن وغيـر المؤمن، يقول الإمام فى ذلك(٣):

أَعَقْلٌ لِيُدْرِكَ ظَاهِرَ ٱلْكَوْنِ يُـدْرِكَنْ؟! تَنَزَّهْـتَ حَقًّـا أَنْ يَكُـونَ مِثَـالِي
هُوَ ٱلْعَقْـلُ يُـدْرِكُ نِسْـبَةً وَتَنَاسُـبًا وَيُحْسِـنُ مُخْتَرَعًـا مِـنَ ٱلأَعْمَـالِ

* **أُفق هذا العقل وشهوده:** [إن الله ﷻ خلق الإنسان مفكراً عاقلاً، فيعمل فـى جلب ما ينفعه فى عالم الكون والسعادة من قوت، ولباس، ومسكن حفظاً لصحته أو استرجاعاً لها إذا ألم بها السقم، وخلقه مفكراً ليبحث بعقله فى الغاية التى خلق مؤهلاً لها، والحكمة التى أوجد لأجلها، وكيف خُلق ولم خُلق؟ ولما كان العقل لا يصل إلا إلى ما يستنتجه مما حكم عليه بحسه، وكان الحس لا يدرك إلا ظواهر الكون فليس للعقل -وإن كمل- أن يقتبس من الغيب المصون إلا بقدر ما وصـل إليه من أنواع الكائنات المختلفة بحسب مراتب الوجود لأن دائـرة اختصاصـه

---

(١) الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق ، ص١٨

(٢) الإمام أبو العزائم (عقيدة النجاة) مرجع سابق، ص ٤٨

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ج٤، ص٣٣ ، قصيده ٣٠٣٧

الجمادات، والنباتات، والحيوانات، وقد بلغ به البحث إلى أن حَكم بأن ما يحس بتأثيره ولم يره هو الجن][1].

ثم يبين الإمام أن هذا العقل يرى الكائنات ويشهد الآيات الظاهرات، ولكنه محظورٌ عليه رؤية الغيبيات فيقول ﷺ[2]:

العقــلُ يشــهدُ آيــاتٍ لــهُ ظهــرت   قد يحجبُ الروحَ عن نورِ البها الأصلى
روحى لقد نفذت من ســورِ حيطتهــا   حتى رأت أصلها فى حظــوةِ الوصــلِ
والعقلُ يخــدِمُها فــى رســمِ طينَتِهــا   حظرٌ عليــهِ يــرى غيبــاً لــهُ مَجــلِ
الــروحُ نفخــةُ قــدسٍ ســرُ مبــدِعها   والعقلُ ميــزانُ قســطٍ لِلبِنَــا السُــفلى

ب- العقل العلمى[3]: وهو الذى يتم به جوهر النفس، وتصير نفساً طاهرة زكية بالفعل، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب، فيكتسبه الإنسان من الإيمان بالله ورسوله ﷺ وانصياعه للشرع الحنيف والتزامه بالأوامر والنواهى، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو المراد من قول رسول اللهﷺ لأبى الدرداء ﷺ: "ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً، فقال: بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك؟ فقال: اجتنب محارم الله تعالى، وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً "[4]، وقوله ﷺ "انما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته"[5]، وجاء فى الحكمة: [العاقل من عقله عقله عن كل مذموم][6]، وهذا نفاه الله عن غير المؤمنين كما قال تعالى لبنى اسرائيل: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[7].

---

(١) الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق، ص٢٢.
(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق ج٤، قصيده ١٥٧٦
(٣) الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق، ص١٨.
(٤) أورده الغزالى فى الإحياء ج١، ص٨٠ ، دار الصابونى.
(٥) المرجع السابق، ص٨٠
(٦) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٣.
(٧) سورة البقرة آية ٤٤.

٣- **حقيقة العقل الإنساني:** [وإنما العقل الذي يعتبر أنه عقل إنساني هو العقل الذي يعقل الكمالات والفضائل، ويشهد الغائب بالمشهود، ويدرك الحِكَمَ والأَحْكَامَ، ويعقل عن الله أحكامه ﷻ وَحِكَمَهُ، ويدرك حقيقة نفسه وحقيقة الدنيا وأنها دارٌ زائلةٌ ومزرعةٌ للآخرة، فيعمل فيها ليخلِّص نفسه منها، ويجدُ لينتقل إلى دار البقاء وقرار السعداء ونزل الأبرار، هذا وإذا كان العقل الإنساني نهاية قواه استخدام ما حوله من الكائنات، كما تستخدم الحيوانات والنباتات جميع ما أحاط بها مما يلائمها بدون أن تدرك الكمالات النفسية، أو تعلم بقبح القبيح وحسن الحسن، أو تعتقد بيوم الجزاء والسؤال، أو تستدل بالنظام المشهود وغريب الحكمة المحسوس وعجيب الصنع الملوس بوجود قادر حكيم مدبِّر صانع، لأن ما فيها من القوى التي تدرك بها الضار والنافع ليس عقلاً إنسانياً بمعناه الحقيقي، وإنما هي غريزة فطرية وإلهام من الله تعالى.

لذلك فالله ﷻ خلق لكل نوع منها صورة خاصة مؤهلة لمعاونته، وأعضاء خاصة للغذاء وللمدافعة وللحركة وللتنفس، فترى الحيوانات المائية والحيوانات الجوية والحيوانات التي تعيش تحت طبقات الأرض وهب الله لها ما به تطيب حياتها وَيُحْفَظُ نوعها، وقد نرى كثيراً من الحيوانات ما يتهذب فيبلغ في إجادة ما أُهِّلَ له مبلغاً يكاد يكون عند الإنسان أحب إليه من ماله وأهله كالفرس والكلب والفيل والنسناس والقرد، فمن يقول إن تلك القوى عقل فهو غير عاقل.

فكذلك الإنسان الذي استخدم ما حوله من الكائنات بالقوة الغريزية التي أودعها الله فيه بقدر ضرورياته وكمالاته الحيوية، ونافس في نيل الحياة الطيبة في تلك الدار الدنيا حتى استخدم ما حوله من العناصر المجردة كالنار والهواء والماء والتراب وغيرها كالجمادات والمعادن والنباتات والحيوانات بالتركيب والتحليل والتربية، واخترع غرائب المخترعات بغير نظر بعيون الفكر إلى الآيات المنبلجة في تلك الكائنات، ولاجهاد للنفس في سبيل المعرفة بالله تعالى ونيل كمالاته النفسانية، فإنه حيوان كثير الحاجة أدنى من الحيوان الأعجم، ولو تصرف في الماء والهواء والنار والتراب بقوة الإلهام الذي جعله الله له آلة يحفظ

بها حياته المدة التي قدرها الله له في الدنيا، فإن أضـــاع عمـــره فـــي شـــهواته الحيوانية وضرورياته الجسمانية تمني يوم القيامة أن يكون ترابا، لأنه عاش في الدنيا عيشة الحيوان، ويحاسب في الآخرة حساب الإنسان.

ومن هذا استنتجوا أن الإنسان الذي لم يستعمل عقله حتى يقوى ويسترشـــد به لتنبلج له أنوار العقيدة الحقة – حتى يقول لا إله إلا الله الواحد الأحـــد الفـــرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويصدق بمولانـــا رســـول الله سيدنا محمد وبجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام– فليس بعاقل، بـــل ولـــيس حيواناً لأنه صار أدنى من الحيوان رتبة، لأن الحيوان الأعجـــم يســـتعمل كـــل غريزته فيما خلقت له بوجه أكمل. والإنسان الموهوب له العقل الكامـــل الـــذي باستعماله يبلغ درجة إلى أن يكون خليفة عن ربه ﷻ، ويبلغ درجة من الســـعادة القصوى يكون فيها في روضات الفردوس الأعلـــي تتـــولى خدمتـــه الملائكـــة الروحانيون، وإن أهمل تلك القوة انحط إلى أسفل سافلين حتى يهوى فـــي نـــار جهنم نعوذ بالله من إهمال استعمال العقل، أما المصدق بالله ورسله المؤمن بيـــوم الحساب الذي يخالف السنة فهو عندي كالحيوان، لأنه انقاد لحظه وشهوته كمـــا ينقاد الحيوان للإنسان فيحمل عليه ويركبه أو يذبحه ليأكل لحمه، فكذلك الإنســـان المخالف للسنة ولو بلغ من العلم بظاهر الحياة الدنيا مبلغا يستخدم فيـــه حـــرارة الشمس وزوابع الرياح وتيارات الماء ويخترع فيه ما يعجز الصناع.

وليس قصارى كمال الإنسان بمعناه الحقيقي أن تتوفر لديه أشهى المطـــاعم وأجمل الملابس والخيل المسومة والمساكن المشيدة وألذ المناكح، فإن الطـــاووس أجمل ثيابا، والنحل أنظم المساكن، والسبع أنفذ كلمة وأجرأ قلبـــاً وأشـــد جأشـــا، والخنزير أشد شبقاً وأكثر سفاداً، والحمام أطرب وأرخم صوتا.

وإنما هذه كمالات من لا علم لهم بفضائل النفس ودرجات رقيهـــا ولـــذتها الروحانية وكفى الحيوان الذي هو على صورة الإنسان تعسة أن يحرم في الدنيا ملاذ صورته، ويعذب في الآخرة فيكون الجماد خيراً منه والحيوان أفضل منـــه،

قال الله تعالى مشنعاً عليهم: {وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}(١)، وقال ﷻ:{ذرهم يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}(٢)، وقال ﷻ:{إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}(٣)، فهم مسئولون سؤال العاقل الكامل، ومؤاخذون مؤاخذة المفكر البصير، لأن الله جلت قدرته جعل لهم عقلاً يعقل وأرسل لهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فأقاموا الحجة القاطعة على صدقهم أنهم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، وبينوا مناهج الحق وسبل الهدى بياناً تلمسه العقول إذا خلصت من سجن الحظ والهوى وتجردت من درن الأمل، وعمرهم الله عمراً يتذكر فيه من تذكر، كل ذلك أمدهم الله تعالى به حبًّا في إقبالهم، فأبت تلك النفوس اللقسة أن تلقي السمع أو يكون لها قلب يتقلب في جلال وجمال مبدع الكون، أو بصيرة تخرق سياج الكون حتى تشرق عليها أنوار وميض حظيرة القدس الأعلى، لتسكن تلك النفوس إلى منفِّسها، والقلوب إلى مقلِّبها والأرواح إلى مروِّحها بطهور راحةُ وريحان مشاهدته، كل ذلك تفضل به المتفضل.

وأفضل نعمة أمد بها عباده، وأكمل مِنَّه تقرب بها إلى أحبابه هي نعمته علينا بحبيبه ﷺ، الذي جعله رحمة من رحمته، وأقامه مقامه ﷺ ولم يقم أحداً هذا المقام من عالين وكروبيين وحملة العرش والسفرة الكرام والرسل المقربين عليهم الصلاة والسلام، وكيف لا وقد قال ﷻ:{من يطع الرسول فقد أطاع الله}(٤)، وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}(٥) –وليس بعد التصريح بـ {أيديهم}– بعد أن وضح في افتتاح الكلام المقدس أنه يخاطب حبيبه خفاء على ذي عقل أنه أقامه مقامه حقاً، وأنابه عنه صدقاً، وما

(١) سورة محمد –آية ١٢
(٢) سورة الحجر – آية ٣
(٣) سورة الفرقان – آية ٤٤
(٤) سورة النساء – آية ٨٠
(٥) سورة الفتح – آية ١٠

ذلك إلا لأنه ﷺ حقيقة ما يحب الله، وجلي ما يريد الله عقيدة وقولاً وعملاً وحالاً، فمخالفه ﷺ لم يكن مخالفاً له صلوات الله وسلامه عليه وإنما هو مخالف لربه، ظالم لنفسه، وهو ﷺ فرق بين الحق والباطل فلا يتوهم متوهم أن مخالفاً لسنته ﷺ -ولو بلغ من العلم مبلغ إبليس، ومن السلطة مبلغ فرعون- عاقل، ولكنها غريزة كغرائز الحيوانات يستعملها كما يستعمل الحيوان الأعجم غريزته وفطرته وليس بعاقل عند العلماء.

وقد يغتر بعض من لا علم له بمن علموا بظاهر من الحياة الدنيا، ويعتقدون أنهم عقلاء وهم كفار أو عصاة، ويرى بعض المتمسك بدينه فاراً من زهرة الدنيا مستوحشاً من ملاذها التي يألفها المغرورون متلذذاً بما يتألم منه غيره، فيظن المغرور لجهله أن التقي غير عاقل. وما ذاك إلا لجهله بملاذ النفس وكمالاتها ووقوفه عند ملاذ الجسم. فإن الإنسان إذا وقف به الهمّ على مأكل شهي وفراش وَطِيء ومنكح لذيذ فقد أشبه الخنزير في سفاده. والطاووس في جماله والنحل في هندسة عشه، وكفي به تعسة أن تكون ملاذه لا تتعدى ملاذ الحيوانات العجم، إنما ملاذ الإنسان روحانية، وكمالاته ملكوتية، ونعيمه بمشاهدة آيات ربه وحضوره بمعيته سبحانه وتعالى](١).

٤- من أوصاف العقلاء(٢):

* العاقل من تقرب إلى الله فى الرخاء، حتى يتقرب الله إليه فى الشدائد.

* العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

* العاقل يترك القليل العاجل لأجل تحصيل أضعافه فى الآجل.

هل الإنسان هو العاقل الوحيد فى الكون؟ الحقائق القرآنية تشير إلى أن السموات والأرض وما فيهن لديها عقل غريزى محدود بحسب مكانة كل منها

(١) الإمام أبو العزائم (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) ط٢، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٨٣ ، ص١٥٤، ١٥٥

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٢ وما بعدها.

من الوجود، فالله جعل للسماء والأرض اختياراً حين قال سبحانه:{ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طـائعين}(١)، والإختيار لا يكون إلا لمن يعقل ويميز بين الأشياء، وحين انتقم الله من فرعـون وجنوده قال سبحانه:{فما بكت عليهم السماء والأرض وما كـانوا منظـرين}(٢)، ويؤيد ذلك ما ذكره سيدنا الإمام على ﷺ "إذا مات ابن آدم بكى عليه موضـعان؛ موضع في السماء، وموضع في الأرض؛ وأما موضعه فـي الأرض فموضـع مصلاه؛ وأما موضعه في السماء فمصعد عمله"(٣) والإنفعال بالبكـاء والحـزن والسرور لا يكون إلا من عاقل يزن الأمور بميزان صحيح؛ وإن تسبيح الكائنات وسجود من فى السـموات والأرض لله العزيـز الحكـيم، وتـدبير الحيوانـات والحشرات لأمور معاشها والدفاع عن نفسها، وما فعله الهدهد من بلاغة المنطق وقوة الحجة، وكلام النملة مع سيدنا سليمان عليه السـلام، وكـلام المخلوقـات وحنين الجذع وتسبيح الرمل وحديث الضب مع رسول الله ﷺكل ذلـك وغيـره يؤكد أن لهذه الكائنات عقلاً غريزياً أو فطرياً بقدر رتبتها فى هذا الوجود، ويبقى العقل الإنسانى هو العقل الحقيقى المؤهل للترقى إلى أعلى مقامـات القـرب، إذا تجمل بالكمالات والفضائل.

وأرى أن العقل –بناءً على ما سبق– يعد مناط التكريم الإلهى للإنسان، فمن خلاله يدرك الإنسان نفسه، ومن ثَم يدرك الكون من حوله. لذا فهو يُعَد من أجل نعم الله على الإنسان.

٥- علاقة العقل بالشرع: يقول الإمام: [فإن الإنسان إنما هـو إنسـان بعقلـه، والعقل لا يكون عقلاً إلا بالشرع، فإن العقل بدون الشرع يخدم الجسـم لبلـوغ كماله الجسماني، ولا يتمكن أن يخرق سياج الكائنات حتى يدرك سـر الكمـال الروحاني، وكيف لا؟ والإنسان حيوان، فإذا ساعده العقل على حيوانيتـه تمكـن

---

(١) سورة فصلت آية ١١

(٢) سورة الدخان آية ٢٩

(٣)الشيخ محمد متولى الشعراوى (تفسير الشعراوى) دار أخبار اليوم، ج١٢، ص٧٢٥٣

بعقله وحيوانيته من أعمال لا تعملها السباع الكاسرة، ولا الحيوانات النافرة، ولا الشياطين الفاجرة، فيكون أضر من الحيوانات، وأشر من الشيطان، حتى تشـــرق أنوار الشريعة عليه فيسارع إلى الكمالين، متوســطاً فـــي الأمـــرين، قـــال الله تعالى:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ}(١)، (ميتا) أي: لا حياة له روحانية، وليس المـــراد بالميت من لا حياة له حيوانية، وكل إنسان فقد الحياة الروحانية فهو ميـــت فـــي الحقيقة، قال الله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَـــدْرِي مَـــا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْـــدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(٢) فالشريعة روح تفيد الحياة الحقيقية التي بها الحياة السعيدة الباقية، قال تعالى:{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}(٣)، فالعقـــل من غير الشريعة كسلاح قوي في يد جرئ عبقري(٤)](٥).

٦- **علاقة العقل بالقلب:** لقد عرف الإمام العقل بأنه: [نور من الله يجعلـــه فـــى قلب الإنسان] فالعقل هو نور القلب ووظيفته، كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِـــيرُوا فِـــي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}(٦)، فالقلب أشرف ما فى الإنسان إذا صـــفا ووفا، لأنه العالِم بالله وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه، وهو العامـــل بـــالتقوى والنية الحسنة، والساعى إليه بالإخلاص المكاشف بما عنده سبحانه، فالنية محلها القلب والإيمان ما وقر فى القلب، وإنما الجوارح أتباع وخُدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد، ومن عرف القلب عرف نفسه، فمعرفة القلـــب وصـــفاته أصل من أصول الدين.

---

(١) سورة الانعام آية ١٢٢

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣) سورة الاسراء آية ٨٢

(٤) (عبقرى: هو صفة لكل ما لا يفوقه شيئ) المعجم الوجيز، ص٤٠٤

(٥) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق ص٤٦

(٦) سورة الحج آية ٤٦

وقد اهتم الإمام أبو العزائم فى منهجه التربوى بالقلوب، وذلك لتطهيرها من الران وعلاجها من الأمراض، باعتبار أنها محل نظر المولى تبارك وتعالى، بما تحمله من النوايا التى لا يعلمها إلا هو سبحانه، ففى الحـــديث: "إن الله لا ينظـــر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم"(١)، من هنا كانت منزلـــه القلب الذى هو موضع نظر الرب، ومن ثَم يبين الإمام أبو العزائم مكانة أعمـــال القلوب قائلاً:[لحظة من عمل القلوب، خير من عمل الجوارح الـــدهر كلـــه](٢)، ولعل هذه الأفضلية لعمل القلب مرجعها أن أعمـــال القلـــوب مثـــل: (الرضـــا، الرحمة، الصبر، الإخلاص، اليقين) هى سر بين العبد وربـــه لا يطلـــع عليهـــا غيره، أما أعمال الجوارح فقد يطَّلع عليها الخلـــق فتفســـد بالريـــاء، والعجـــب، وغيرها من محبطات الأعمال، يقول الإمام ﷺ: [لـــو أخطـــأ اللســـان والجســـم وأصاب القلب كان ذلك خيراً، ولو أصاب اللسان والجسم وأخطأ القلب كان ذلك نفاقاً](٣) ولهذا كان مجرد النَفَس من هذا القلب السليم حرِيٌّ أن يرفع صاحبه إلى رضوان الله، يقول الإمام(٤):

ٱلْجِسْمُ بِٱلْقَلْبِ يَتَرَقَّـــىٰ إِلَـــىٰ رُتَـــبٍ ... وَٱلْجِسْمُ مِنْ دُونِ قَلْبٍ فِي ٱلضَّلَالَاتِ
نَفَسٌ بِقَلْـــبٍ سَـــلِيمٍ رِفْعَـــةً وَرِضًـــا ... وَأَلْفُ عَـــامٍ بِـــلاَ قَلْـــبٍ كَلَحَظَـــاتِ
ٱلْقَلْبُ عَرْشُ ٱلتَّجَلِّـــي بَيْـــتُ خَالِقِـــهِ ... مُعَمَّرٌ مِنْ ضِيَا ٱلأَسْـــمَاءِ بِصِـــفَاتِ

وفى الحديث: "إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، وإن الإيمـــان يَخلَـــق –أى يبلى– كما يخلق الثوب الجديد"(٥)، وقال ﷺ:"ألا وإن فـــى الجســـد لمضـــغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب"(٦) ومعنـــى

(١) رواه مسلم فى صحيحه

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٧

(٣) المرجع السابق، ص٤٧

(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٤٤٢١، ص٢٧٨

(٥) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٤٤١) والطبراني في الأوسط (٧ / رقم ٦٨٩٤.)

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ومسلم فى كتاب المساقاة.

هذا الحديث: أن القلب إذا صلح صلحت الجوارح لأن تقوم بما أوجبه الله تعـالى عليها ورغبها فيه، قياماً يكون فيه رضوان الله ومحبته، فنحن نملك الجوارح ولا نملك القلب كما يقول الإمام: [القوة قوتان: قوة تملكها، وقوة لا تملكها، القوة التى لا تملكها: قلبك، والقوة التى تملكها: جوارحك][(١)]، ثم يؤكد أنه بصـلاح القلـب تصلح سائر الجوارح فيقول ﷺ:[القلوب أوعية، فإذا امتلأت من الحـق فاضـت زيادة أنوارها على الجوارح، أو من الباطـل ظهـرت زيـادة ظلماتهـا علـى الجوارح][(٢)].

كما أن القلب هو محِل العظة فى الإنسان لقوله ﷺ: "إذا أراد الله بعبدٍ خيـراً جعل له واعظاً من قلبه"[(٣)]، وقال: "من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ"[(٤)]، وهو أيضا محل الفقه فى الإنسان سر قوله تعالى:{لهم قلوب لا يفقهون بها}[(٥)]، يقول الإمام أبو العزائم شارحاً هذا المعنى[(٦)]:

ٱلْفِقْهُ فِي ٱلْقَلْبِ نُورٌ مِنْ لَدَى ٱلـرَّبِّ وَلَيْسَ فِي صُحُفٍ تُتْلَىٰ لِذِي حَجْـبِ
فَٱسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَاذَا ٱلْقَلْبِ عَـنْ حِكَـمٍ فِي ٱلْكَوْنِ ظَاهِرَةٌ لِلْعَيْنِ فِـي ٱلْقَلْـبِ
قَلْبٌ عَـنِ ٱلْحَـقِّ يَتَلَقَّـىٰ مَعَارِفَـهُ هُوَ ٱلإِمَـامُ إِمَـامُ ٱلـدِّينِ وَٱلْقُـرْبِ

٧- **تعريف القلـب:** القلب فى اللغة هو خالص الشيء وأرفعه، وقـد ورد لفـظ القلب فى القرآن الكريم فى مائة وأربعة وأربعين موضعاً، تؤكد معاني كل هـذه الألفاظ أن القلب اصطلاحاً هو:[الحقيقة الإنسانية الباطنة][(٧)]، ويعرفه ﷺ بتعريف آخر فيقول: [القلوب أوعية الحق التى أودع فيها أنواره، وخزائن الغيب المليئـة

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٦
(٢) المرجع السابق، ص٤٥
(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد
(٤) حكمة للإمام على وردت في (خصائص الإمام علي بن أبي طالب) للنَّسائي
(٥) سورة الأعراف آيه ١٧٩
(٦) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) قصيدة رقم ٧٣٧٧،ص٢٧٣
(٧)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ، ص٤٤

بأسراره][1]، ومن هذين التعريفين يتبين أن القلب المعنىَّ هنا ليس هو القطعة الصنوبرية الشكل التى تضخ الدم إلى أجزاء الجسم، وهى موجوده فى الإنسان والحيوان على حد سواء، ولكنه هو الحقيقة الإنسانية التى تعقل عن الله وتفقه مراد رسول الله ﷺ، بدليل قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[2]. فالقلب المادى له وظيفته فى جسم الإنسان وظاهره، والقلب المعنوى له وظيفته فى حقيقة الإنسان وباطنه. فكل إنسان له قلبان كما يقول الإمام رضي الله عنه[3]:

وَقَلْبَانِ لِي قَلْبٌ لِغَيْبِ مَكَانَتِي   وَقَلْبٌ لِمَعْنًى هَيْكَلٍ أَنَا فِيهِ
وَذَلِكَ سِرٌّ فَوْقَ قَدْرِ رُجُولَتِي   وَذُو ٱلإِصْطِفَا مَوْلاَهُ فَضْلاً يُوَالِيهِ

وهذا القلب المعنوى دائماً نجده منجذب لشهود تجليات الصفات الإلهية المسطرة فى المظاهر الكونية، فنحن نرى الجسم دائماً منجذبٌ إلى النعمة، ونرى العقل منجذبٌ إلى الآيات، والقلب منجذبٌ إلى التجليات، والروح منجذبة إلى مجلى الذات ﷺ .

٨- **أنواع القلوب:** وكما اختلفت ظواهر العباد فى رسومها وأشكالها، اختلفت كذلك قلوبهم فى معانيها ومضامينها، بل إن اختلاف القلوب أشد وأكبر، فكل قلب له سر يتقلب فيه مع باريه، والقلوب متغيرة متحولة، ولذلك سمى القلب قلباً لكثرة تقلبه بين حضور وغفلة، أو قرب وبعد، أو حب وبغض، أو إخلاص ونفاق، أو إيمان وكفر، وكان من دعائه ﷺ: "يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك"[4] ويقول ﷺ "مَثَلُ القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة"[5]، أما أنواع

---

(١) المرجع السابق، ص٤٤

(٢) سورة ق آية ٣٧

(٣) الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٨١٠، ص٢٣٥

(٤) رواه أحمد فى المسند حديث(٢٥٩٧٩)

(٥) سنن ابن ماجه، برقم: (٨٨)

القلوب فعنها يقول ﷺ"القلوب أربعة: قلب أجرد(١) فيه سراج يظهر وهو قلب المؤمن، وقلب منكوس أسود وهو قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط عليه غلاف وهو قلب المنافق، وقلب تصفح فيه الإيمان والنفاق، مثل الإيمان فيه كمثل البقلة بمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأيهما غلب حكم له به"(٢).

٩- **حواس القلب:** يبين الإمام أن للقلب حواساً باطنة كما أن للجسم حواساً ظاهرة فله أذن، وله عين، وله لسان فيقول رضي الله عنه: [للقلوب آذان ولكنها لا تسمع الا من ألسنة القلوب، ولها أعين ولكنها لا تبصر إلا من ظهور الغيوب](٣)، وقد جاء فى الحكمة: كما أن فى الفم لساناً يتذوق حُلو الطعام فإن فى القلب لساناً يتذوق حُلو الكلام؛ فالقلب هو بيت الحقائق الإنسانية، وخزانة الأسرار الإلهية، وبدونه ينحط الإنسان إلى رتبة الحيوانية، كما قال رب البرية:{أولئك كالأنعام بل هم أضل}(٤)، وفى هذا المعنى يقول الإمام رضي الله عنه (٥):

هِيَ ٱلْقُلُوبُ تَرَىٰ نُورَ ٱلصَّفَا ٱلْعَالِي ... تَفِرُّ لِلَّهِ فِي قَوْلٍ وَفِي حَالِ
هِيَ ٱلْقُلُوبُ صَفَتْ لِلَّهِ فَٱتَّصَلَتْ ... رَأَتْ جَمَالَ جَمِيلٍ مُنْعِمٍ عَالِ
وَٱلْجِسْمُ مِنْ غَيْرِ قَلْبٍ كَٱلْبَهِيمَةِ بَلْ ... أَضَلُّ مِنْهَا وَفِي صَدٍّ وَإِضْلَالِ
ٱلْقَلْبُ بَيْتٌ لِمَوْلَاهُ خِزَانَتُهُ ... فِيهِ ٱلْحَقَائِقُ أَنْوَارٌ لِإِيصَالِ
يُجْلَىٰ لَهُ ٱلْغَيْبُ فِي جَهْرٍ وَفِي سِرٍّ ... فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ فِي جَذْبٍ وَإِقْبَالِ

١٠- **مراتب القلب سبعة:** يبين الإمام أن مراتب القلب سبعة فيقول رضي الله عنه:[مراتب القلب سبعة: الفؤاد، والعقل، والحِجر، والحِجى، واللب، والجَنان، والسويدا](٦).

---

(١) أى تجرد عن الحظ والهوى.

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل:ج٣ص١٧رقم ١١١٤٥و أخرجه أحمد والطبراني في الصغير.

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٨

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٩

(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيدة ٢٨٢، ص٢٠٠

(٦) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٥

أ- **الفؤاد:** هو [البرزخ الذى هو بين السمع والقلب وهو الجزء الرفيع من القلب، وهو برزخ بين القلب والجوارح، وبين الجسم والقلب، وكل ما يرد على القلب من الغيب يوصله إلى الفؤاد، والفؤاد يوصله إلى الجوارح، وما يرد على الفؤاد من الجوارح يوصله الفؤاد الى القلب](١)، وهو يمثل ظاهر القلب.

ب- **العقل:** [العقل نور من الله تعالى يجعله فى قلب الإنسان يتصل شعاعه برأسه](٢).

ج- **الحِجر:** هو[الضابط للنفس القاهر لها](٣).

د- **الحِجى:** هو [السِّتر](٤) ويعنى سِتر القلب وحاجزه عن المحارم.

هـ- **اللب:** [هو موضع نور التوحيد ونور التفريد وهو النور الأتم والسلطان الأعظم، ومثل اللب فى الفؤاد كمثل نور البصر فى العيني، وكمثل نور السراج فى فتيلة القنديل](٥).

و- **الجَنان:** [جوف القلب](٦).

ز- **السويدا:** [هي باطن القلب المعمور، وهى البحر المسجور، الذى تتفجر منه ينابيع أسرار البطون، إلى السقف المرفوع وهورأس الهيكل الكامل](٧)، وهى تمثل باطن القلب.

ثالثاً: الحس: يتحدث الإمام أبو العزائم عن الحس كأحد المكونات الهامة للحقيقة الإنسانية، فيبدأ بتوصيف الحس بأنه: [بريد المملكة الإنسانية، وهو السمع والبصر والذوق والشم واللمس، وله رئيس؛ فالبصر للألوان والأشكال والأبعاد،

---

(١) المرجع السابق، ص٤٤

(٢) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٣٨٣

(٣) اسماعيل حقى البروسوى (تفسير روح البيان) ط دار الفكر، القاهرة، ص٤٢٢

(٤) المعجم الوجيز، ١٣٨

(٥) الحكيم الترمذى (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص٣٨

(٦) المعجم الوجيز، ص١٢١

(٧) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٣٠١

والشم للروائح، والسمع للأصوات والنغمات، والذوق للطعام، واللمس للحرارة والبرودة والصلابة والرطوبة والخشونة والنعومة وتقريب المقادير، وله مدير للمعقولات ورئيس للمحسوسات؛ فمدير المعقولات الوهم، ورئيس المحسوسات الخيال، ومركزها الرأس والوجه، إلا اللمس؛ فإنه منتشر في سائر البدن وانتشاره لحكمه هي الرحمة بالجسم الإنساني؛ فإنه إذا فقد اللمس وجلس على نار أو على ثلج أو على مفرق للأعضاء هلك](١).

١- **وظيفة الحس:** ثم يبين الإمام وظيفته والحكمة من خلقه قائلاً على لسان (القِسط) مخاطباً رئيس (محكمة الصلح): [..إن مبدع الكائنات جعل الحس لحفظ الجسد من الآفات، ولدفع المضرات وجلب الخيرات، وإني أضرب لمولاي مثلاً تستبين به الحقيقة: إذا جلس الإنسان ليأكل، سبقت العين اليد إلى الطعام، فإذا قبلته شكلاً ولوناً أذنت اليد بنقله، فإن تناولته اليد سبق الشم إليه، فإن قبله رائحة أمر اليد بدنوه من الشفتين، فإذا قبلتاه توسطاً في الحرارة والبرودة سمحت بدخوله إلى اللسان، فإن قبله طعماً رده إلى الأسنان، فإن أمكنها طحنه سمحت للسان بتوصيله للمرئ فيوصله إلى المعدة، فإن كان صالحا للبقاء فيها قبلته وقامت بوظيفتها وإلا ردته وأخرجته.

وأهل الجهالة يا مولاي يقهرون المعدة على بقاء الطعام فيها بتعاطي ما يبطل عملها الطبيعي حتى تقبل ما تكره، بشرب الدخان أو بأكل التوابل أو الأملاح، فتقبل الطعام مكرهة، وتضعف عن القيام بوظيفتها، فقد يتغير فيها فيصير حامضاً أو عفصاً أو مراً أو حلواً بحسب الغالب عليه، فتحصل الأمراض والأوجاع، هذا كله يا مولاي لمخالفة العقل،

وترك العمل بالوصايا الشرعية، وإهمال البحث عن حكمة إيجاد تلك الأشياء والنظر في خواصها](٢). يقول الإمام نظماً(٣):

---

(١) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص٤٤

(٢) المرجع السابق، ، ص٤٥

(٣) الامام ابو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٨٥٩٤، ص٦٣

ٱلْحِسُّ يَقْتَــبِسُ ٱلْمُحَيَّــزَ وَٱلظِّــلاَلْ   وَٱلْعَقْلُ يَحْكُمُ بَعْــدَ تَمْثِيــلِ ٱلْخَيَــالْ
وَٱلرُّوحُ تَشْــهَدُ آيَــهُ لاَحَــتْ بِــلاَ   شَــوْبِ ٱلْمَبَــانِي وَٱلتَّــأَثُّرِ بِٱلْمَقَــالْ
وَٱلْحِـــسُّ يَعْبُــدُهُ جَهُــولٌ مُبْعَــد   فِي ظُلْمَةِ ٱلإِبْعَادِ فِي نَــارِ ٱلضَّــلاَلْ

ويقول مبيناً حكمة وجود الحس(١):

أَيُّهَـــا ٱلْحِـــسُّ تَشْـــهَدُ ٱلآثَـــارَا   وَلِرُوحِـــي عَـــيْنٌ تَـــرَى ٱلأَنْـــوَارَا
كُنْتَ حَجْبِي يَــاحِسُّ قَبْــلَ شُــهُودِي   صِـــرْتَ لِـــلآيِ مَظْهَـــرًا إِسْـــفَارَا
وَيْ عَجِيبٌ يَــاحِسُّ كُنْــتَ حِجَــابِي   صِـــرْتَ مِـــرْآةَ حُسْـــنِهِ إِظْهَـــارَا
كُــلُّ تِلْــكَ ٱلآثَــارِ تُنْبِــي بِغَيْــبٍ   تُشْـــهِدُ ٱلـــرُّوحَ قَـــادِرًا سَـــتَّارَا
صَــارَ حِسِّــي يُــرِي فُــؤَادِيَ آيًــا   أَشْـــــهَدَتْنِي عَطَـــــاءَهُ مِـــــدْرَارَا
حِكْمَةُ ٱلْحِسِّ لَمْ تَلُــحْ قَبْــلَ كَشْــفِي   جَــلَّ رَبِّــي مَــنْ قَــدَّرَ ٱلأَقْــدَارَا

٢- الحس معبود الجهلاء: ثم يبين الإمام حقيقة هامة فيقــول ﷺ: [الحــس وإن كان محكوماً بالنفس إلا أنه شيطان الجسم، أكثر الناس يتخذونه إلهــا مــن دون الله، يأمرهم فيتبعون، وينهاهم فيطيعون، يخالفون حكم الله فــي شــرعه، وفــي مخالفة الشريعة هوى الجسم في حضيض صرعه، وبين الحس والنفس عداوة لا تزول، ومخالفة إلى الشر تؤول، مذ وقعت في الخطيئــة بســببه، وأكلــت مــن الشجرة بطلبه، والحس قد حرم غذاءه الشهي في رياض الفردوس البهي، فهــو يبحث عن ملاذه ومسراته، ويبذل كل ما في وسعه بسكب عبراته، حتى تســلى بالملاذ الجسمانية، ونسي المسرات الروحانية](٢). ثم يتكلم الإمام بلســان الحــس قائلاً(٣):

أنا الحسُ معبودٌ لكــلِ جهــــول   وإبليسُ من جندي أمــام سبيـــلي
ومن جنةِ الفردوسِ أخــرجتُ آدمــاً   عصى ربهُ طوعـــاً بغيرِ دليــل
وفرعــونُ قد أغـــــويتهُ متكبــراً   على اللهِ حتى ذُمَ في التنزيـــل

---

(١)المرجع السابق، قصيدة ٢٥٣٤، ج٣، ص٢٥

(٢)الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص٥٢

(٣) المرجع السابق، ص١٠٥

ونمروذُ قــد أضللتهُ ولم أرعــوي فكيفَ أخافُ الغدرَ فــي تضــليلي
وهامانُ قد شادَ المبــاني محاربــاً لمولاهُ بالبهتــانِ و التعليـــــــل
أنا الحسُ معبودٌ بــزورٍ وباطــلٍ وأكسف شمسَ العلمِ نــورَ عقــول
أضللُ بالبهتانِ والزورِ والهـــوى وأفسدُ أهــل العلــمِ بالتأويـــــل
أنا الحسُ أخفى الحقَ بالباطلِ الــذي تميلُ إليــه الــنفسُ بالتحويــــــل
وأنتِ العدالةُ لا تميــــلينَ لــي ولا ترينَ سبيلي مــنهجَ التحصيـــل
ومن يتبع جهلي يعيشُ ممتعــــــاً بسلبٍ وفحشٍ في لظــى التضــليل

٣- الحس ابتلاء الإنسان:[إن بلاء الإنسان فى كل الأمــراض النفســانية مــن الحس، ومن ملك حسه وقهره بالقرآن والسنة؛ يبلغ من الدرجات العلية أن يكون ربانياً روحانياً عالماً راسخاً فى العلم، لأن الحس يقهر العقل والــنفس والجســم، وهو باب الشيطان الذى يدخل منه على القلب، وذلك لأنه كان له غذاء يتغذى به فى الجنة، وهو مسراته ببهاء جمال الحق، وبهجته بأنوار التجليات التــى تبهــر العقول بضيائها الملكوتى، فلما أن تمكن الشيطان من آدم عليه السلام فى الجنــة كــان سبباً فى معصية آدم وأكله من الشجرة، فغضب الله على إبليس ولعنه، لأنه مــن جسم نارى لا يصلح لخير، ثم غضب على آدم وتاب عليه لأنــه مــن الطــين، وحكم عليه أن يعيش بكد وعناء، وغضب على الحس فحرمه من غذائــه الــذى كان يتغذى به فى الجنة، حتى يعود اليها إن اختاره الله تعالى، فهو فــى غايــة الجشع الى غذائه، يفتش عليه ولا يجده، فيوقع النفس والجسم فيما يغضــب الله تعالى.

وتلك القوى التى هى الحس، منتشرة فى جميع الجســد، وجنودهــا الســمع والبصر والشم والذوق واللمس والفرج والبطن، فهى تقهر العقل، ولا يقوى على مدافعتها إلا اذا أعانه الله تعالى ووفق من يشاء، فيهب له النور الذى تستبين بــه

سبل الله تعالى، وتظهر بشاعة الذنوب والمعاصى وقبحها، ولـــديها فقـــط يقهـــر العقل الحس، وقليل ما هم](1).

ويستطرد الإمام موضحاً ما أنعم الله به على الحس حين كان حقيقةً فـــى آدم عليه السلام وهو فى الجنة فيقول(2):

يا حسُ كنتَ بدارِ الخلدِ مســـرورا	تشاهدُ الجنةَ العلياءَ والحــــــورا
أغواكَ إبليسُ حتى صرتَ منتبـــذاً	أخرجتَ آدم مــذموماً ومدحـــورا
أُهبطتَ للأرضِ في كدٍ وفي تعــبٍ	راضٍ ببعدك مرذولاً ومغـــرورا
يا حسُ كنتَ بدارِ الخلدِ فـــي نعـــمٍ	يبدو لك الحسنُ تنزيهاً وتصويـــرا
يا حسُ قم فارعوي عن كلِ لائمـــةٍ	أسرع إلى التوبِ يقبل منك تعـــذيرا
إن لم تبـــادر إلى مولاك ملتجئـــا	يا حسُ تدخلُ نارَ البعدِ مسعـــورا
يا حسُ دنيـــاك ذي دارٌ منغصـــــةٌ	فانهض إلى اللهِ تضحى ثَم مأجـــورا
خيرُ النبيينَ بشرنـــــــا وأنـــذرنا	في محكمِ الذكرِ فاقرأ دمتَ منصورا
يا حسُ أقبل على مـــولاكَ ملتمســاً	تشهد غفوراً فكن بالشرعِ مـــأمورا
يوليك مولاك عطفاً مـــن حنانتـــه	تحيا سعيداً بدارِ الخلدِ محبــــورا
هذي نصيحةُ ذي صـــدقٍ وذي ثقـــةٍ	أولاكها ويرى الإحسانَ موفـــورا

٤- **نجاة الحس بالشرع الشريف:** [والإنسان من حيث هو إنسان لا يمكنـــه أن يمنح نفسه العطف والحنان والخوف والرجاء والتوبـــة والاســـتقامة والمعاونـــة والاتحاد والمساواة إلا بما ينزله الله عليه، وما يمنحه إياه من النور، حتى يقـــوى الحس، ليصغى إلى علوم الغيب فيوصلها إلى النفس، وهي تنشرها على قواهـــا، مبينة مزاياها، وهي تبثها في الآلات والأدوات، التـــي هـــي أعضـــاء الجســـم العاملات؛ لأن الحس إذا لم يهتد بنور الشريعة وأبصر بنور البصـــر، واهتـــدى بالشمس والقمر، ضل السبيل القويم، وخالف الصراط المستقيم، لأنه يرى الباطل

(1) الإمام أبو العزائم (دروس فى تزكية النفوس) ط1، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٣٩، ٤٠.

(2)الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص١٠٦

فيسارع إلى عمله، ويحجب عن الآيات فيه فيخيب في أمله، وكيف لا، والحس في الإنسان الأول نُعم في رياض الجنات، حتى ارتكب الخطيئة فأهبط إلى حضيض البليات، فتسلى عن مشاهدة الملكوتية، وعن مجانسهِ من الأنواع الروحانية، ولا سبيل له إلى الرقي من تلك الوهدة، واليقظة من تلك الرقدة، إلا بما يجعله الله له من النور، الذي به يشرح الصدور، وذلك النور هو الشرع المنزل من الله على لسان رسله وأنبيائه، وبه عز الإنسان ومجده، والعامل به يتيسر له قصده، ومن طلب العز بغيره أذله الله](1).

ثم يبين الإمام ما أُكرم به الحس من شهوده ليوم {ألست بربكم} وهو يوم العهد والميثاق الذى أُخذ على بنى آدم فيقول ﷺ: [أي أُخي.. كنت تستضيء في الفردوس بنور الجمال الرباني، سابحاً في الملكوت ومشاهداً ما به الأنس بالعطف الرحماني، فلا ترى عيناك إلا حقاً جلياً، أو جمالاً باقياً علياً، ولا تسمع أذناك إلا سجل المسبحين من ملائكة السماء، أو ترتيل الروحانيين بالحمد والثناء، في بهجة وإيناس، لا وصب فيها ولا إلباس](2)، ثم يزيد الأمر وضوحاً فيُذَكِّرُ الحس بما أُكرم به لما سكن الجنة مع سيدنا آدم عليه السلام فيقول نظماً(3):

يَاحِسُّ فِي ٱلْمَلَكُوتِ كَمْ أُونِسْتَ	بِٱلْوَجْهِ فِي نُورِ ٱلصَّفَا وُوجِهْتَ
يَاحِسُّ كُنْتَ مُوَاجَهًا بِعَوَالِمٍ	مِنْ نُورِهِ ٱلأَعْلَىٰ بِهَا خُصِّصْتَ
يَاحِسُّ يَوْمَ ٱلْعَهْدِ حَيْثُ ﴿أَلَسْتُ﴾ قَدْ	بَايَعْتَ مُخْتَارًا وَقَدْ عُوهِدْتَ
أُهْبِطْتَ بَعْدَ مَشَاهِدٍ قُدْسِيَّةٍ	حَتَّىٰ إِلَىٰ دَارِ ٱلْفَنَا أُنْزِلْتَ
كَيْفَ ٱلتَّسَلِّي بَعْدَ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ	فِي صَفْوِ إِينَاسٍ بِهِ أُكْرِمْتَ؟!
كُلُّ ٱلْمَلاَئِكِ سُجَّدًا لَكَ رَغْبَةً	لَمَّا لَهُمْ سِرَّ ٱلْبَهَا بَيَّنْتَ
أَنْبَأْتَهُمْ بِٱلْغَيْبِ حَتَّىٰ حُقِّقُوا	هَلاَّ لِمَنْ عَاهَدْتَهُمْ وَفَّيْتَ

---

(1)الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص51

(2) المرجع السابق، ص 109

(3)الإمام ابو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة 2535، ج3، ص26

كَيْفَ ٱلتَّسَلِّي بِٱلدَّنِيءِ وَإِنَّهُ   فَانٍ وَبِٱلْوَجْهِ ٱلْعَلِي نُعِّمْتَ؟!
مِنْ طِينَةِ ٱلْفَخَّارِ هَيْكَلُكَ ٱلْجَلِي   مِنْ نُورِهِ بِيَدَيْهِ فَضْلاً صِغْتَ
فِيكَ ٱلْمَعَانِي شُوهِدَتْ لِمَلاَئِكٍ   أَوْلَىٰ بِهَا يَاحِسُّ لَوْ أَدْرَكْتَ
فِيكَ ٱلْجَمَالُ أَضَاءَ نُورًا ظَاهِرًا   لِلْعَالَمِينَ فَهَلْ لَهَا سُخِّرْتَ؟!
يَاصُورَةَ ٱلرَّحْمَٰنِ تُحْجَبُ بِٱلدَّنِي   لِلْقُدْسِ وَٱلزُّلْفَىٰ بِهِ أُوجِدْتَ
خَلِّ ٱلدَّنِيَّ مُسَارِعًا لِحَظَائِرٍ   فِيهَا ٱلْبَقَا فِيهَا لَقَدْ رُغِّبْتَ
يَاحِسُّ تَحْجُبُكَ ٱلْمَظَاهِرُ نَاسِيًا   عَهْدَ ٱلتَّجَلِّي حَيْثُ قَدْ وُثِقْتَ
ٱلْكُلُّ سُخِّرَ طَائِعًا لَكَ مُقْبِلاً   لِلَّهِ يَاإِنْسَانُ قَدْ أُبْدِعْتَ
لاَ يَشْغَلَنَّكَ كُلُّ مَا هُوَ كَائِنٌ   عَمَّنْ خُلِقْتَ لَهُ وَقَدْ جُمِّلْتَ
لِلَّهِ رَبِّكَ أَنْتَ مَخْلُوقٌ فَكُنْ   عَبْدًا لَهُ فَلِقُرْبِهِ أُهِّلْتَ
يَاحِسُّ فِيكَ غَوَامِضُ ٱلأَسْرَارِ لَوْ   فُكَّتْ رُمُوزُكَ نُورَهَا أَبْصَرْتَ
أُنْشِئْتَ صُورَةَ حُسْنِ مَنْ هُوَ قَادِرٌ   كَنْزٌ لِسِرِّ ٱلْغَيْبِ فِيهِ ظَهَرْتَ
أَحْبِبْهُ تَشْهَدْ وَجْهَهُ لَكَ ظَاهِرًا   لَمْ يُحْجَبَنْ فِي حَيْثُمَا وَلَّيْتَ
كُنْ عَبْدَهُ يَكُنِ ٱلْوُجُودُ بِأَسْرِهِ   طَوْعًا لأَمْرِكَ حَيْثُ شِئْتَ وَجَدْتَ

ثم نراه يتوجه الى الحس فى ختام روايته – محكمة الصلح الكبرى– بموعظة بليغة فيقول له على لسان (النور):[يا حس.. مالك نسيت تلك المسرات؟ وتسليت بالشرور عن الخيرات، وتستبدل الإستضاءة بنور الله، في ملكوته الأعلى متنعماً برضاه، بالإستضاءة بنور شمس السماء، حيث الكد والعناء، تأنس بالفاني، وتبتهج بالأماني، وتلتفت عن ذي الجلال والإكرام، إلى عبادة شهوتك والذل للئام، يا حس.. تذكر من بيديه صنعك، والى رياض الفردوس رفعك، وبخطيئة إلى الأرض وضعك.

أُخرجت يا حس من الجنة بخطيئة فكيف تطمع فيها مع كثرة الخطايا؟! هل نسيتها أم تناسيتها؟ هلا تذكرتها فذكرتها، كيف ترضى بالدنئ، وتسارع إلى الوبيء، وترى ملء البطن وستر الجسم ووطء النساء، هو السعادة والهناء؛ جهلت يا حس وما كان لك أن تجهل، وكيف لا؟ ولابد لك عن تلك الدار أن

ترحل، إلى دار الإقامة فى نزل الكرامة، أو في محل الندامة. أعط يا حس لكل وطن حقه، فقد رأيت في الدنيا من الفناء برقة، وليست السعادة ملء البطن وتجميل الجسم والأنس بالنساء، هذه سعادة الوحوش الراتعة في الخلاء، أما سعادتك يا حس فهي روحانية، ومسراتك وبهجتك ملكوتية، فحصل الزاد بالمجاهدة، حتى تفوز بعد الآية بالمشاهدة.

يا حس.. تذكر نشأتك الأولى، يوم تجلي لك مولاك، وبقوله ﷻ: {ألست بربكم}(١)، أكرمك وناجاك واستضيء بنور الشمس في سيرك وحركاتك الجسمانية، واستضيء بنور عقلك الذي يعقل عن ربك في سيرك إلى إقامتك السرمدية، وتذكر قول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}(٢) وقوله سبحانه:{فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}(٣).

يا حس .. إعلم أن الله غني عنك، ولكنه رءوف رحيم بك، بين لنا ﷻ سبل الهدى لأنه كريم حليم، فاتق الله وسارع إلى مغفرة من ربك وجنة عرضها السموات والأرض، وارحم بقية القوى المتحدة معك من شرور أعمالك، ومن فساد آمالك. ولي نصيحة لك منفرداً أبديها؛ لأني عن المجتمع الآن أخفيها، أذكرك بنشأتك الأولى والآخرة، حتى تعلم منزلتك في مراتب الوجود بصريح الآية الظاهرة، لأنك متى علمت من أنت مقداراً، أعلنت التوبة جهاراً، وندمت على ما واجهت به مولاك، الذي أمدك بالإيجاد وبإحسانه والاك، وأعد لك- إن أنت أقبلت بإخلاص عليه- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لديه.

يا حس.. غذاؤك المسرات، وكمالها أن تكون باقية بلا آفات، نيلها بالإقبال في تلك الدار على عمل الباقيات الصالحات، فإن هذه الدار فانٍ نعيمها، في عناء

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢) سورة الأنفال آية ٢ وما بعدها

(٣) سورة الزمر الآيتين ١٧،١٨

سليمها، وفي شقاء سقيمها، وفي كد غنيها، وفي كرب فقيرها، ولا يصفوعيشها لذي مال، ولا يصفو صفوها من شوب الوبال، وردت إليها عرياناً خارجاً من ضيق، وتخرج منها عرياناً بلا زاد ولا رفيق، يعكر صفاءها الموت، ويكدر هناءها الزوال والفوت، فأين المسرة التي تنشدها فيها؟ إذا تذكر الحس أنه منقول إلى دار يحاسب فيها.

يا حس.. أذكرك فاذكر، وأنبهك إلى نعم مولاك فاشكر لا تكفر، وأيقظ قلبك إلى ما أعده الله لك من الملك الكبير فسارع ولا تنفر. يا حس.. إن النصوح يطاع ويجب له الاتباع، خصوصاً إذا دلك على الحق، وبين لك الطريق بالصدق، والمحجة أنوارها ساطعة، والحجة أضواؤها لامعة، فأسلم وجهك لله وحده، وكن بالإخلاص عبده، يمنحك فضله ورفده](1).

٥- **علاقة الحس بالعقل:** يبين الإمام هذه العلاقة قائلاً: [ٱلْخَيَالُ: مِرْآةُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ، وَالوَهمُ: مِرْآةُ ٱلْمَعْنَوِيَاتِ، وَٱلْعَقْلُ: بَرْزَخٌ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلنَّفْسِ، وَهُوَ ٱلْحَاكِمُ ٱلْمُسَيْطِرُ عَلَى ٱلْحِسِّ](2)، فالخيال يمثل المحسوسات، والوهم يمثل الحقائق العقلية، والعقل هو همزة الوصل بينهما وبين النفس، وفى نفس الوقت هو الحاكم المسيطر على الحس.

٦- **تأثير الحس على النفس:** [معلوم أن النفوس سريعة الإنفعال بما تورده عليها الحواس، ودليل ذلك ما تراه يحصل للمسرور إذا رأي ما يحزنه، فإنه ينسي بسرعة بواعث السرور وينفعل بما يراه، وكذلك المحزون إذا شهد ما يسره فإنه ينسي ما كان فيه وينفعل بدواعي السرور؛ وربما انفعل المتألم بمرض شديد ببُشري أو بصوت حسن أو بمعني بديع فعمه السرور، فينسي ألمه حتي لا يكاد يحس به، وذلك مشهود محسوس. وكثيراً ما نسي الإنسان ألم الجوع والعطش بمجرد سماع خبر أو رؤية عدوٍّ أو حبيب. وقد يكون الرجل محصوراً فيشتغل بشئ فينسي ذلك؛ وليس ذلك الأمر قاصراً علي النفوس الفاضلة بل هو

(١) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق ص١٠٩، ١١٠، ١١١.

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٨

عام لجميع النفوس حتي النفوس الحيوانية، كما يحصل لكلب الصيد إذا اصطاد مع شدة جوعه وعطشه، فإنه ينسيه سروره بالصيد جوعه وعطشه، ويرجع مسرعاً بصيده إلي سيده يبصبص حوله به، وكما يحصل للاعب الشطرنج من نسيان ألم الجوع والعطش ونسيان الهموم. كل تلك المثل المحسوسة برهان حق علي أن النفوس جبلت علي التسلي عما دواعيه مؤثرة عليها، فتتأثر النفوس بما تشهده تأثيراً يجعلها تألفه وتأنس به، ولو كان باطلاً أو بدعة مُضِلَّة](١).

رابعاً: النفس: لقد ذكرت النفس فى القرآن الكريم فى ثلاثمائة وسبعة وستين موضعا، وهذا يعكس الأهمية الكبيرة لموضوع النفس فى القرآن، لذلك أكد الإمام على أهمية معرفة النفس قبل معرفة الأشياء، فقال ﷺ: [ٱجْتَهِدْ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ ٱلأَشْيَاءَ، وَٱحْذَرْ أَنْ تَعْرِفَ ٱلأَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ، وَإِلاَّ كَانَ عِلْمُكَ وَبَالاً عَلَيْكَ](٢)، كما يرى أن النفس هى جوهر الإنسان، فإن اسم الإنسان إنما هو موضوع للنفس والبدن، والبدن هو هذا الجسم المؤلف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وغيرها، وهي أجسام أرضية مظلمة متغيرة، أما النفس فيبينها فيما يلى:

١- ماهية النفس: [وقف العقل الكامل عن إدراك حقيقة النفس، ورسمها بحد، لأنها من أمر ربنا سبحانه وتعالي ..، ولا يزال الإنسان من لدن نشأته الأولي والنفس محل بحثه ونظره، حتي أن أكثر الحكماء المتقدمين والحكماء المسلمين، رأوا أنها ليست بجسم ولا بعرض، لأنهم أثبتوا وجودها لما لها من الأفعال الخاصة بها، والأحوال القاصرة عليها، التي تغاير بالمرة أعمال الأجسام، وخواص الأعراض، وتضاد أيضاً أجزاء الأجسام وخواصها، حتي لا تشاركه في حال من الأحوال، وتباين الأعراض وتضادها كلها غاية المباينة، من حيث

---

(١)الإمام أبو العزائم (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) مرجع سابق، ص٤

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣١٠

أن الأجسام أجسام، والأعراض أعراض، لأنه ثبت أن النفس لا تتحيز ولا تتغير، وتدرك جميع الأشياء بالسوية بدون أن يلحقها فتور ولا ملل ولا كلال.

وشرح ذلك أن أي جسم من الأجسام له صورة فإنه لا يمكن أن يقبل صورة أخري من نوع صورته الأولي، إلا بعد أن يفارق صورته الأولي مفارقة حقيقية، فإنه لو فرضنا أن جسماً ما علي شكل مربع أو مثلث، وأردنا أن نجعله مستطيلاً أو أسطوانياً، فلا يمكننا ذلك إلا بعد مفارقته شكله الأول، وكذلك إذا نقش في جسم ما صورة من الصور، فلا يمكن أن ننقش فيه صورة أخري، إلا بعد مفارقة الأولي، حتي لو بقي فيه بعض الصورة الأولي لما قبل الصورة الثانية علي التمام، بل تختلط به الصورتان، والمُثل بيِّنة.

والحال أننا نجد أنفسنا نقبل صور الأشياء كلها علي تباينها وكثرة أنواعها من المحسوسات والمعقولات بغير نقص ولا تفاوت، ولا مفارقة للأولي، ولا تعاقب ولا زوال رسم، بل تبقي الصورة الأولي تامة، وتقبل الرسم الثاني، ثم لا تزال تقبل الصور المختلفة، صورة بعد صورة دائما أبدا، بدون أن تضعف، أو تفتر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد عليها، ويتجدد لها من الصور، بل تزداد بالصورة الأولي قوة علي ما يرد عليها من الصورة الأخري، وهذه خاصة من خواصها تباين بها الأجسام، ولهذه الخاصة يزداد الإنسان فهما كلما ارتاض، وتكمل بالعلوم والآداب.

ينتج من هذه المقدمات أن النفس ليست جسماً، وتقرر أنها ليست عرضاً، لأن العرض لا يحمل عرضا، ولأن العرض في نفسه محمول أبداً موجود في غيره، لا قوام له بذاته، وجوهر النفس قابل أبدا حامل ما هو أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض.

لهذا يظهر أن النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم، ولا عرضا، هذا والطول والعرض والعمق من المعاني التي صار الجسم بها جسما، تحصل في قوة النفس الوهمية من غير أن تصير به طويلة عريضة عميقة وتزداد فيها تلك المعاني أبداً بلا نهاية، فلا تغيرها عن حقيقتها ولا تتغير إذا تصورت كيفيات

الجسم من الألوان والطعوم والروائح، ولا يمنع بعضها قبول بعض من أضدادها كما يمنع في الجسم، وكذلك حالها في المعقولات، فإنها تقــوي بقبــول بعــض المعقولات علي قبول غيرها أبداً بلا نهاية، وتلك الخواص في غاية البعــد عــن الأجسام، والجسم لا يعرف العلوم إلا من الحواس، فيشــتاق إليهــا بالملامســة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام، فإن الجسم يشتاق إلى تلك الأشياء، ويزداد بها قوة ويستفيد منها كمالا، ويفرح بها لأنها تتمم وجوده وتمده.

وأما النفس فإنها كلما تباعدت عن الشهوات البدنية وخلــت بــذاتها، ازدادت قوة وكمالا، وتجملت بالعلوم الحقة، والآراء الصحيحة، بذلك يثبت أن طباعهــا وجوهرها تباين طباع الجسم والبدن، وأنها أكرم جوهر، هذا مــع شــوقها إلــى معرفة حقائق الأمور الكونية، ولهفها لفهم المعاني الإلهية وإيثارها لها، ولا يمنع من ذلك أنها أخذت كثيرا من مبادىء العلوم عن الحواس، لأن لها مــن نفســها علوما أخري، وأفعالاً لا تأخذها عن الحواس أبدا، وذلك ثابت بديهي خصوصــاً في علوم النظر، وما تكاشف به من أسرار الملكوت والفقه في دين الله تعــالي، وهي التي تحكم علي الحس بالصدق أو الكذب فكثيراً ما يشهد الحــس الأمــور علي غير حقيقتها وهي ترده إلى الحق، كما تري العين الشمس صغيرة، ويــري العامود الموضوع في الماء معوجاً، ويري الراكب في السفينة أنه ساكن، ويري الأشجار حوله تمشي، كل تلك العلوم من نفسها. وقد يخطيء فيما يراه من بعــد أو قرب، وكل الحواس تخطىء وتردها النفس، فقد تذوق حاسة الذوق الحلو مراً عند انحراف المزاج، وكل تلك المعلومات ليست من الحس، بل هــي مــن ذات النفس؛ من هذا حكموا أن النفس ليست جسماً، ولا جــزء منــه، ولا عرضــاً، والمراد بالنفس إذا أطلقت النفس الملكية التي تسمي بالناطقــة[1]، وإذا أردت أن أعرِّفها فإنما تعرف بما يقرب حقيقتها لا حقيقتها، فأقول: هي جــوهرة ســماوية

---

(١) النفس الملكية هى الروح بعد تنزلها واتصالها بالبدن.

روحانية نورانية من أمر ربنا سبحانه وتعالي][1]، ويزيد الإمام الأمر وضوحاً فيقول فى وصفها نظماً[2]:

نَفْسِي هِيَ ٱلْكَنْزُ فِيهَا سِرٌّ مَعْنَاهُ ... بِغَيْرِ كَيْفٍ وَفِيهَا نُورُ مَجْلاَهُ
جَهْلِي بِهَا ٱلْحَجْبُ عَنْ عِلْمِي بِمُبْدِعِهَا ... وَعِلْمُهَا كَشْفُ حَجْبِي فَهْمُ مَعْنَاهُ
نَفْسِي مِثَالٌ تَرَاءَىٰ لِي بِهِ وَضُحَتْ ... آيَاتُهُ وَبِهِ أُعْطِيتُ جَدْوَاهُ
نَفْسِي لَهُ صُورَةٌ تُنْبِي مُشَاهِدَهَا ... إِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ ٱلْمُبْدِعَ ٱللَّهُ
جَهْلِي بِهَا ٱللَّبْسُ وَٱلتَّشْكِيكُ أَجمَعُهُ ... وَعِلْمُهَا ٱلْكَشْفُ عَنْ غَيْبٍ وَأَخْفَاهُ
جَهْلِي بِهَا ٱلتِّيهُ بَلْ وَٱلْبُعْدُ عَنْ نِسَبٍ ... بِهَا يَلُوحُ جَمَالُ ٱلْوَجْهِ أَجْلاَهُ
لَوْ أَنَّهَا أَشْرَقَتْ نَفَسًا لِعَالَمِهَا ... فُكَّتْ طَلاَسِمُهُ وَرَقَىٰ لِعَلْيَاهُ
يَانَفْسُ ، مَا أَنْتِ؟! نُورٌ أَنْتِ أَمْ عَرَضٌ؟! ... أَمْ كَوْكَبٌ مُشْرِقٌ بِضِيَاءِ مَبْنَاهُ؟!
وَهَلْ بِكِ ٱلْجِسْمُ قَدْ قَامَتْ مَعَالِمُهُ ... أَوْ قُمْتِ فِيهِ فَهَٰذَا ٱلسِّرُّ أَهْوَاهُ؟!
حَيَّرْتِ أَفْكَارَ أَهْلِ ٱلْعَقْلِ لَمْ يَصِلُوا ... إِلَىٰ يَقِينٍ وَفِيكِ ضَلَّ أَهْدَاهُ
ٱلْعَقْلُ: يَعْقِلُ مَحْسُوسًا وَنِسْبَتَهُ ... لاَ يُدْرِكَنْ رُتْبَتِى وَٱلْمُنْعِمُ ٱللَّهُ
سِرِّي خَفِيٌّ عَنِ ٱلأَلْبَابِ يَحْجُبُهَا ... عَنْهُ نَظَائِرُهُ فِيهِ وَأَشْبَاهُ
مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَنْ يَطْلُبْهُ يَعْرِفُنِي ... فَيَعْرِفُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ مَوْلاَهُ
وَنَفْخَةٌ مِنْهُ تُجْلَىٰ لِلْمُرَادِ لَهُ ... فَتَشْهَدُ ٱلْوَجْهَ بِٱلتَّنْزِيهِ عَيْنَاهُ
مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي بِٱلْفَضْلِ يَعْرِفُهُ ... أَنَا ٱلْمِثَالُ لَهُ أُفْقٌ لِمَرْآهُ

٢- **خَلق النفس:** يبين الإمام أن خَلق النفس سابق على خلق الجسد فيقول: [خلق الله النفس قبل الجسد، وأودعها فيه مدة حياته، ثم أماته وأبقاها، ليظهر للعقل أنه سبحانه الأول قبل خلقه فلا افتتاح لأوليته، والآخر بعد فناء خلقه فلا انتهاء لآخريته؛ وقد خلق الله النفس واحدة، ومنحها القوة على تدبير الجسد، مع تفاوت عناصره، وتعداد الأضداد فيه، وكثرة الإنفعالات، إشارة منه سبحانه إلى

(١) الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) ط٣، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٦١، ٦٢
(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٣٩، ص٢٤٢

أنه واحد أحد، دبر الكون وقدر ما فيه، وأبرز ما أراده منفرداً، غنياً عن الوزير والنظير، والمعين والوكيل](١)، ففى تدبير النفس الواحدة إشارة للواحـد. ويتفـق الإمام الغزالى(٢) مع الإمام أبى العزائم فى هذا الرأى فيقول:[ومن استقرأ أفعـال الله تعالى وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السماوات والكواكب، وذلك بطاعة الملائكة له فى تحريك السـماوات علـم أن تصـرف الآدمى فى عالمه –أعنى بدنه– يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر، وانكشف له أن نسبة القلب إلى تصرفه، كنسبة العرش، ونسبة الدماغ كنسـبة الكرسـى، والحواس له كالملائكة الذين يطيعون طوعـاً ولا يسـتطيعون لأمـرٍ خلافـاً. والأعصاب كالسماوات،...](٣).

ثم يبين الإمام أن النفس مقهورة على فطرتها، فيقول:[خلق الله تعالى النفوس وقهرها على فِطَرِهَا، وهداها النجدين من خيرها وشرها، وبين سبحانه طريـق الرشد، وطريق الغيّ، وأعد جزاءً حسناً لمن زكى نفسه وصفَّاها، وعلى صراط الله المستقيم نهج بها فأنجاها، ثم جعل حدوداً زواجر، وعقوباتٍ جوابر، لمن دس نفسه وأهملها، وسلك مسالك أهل الغواية وتخيَّرَهـا](٤)، ثـم يوضـح المعنـى فيقول(٥):

فِطَـرُ ٱلنُّفُـوسِ تَقُودُهَـا لِعَنَاهَـا ... وَٱللَّـهُ بِٱلشَّـرْعِ ٱلشَّـرِيفِ هَـدَاهَا
لَوْلاَ ٱلشَّرِيعَةُ بَيَّنَـتْ سُـبُلَ ٱلْهُـدَىٰ ... ضَلَّتْ نُفُوسٌ فِـي سَـحِيقِ هَوَاهَـا
نَفْسٌ تَمِيلُ إِلَـى ٱلْحُظُـوظِ بِطَبْعِهَـا ... وَٱلْقَهْـرُ وَٱلإِفْسَـادُ كُـلُّ مُنَاهَـا
وَٱلْجِسْـمُ آلاَتٌ لَهَـا تَسْـعَىٰ بِـهِ ... وَبَرِيـدُهَا ٱلْحِـسُّ ٱلَّـذِي أَرْدَاهَـا

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق ص٣٢،٣١

(٢) الإمام أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الشافعي الأشعري، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري،[٤٥٠ هـ ٥٠٥ هـ– ١٠٥٨ م–١١١١ م]

(٣) الإمام أبو حامد الغزالى (نفخ الروح والتسوية) ط دار أم القرى للطباعة ، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٦

(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٢

(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيده رقم ٨٥٩١، ص٦٢

تُعْطَىٰ لِتَقْوِيَــةِ ٱلْجُسُــومِ وكَــمْ رَأَتْ مَــوْتَىٰ تُشَــيَّعُ صُــبْحَهَا وَضُــحَاهَا
تَرْجُو ٱلْخُلُودَ وَلاَ خُلُــودَ وتَشْــتَهِي نَيْلَ ٱلْحُظُوظِ وَفِي ٱلْحُظُــوظِ بَلاَهَــا
تِلْكَ ٱلْقُبُورُ لِــذِي ٱلْبَصِــيرَةِ عِبْــرَةٌ يَفْنَــىٰ بِهَــا عَــنْ غَــادَةٍ وَحُلاَهَــا
وَيْ وَٱلْقُصُورُ مَعَ ٱلْقُبُورِ وكَمْ تَــرَىٰ مَــنْ نَفْسَــهُ بِحُظُوظِــهِ دَسَّــاهَا
تِلْكَ ٱلْقُصُورُ مِــنَ ٱلتُّــرَابِ مُشَــادَةٌ بِئْسَ ٱلصَّنِيعُ صَــنِيعُ مَــنْ أَعْلاَهَــا
لَوْ شَامَ عَاقِبَــةَ ٱلأُمُــورِ لَفَــرَّ مِــنْ تِلْــكَ ٱلْقُصُــورِ وَنَفْسَــهُ زَكَّاهَــا

٣- **وصف النفس**(١): لوصف النفس معنيان: الطيش والشره، فالطيش عن الجهل، والشره عن الحرص، وهما فطرة النفس، فمثلها في الطيش كمثل كرة أو جوزة في مكان أملس منحدرة فإن أثرت إليها أو حركتها أدني حركة تحركت بوضعها، وهي في صفتها وصورتها في الشره متولدة من الحرص أنها على صورة الفراشة أنها تقع في النار جاهلة شرهه تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها، فإذا وصلت إلى شيء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته وهو نفس المصباح فتحترق، ولو قنعت بقليل الضوء عن بعد سلمت.. فكذلك النفس في طيشها الذي يتولد من العجلة، وفي شرهها الذي ينتج من الحرص والطمع هما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة لأنه طمع في الخلود فحرص على الأكل. وقد مثل بعضهم النفس في شرهها بمثل ذباب مر على رغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله، وآخر مر به فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع إلى ورائه سالماً. وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه لأن القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فلا يجده وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز صحيحًا، فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي أهلكه أهله وماله فتنعم ورثته بما شقي به، فإذا أطاعوا الله به كان أجره

(١)السيد علاء أبو العزائم (خاتم الوراث المحمديين) مرجع سابق، ص٣٦١

لهم وحسابه عليه وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية لأنه أكسبهم إياها فلا تدري أي الحسرتين عليه أعظم: إذهابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره.

٤- **قوي النفس**(١): وقد بين الإمام أن النفس واحدة ولها ثلاث قوى، وتلك القوي هي:

أ- **قوة النفس الملكية أو الناطقة:** هي النور المضيء لأفق الحواس العامة الذي به الإدراك والفقه والحركة في عوالم الملكوت، وكشف أسرار التجليات وفهم غوامض العلوم والتجمل بجميل الأخلاق وكمال الصفات، وهي محجوبة عن الأبصار لأنها مفارقة للمحيز من الآثار، ومتي صار لها السلطان علي البدن كان الإنسان ملكاً وأكمل.. وتلك النفس الملكية هي المدبرة لجميع النفوس، وإنما تكون قائمة بأمور الجسم إذا قهرت بقية النفوس.. وتزكية النفس الملكية يكون بمعاونة من الله تعالي، بصحبة مرشد عارف بأمراض النفوس ورعوناتها، فإذا صفت فتكون كما وصفها الامام فى كتابه "من جوامع الكلم" بقوله: النفس الملكية إذا صفت ملكت الجسم الصلصال فصار طوعاً لها، وصارت

أخلاقه أخلاق الروح، وتبدلت الأوصاف الحيوانية بأوصاف النفس الملكية، فصار الجسم ملكاً بل خيراً من الملائكة.

ب- **قوة النفس الغضبية (السبعية):** وبها دفع المضار عن الإنسان وجلب المنافع فهي التي بها الشجاعة والإقدام والصبر وعلو النفس، والحلم وتحمل الشدائد في اكتساب الخيرات والمبادرة إلي عمل القربات، إذا انقادت إلي النفس الملكية.. وبها الهلع والجزع والطيش والتهور والتعدي والكبر والظلم والجور إذا أهملت عن التهذيب والتزكية؛ وهى كما وصفها الإمام بقوله:

---

(١) الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص٦٥

النفس السبعية: لم يخلقها الله عبثاً وإلا كانت هباءً منبثاً، ولكنه خلقها لحكمة جليةٍ لمن تدبر، خفية على من غفل واستكبر، ومال عن الحق وأدبر، فهى القوة التى بها كبح الرذائل، ونصرة الحق بكبح الأشرار، وجلب الفضائل والخيرات، واستبدال المتاعب بالمسرات، وهى إذا انقادت للعقل، ابتهج الحسُ بالمسرة والجسم بالفضل، وساحت الروح فى فسيح الملكوت الأعلى، ووافتك بطرائف العرفان الكبرى(١).

ج- قوة النفس الشهوانية (البهيمية): وبها تحصل العفة والحياء والزهد والورع والأمانة والخشية والرهبة والرغبة والرجاء والطمع في الفضائل إذا تهذبت وانقادت للنفس الملكية ويحصل بها الفجور والفسوق والفحشاء والجبن والمذلة والتعلق والخداع والشره والكيد والمكر وسوء الظن والتطرف في الشهوات إذا أهملت؛ يخاطب الإمام هذه النفس قائلاً: أيتها النفس الشهوانية: لم يحرم عليك ربك طيباً ينفع، بل حرم ما منه النفوس تجزع، رحمة بك أيتها النفس، حتى تفوزى بالأنس مع أوليائه الأطهار، وصفوته الأخيار؛ أيتها النفس الشهوانية: ما هى ملاذُّك التى إليها تسارعين؟! أليست مأكلاً ومنكحاً وملبساً فيه ترغبين؟ هذه ليست ملاذاً للإنسان لأنها دفع للآلام والأحزان، فأنت تأكلين لتدفعى ألم الجوع الشديد، ودفع الجوع ليس لذة عند الرشيد، وكذلك الوقاع دفع لألم احتقان الماء، ودفع الألم: ليس لذة ولا صفاء(٢).

ولا يسعد الإنسان إلا بصلح هذه النفوس ولا يكون ذلك إلا بتزكية النفس، يقول الإمام رضي الله عنه(٣):

صلحُ النفوسِ حقيقةٌ لا تدركُ ... لكنهُ قصدٌ وليست تتركُ
حدَّ الإلهُ لها الحدودَ مبيناً ... نورَ الهدى وبيانُ طهَ المسلكُ
قهراً تذللُ لا تقادُ مطيعةٌ ... إن لم تطع قهراً فحتماً تهلكُ

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٦
(٢)الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص٣٥
(٣) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص٧٣

لكننا نبدي لها سبـلَ الهـدى حتى يلوحَ لهـا السـبيلُ وتمـلكُ
فاسمـح فديتكَ رحمـةً بجميعها أنـي أداريهـا بـنظمٍ يُسبـكُ
كيما تميلَ إلى الهـداةِ وتقتـدي بالمصطفى وعلى المنـاهجِ تسـلكُ

وإذا تصالحت هذه النفوس مع بعضها تأهلت للصلح مع خالقها –سبحانه– يقـول الإمام رضي الله عنه(١):

أَيَـانَفْسُ هَيَّـا صَـالِحِي مَـوْلاَكِ فَهْـوَ ٱلْبَـدِيعُ بِفَضْـلِهِ سَـوَّاكِ
أَيَانَفْسُ هَيَّـا مِـنْ سِـوَاهُ تَجَـرَّدِي وَتَخَلَّصِـي مِـنْ حَظِّـكِ وَهَـوَاكِ
أَيَانَفْسُ لِلْمَـوْلَى ٱلْعَلِـيِّ تَضَـرَّعِي فَعَسَاكِ تَحْظَـيْ بِٱلرِّضَـا فَعَسَـاكِ
أَيَانَفْسُ فِيكِ لَـوْ تَبَصَّـرْتِ لَحْظَـةً هُـوَ ظَـاهِرٌ بِصِـفَاتِهِ رَقَّـاكِ
أَيَـانَفْسُ لَبِّـي إِنْ أَرَدْتِ نَوَالَـهُ فَهْـوَ ٱلْـوَلِيُّ بِنُـورِهِ حَـلاَّكِ
أَيَـانَفْسُ قَسَـمًا بِـٱلنَّبِيِّ عَلَيْـكِ أَنْ تُلَبِّـي عَطُوفًـا لِلِّقَـا نَـادَاكِ
أَيَانَفْسُ طِيعِي أَمْرَ مَـنْ هُـوَ قَـادِرٌ بِٱلْفَضْـلِ وَٱلإِحْسَـانِ قَـدْ رَبَّـاكِ
أَيَانَفْسُ هَيَّا وَٱحْـذَرِي أَنْ تُشْـرِكِي بِٱللَّـهِ هَيَّـا نَزِّهِـي مَـوْلاَكِ
أَيَانَفْسُ مَالَـكِ لاَ تَحِنِّـي وَتَعْشَـقِي جَمَـالَ ٱلَّـذِي مِـنْ نُـورِهِ حَـلاَّكِ
لَـوْ تَعْلَمِـي يَـانَفْسُ مَـنْ سَـوَّاكِ لَكُشِـفَ ٱلْغِطَـا وَتَجَمَّلَـتْ مَبْنَـاكِ
أَيَانَفْسُ دَوْمًا فِي ٱلْمَعَاصِيَ تَرْغَبِـي وَتَنْسَـيْ حَلِيمًـا حَاشَـا أَنْ يَنْسَـاكِ

٥- **فضائل النفس**(٢): لما كان لكل نفس كمال، به يكون جمالها وتصـدر عنهـا الفضائل، كانت الفضائل ثلاثاً: للنفس الملكية فضيلة هـي (العلـم الـلازم لهـا الحكمة) ومتي كانت حركة النفس الشهوانية معتدلة منقادة للنفس الملكية حـدثت عنها فضيلة (العفة ويلزمها السخاء) ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلـة مقتدية بالنفس الملكية حدثت منها فضيلة (الحلم وتلزمها فضيلة الشجاعة). ومتي

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيده رقم ٨٥٨٧، ج٩، ص٥٩
(٢)الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص٦٦

اعتدلت تلك النفوس وقويت النفس الملكية وظهرت الفضائل الثلاث، لزمها فضيلة رابعة وهي أكمل الفضائل وأعلاها وهي فضيلة **(العدالة)**.

فالفضائل إذن أربعة: العلم ويتبعه الحكمة، والعفة ويتبعها السخاء، والحلم ويتبعه الشجاعة، والعدالة وهي جماع الخير والفخر.

٦- **رذائل النفس**(١)**:** وأما الرذائل فهي أربع وهي أضداد الفضائل: الجهل والشره والجبن والجور، وتحت هذه الأجناس، أنواع من الرذائل لا تحصي.

٧- **جبلات النفس**(٢)**:** يرى الإمام أبو العزائم أن جبلات النفس أربع هى أصول ما تفرع من هواها، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاها:

الضعف: وهو مقتضى فطرة التراب.

البخل: وهو مقتضى جبلة الطين.

الشهوة: وموجبها الحمأ المسنون.

الجهل: ومقتضاه الصلصال.

٨- **ابتلاءات النفس**(٣)**:** وعلى ذلك فالنفس مبتلاه بأوصاف أربعة متفاوتة:

أ- معانى صفات الربوبية مثل الكبر، والجبروت وحب المدح، والعز، والغنى.

ب- أخلاق الشياطين مثل الخداع، والحيلة، والحسد، وسوء الظن.

ج- طبائع البهائم مثل حب الأكل، والشرب، والنكاح.

د- أوصاف العبودية التى هى مطالبة بها؛ مثل الخوف، التواضع، الذلة.

٩- **أنواع النفوس:** يبين الإمام ﷺ أن النفوس المعروفة سبعة أنواع:

[جمادية، فنباتية، فحيوانية، فإبليسية، فملكوتية، فقدسية، فالنفس الكلية، ولكل نوع مقاصد، وأحكام، ومشاهد، وملاذ، وآلام، ولكل نفس منها حكمة](٤).

---

(١) الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص٦٧

(٢)السيد علاء أبو العزائم (خاتم الوراث المحمديين) مرجع سابق، ص٣٦١

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٢

(٤) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص ٥٢٩،٥٣٠

أ- **النفس الجمادية:** وهى النفس الداعية إلى الكسل والخمول والتى استعاذ منها رسول الله ﷺ فقال:"اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل"(١). وقد وصف القرآن أصحاب النفس الجمادية بقوله: {كأنهم خشبٌ مسندة}(٢).

ب- **النفس النباتية:** وهى متمثلة فى صفات النبات كالغذاء، والنمو، يقول تعالى:{والله أنبتكم من الأرضِ نباتا}(٣).

ج-**النفس الحيوانية:** وهى جوهر لطيف حامل لقوة الحياة والحركة، وهى النفس الداعية للإسراف فى المأكل والمشرب والمنكح، والحرص الحيوانى. ومن وقف عند هذه الأوصاف فهو من الذين وصفهم القرآن فى قوله تعالى: {أولئك كالأنعام بل هم أضل}(٤).

د- **النفس الشهوانية:** وهى كما يصفها الإمام: إذا تناولت الطعام زهدته، وإذا قامت بالوقاع كرهته، وإذا ملكت المال عانت بملكه العذاب، أو أنفَقَته فى معصية المنعم الوهاب، فلذتها ألم وبلاء، لكنها إذا تزكت صارت لذتها صفاءً وهناء.

هـ-**النفس الإبليسية:** وهى شيطان الجسم ويسيطر عليها الحس، وهى الداعية للتخلق بأخلاق إبليس، من الحسد، والكبر، والنزاع، والفرقة، والبغى، ومن وقف عند هذه الأوصاف فهو من شياطين الإنس الذين قال الله تعالى فيهم:{شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً}(٥).

و- **النفس الملكوتية:** وهى النفس التى تلاحظ عملها وتنسبه إلى نفسها كما فعلت الملائكة فقالت:{ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}(٦)، فنسبت العمل لنفسها

---

(١) أورده مسلم فى صحيحه حديث رقم (٤٩٠٥)

(٢) سورة المنافقون آية ٤

(٣) سورة نوح آية ١٧

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٩

(٥) سورة الأنعام آية ١١٢

(٦) سورة البقرة آية ٣٠

دون أن تشهد من وفقها لهذا العمل. مصداقاً لقوله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}(١).

ز- النفس الكلية: وهى خاصة برسول الله ﷺ وهى أكمل النفوس وأشرفها على الإطلاق.

١٠- أحوال النفوس: [كُلُّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِ نَوْعِ هَيْكَلِهِ ٱلنَّاسُوتِيِّ(٢)مِنْ مَادَّةِ ٱلأَرْضِ تَكُونُ نُفُوسُهُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ، إِمَّا مُطْلَقَةً تَتَصَرَّفُ فِي جَمِيعِ هَـٰذَا ٱلْجَسَدِ ٱلتَّصَرُّفَ ٱلسَّمَاوِيِّ، أَوْ مُقَيَّدَةً بِهَٰذَا ٱلْجَسَدِ ٱلسُّفْلِيِّ](٣)، فالإمام يقسمها قسمين(٤):

* **نفوس مطلقة:** تتصرف فى جميع هذا الجسد التصرف السماوى، ولها أربع درجات من الأدنى إلى الأعلى وهى كالتالى:

أ- نفوس خلقت من جلال الله: وهى نفوس الملائكة المقربين، نفوس الحفظة، السفرة الكرام، حملة العرش، نفوس الرسل من الملائكة وهم: جبرائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وميكائيل.

ب- نفوس من بهاء الله: نفوس عالين وهم الحافين بالعرش الكروبيين؛ نفوس أعلى عليين وهم الآلهون المهيمون بجلال الله فوق عمار السماوات.

ج- نفوس من جمال الله: نفوس الرسل الكرام، ونفوس ورثة الأنبياء، والصديقين(٥).

د- نفوس صيغت من جمال الكمال الذاتى: وهى نفس سيدنا رسول الله ﷺ .

* **نفوس مقيدة:** بهذا الجسد السفلى مندمجة فى ظلماته لا تصرف لها والسلطة فيها للنفس الحيوانية ولها أربع دركات هى:

---

(١) سورة الصافات آية ٩٦

(٢) (الجسمانى)

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥

(٤) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٥٣١، ٥٣٢

(٥) ويندرج تحتها نفوس المؤمنين لما ورد فى سورة الحديد آية (١٩) {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون}

أ- نفوس صيغت من نار جهنم.

ب- نفوس صيغت من السفل: نفوس البهائم.

ج- نفوس صيغت من طينة الخبال: نفس إبليس وجنوده.

د – نفوس صيغت من سـجين: نفوس الوحوش الكاسرة، نفوس الأناسى الـذين هم أضل من الشياطين الخاسرة.

١١- **علاقة النفس بالروح:** من خلال فهمنا لما سبق عرضه من تراث الإمـام أبى العزائم حول موضوعى الروح والنفس، فإن ثمة علاقة قوية بين الحقيقتين، فلفظ الروح إذا أُطلق فإنه يعنى الحقيقة الروحانية المجردة من لوازم ومقتضيات البشرية، وهى الحقيقة الإنسانية الكائنة والمخاطبة من ربها فـى يـوم {ألسـت بربكم}، فإذا اتصلت هذه الحقيقة الروحانية الملكوتية –الروح- بالمادة الجسمانية المُلكية اتصالاً غير مادى –يظهر أثره ولا يرى عينه- تتولد الـنفس الإنسـانية التى بها حياة الجسم، وبعد هذا الإتصال والتعلق تسمى الروح بـالنفس المَلكيـة لأنها أصبحت تحت سيطرة طبائع البشـرية، ومقتضـيات الجسـمية، ولـوازم العناصر الأربعة الماء والتراب والنار والهواء، فانتقلت إلى مرتبة أقل مما كانت عليه، فصارت مقيدة بعد الإطلاق، ومحجوبة بعد الشهود، ولهذا بعث الله الرسل بالشرائع ليطهروا الطبائع بالجهاد وتزكية النفس، فتقوى النفس الملكية حتى تعود إلى صفائها الروحانى، فتنعكس فى مرآتها معـانى ومشـاهد النفخـة القدسـية الإلهية، سر قوله {ونفخت فيه من روحى}، فإذا لم يستجب الإنسـان للشـريعة الإلهية، توقفت فيه الحياة الروحانية للنفس الملكية (الروح)، وتيقظت فيه الحيـاة الحيوانية.

١٢- **مجاهدة النفس وتزكيتها:** الزكاة هى الطهارة[١]، وزكى نفسه أى طهرهـا من النجاسات المعنوية، وزكى الذبيحة أى طهرها بالذبح المشروع، ويرى بعض

---

(١) المعجم الوجيز، ص٢٩٠

العلماء أن التزكية قسمان[1]: [تزكية جسمانية وتزكية معنويــة، لأن النجاســات قسمان: نجاسة حسية جسمانية، ونجاسة معنوية نفسانية، فالنجاسة الحسية البدنية معلومة وهى مذكورة فى كتب الأحكام. أما النجاسة المعنوية النفسانية فقد ذكرها القرآن الكريم فقال تعالى:{إنما المشركون نجس}[2]، وقال جل شأنه:{يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم}[3] أى يطهركم. فعُلم من هذه المعانى اللفظيــة أن التزكيــة هــى تطهير النفس من نجاساتها].

وتزكية النفس تكون بالمجاهدة التى حدثنا عنها الإمام فى قوله:[واعلم أنــه يجب أن تكون المجاهدة والرياضة بالتنقل والتدريج والرفق بالنفس شيئاً فشــيئاً، ولا يهجم عليها بما يشق عليها من الأعمال فتنفر منه نفوراً شديداً يخشــي منــه الترك والخروج بالكلية، فيجب الرفق بها إلى أن تتعود ذلك. وهذا هو الذي نبــه إليه ﷺ بقوله: "إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"، فإذا أراد المجاهدة نقل نفسه عن عوائدها المذمومة إلى المحمودة، فليمنعها من الفعل المذموم، وليذكرها ما ورد من الوعيد علي فعل المذموم والوعد علي فعل المحمود، فإن ثقل عليــه ذلك قطع عنها لذاتها الناجزة وداوى نفسه بترك الشهوات العاجلة، ومــن عــزم علي تحصيل مقام السخاء مثلاً فطريقه إلزام نفسه القيام بإخراج الواجــب مــن الزكاة والنذور والكفارات ونفقة الأب والأولاد الصغار والزوجة وغيــرهم مــن العيال، فإذا قام بذلك بسهولة عوَّد نفسه الإنفاق في المندوب. وإذا وصل إلى ذلك آثر علي نفسه ذوي الحاجات، ثم ينتقل إلى الزهد في حظوظ نفسه فــي الترَفُــه والراحات. فهذه طريق المجاهدة والرياضة يُدَرِّج العبد نفسه في سلوك الطريــق إلى مولاه مع الرفق بنفسه. والانقطاع إلى الأعمال دفعة وإخراج ما فــي اليــد دفعة واحدة منهىٌّ عنه، فإن قيل ان الصدِّيق ؓ أتى بجميع ماله إلــى النبــي ﷺ

---

(١) عبد الباسط القاضى (شعب الإيمان قبس من دروس الإمام محمد ماضى أبو العزائم) ط١، مطابع الشرطة، القاهرة، ٢٠١٢، ص١٦٣.

(٢) سورة التوبة آية ٢٨

(٣) سورة البقرة آية ١٥١

ليخرجه في سبيل الله، قلنا: ذلك لأن الحاجة كانت إليه متأكدة إذ كان ذلك وقت فاقة وضرورة وبالمسلمين حاجة إليه، وأيضاً فإن الصدِّيق كان عنده من الوثوق والصبر واليقين بالله تعالي ما ليس عند غيره. ولا بأس أيضاً بأن يرقع المجاهدة لنفسه بالعبادة بشئ من المباحات لِيَقْوَى بذلك علي الطاعات، وينتفي عنه الملل ويزول عنه السأم. قال الإمام على ﷺ: "روحوا النفوس فإنها إذا كَرِهَت عَمِيَت" والشريعة جاءت بمداواة النفوس المريضة وتطبيب القلوب المعلولة](١)؛

ويقول الإمام فى موضع آخر:[لِلنَّفْسِ أَوَابِدُ تَدْعُو إِلَيْهَا فِطْرَتُهَا وَدَوَاعِي قُوَاهَا، فَإِذَا شَعَرَ ٱلسَّالِكُ بِمَلَلٍ ٱقْتَضَاهُ ٱلْجِسْمُ فَلْيُعْطِ جِسْمَهُ حَقَّهُ، أَوْ فُتُورٍ ٱقْتَضَاهُ ٱلْعَقْلُ، فَلْيَشْحَذْ بِٱلرِّيَاضَةِ عَقْلَهُ، أَوْ سُتُورٍ ٱقْتَضَتْهَا ٱلنَّفْسُ فَلْيُمَزِّقْ تِلْكَ ٱلْغَوَاشِيَ عَنْ نَفْسِهِ، حَتَّىٰ تَسْتَرِيحَ مِنْ لَبْسِهِ](٢).

ويُجمِلُ الإمام أنواع الجهاد التى بها تتزكى النفوس فى منظومة (معالم السير والسلوك) فيقول(٣):

مَعَالِمُ ٱلسَّيْرِ بَعْدَ يَقِينِ إِيمَانِ	فِيهَا خَفِيٌّ وَمَا قَدْ تُظْهِرُ ٱلْعَيْنَانِ
أَمَّا ٱلْجَلِيُّ فَأَعْمَالُ ٱلْجَوَارِحِ قَدْ	وَضَحَتْ مَعَالِمُهَا بِدَلِيلٍ تِبْيَانِ
هِيَ ٱلصَّلَاَةُ صِيَامٌ وَٱلزَّكَاةُ كَذَا	وَٱلْحَجُّ وَٱلنُّطْقُ وَٱلتَّهْلِيلُ بِلِسَانِ
وَرَحْمَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْخَلْقِ عَنْ عَمَلٍ	بِٱلْقَوْلِ وَٱلْعَقْلِ فِي عَجْزٍ وَإِمْكَانِ
بِرُّ ٱلأَقَارِبِ وَٱلأَرْحَامِ وَصِلَتُهُمْ	بِٱلْمَالِ وَٱلْبِشْرِ وَ بِعُلُومِ عِرْفَانِ
وُدُّ ٱلْبَعِيدِ وَإِكْرَامُ ٱلضُّيُوفِ بِهِ	نَيْلُ ٱلْقَبُولِ وَإِحْسَانٌ لِجِيرَانِ
وَغَضٌّ بَصَرٍ عَنِ ٱلسَّوْءَاتِ حِفْظُ يَدٍ	عَنِ ٱلدَّنِيءِ وَعَنْ زُورٍ وَبُهْتَانِ
حِفْظُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلْقَبِيحِ وَعَنْ	كَشْفِ ٱلسَّتَائِرِ عَنْ قَاصٍ وَعَنْ دَانِ
لاَ تَأْكُلَنَّ طَعَامًا تَدْرِي شُبْهَتَهُ	وَٱزْهَدْ فَفِي تَرْكِهِ لِلْمَرْءِ حِصْنَانِ

(١) الإمام أبو العزائم (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) مرجع سابق، ص٢٤١، ٢٤٢

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٣

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٨٣٢٩

وَٱلْفَرْجَ فَٱحْفَظْـهُ لاَ تَهْتِـكْ مَحَارِمَـهُ   فَفِي ٱلزِّنَا مِنْ نَعِـيمٍ كُـلُّ حِرْمَـانِ
وَٱسْتَحِي مِنْ عَـالِمٍ يَـرْآكَ مُرْتَكِبًـا   تِلْكَ ٱلْفظَائِعَ وَٱخْشَـىٰ حَـرَّ نِيـرَانِ
إِيَّـاكَ وَٱلْقَتْـلَ لِلـنَّفْسِ ٱلْبَرِيئَـةِ إِذْ   فِيهِ ٱلْخُلُـودُ وَفِيـهِ كُـلُّ خُسْـرَانِ
وَلاَ تَمُـدَّ يَـدًا لِلْمَـالِ تَأْخُـذُهُ   إِلاَّ بِحَقٍّ بَـدَا فِـي نَـصٍّ فُرْقَـانِ
وَٱلأَهْلَ وَٱلصَّحْبَ وَٱلإِخْوَانَ تُكْرِمُهُمْ   بِكُلِّ لُطْـفٍ وَلاَ تَظْهَـرْ كَشَـيْطَانِ
وَمَنْ تَوَلاَّكَ مِنْ خَـدَمٍ وَمِـنْ حَشَـمٍ   فَـرَاعِ جَانِـبَ قَهَّـارٍ وَسُـلْطَانِ
وَٱعْلَمْ بِأَنَّـكَ عَبْـدٌ وَٱجْتَنِـبْ سَـفَهًا   وَدَعْ حَمَاقَـةَ مَغْـرُورٍ وَغَفْـلاَنِ
وَٱحْفَظْ مَوَاهِبَ مَوْلاَكَ ٱلَّتِـي وُهِبَـتْ   بِٱلْفَضْلِ تَحْظَىٰ بِإِحْسَانٍ وَرِضْـوَانِ
وَٱسْتَرْعَ مَـا أَنْـتَ تَرْعَـاهُ بِرَحْمَتِـهِ   فَكُـلُّ حَـيٍّ لَـهُ حَـقٌّ بِبُرْهَـانِ

أ- وسائل تزكية النفس: يقول الإمام ﷺ:[النفوس تصفو وتزكوا بتذكيرها جلال مبدعها وعظمة موجدها، وقدرة خالقها، واحاطتها علماً بحكمة وجودها ومثالها](١)، ويقول فى موضع آخر: [إنما تزكوا النفس بحب عن شهود، أو بوجد عن علم أو بضرورة داعية، ومتى زكت النفس أكسبت الجسم ميلاً الى الوجهة التى بها تزكيتها قال تعالى: {قد أفلح من تزكى}(٢)، والتزكية هى تطهيرها من كثافة الجمادية، ووقوف النباتية، ورعونات الحيوانية، وسعير الإبليسية، وتشبه الملكية](٣).

ب- تغذية النفوس أولى من تغذية الأبدان[(٤)]: ويتعجب الإمام ممن يقدم غذاء الأبدان على غذاء نفسه فيقول: من العجب أن الإنسان ينتقى أجود الأطعمة وأنفعها لبدنه، ويتحفظ مما يضره، وهو ببدنه حيوان ضعيف بالنسبة لأنواع الحيوانات، ثم يهمل نفسه، فلا يغذيها بالعلوم، ولا يداويها بالتهذيب والتزكية، ويهمل العناية بهذا الدواء من التعليم، وحسن التهذيب، فيصير أقل من البهائم،

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥٧
(٢) سورة الأعلى آية ١٤
(٣) الإمام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص١٤٧
(٤) الإمام أبو العزائم (دروس فى تزكية النفوس) مرجع سابق، ص١٢٦، ١٢٧

وأضر من الشياطين، وأعجب من ذلك، الاهتمام بأعضــاء الجســم، ويخــص بالعناية بعض أعضائه لشرفها، فينتقى البيوت لجودة الهــواء، ويهمــل أجــزاء النفس – وخصوصاً الأشرف منها– وهو العقل.

وترى الإنسان إذا مرض عضو منه، سارع إلى الطبيب متملقاً لــه، وبــذل نفائس الأموال ليعيد عليه ما فقد من الصحة، وقد تمرض نفسه بقبيح الأخــلاق، وشر العوائد، فلا يهتم بمعالجتها، ويتساهل، حتى يصير أحط من البهائم، وأسفل من الشياطين، وإنما تعالج النفس بصحبة العلماء والحكماء، الذين جملهــم الله – تعالى– بمكارم الأخلاق، وتكمل النفس بصحبة أهل التقوى من العباد والزهــاد، وخير دواء للنفس أن يغذي الإنسان نفسه الملكيــة، بــتلاوة القــرآن الشــريف، ومطالعة كلام رسول الله ﷺ وبالنظر في كتب العلماء بالله تعالى، مع المســارعة إلى التشبه بأولياء الله الأخيار، ويجاهد نفسه على الصــفات الجميلــة، وتــرك ضدها، ثم يقهر النفس الشهوانية، باجتناب الســفهاء والجهــلاء، والمتســاهلين بالدين، والنساء والصبيان، والأراذل، حتى لا يقهر عدوه شــهوته، وأن يطيــل صحبة العاملين بكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ من المجتهــدين والعبــاد والزهاد... وأن يراقب الله –تعالى– ويتذكر عذابه عند ثورة الشهوة، ثم يجتهــد في تلطيف القوة الغضبية، فينظر فيما يناله من أذية غيره له، فيكــره أن يضــر غيره بما يكرهه في نفسه، ويلاحظ ما يعود على المسيء في الدنيا والآخرة، ثــم ينظر إلى غيره، فما كرهه في غيره من طيش وعجلة وانتقام، يجب أن ينفر منه عند الغضب، ثم يجاهد نفسه بإطفاء شعلة الغضب، بالطمع في عفو الله، والتباعد عما يضر.

ج– أنواع تزكية النفوس كما بينها الإمام(١):

النوع الأول: وبه تكمل تزكية النفس.. المشاهد عن عين التوحيد، وهــذه شــيمة المقربين.. فإن من ذاق حلاوة التوحيد في الأفعال والصفات والذات، كــان مــن

(١) السيد.علاء أبو العزائم (بحوث ورسائل علمية عن الامام أبو العزائم) مرجع سابق، ص٧٤

الأفراد الكاملين، وكان في أعلى مراتب المهذبين، لأن اليقين الحق حفظ نفسه من هوى يعميها، ومن طمع يذلها وأمل يقويها، وعمل يغريها، لمشاهدته أن الكل من الله وبالله وإلي الله. وفى هذا النوع يقول الإمام نظماً(١):

جِلاَ ٱلنَّفْسِ بَعْدَ يَقِينِهَا بِشُهُودِ   وَرِفْعَتُهَا عِنْدِي بِحِفْظِ حُدُودِي
وَطُهْرَتُهَا ٱلتَّحْقِيقُ بِٱلْغَيْبِ عِنْدَمَا   تُنَاوِلُ رَاحَ حَقِيقَةِ ٱلتَّوْحِيدِ
وَبَهْجَتُهَا مَرْأَىٰ جَمَالِي مُنَزَّهًا   بِمِرْآةِ هَٰذَا ٱلْكَوْنِ لاَ بِقُيُودِي
لَدَيْهَا هِيَ ٱلنَّفْسُ ٱلزَّكِيَّةُ جُمِّلَتْ   بِسِرٍّ فَلاَحٍ أَوْ بِنُورِ شُهُودِ

النوع الثاني: وهو أرقي مراتب التهذيب.. ويكون بصحبة أهل النفوس الطيبة، والمرشدين العلماء العاملين، فقد يكتفي الرجل بمجلس معهم لتزكية نفسه.

النوع الثالث: وهو قمع النفس بزواجر ترك المألوف، وحبسها في سجن الزهد عن كل شهواتها وحظها والصبر علي ذلك.

النوع الرابع: تزكية النفس علي تزكيتها ليدوم أنسها بربها، ولا يكون ذلك إلا لأهل الشوق الشديد والغرام المحرق، فقد يفعل ذلك المرشد في تمكينه، والمكاشف في شهوده، والسالك في مسلكه، والواصل في نهايته، وهم درجات عند ربهم.

د- نتائج الجهل وإهمال التزكية(٢): فإذا أهمل تزكية نفسة انزوت تلك النفس الطاهرة الملكية، وتسلطت بقية القوى على الإنسان، فإن غلبت عليه النفس الإبليسية كان حسودا لجوجا جاحدا منكرا مفسدا متكبرا، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}(٣). أعماه الجهل والعياذ بالله عن

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٤١

(٢) الإمام أبو العزائم (مذكرة المرشدين والمسترشدين) مرجع سابق، ص٣٢

(١) سورة ص – آية ٧٥-٧٨

فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، فظن لجهله أن عنصر النار خير من عنصر التراب وجهل الفضل الإلهي، فكذلك الإنسان الجاهل المنقاد لقواه الإبليسية يهوي إلى حضيض الفتن والمقت كما قال الله تعالى توبيخا لمن أعماهم الجهل:{مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}(١). وقال تعالى أيضاً: {فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}(٢). أعماهم الجهل عن شهود الفضل الإلهي كما أعمى إمامهم إبليس عليه لعنة الله.

فالإنسان يبلغ من الكمال النفساني الجسماني إلى أن يصير في مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمه الملائكة، ويبلغ من النقصان وإهمال تزكية نفسه إلى أن يصير في هاوية الجحيم مع إبليس الرجيم الذي سنّ له تلك الضلالة.

ويتضح لنا من خلال ما سبق، أن الشر والرذيلة ليستا من فطرة الإنسان، وإنما ينشأ كل ذلك من اختلال التوازن بين غرائزه، ومن العوامل الخارجية التي تنحرف بهذه الغرائز والنفوس عن أهدافها الفاضلة، فإذا حدث هذا الإنحراف وجب على الإنسان أن يجاهد نفسه بالتزكية ليردها إلى فطرتها التى قال فيها سبحانه:{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}(٣).

خامساً:الجسم: معلوم أن الجسم هو هيكل بناه الله سبحانه بدليل قوله ﷺ: "إن هذا الإنسان بنيانُ الله، ملعونٌ مَن هدم بنيانه"(٤)، ولهذا أفرد له الإمام أبو العزائم قسطاً وافراً فى تراثه النثرى والنظمى.

١- تعريف الجسم: يعرفه الإمام بقوله:[الجسم جوهر جسمانى ذو طعم ولون ورائحة وأبعاد وحركة وسكون، وخشونة ولين ورخاوة وصلابة، مكون من

---

(٢) سورة الفرقان – آية ٧

(٢) سورة القمر – آية ٢٤-٢٥

(٤) سورة الروم آية ٣٠

(٥) ورد في تخريج الكشاف (١/ ٣٤٦)

أخلاط متضادة وطبائع عن الترقى صاده، وتلك الأخلاط هـي الـبلغم والمـرة السوداء، والدم والمرة الصفراء، وتلك الأمزجة مكونة من أركان الوجود وهـى الماء والهواء والتراب والنار](1)، يقول الإمام نظماً(2):

أَنَا أَنَـا مِـنْ نُطْفَـةٍ مِـنْ طِـينِ   مِنْ نُورِكَ ٱلْعَـالِي لَـدَى ٱلتَّعْيِينِ
آيُ ٱلْعَجَائِبِ فَـوْقَ عَقْلِـيَ حِكْمَـةٌ   أَوْجَـدْتَنِي لِعِمَـارَةِ ٱلتَّكْـوِينِ
أَظْهَرْتَ أَوْصَافَ ٱلْمَعَـانِي لِلنُّهَـىٰ   حَتَّـىٰ تَحَيَّـرَ عَقْـلُ كُـلِّ أَمِـينِ
جَمَعْتَ أَضْـدَادَ ٱلْوُجُـودِ بِأَسْـرِهَا   فِـي هَيْكَـلٍ بَـادٍ تَـرَاهُ عُيُـونِي
مَـاءٌ وَنَـارٌ بَـلْ تُـرَابٌ وَٱلْهَـوَا   جُمِعَتْ بِقُـدْرَةِ ذِي ٱلْجَـلَالِ مَتِـينِ

ويبين الإمام أن هذه العناصر الأرضية قد أثرت فى الطباع الإنسانية فيقول: [ٱلْهَيْكَلُ ٱلآدَمِيُّ ٱخْتَلَفَتْ فِيهِ مَادَّةُ ٱلتَّرْكِيبِ لأَنَّهُ مِنْ مَجْمُوعِ أَنْوَاعِ مَعَادِنِ ٱلأَرْضِ، وَكُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ ٱلإِنْسَانِ بِحَسَبِ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ هَيْكَلُهُ يَكُونُ خُلُقُهُ وَسَـجِيَّتُهُ](3)، ولعل هذا ما أكد عليه رسول الله ﷺ بقوله: "تجدون الناس معادن خيـارهم فـي الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقِهوا"(4)؛ وقد جُمع جسم الإنسان مـن الطـين والماء فى النطفة والنار فى الفخار{خلق الإنسـان مـن صلصـال كالفخـار}(5) والفخار ما أحرق من الطين، والهواء فى كل المراحل، فالجسم متباين الأجـزاء فهو متغيرٌ متحول، وإنما جماله الحيوى وبهاؤه الإنسانى إذا اتحد بـالنفس التـى بها الحياة، وبالحس الذى به ما يتمناه، فإذا فارقته النفس فقد الحياة والحس.

وقد بيَّن الإمام أن الجسم من عالم المُلك لأنه مبنى، والمُلك ما هو محسوس ملموس ومشاهد ومحيز بالمادة والمكان والزمان، والروح من عـالم الملكـوت لأنها معنى، والملكوت ما غاب عنك لكنك تؤمن إيماناً يقينياً بوجـوده، ولـذلك

---

(1) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص٤٠
(2) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٣٥٢، ص٢٥٢
(3)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥
(4) صحيح البخارى حديث رقم (٣٣٠٤)
(5) سورة الرحمن آية ١٤

كانت الروح غيب عن العقول لا يُعلم، وسر مصون عن الأرواح لا يُدرك، لأنها من أمر الله {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}(١). فالروح مجانسة للملكوت والملأ الأعلى فى صفائها ونورانيتها والجسم مفارق للملكوت والملأ الأعلى بكثافته وظَلامه وغلظته، ومجانس للشياطين بناريته، ولكنه بالرياضة والمجاهدة يصفو ويرقَ ويجانس الروح، ومن هذا يتعجب الإمام ثم يطلب من الجسم أن يجيبه(٢):

عَجِبْتُ وَمِنْ مَاءٍ وَتُرْبٍ وَمِنْ هَوَا ... وَنَارٍ يُشَاكِلُهَا بِكُلِّ مَقَامِ
يُرَىٰ فِي جِوَارِ ٱلطُّهْرِ فِي ٱلْمَقْعَدِ ٱلْعَلِي ... وَيُشْهَدُ فِي ٱلْعَالِينَ بِٱلإِعْظَامِ
أَيَارَسْمُ مِنْ سُفْلٍ تُصَاغُ وَتَرْتَقِي ... فَبَيِّنْ بِحَالٍ أَوْ صَرِيحِ كَلاَمِ

ثم يجيب على لسان الجسم قائلاً:

مِنَ ٱلطِّينِ لَٰكِنْ صَاغَنِي ٱلرَّبُّ صُورَةً ... وَجَمَّلَنِي بِمُقَدِّرٍ عَلاَّمِ
يُسَخِّرُ لِي كُلَّ ٱلْعَوَالِمِ مِنَّةً ... فَأَشْهَدُ وَجْهَ مُدَبِّرٍ وَسَلاَمِ
مِنَ ٱلسُّفْلِ إِلاَّ أَنَّ رَبِّيَ صَاغَنِي ... لِيُعْرَفَ بِي لِلْكَشْفِ وَٱلأَعْلاَمِ
وَبَيْنَ ٱلْعَوَالِمِ رُتْبَتِي فِيَّ نُورُهُ ... تُشَاهِدُهُ ٱلأَمْلاَكُ حَالَ قِيَامِي
وَأَسْرَارُ إِيجَادِي مَحَبَّتُهُ ٱلَّتِي ... بِهَا ٱلْحَجُّ يُنْبِئُنِي بِسِرِّ صِيَامِي
أَحُجُّ نَعَمْ بَيْتَ ٱلْخَلِيلِ وَسِدْرَتِي ... هِيَ ٱلْكَعْبَةُ ٱلْعَلْيَا لِكُلِّ إِمَامِ
أَطُوفُ نَعَمْ بِٱلْبَيْتِ سَبْعًا وَبِٱلصَّفَا ... وَحَوْلِي تَطُوفُ ٱلرُّوحُ فَوْقَ رَغَامِ
وَفِي ٱلسُّفْلِ كَيْنُونِيَّتِي وَمَكَانَتِي ... تُشِيرُ لَهَا ﴿ٱلأَعْلَوْنَ﴾ سِرَّ دَوَامِي
وَبِي جَاهَدَتْ رُوحِي وَفِيَّ لَقَدْ رَأَتْ ... غُيُوبًا بِعَيْنِ ٱلْكَشْفِ لاَ ٱلأَوْهَامِ
وَلَوْلاَيَ مَا جَاهَدْتُ فِي ٱللَّـهِ مُخْلِصًا ... وَلَوْلاَيَ مَا أُونِسْتُ بِٱلإِكْرَامِ
أَنَا ٱلرَّسْمُ مِنْ طِينٍ وَلِي فِيَّ حِكْمَةٌ ... وَبِي ٱلرُّوحُ فِي أُنْسٍ وَدَارِ سَلاَمِ
فَحِكْمَةُ إِبْدَاعِي وَسِرُّ بَدَائِعِي ... لِيُعْرَفَ فَأَشْكُرَهُ عَلَى ٱلإِنْعَامِ

(١) سورة الاسراء آية ٨٥
(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيده ٢٩٢٧، ص٣٤٣

فبالمرض عرفت الصحة وبالسواد عُرف البياض وبالسفل عرف العلو، فكان الجسم بهذا المعنى وسيلة إدراك ومعرفة ومعراج صعود وترقى وهـذا شـرفه. يقول د.مصطفى محمود[1]:[وفى حالة تدنى النفس إلى أوحـال الجسـد الماديـة واشتغالها بإشباع شهواته، فإنها تثقل وتعتم وتجانس الجسد فى كثافته وظلاميتـه وغلظته وهذا معنى ظلم الإنسان لنفسه. والحركة صعوداً وهبوطاً هـى حركـة النفس، أما الروح فهى دوماً فى الإطلاق.. الروح فى الجسد مثل الشـمس فـى البئر تظهر فيه دون أن تتحيز... والروح دوماً مجذوبة إلى الله (إلـى أصـلها) وهى بالتالى تجذب النفس والجسد إلى العلو بينما الجسد متدنٍّ وفى حالة قصـورٍ ذاتى مادى يشد النفس إلى السفل إلى ماديته][2]، ثم يستدل بقـول الإمـام أبـى العزائم[3]:

تَجْـذِبُ ٱلـرُّوحُ ٱلْهَيَاكِـلْ   فِـي ٱلصَّـفَا أَعْلَـى ٱلْمَنَـازِلْ
إِنْ أَدَارُوا ٱلـرَّاحَ صِـرْفًا   أَسْـكَرَتْ عَـالٍ وَسَـافِلْ

ويصف الإمام الجسم فى إحدى حكمه قائلاً: [الجسم: ثوب جمال للعـارفين، وقبر جيفة للغافلين][4]، وهنا يقدم الإمام وصفاً للجسم فيبين أن الجسم ثوب جمال للعارفين يلبسهم الحق ﷻ إياه، فيتنعمون به فى رياض الأنس بالله، بما يكرمـون به من استقامة الجوارح على مراده سبحانه، والتزامهم بشرعه الشريف فى كـل أمورهم وأحوالهم، فيصير الجسم هنا هيكلاً للحكمة، النفس سراجه والعلم زيتـه ونوره، وقد يكون الجسم عكس ذلك فيصير قبر جيفة للغـافلين، الـذين غفلـت نفوسهم وحجبت قلوبهم وطمست عقولهم عن شهود معـانى الجمـال والآيـات الجليات فى النفس والآفاق، فصار جسم الواحد منهم جيفة بكل ما يحمله معنـى الكلمة من نجاسة وهوان.

---

(١) د. مصطفى محمود ، فيلسوف وطبيب وكاتب مصري (٢٧ ديسمبر ١٩٢١ ، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٩)
(٢) د. مصطفى محمود (السر الأعظم) مرجع سابق، ص٤٧
(٣)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٧٨٤، ص ٢١٣
(٤)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤١

٢- بُغية الجسم: يقول الإمام:[بغية الجسم الراحة فى كل الأطوار، فى الدنيا ودار القرار، وراحة الكون الفانى بلاءٌ وأمانى، فجاهد أيها الجسمُ، لتنال الراحة التى لا تزول، فبالمجاهدة يصح لك الوصول](١)، فبالمجاهدة والإلتزام بأحكام الشريعة يصفو الجسم وهذا كماله، وبهذا الكمال الجسمانى يحدث الترقى الروحانى الذى يقول عنه الإمام: [إذا صفا الناسوت(٢) من أدران سفله، وسطعت على الروح أنوار كماله، سبحت فى ملكوت شهود الجمال، وتمتعت بشهود حظيرة الوصال](٣).

وفى لفتة أخرى يوضح الإمام أن الصفاء من أدران السفل إنما يكون بالأخلاق الفاضلة حتى تشاهد الروح جمال الباقى وتفر إلى الخلاق سبحانه، فيقول نظماً(٤):

نَعَمْ إِنْ صَفَا ٱلنَّاسُوتُ بِـٱلأَخْلاَقِ يُشَاهِدُ لاَهُوتِي(٥) جَمَالَ ٱلْبَاقِي
تُبَدَّلُ أَرْضِي وَٱلسَّمَاءُ وَعِنْدَهَا يَكُونُ عُرُوجِي فِيهِ بِٱلأَشْوَاقِ

٣- جسم الإنسان معجزٌ فى تكوينه: فى كل يوم يثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان هو آية الآيات، ومعجزة المعجزات، فكلما تقدمت وسائل الكشف على أعضاء الجسم البشرى، كلما زادت كمية المعرفة المتاحة حول أعضائه ومبناه، ونذكر هنا نبذة بسيطة حول بعض الإكتشافات الحديثة فى علم التشريح والتى تثبت عظمة خلق الجسم البشرى -وذلك على سبيل المثال لا الحصر- فيما يلى(٦):

---

(١)المرجع السابق، ص٤١
(٢) الناسوت: (الجسم)
(٣) الإمام أبو العزائم (شراب الأرواح) مرجع سابق، ص١٢
(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيدة رقم ٩٢١٣، ص١٥٤
(٥) اللاهوت: (الروح)
(٦) د. محمد راتب النابلسى (آيات الله فى الإنسان) موسوعة النابلسى للعلوم الإسلامية، شبكة المعلومات الدولية.

- في دماغ الإنسان، أربعة عشر مليار خلية قشرية، ومائة مليار خلية إستنادية، لم تُعرف وظيفتها بعد، بل إنَّ دماغ الإنسان هو أعقد ما في الإنسان، ومع ذلك نراه ما زال عاجزاً عن فهم ذاته.

- في رأس كل إنسان ثلاثمائة ألف شعرة، لكل شعرة، بصلة، ووريد، وشريان، وعضلة، وعصب، وغدة دهنية، وغدة صبغية.

- في شبكية عين الإنسان عشر طبقات، في آخرها مائةٌ وأربعون مليون مستقبل للضوء، ما بين مخروطٍ وعُصيّة، ويخرج من العين إلى الدماغ عصبٌ بصري يحوي خمسمائة ألف ليفٍ عصبي.

- في أذن الإنسان ما يشبه شبكية العين، فيها ثلاثون ألف خلية سمعية، لنقل أدق الأصوات، وفي الدماغ جهازٌ يقيس التفاضل الزمني لوصول الصوت لكل من الأذنين، وهذا التفاضل يقل عن جزءٍ من ألفٍ وستمائة جزءٍ من الثانية، وهو يكشف للإنسان جهة الصوت.

- أنف الإنسان يستطيع أن يميز أكثر من خمسين ألف رائحة.

- على سطح اللسان، تسعة آلاف نتوءٍ ذوقي، لمعرفة الطعم الحلو، والحامض، والمر، والمالح، وإنَّ كل حرفٍ ينطقه اللسان يسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة.

- في غشاء الفم الداخلي خمسمائة ألف خليّة، تموت هذه النصف مليون خليّة في جدار الفم الداخلي كل خمس دقائق، لِيَحلّ محلّها نصف مليون خليّة جديدة.

- قلب الإنسان الذى ينبضُ في الثانية الواحدة من ستّين إلى ثمانين خفقة، ينبضُ في اليوم مائة ألف مرّة! يضخّ خلالها ثمانية آلاف لتر، كل مائتى لتر تعادل برميلاً! فالقلب يضخّ ثمانية آلاف لتر في اليوم الواحد، وقد أجرى بعض العلماء حسابًا فوجد أن القلب يضخ ستاً وخمسين مليون جالون فى متوسط عمر الإنسان.

- يبلغ طول الشرايين فى جسم الإنسان مسافة قدرها ستمائة ألف كيلو متر.

- في الرئتين سبعمائة مليون سنخٍ رئوى، وأنّ الرئتين تخفقان في اليوم خمسًا وعشرين ألف مرّة، وأنهما تستنشقان في اليوم الواحدة مائة وثمانين متر مكعّب.
- في جدار معدة الإنسان، مليار خليةٍ تفرز من حمض كلور الماء ما يزيد عن عدة ألتارٍ في اليوم الواحد، وقد جهد العلماء في حلِّ هذا اللغز، لما لا تهضم المعدة نفسها؟!.
- في الأمعاء ثلاثة آلافٍ وستمائة زغابةٍ معوية للإمتصاص في كل سنتيمتر مربع، وهذه الزغابات تتجدد كلياً كل ثمانٍ وأربعين ساعة.
- في الكبد ثلاثمائة مليار خلية، يمكن أن تجدد كلياً خلال أربعة أشهر، ومعلوم أن وظائف الكبد كثيرةٌ، وخطيرةٌ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات.
- في الكليتين، مليون وحدة تصفية، طولها مجتمعةً مائة كيلو متر، يمر فيها الدم في اليوم خمس مرات.
- تحت جلد الإنسان ما يزيد عن خمسة عشرة مليون مكيّف لِتَكييف الجسم، لكلّ غدّة عرقيّة مكيّف لِتَكييف حرارته، وتعديل رطوبته.
- تتكون بصمة الجلد فى الإنسان، وهو جنين في رحم أمه، في الشهر السادس من الحمل، وتبقى حتى الموت، وإذا أزيلت هذه القطعة من اللحم إزالةً كلية، نبت لحمٌ جديد عليه البصمة التي أزيلت، ولو أن عمليةً جراحيةً أجريت لرجلٍ، وأزيلت بصمة الجلد من أصبعه كلياً، وأخذ جلدٌ له من مكانٍ آخر، ترجع له ملامح البصمة مرةً ثانية، على هذا اللحم الجديد، الذي أخذ من مكانٍ آخر، وبهذا تكون بصمة الإنسان: سجلٌ، وهويةٌ، وتوقيعٌ من صنع الله عزَّ وجل، لا تستطيع قوى البشر أن تمحوه، ولا بالموت، سر قوله تعالى: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}[1].

(١) سورة القيامة آية ٤

- كُريَّات الدّم الحمراء لو صُفَّتْ إلى جانب بعضها بعضًا لبلغ طولها طولاً يزيد عن محيط الأرض بستّة أضعاف! وأن هذه الكريَّات الحمراء لو وُضِعَت على سطحٍ منبسط لاحتلَّتْ مساحة تزيد عن ثلاثة آلاف متر مربّع، وأنّ في كلّ مللي متر مكعّب من الدّم خمسة ملايين كريّة حمراء؟ وأنّ كلّ كريّة حمراء تجول في الدّم في اليوم الواحد ألفًا وخمسمائة جولة، تقطعُ فيها ألفا ومائة وخمسين كيلو متر، حركة الكريّة من القلب إلى الرئتين إلى الأطراف ألف وخمسمائة دورة، تقطع فيها ألفاً وخمسمائة كم.

- عدد الخلايا في الجسم البشري، يزيد عن مائة ألف ألف مليون، أو يزيد عن مائة ألف بليون، أو يزيد عن مائة ترليون، هذه الخلية لا يمكن أن تراها بالعين المجردة، إلا إذا كُبِّرت مائةً وأربعين مرة، ووزن هذه الخلية واحد من ألف مليون من الجرام، أي ألف مليون خلية، إذا وضعت في ميزان تزن واحد جرام، وأن الإنسان يستهلك في الثانية الواحدة، مائة وخمسة وعشرين مليون خلية، كل خلية لها نواة، هذه النواة قال عنها العلماء أنها: مركز الإدارة، والإشراف، والقيادة، وعلى هذه النواة ثلاثٌ وعشرون زوجاً من الكروموزمات، قالوا أنها: تمثل مادة الحياة، وبها أسرار وجود الإنسان؛ وعلى هذه المورِّثات، أو العُرى الملونة، أو الجينات، معلومات تزيد عن خمسة آلاف مليون معلومة، هذه المعلومات التي هي على المورِّثات لو أردنا أن نكتبها باللغة لاحتاجت إلى موسوعةٍ تزيد عن مليون صفحة، وفي كلِّ صفحةٍ خمسة آلاف معلومة، اكتشف العلم منها حتى الآن ثمانمائة معلومة، أى توصل إلى اكتشاف ثمانمائة مورث أو معلومة على المورِثات، من أصل خمسة آلاف مليون معلومة.

إن ما سبق ذكرة من آيات الخلق الجسمانى المُعجز، هو اكتشافات علمية أثبتها البحث العلمى الدقيق، وليست مطروحة للنقاش أو الأخذ والرد، وما هى إلا قليلٌ من كثير، اكتفيت بها خشية الإطالة، ولكنه ذكرى لمن كان له قلب، ليعلم أنه عالم صغير انطوى فيه العالم الكبير، وليدرك عظمة خلقه وتكوينه، ومن ثَم يدرك عظمة الخالق المكون، الذى أمرنا بالتبصر فى أنفسنا فقال

سبحانه: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}(١)، فالهيكل الإنسانى هو آية الآيـات، بـين ذلك الإمام بقوله(٢):

فـى هيكلـى الآىُ تجلـى للمرادينـا	فى جـوهرِ الـنفسِ أسـرارٌ لعالينـا
صوغُ اليدينِ نعم رسـمى تلـوحُ بـهِ	شـمسُ التجلـى لأفـرادٍ وراضـينا
فى البدءِ كنتَ ضـيا معنـاه متحـداً	فـى القـدسِ منفـرداً أدعـوهُ آمينـا
من قبـلِ نشـأتىَ الأولـى أواجهـهُ	من غيرِ حجبٍ ونورُ القـدسِ نادينـا
بـدءاً أنـا صـورةٌ للحـقِ أظهرهـا	بل سدرةٌ غُشيت مـن غيـبِ هادينـا
من قبل "كن" كنتُ فى كينونتى أُجلـى	نـوراً لأسـمائهِ فـى آى ياسـينا
فى العهد فصلى وفى الميثاقِ أشـهدنى	معنـى تنزلـهِ دنيـاى والـدينا
حتى انفصلتُ فكنتُ الكنـزَ طِلسـمى	مشكاتهُ فيـهِ زيـتُ الغيـبِ مأمونـا
أُظهِـرتُ مظهـرهُ ينبـى بسـاطعةٍ	من غيـبِ أوصـافهِ والحـقُ والينـا
آياتـهُ أشـرقت للعقـلِ داعيـةً	للغيبِ فى مظهرِ التقريـبِ مضـنونا
أجليـتُ للمـلإِ الأعلـى غوامضـهُ	لى سـخر الملـكَ تحديـداً وتكوينـا
رقٌ بـهِ آيـةُ التبيـانِ ظـاهرةٌ	منشـورُ آيتـهِ فاشـهدهُ مكنونـا
ما بين روحى ورسمى برزخُ المجلـى	حصنُ الشـريعةِ يجلـى فيـه تعيينـا

٤- **اللطائف النورانية فى جسم الإنسان:** وهى عبـارة عـن مراكـز الطاقـة الروحية في جسم الإنسان والتي تتحكم في حالته النفسية والجسـمانية. وهنـاك أهمية كبيرة في معرفة هذه اللطائف النورانية الموجودة بداخل كلاً منـا وكيـف يمكن التأثير عليها وتنشيطها لإمداد الجسم بالطاقة الإيجابية المتزنة، وقد اكتشفها علماء الطاقة فى العصر الحديث ولكن الإمام أبا العزائم كان لـه السـبق فـى الحديث عن هذا الموضوع، يقول الشيخ أحمد سعد العقاد – أحد تلاميذ الإمام–:

(١) سورة الذاريات آية ٢١

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيدة رقم ٢٥٤٦

اعلم أن الحق تعالى أودع فى الإنسان لطائف نورانية من عــالم الأمــر، فــإذا انكشف سرها للعبد نال الكمال وفاز بالوصال وهى عشر لطائف:

الأولى لطيفة القلب: وهو البرزخ بين عالم الروح وعالم الخلق، وموضع هــذه اللطيفة تحت الثدى الأيسر مائلاً إلى الجنب، ولها تعلقٌ بالقلب الإنسانى الذى هو على شكل صنوبرى، ونورها أصفر، وهى تحتوى على أسرار سيدنا آدم عليــه السلام، فإذا ذَكَرَ بها العبد حتى ظهر نورها وعلا أو حصل اختلاجٌ فــى القلــب يلقن:

بلطيفة الروح: ونورها أحمر، وهى تحت الثدى الأيمن بإصــبعين مــائلاً إلــى الصدر، وصاحبها يرث علوم سيدنا الخليل عليه السلام، فإذا ظهر نورها يلقن:

لطيفة السر: وهى فوق الثدى الأيسر بأصبعين مائلاً إلى الصدر ونورها أبــيض وصاحبها يرث علوم سيدنا موسى عليه السلام، فإن ظهر نورها يلقن:

لطيفة الخفى: ولونها أسود وصاحبها يلقن علوم سيدنا عيسى عليه السلام، فــإن ظهر نورها يلقن: **بلطيفة الأخفى**: وهى وسط الصدر ونورها أخضر وصــاحبها يرث علوم سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ويذكر اسم الله تعالى بهذه اللطائف الخمس ثم يلقن:

لطيفة النفس الناطقة: ومركزها بين الحاجبين فى الرأس ويذكر لا إله إلا الله، ثم يلقن: لطائف العناصر الأربع وهى:

لطيفة عنصر النار: الذى هو ركن من أركان وجوده، ثم:

عنصر الهواء.

ثم عنصر الماء.

ثم عنصر التراب؛ فيُكشف له عن ملكوت هذه العناصر والسر الســارى فيهــا، ويصرفك الله فى العناصر لأنك عرفت روحها وملكت سرها، أما لطيفة القلــب فتواجهك أسرار المعية الإلهية، وتكاشف بسر قوله تعالى:{إن المتقين فى جنــات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر}. أما لطيفة السر فيكاشــفك الحــق بســر

غيب الهوية، أما لطيفة الخفى فيكاشفك الحق بأنوار الواحدية، أما لطيفة الأخفى فيكاشفك الحق بأسرار الأحدية الذاتية.

وبعدما سبق أرى أن الإمام قد إستطاع من خلال كشفه لحقائق الإنسان، وتوضيحه لماهية كل حقيقة وخواصها ووظائفها أن:

أ- يؤكد أنه لا يمكن للإنسان أن يصل الى السعادة والكمال المنشود الا اذا حظيت كل حقيقة من هذه الحقائق بمقتضاها. وهذه السعاده بشقيها الدنيوى والأخروى كما يراها الإمام لا تتحقق إلا إذا تزينت حقيقة الإنسان بزينة الدنيا وزينة الآخرة، اللتان يقول عنهما الإمام فى تفسيره لقوله تعالى: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً}(١): [والزينة ما كملت به الحقيقة، والحقيقة الإنسانية زينتها من حيث الدنيا ثلاث: العافية، القوت، الأمن:

* **العافية:** محتاجة إلى ما يحفظها على الإنسان وإلى ما يردها عليه إن فقدها.

* **والقوت:** محتاج إلى تربية النباتات والحيوانات وإتقان بعض الصناعات.

* **والأمن:** محتاج إلى أخلاق يعيش بها الإنسان مع قومه، وإلى عصبة تدفع عن الإنسان الشر وتجلب له الخير، وهذه الجمالات الثلاثة محصورة في المال والبنين. وقد جمعت الآية الشريفة كل تلك الأنواع، وهي المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وللآخرة زينة، ولله زينة يزين بها عباده الصالحين، وللعبد زينة بها يصل إلى الله، وزينة الدار الآخرة محصورة في الباقيات الصالحات، والباقيات هي كل باقية يرفعها الإنسان إلى ربه فيبقى له أجرها وهي محصورة في أربعة أنواع: العقيدة الحقة، العبادة الخالصة، الأخلاق الجميلة، المعاملة الحسنة، وكلها باقيات صالحات. ولا تكون ذخيرة للعبد عند ربه إلا إذا تلقى العقيدة من القرآن الكريم، وتلقى العبادة من عابدٍ عالم، وتلقى المعاملة من الكتاب والسنة، وتلقى

(١) سورة الكهف آية ٤٦

الأخلاق بالتشبه بالسلف الصالح، فمن ضيع أنفاسه في تحصيل زينة الحياة الدنيا غافلاً عن زينة الدار الآخرة خسر الدنيا والآخرة][1].

ب- يكشف لنا عن طبيعة كل حقيقة فى الإنسان، وما هى أسرارها، وما هو أثرها فى توجيه سلوك الإنسانى سواء إلى الخير أو الشر، كل ذلك من خلال أسلوبه الرائع فى مخاطبة هذه الحقائق ثم إجابته بلسانها، وقد تكرر هذا كثيراً فى حديثه عن حقائق الإنسان. نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- مخاطبتهُ للروح قائلاً[2]:

يَارُوحُ فِي ٱلْبَدْءِ كُنْتِ ٱلنُّورَ مَشْهُودَا   سُوِّرْتِ بِٱلْجِسْمِ صَارَ ٱلرَّسْمُ تَحْدِيدَا

- يخاطب العقل قائلاً[3]:

يَاعَقْلُ قِفْ فَٱلْغَيْبُ فَوْقَكَ مِقْدَارَا   يَاقَلْبُ فِرَّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فِرَارَا

- يخاطب النفس فيقول[4]:

يَانَفْسُ لِلْعَالَمِ ٱلأَعْلَىٰ تَحِنِّينَا   وَٱلْجِسْمُ رَبِّي نَعَمْ قَدْ صَاغَهُ طِينَا

- يخاطب الحس فيقول[5]:

يا حسُ أقبل على مَولاكَ ملتمسا   تشهد غفوراً فكن بالشرعِ مأمورا

- يخاطب الجسم فيقول[6]:

يَاجِسْمُ هَلْ شَاهَدْتَ مَنْ تَهْوَاهُ؟!   مِنْ طِينَةٍ يَاجِسْمُ كَيْفَ تَرَاهُ؟!

- يخاطب القلب فيقول[7]:

يَاقَلْبُ مَالَكَ لِنْتَ بَعْدَ جُمُودِ   هَلْ أُطْلِقَتْ رُوحِي مِنَ ٱلتَّقْيِيدِ؟!

---

(١) الإمام أبو العزائم (موارد أهل الصفا) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٨٥، ٨٦،

(٢)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٨٩٤، ج٤

(٣)المرجع السابق، قصيدة رقم ٧١٦، ج١

(٤) نفس المرجع السابق، ص٣٤٣، ج١

(٥) الإمام أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) مرجع سابق، ص١٠٦

(٦) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٤٢٦٠، ج٥

(٧)المرجع السابق، قصيدة رقم ١٥٠٧، ج٢

- يخاطب اللسان فيقول[1]:

يَالِسَـــانِي ذَكَـــرْتَ مَـــنْ تَهْـــوَاهُ   مَـــا تَقُـــولُ فَقَـــالَ قُلْـــتُ ٱللَّـــهُ

- ثم يخاطب جميع الحقائق فيقول[2]:

يَاحَقَـــائِقُ فِـــي سِـــيَاجِ ٱلْهَيْكَـــلِ   آنَ وَقْـــتُ ٱلتَّـــوْبِ هَيَّـــا هَرْوِلِـــي

وعلى هذا النسق البديع يسير الإمام فى مخاطبة بقية حقـائق الإنسـان مـن وهم، وخيال، وضمير، ونفخة قدسية، وغيرها...، موضحاً ماهية هذه الحقـائق. مما يُمَكننا من إكتشافها فى الإنسان ومعرفة العلاقة بين هذه الحقائق، الأمر الذى يؤدى إلى تحقيق الإنسجام والتوافق فيما بينها.

(١) نفس المرجع السابق، قصيدة رقم٤٢٢٧، ج٥

(٢)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٨٦٨، ج٤

الفصل الثالث

خلق آدم (النشأة الكونية)

أولاً: مرحلة التسوية.

ثانياً: مرحلة نفخ الروح (النفخة القدسية).

ثالثا: الأسماء التى تعلمها آدم.

رابعاً:خَلق حواء.

خامساً: إسكان آدم وحواء الجنة.

سادساً: الأكل من الشجرة.

سابعاً: إهباط آدم إلى الأرض.

ثامناً: رد الإمام على نظرية دارون.

مقدمة

إذا نظرنا إلى الإنسان فى القرآن الكريم سنجد أنه مصاغ من حقيقتين: الأولى مادية، والثانية معنوية، فأما الحقيقة المادية لوجود الإنسان فى القرآن فهي في غاية البساطة والمهانة لقوله تعالى:{وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين}[١]، فالطبيعة المادية لهذا الإنسان عبارة عن طين فى البداية، ثم عبارة عن ماء مهين بعد ذلك، وهذا يعني أنه لا مسوغ للبحث عن شرف الإنسان من خلال وجوده المادي فقط، بل لا بد من البحث أيضاً عن شرفه المعنوي، أى الحقيقة المعنوية للإنسان فى القرآن، وهى مرتبطة بالنفخة الإلهية في المادة المهينة {ونفخت فيه من روحى}[٢]، وخَلَقُه باليدين {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى}[٣] وغيرها مما سنتناوله فى هذا الفصل.

ومن المعلوم أن آدم عليه السلام –الأب الأول للإنسان– قد خُلق على مرحلتين، مأخوذتين من قوله تعالى:{فإذا سويته ونفخت فيه من روحى}[٤] وهما كالتالى:

أولاً: مرحلة التسوية: فخُلِق البدن على سبيل التدرج الزمانى، فجُمعت الأجزاء من العناصر الأربعة: الماء، الهواء، التراب، النار وهذه العناصر –مع تنافرها– فإن الجامع سبحانه جمعها وألف بينها، فالتسوية هنا تعنى أنه سبحانه جمع المتضادات وجعل بعضها لا يبغي على بعض، فالماء لا يتحد مع النار، والنار لا تتحد مع الهواء، والتراب لا يتحد بالنار، يقول الإمام[٥]:

---

(١)سورة السجدة آية ٧، ٨

(٢) سورة الحجر آية ٢٦

(٣) سورة ص آية ٧٥

(٤)سورة الحجر آية ٢٦

(٥)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٤٥٠٣، ج٥، ص٢

هُوَ ٱلرَّسْمُ[1] مِنْ تُرْبٍ وَمَاءٍ وَمِنْ هَوًا ... وَنَارٍ فَصَحَّ ٱلإِمْتِزَاجُ مِنَ ٱلضِّدِّ
لِتَظْهَرَ لِلأَرْوَاحِ قُدْرَةُ قَادِرٍ ... وَتُمْنَحَ نَفْخَتُهُ ٱلْوِصَالَ بِلاَ صَدِّ
وَتُجْلِي لِمَنْ صَافَاهُمُو ٱلْغَيْبَ ظَاهِرًا ... وَمَجْلاَهُ تُشْهَدُ لِلْمُرَادِ وَلِلْفَرْدِ
مَقَامٌ يَرَى ٱلْعَالُونَ فِيهِ غَوَامِضًا ... مِنَ ٱلْغَيْبِ تَمْحُو ظَاهِرَ ٱلرَّسْمِ وَٱلْعَدِّ
يَلُوحُ ٱلتَّنَزُّلُ مَشْهَدًا لِمُوَاجِهِ ... جَمَالاً بِهِ يَحْظَى ٱلْمُرَادُ بِلاَ جَهْدِ
فَيُلْقِي عَلَيْهِ ٱلْحُبَّ مِنْهُ عِنَايَةً ... وَيُظْهِرُنِي لِلْعَالَمِينَ لَدَىٰ وُدِّي
تَكَوَّنْتُ مِنْ أَرْكَانِ عَالٍ وَسَافِلٍ ... جَمَعْتُ ٱلْحَقَائِقَ وَٱلْعَلِيُّ نَعَمْ قَصْدِي

ويزيد الإمام الأمر وضوحاً فيقول[2]:

جَمَعْتَ أَضْدَادَ ٱلْوُجُودِ بِأَسْرِهَا ... فِي هَيْكَلٍ بَادٍ تَرَاهُ عُيُونِي
مَاءٌ وَنَارٌ بَلْ تُرَابٌ وَٱلْهَوَا ... جُمِعَتْ بِقُدْرَةِ ذِي ٱلْجَلاَلِ مَتِينِ

وكل عنصر من هذه العناصر خُلقت منه حقيقة فى الإنسان كما يقول الإمام:[خلق الله فى آدم وذريته: أرواحهم: من نور الرحمة، وعقولهم: من نور الحكمة، ونفوسهم من نار القوة والجلال، وأشباحهم: من أنواع جواهر الأرض التى لاكها بالماء وخففها بالهواء][3].

والتسوية تشمل أيضاً تنظيم الأجزاء ووضع كل جزء فى وضعه الذى يليق به، يقول تعالى: {خلقه من تراب}(٤)، ثم خُلط التراب بالماء حتى صار طيناً {وخَلَقتَه من طين}(٥)، ثم تُرك هذا الطين حتى تغير واسترخى فصار حمأً مسنوناً، وذلك قوله تعالى:{من حماٍ مسنون}(٦)، ثم تُرك الحمأ المسنون حتى

(١)(الجسم)
(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٥٢، ج١، ص٢٥٢
(٣) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٢٠٤
(٤)سورة آل عمران آية ٥٩
(٥)سورة الأعراف آية ١٢
(٦)سورة الحجر آية ٢٦

جف بإدخال الهواء فيه فصار صلصالاً، سر قوله تعالى:{من صلصال}(١)، ثم طُبخ هذا الصلصال بالنار فصار فخاراً، مصداق قوله تعالى:{خلق الإنسان من صلصال كالفخار}(٢)، يقول الإمام موضحاً هذا المعنى(٣):

أَيَـٰأَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ مِنْ طِينِ فَخَّارِ ... تَكَوَّنْتَ كَيْ تَرْأَىٰ مَظَاهِرَ أَسْرَارِي
وَمِنْ نُطْفَةٍ أُنْشِئْتَ آيًا جَلِيَّةً ... وَصِرْتَ بِمَحْضِ ٱلْفَضْلِ حِصْنَ قَرَارِي
تَدَبَّرْ فَأَنْتَ ٱلطِّينُ وَٱلْمَاءُ فَٱشْهَدَنْ ... جَمَالِي وَإِحْسَانِي وَسِرِّي وَأَنْوَارِي
أَكُنْتَ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا وَعَالِمًا؟ ... وَلَـٰكِنَّنِي أَنْعَمْتُ بِٱلْمِدْرَارِ
نَسِيتَ جَمَالَ ٱللَّهِ فِيكَ تَيَقَّظَنْ ... فَمَنْ يَنْسَهُ يَلْقَ سَعِيرَ ٱلنَّارِ
أَيَا طِينَةَ ٱلصَّلْصَالِ مَنْ بِجَمَالِهِ ... تَحَلَّيْتَ بِٱلأَنْوَارِ بَعْدَ فَخَارِ
أَتَنْسَىٰ مُفِيضَ ٱلْفَضْلِ وَٱلْجُودِ وَٱلْعَطَا ... وَتَهْجُرُ أَوْرَادِي وَتَتْرُكُ أَذْكَارِي؟!
وَلِلدُّونِ وَٱلدُّنْيَا تَمِيلُ وَتَرْتَجِي ... نَوَالَ ٱلرِّضَا وَٱلْعَفْوِ إِحْسَانِ غَفَّارِ؟!
تَذَكَّرْ جَمِيلِي مِنْ ﴿أَلَسْتُ﴾ وَبَعْدَهَا ... وَتَابِعْ سَبِيلِي مُخْلِصًا يَاسَارِ
وَلاَ تَنْسَىٰ إِحْسَانِي إِلَيْكَ وَرَحْمَتِي ... وَكُنْ مُخْلِصًا فِي خُفْيَةٍ وَجِهَارِ
وَلاَ تَشْتَغِلْ لِسِوَايَ تُرْفَعُ لِلْعُلاَ ... وَتَحْظَىٰ بِفَضْلِي صُحْبَةِ ٱلأَبْرَارِ
فَلاَ يَنْسَ إِحْسَانَ ٱلْجَمِيلِ وَفَضْلَهُ ... سِوَىٰ مُبْعَدٍ أَوْ جَاهِلٍ وَمُمَارِ

١- **مرحلة التسوية لآدم:** ومرحلة التسوية هى مرحلة البشرية فى آدم المتمثلة فى قوله تعالى:{إنى خالقٌ بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين}(٤)، والطين هو أصل البشرية فى الذات الآدمية، فأصبح آدم بعد التسوية بشراً ولكنه لم يكن إنساناً بعد، لأن الإنسانية لا تأتى إلا بعد النفخة القدسية التى هى سر الإنسانية وهى المرحلة الثانية، فالبشرية طينية ظلمانية، والإنسانية روحية نورانية؛ فسواه الله بشراً حياً بقوله للطين: كن فكان، قال

---

(١)سورة الحجر آية ٢٦

(٢)سورة الرحمن آية ١٤

(٣)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم٥٥٦٧، ج٦، ص٥٠

(٤) سورة ص آية ٧١

تعالى:{إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}[١]، ومن هنا فإن معنى قوله تعالى:{فإذا سويته ونفخت فيه من روحى}: "أن النفخة الإلهية الكريمة فى الإنسان من روح الله ليست هى مصدر حياة الإنسان فليس فى الآية السابقة ما يدل على هذا المعنى، حيث أن كل ما تثبته الآيات هو أن الله عز وجل يسوى الإنسان وينفخ فيه من روحه. فإذا قال قائل ينفخ فيه من روحه يعنى يحييه أو يعطيه مصدر الحياة، قلنا: أن هذا تأويل عقلى لا يدل عليه سياق الآية أو معانى ألفاظها فالذى يستنبط هذه النتيجة من الآية السابقة مخطىء فى استنباطه.

فإذا كانت الروح ليست مصدر حياة الإنسان فما هو إذن مصدر حياة الإنسان كما يدل عليه القرآن؟

إذا عدنا إلى آيات القرآن التى تتحدث عن الموت والحياة والإحياء للأجساد لوجدنا أن مصدر حياة البشر الجسدية هو النفس، وأن سبب موت الإنسان جسدياً هو خروج هذه النفس من جسده، وليس خروج الروح. والآيات الدالة على ذلك كثيرة نأخذ منها:{...أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً}[٢]، وقوله تعالى:{سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون}[٣]، وقوله تعالى:{هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها}[٤]، فالآيات السابقة تدل على أن سبب حياة الإنسان ومصدر حياته هو النفس.

أما فى بيان سبب الموت فنجد آيات كثيرة تدل على أن السبب هو خروج هذه النفس ومفارقتها للجسد لأن النفس هى مصدر النشاط الإنسانى الحيوى، وهى التى يقع عليها الموت، كقوله:{وما تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدرى

---

(١)سورة آل عمران آية ٥٩

(٢)سورة المائدة آية ١٣٢

(٣)سورة يس أية ٣٦

(٤)سورة الأعراف آية ١٨٩

نفسٌ بأى أرضٍ تموت}[1]، وقوله تعالى:{اللهُ يتوفى الأنفسَ حينَ موتها}[2]، تعالى:{كلُ نفسٍ ذائقةُ الموتِ}[3]، {أنه مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ}[4]، {قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}[5]، {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[6]،

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا}[7]، وفيما سبق دلالة واضحة صريحة أن الذى يخرج من الجسد ويسبب الموت هو النفس، ولم ترد آية واحدة تذكر خروج الروح كسبب للموت، مما يدل على أن مصدر حياة الإنسان هو النفس. ومن ثم فإن البشرية تمثل الخصائص الحيوية الجسدية أما الإنسانية فهى تمثل الخصائص العليا لبنى آدم كالإرادة والإختيار والمعرفة والبيان"[8].

فآدم بعد التسوية صار بشراً حياً قبل نفخ الروح وهذا مخالف لما قد يظنه البعض أن آدم بعد المرحلة الأولى (التسوية) قد أصبح تمثالاً من طين لا حياة فيه ولا حركة، وهذا تفسير للتسوية بما يخالف دلالة اللفظ اللغوية، وينطلق أصحاب هذا التفسير من فكرة مسبقة تقول بأن الروح بالنفخة الإلهية الكريمة هى مصدر الحياة، وهذا التفسير مرفوض للأسباب الآتية:

أ- التسوية فى اللغة هى تمام صنع الشيء أو تمام الفعل.

---

(١)سورة لقمان آية ٣٤

(٢)سورة الزمر آية ٤٢

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٥

(٤)سورة المائدة آية ٣٢

(٥) سورة الكهف آية ٧٤

(٦) البقرة آية ٧٢

(٧) سورة آل عمران آية ١٤٥

(٨) د.فاروق الفقى (موسوعة العروج الى الحقيقة المحمدية) دار النشر غير مدونة، ٢٠٠٩١٣٩٥١ ،ج ٢، ص٦٢،٦٣

ب- الضمير الغائب فى سويته {الهاء} عائد على قوله تعالى {بشراً} فى الآيـــة. مما يجعل المخلوق بالتسوية آدم البشر وليس آدم الإنسان.

ج- ليست الروح هى مصدر حياة البشر كما سبق، وقد ثبت لنا أن النفس هـــى مصدر حياة الآدمى البشرية الجسدية.

د- قوله تعالى:{..خلقه من تراب..} أى كونه وصوره فى الطـــين، أمـــا قولـــه تعالى:{...ثم قال له كن فيكون...} يعنى بشراً.

وعلى ذلك فإن قوله تعالى:{فإذا سويته} يعنى فإذا أتممت خلقه بشراً سوياً كامـــل الحياة فيه قلب ينبض ورئة تتنفس وعين ترى وتسمع. ومصدر هذا كله عند آدم – البشر– فى المرحلة الأولى من خلقه هو النفس.

٢- مرحلة التسوية لكل إنسان من ذرية آدم: يقول الله تعالى: {الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين* ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهـــين* ثم سواه ونفخ فيه من روحه}[١] فقوله تعالى: { ثم جعل نسله من سلالة من مـــاء مهين} دليل على أن الآية تتحدث عن خلق أبناء آدم، ثم قال:{ثم سواه ونفخ فيـــه من روحه} فالتسوية والنفخة الإلهية الكريمة مرحلتان يخلق بهما الله ابن آدم فى رحم أمه.

وتأتى مراحل التسوية تفصيلاً فى قوله تعالى:{ولقد خلقنا الإنسان من ســـلالة من طين* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنـــا العلقـــة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما}[٢]، هذه المراحل تنتهى بـــأن تكسى العظام لحماً. وإلى هنا تتماثل مراحـــل تكـــون أجنـــة الحيوانـــات العليـــا (الثدييات) مع مراحل تكون أجنة بنى آدم عليه السلام. ومنذ بدء تكوين الجنـــين أي منذ مرحلة النطفة (البويضة الأنثوية الملقحة بالحيوان المنوى للذكر) وبعـــد تعلق هذه الخلية بجدار رحم الأم، يمكن أن نقول أنه منذ البدء وهـــذا المخلـــوق كائن حى ودلالة حياته التغذى والنمو، حتى أنة بعد أن كان خلية حيـــة لا تـــري

(١) سورة السجدة الآيات ٧، ٨، ٩

(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٢، ١٣، ١٤.

بالعين المجردة، أصبح فى حجم المضغة، أى قطعة اللحم الصالحة للمضغ والتى تم مضغها بين الأضراس فعلاً، ثم يخلقه الله طوراً بعد طور حتى يأخذ هيئة والديه الجسدية بعد أن يكسو الله تعالى العظام لحماً.

ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل:{ثم أنشأناه خلقاً آخر}. ولا يملك المرء إلا أن يسأل: ماذا كان؟ ثم ماذا صار؟ إن الله سبحانه يقرر أنه أنشأ من هذا المخلوق أو من هذا النوع نوعاً أخر، يختلف عن النوع الأول إختلافاً تاماً، وهذا واضح من قوله: {خلقاً آخر}.

فإذا سألنا ماذا كان الجنين قبل الإنشاء الجديد؟ ثم ماذا صار بعده؟ وبماذا أنشأه اللّه إلى ما صار إليه؟

فليس أمامنا سوى القول بأنه كان بشراً بالتسوية التى بدأت بالنطفة وانتهت بإكتساء العظام باللحم. وهى المرحلة الأولى التى صار بها آدم كائناً حياً فقط أى بشراً، ثم صار إنساناً أو بتعبير أدق ارتفع من مستوى البشرية إلي مستوى الإنسانية الأفضل والأكرم والأرقي والأسمى، أى إلى أحسن تقويم.

كان بشراً فقط فصار بشراً إنساناً وهذا هو الإنشاء الجديد الذى نقله به الله عز وجل من خلق إلى خلق آخر أسمى وأعلى.

ولكن بماذا نقله الله هذه النقلة العظيمة؟ وبم رفعه الله إلى هذا المستوى الأكرم؟

هنا يأتى حديث رسول الله ﷺ ليجيب على هذا السؤال:"إن أحدكم ليجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح"(١)، فبعد الأربعين الثالثة أى بعد عشرين يوماً بعد المائه من بدء تكون الجنين تكون العظام قد كسيت لحماً فى آخر الأربعين الثالثة، "ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح" فالنفخة الإلهية الكريمة من الروح فى الجنين هى بعد التسوية وهى بلا شك تدخل عليه وهو حى، حيث أنه

---

(١)رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن مسعود

كان حياً منذ بدء تكوينه كجنين. وعلى ذلك فليست الروح هى مصدر الحياة ولم ينفخها الملك بأمر الله لكى تعطى الحياة –فهو حى من قبل– ولكن نفخها فيه لكى تعطيه شيئاً آخر هو الإنسانية، الذى هو صورة أحسن التقويم.

وهكذا يَثبُتُ لنا أن النفخة الإلهية الكريمة تأتى فى مرحلة تالية فى الزمان بعد التسوية، حيث إن التسوية تتم خلال مائة وعشرين يوماً(١).

وأرى أن هذا الرأى القائل بأن حياة الإنسان بالنفس لا بالروح هو الرأى الذى يتناسب مع ما أثبته العلم الحديث، فقد أثبتت الأبحاث الطبية أن قلب الجنين ينبض إبتداءً من الأسبوع السادس من الحمل، ويمكن مشاهدة ذلك بإستخدام الموجات فوق الصوتية (السونار). ونفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر، مما يؤكد أن الإنسان يحيا الحياة الحيوانية بالنفس لا بالروح.

ثانياً: مرحلة نفخ الروح (النفخة القدسية): وهى المرحلة الثانية لخلق آدم حيث نفخ فيه سبحانه من روحه سر قوله:{ونفخت فيه من روحى}(٢). والروح هنا منسوب إلى الله نسبة مِلكية لأنه كائن مملوك لله ككل شيء فى الكون، وهى نسبة تشريف لهذا الروح بنسبته له سبحانه، وبهذه النفخة تفرد الإنسان على سائر المخلوقات، يقول الإمام ﵁:[المَلَكوتُ: نُورٌ مُجَرَّدٌ مِنَ ٱلْمَادَّةِ، وَٱلْمُلْكُ: مُجَرَّدٌ مِنَ ٱلنُّورِ، وَٱلإِنْسَانُ: فِيهِ ٱلْمَادَّةُ وَٱلنُّورُ، وَزَاد عَلَىٰ ذَٰلِكَ فِي ٱلإِنْسَانِ نَفْخَةُ ٱلْقُدْسِ، وَلَمْ تَكُنْ فِي عَالَمٍ مِنَ ٱلْعَوَالِمِ إِلاَّ فِي ٱلإِنْسَانِ](٣)، ولكن ماذا أعطى الله لآدم بهذه النفخة؟ إذا كان حياً قبل أن يتلقاها؟

لقد أعطى الله لآدم بهذه النفخة عطاءات متعددة نذكر منها:

١- رُفع الى مستوى الإنسانية: وكما سبق، فبالنفخة القدسية رفع الله آدم من مستوى البشرية الذى كان فيه مجرد كائن حى مخلوق بكن، إلى مستوى الإنسان الذى صاغه الله باليدين، فالله خلق جميع المخلوقات فى هذا الوجود بكلمة {كن}،

---

(١) د. فاروق أحمد الفقى(موسوعة العروج الى الحقيقة المحمدية) مرجع سابق،ج٢، ص٦٧

(٢) سورة الحجر آية ٢٩

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢١

كما قال تعالى:{اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون}[١]،أما الإنسان فقد صاغه الله بيديه فجمع فيه الملك والملكوت-وذلك بعد النفخة القدسية- فقد بين سبحانه أنه خلق الملك بيدٍ، فقال: {تبارك الذى بيده الملك}[٢]، وخلق الملكوت بيدٍ، فقال: {فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ}[٣]، ثم أشار الى أنه جمع الملك والملكوت فى الإنسان فقال مخاطباً ابليس: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى}[٤]، أى للصورة الكاملة التى جمعت فيها ملكى وملكوتى، فالانسان بظاهره -جسمه- يمثل عالم الملك بمقتضياته، وبباطنه -روحه- يمثل عالم الملكوت بتجلياته[٥]، فالروح تمثل السر الذى لاح فى هيكل الطين، الذى هو الجسم، فهامت به الملائكة بدءاً حين أمرها الله أن تسجد لآدم، وفى هذا المعنى يقول الإمام ﷺ[٦]:

سِرٌّ نَعَمْ لاَحَ فِي طِينٍ وَفِي حَمَإٍ ... لَمْ يَتَّضِحْ فِيهِ تَفْصِيلِي بِإِجْمَالِي
كُلُّ ٱلْمَلاَئِكِ قَدْ هَامَتْ بِمَظْهَرِهِ ... فَكَيْفَ ظَاهِرُهُ ؟! ذُقْ نُورَ أَقْوَالِي
غَيْبٌ عَنِ ٱلرُّوحِ عَنْ عَالِينَ بَاطِنُهُ ... فِي كَنْزِ مَجْدٍ عَلاَ عَنْ رُوحِ سَئَّالِ
صَلَّى ٱلإِلَـٰهُ عَلَى ٱلْمَحْبُوبِ قُدْوَتِنَا ... خَيْرِ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْوُرَّاثِ وَٱلآلِ

فالإنسان خلق من سلالة من طين، ولكن ليس فيه شكل الطين ولا لون الطين ولا رائحة الطين؛ فأين الطين إذا؟؟ يتسائل الامام قائلاً:

طينٌ انا ويحى واين هو الطينُ؟ ... غيبٌ أنا وها أنا تعيينُ

ومعنى (ها أنا تعيين) اى مشاهد للعين، فكل واحد منا له هيكلين هيكل جسمانى طينى مشهود، وهيكل روحانى نورانى غير مشهود، هذا الهيكل

---

(١)سورة مريم آية ٣٥
(٢)سورة الملك آية ١
(٣) سورة يس آيه ٨٣
(٤) سورة ص آية ٧٥
(٥) طاهر مخاريطه (أيام الله) مرجع سابق، ص٧٠
(٦) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ١٤١٦، ج٢

النورانى هو الذى سطعت انواره على الهيكل الجسمانى فسترت صفات الطين وأظهرت فيه جمال رب العالمين يقول الامام:

أنا طينةٌ لكن صفت بجمالـهِ   وتجملت بالهيكلِ النورانى

٢- جمله الله بمعانى أسمائه وصفاته: وبعد التسوية ونفخ الروح ظهرت أسماء الحق وصفاته في آدم ليتبدل الطين بالجمال الإلهى فكل ما زاد فى آدم على الطين فهو جمال رب العالمين، أي جمالات أسمائه وصفاته عز وجل، فأصبح آدم بعد هذه النفخة القدسية مجملاً بمعانى سبع صفات إلهية هى: العلم، الإرادة، القدرة، الحياة، السمع، البصر، الكلام. ومعنى تجمل الإنسان بمعانى هذه الأسماء أنه أصبح مظهراً تظهر فيه معانى هذه الصفات وهذا ما يسميه الإمام بـ(التجلى)، وكل مخلوق فى هذا الوجود له نصيب من هذا التجلى ولكن على قدره، ومعنى هذا أن الكون يصبح للناظر بالعينين عبارة عن: (ظاهر وظهور ومظهر) فكل شيئ فى هذا الكون هو مظهر لمعنى اسم من أسماء (الظاهر) عز وجل، فالسماء مظهر لتجلى اسم الله (الرافع)، والأرض مظهر لتجلى (الباسط)، والماء مظهر لتجلى (الحى)..إلخ، ولكن الإنسان بوصفه سيد المخلوقات فكان له النصيب الأوفر من هذه الظهور والتجلى؛ بل إن هذا الظهور يعد حكمة من حكم إظهار الإنسان كما يقول الإمام:[أظهرك ليظهر(١) لا لتظهر؛ فاحذر أن تظهر نفسك متلذذاً بظهورك](٢)، يقول ﷺ نظماً(٣):

مَا ظُهُورِي مَوْلاَيَ إِلاَّ لِتَظْهَرْ   لِي جَلِيًّا عَلَىٰ عَطَايَاكَ تُشْكَرْ
أَنْتَ أَظْهَرْتَنِي لِتَظْهَرَ رَبًّا   قَادِرًا وَٱلْعَبْدُ لِلرَّبِّ مَظْهَرْ
أَنْتَ أَظْهَرْتَنِي لأَعْلَمَ أَنِّي   عَبْدُ ذَاتٍ أَقُولُ أَللَّهُ أَكْبَرْ
فِيَّ آيٌ تُنْبِي بِنُعْمَاكَ رَبِّي   أَعْجَزَتْنِي عَنْ عَدِّهَا كَيْفَ تُحْصَرْ؟

يعطينا الإمام مثلاً يوضح المعنى من خلال زجاجة الإنارة الكهربائية فيقول:

---

(١) (ليظهر هو فيك)

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٠٥

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٩٩٠٤، ج١٠، ص٢٧٧

- الزجاجة ذاتها مَثَلٌ للمظهر.
- والضوء المنبعث منها من خلال الزجاجة مَثَلٌ للظهور.
- والسر الخفي الذي لا يُرَى بالعين ولا يمس باليد -إذ لو مسته يد يكون الصعق- هو مَثَلٌ للظاهر، وهذا السر هو التيار الكهربي في خفائه لأنه من شدة ظهوره بطن، ولولا التيار لما رأينا ضياءً في المصباح[١].

فالمظهر في قول الإمام هو الجسم، وما في الجسم من حقائق روحانية رمز للظهور، وهي نور السمع ونور البصر وسر الكلام، وسر الحياة المتدفقة من خلال هذا المظهر، أما المحرك لكل هذا فهو الله الظاهر؛ وهذه الصفات تجملت بها حقيقة الإنسان الباطنة، فظهرت معانى هذه الصفات المفاضة من النفخة القدسية على مرآة الروح، وليس لها علاقة بالحواس الظاهرة، فمثلاً صفة الحياة لاتعنى حركة الجسم ولا ممارسة الوظائف الحيوية، فهذه يشترك فيها مع الحيوان، ولهذا فقد وصف القرآن هذه الأفعال بأنها معيشة، ولا يطلق عليها حياة إلا على سبيل المجاز، وهى تمثل أدنى مراتب الحياة وتسمى **(الحياة الدُنيا)**، يقول تعالى:{ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا}[٢]، وقوله تعالى:{وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين}[٣]، وهذا كان موجوداً قبل النفخة كما سبق، ولكن صفة الحياة التى اكتسبها الإنسان بالنفخة هى حياة قلبه وحقيقته، التى تستمد حياتها من الروح فمن ضيع الروح فهو ميت، لأن النفس هى مصدر حياة جسم الإنسان، أما الروح فهى مصدر حياة قلبه، ومُضيع الروح ميت القلب كما قال تعالى:{فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين}[٤].

---

(١) طاهر مخاريطه (أيام الله) مرجع سابق، ص٢٥
(٢) سورة طه آية ١٢٤
(٣) سورة الحجر آية ٢٠
(٤) سورة الروم آية ٥٢

فمعنى لا تسمع الموتى أى موتى القلوب، وهذه الحياة هى الحياة الحقيقية التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى:{أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس}(١)، وقوله تعالى:{من عملَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينهُ حياةً طيبةً}(٢)، وهذه الحياة تستمد عطاءها وغذاءها وقوتها من الإيمان بالله والإستجابة لسيدنا رسول الله ﷺ كما قال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}(٣)؛ فصفة الحياة المفاضة على الإنسان بالنفخة ليست الحياة الجسمانية وإنما هى الحياة القلبية الإيمانية.

وإذا أخذنا صفة السمع التى تلقاها الإنسان عقب النفخة سنجدها ليس لها علاقة بالسمع الحيوانى المرتبط بأذن الرأس-وهى الأذن الناسية- ولكنها سمع لأُذن الحقيقة الباطنة للإنسان والتى يصفها القرآن بالأذن الواعية فى قوله تعالى:{وتعيها أذنٌ واعية}(٤).

وصفة السمع كصفة الحياة، فسِرُ قُوتها وغذائها إنما هو من المنهج والشريعة الإلهية، فإذا لم تحصل على هذا القوت، ضعفت وتوقفت عن آداء مهمتها وهى أن تسمع وتعى مراد الله ورسوله ﷺولهذا فليس غريباً أن يخبرنا القرآن أنها معطلة عند الكافرين فيقول رب العالمين:{لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}(٥)، وبالطبع فإن الأعين والآذان المذكورة ليست هى أعين وآذان الجسم الواقعة فى الرؤوس، ولكنها أعين وآذان القلوب المعطلة بتأثير الكفر، فأدى ذلك إلى اكتفائهم بنظر وسمع الحواس فتساووا مع الأنعام، بل هم أضل؛ وهكذا فى صفة البصر فعين الجسم والرأس تنظر وعين القلب والحقيقة

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢
(٢) سورة النحل آية ٩٧
(٣) سورة الأنفال آية ٢٤
(٤) سورة الحاقة آية ١٢
(٥)سورة الأعراف آية ١٧٩

تُبصر، وقد أثبت القرآن النظر ونفى البصر فى حق الكافرين فى قوله تعالى:{وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}[١]، ولهذا يُفرِّق الإمام أبو العزائم بين عين الرأس الناظرة، وعين القلب الباصرة، فيقول:[عيون الرأس ان فتحت رأت عيوب الغير[٢]، وعيون القلب إن فتحت رأت عيوب النفس، فداوتها، فرأت الجمال الإلهى][٣]، فكل عينٍ ترى على قدرها، فعين الرأس ترى الآثار، وعين البصيرة تشهد الغفار، يقول الإمام رضي الله عنه[٤]:

عينُ البصيرةِ شاهدت أسراراً ... فى البحرِ تُجلَى سَتَّرت آثارا
عيناى فى رأسى رأت بحراً سما ... عينُ البصيرةِ شاهدَت غفارا
سَتَّر الوجودَ ظهورُ نورُ صفاته ... لما انجلت في هيكلى إسفارا

ولكل حقيقة من حقائق الإنسان عين تشهد -على قدر مرتبتها- ما خصص لها رؤيته من حقائق الوجود، فمشهد عين الرأس فى الكائنات المحسوسة الملموسة، ومشهد عين القلب فى الآيات المسطرة فى الكائنات، ومشهد عين الروح فى التجليات الكائنة فى الآيات، ومشهد عين النفخة العَليا فى شهود كمالات مجلى الذات ﷺ، يشرح الإمام هذا المعنى فيقول[٥]:

لروحى عينٌ تشهدُ الغيب والخفا ... وفى الرأسِ عينٌ تشهدُ الحظ والجفا
وللعقلِ عينٌ تدركُ الوسطَ الذى ... تسَتَّرَ بالأكوانِ إن صحَّ لى الوفا
وللنفخةِ العَليا عُيونٌ مضيئةٌ ... تشيرُ إلى المجلَى إذا لاحَ لى الصفا
أنا الوسطُ الغيبُ المصونُ عن النُهى ... إلىَّ انتهى عِلمُ الخلائقِ فانتفى
لأنيَ مشكاةُ المثالِ مُجمَّلٌ ... بأَبدَعِ إبداعٍ يلوحُ لمصطفى

---

(١) سورة الأعراف ١٩٨
(٢) (الخلق)
(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٤٧
(٤) الامام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٤٥٨، ج١، ص٣٢٦
(٥)المرجع السابق، قصيدة ٢٥١٩

خفيتُ عن الألبـــابِ قـــدراً ونشـــأةً فلم يُعرفن قدرى وقدرى قـــد اختفـــا
أنا الرمـــزُ مِـــرآةُ الحقـــائقِ كُلِّهـــا ولى سُخِرَ العالونَ جَـــاوزتُ رَفرَفـــا
حقيقـــةُ إنســـانِيتى دونَهـــا النهـــى وفى هِرَمِى والسُّـــقمِ أســـأَلُهُ الشِـــفا
ومن طِينَةِ الصَلصَال ربىَّ صـــاغَنِى ليظهرَ فى السُفلِ الدَّنِئِ لِمَـــن صـــفا

فإذا تعطلت هذه الحواس الباطنة ماتت حقيقة الإنسان الروحانيـــة، فيتحقـــق فيه ما وصف الله به الكافرين فى قوله تعالى:{فإنك لا تسمع الموتى ولا تســـمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين}[1]، وقوله تعالى:{أموات غير أحياء وما يشـــعرون أيان يبعثون}[2].

ويؤكد الإمام على هذا المعنى فى موضعٍ آخر فيقـــول ﷺ:[إنمـــا يوصـــف بالسمع والبصر والنطق (الحى)، ولا حياة لمن لا يبصر الآيات، ويسمع تســـبيح الكائنات، ويتكلم مع سكان السموات. قال تعالى:{أفأنت تسمع الصـــم}[3]. وقـــال تعالى:{أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون}[4]، ولكل رتبة مـــن الكائنـــات حياة بقدر منزلتها فللنبات حياة، وللحيوانات حياة، وهى بالنسبة لحيـــاة الإنســـان الكامل موت.. أعمى من لم يشهد ما فى الآفاق وما فى نفسه وإن أبصـــر كـــل شئ، وليس من نظر السموات والأرض بذى نظر، قال تعالى:{قل انظروا مـــاذا فى السماوات والأرض}[5]. فإن أجرام السموات والأرض يراها أخس الحيوانات رتبة، وإنما يتميز الإنسان بما يراه فيها من آيات الله وأسرار حكمته][6].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن الروح هى المرآة التى تنعكس فيها صـــفات المعانى السبعة، فإذا وقفنا عند تعريف الإمام للروح وتعريفـــه للـــنفس الملكيـــة،

---

(١) سورة الروم آية ٥٢
(٢) سورة النحل آية ٢١
(٣) سورة يونس آية ٤٢
(٤) سورة الفرقان آية ٤٤
(٥)سورة يونس آية ١٠١
(٦) الإمام أبو العزائم (من المضنون) مرجع سابق، ص٦٣

لاحظنا أن الإثنتين قد جمعتا صفات المعانى السبعة، فاتصــفت الــروح بــثلاث صفات واتصفت النفس الملكية بثلاث صفات واشتركتا فى صفة واحدة؛ فالإمــام يقول عن الروح:[الله ﷻ خلق الأرواح قبل الأشباح وجملها بأربعة أسماءٍ: حيةٍ، وبصيرةٍ، وسميعةٍ، ومتكلمةٍ، قبل دخولها الأشباح][(١)]، فالأرواح فى {يوم ألســت} والذى يسمى بــ{عالم الذر} قد سمعت وأبصرت وتكلمت، هذا ما أكــده الإمــام بقوله:[إن الأرواح فى عالم الذر شهدت الجمال الإلهى وسمعت الخطاب الربانى، فهى فى شوق إلى ما شهدت وسمعت، فإذا أخبرها الصادق؛ إطمأنــت وســكنت إلى الحق، لما ذاقته من معانى خبره، الذى صادف ما تشتاق إليه؛ فوقــع موقــع الشهود العينى][(٢)]، وقد تكلمت الروح حينما أجابت على سؤال:{ألست بــربكم؟} بقولها: {بلى} وفى قولها بلى بدون حاسة اللسان والصوت يعنى أن صفة الكــلام المفاضة على الإنسان بنفخ الروح ليس لها علاقة بالنطق –الذى قد يوجد عنــد بعض الطيور– انما تعنى البيــان الــذى خــص الله بــه الإنســان فــى قولــه تعالى:{الرحمن*علم القرآن*خلق الإنسان*علمه البيان} والبيان هو"التعبير عمــا فى الضمير، والكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق، وســمى الكــلام بيانــاً لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره"[(٣)].

أما النفس الملكية –وهى الروح بعــد إتصــالها بالبــدن– فيقــول عنهــا الإمام:[النفس: جوهرة روحانية، حيةٌ علامةٌ، فعالةٌ بإذن الله][(٤)] وقوله فعَّالــة أى انها تتصف (بالقدرة والإرادة) فالنفس الملكية علامة، والعلم كما يعرفــه الإمــام عبارة عن:[تصور النفس رسوم المعلوم فى ذاتها بعد صفاء جوهرها بالتهــذيب والتصديق والتسليم][(٥)]، فالنفس الملكية تتصف بصفات الحياة، والعلــم، والقــدرة

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٥١

(٢) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٢٩٨

(٣) العلامة اسماعيل حقى (تفسير روح البيان) مرجع سابق، ج٩، ص٢٨٩

(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٠

(٥) الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص١٩

والإرادة. إذاً: الروح لها ثلاث صفات، فإذا إتصلت بالهيكل الجسماني سميت بالنفس الملكية وأضيف لها ثلاث صفات أخرى، بالإضافة إلى صفة الحياة التي تجملت بها الروح من ذى قبل. وقد تجملت كلاً من الروح والنفس الملكية بهذه الصفات بعد النفخة القدسية. فأصبحت الروح هى ظل النفخة القدسية، تنعكس فيها معاني الصفات الإلهية، فظهر جمال هذه الصفات على هيكل الإنسان، فزينت الطين بجمال رب العالمين، كما يقول الإمام(1):

مَنْ زَيَّنَ ٱلصَّلْصَالَ بِٱلآيَاتِ ... وَبِنَفْخَةٍ فِيهِ أَبَاحَ صِفَاتِي؟!
مَنْ أَسْجَدَ ٱلأَمْلاَكَ لِلطِّينِ؟! ٱلَّذِي ... قَدْ صَوَّرَتْهُ يَدِي بِفَيْضِ هِبَاتِي
أَنَا لاَ أَزَالُ أُفِيضُ غَيْبَ مَكَارِمِي ... حَيٌّ فَلاَ أُوصَفُ بِقَيْدِ مَمَاتِي
ٱلطِّينُ أَرْفَعُهُ وَأُعْلِي قَدْرَهُ ... لاَ تُنْكِرُوا إِنْ رُمْتُمُو جَلَوَاتِي
هِيَ قُدْرَةٌ جَلَّتْ، وَتَدْبِيرٌ سَمَا ... وَمَشِيئَةٌ سَبَقَتْ لأَهْلِ هِبَاتِي

ويؤكد الإمام أن هذه الصفات هى سر محبة الله للإنسان، قال تعالى:{يحبهم ويحبونه}، فمحبة العبد للرب شيئ طبيعى فالنفوس مفطورة على حب من أسدى إليها معروفا، ولكن العجيب حقاً هو أن يُحب الرب عبده، يقول الإمام:[ليس العجب من حبى لك وأنا عبدٌ فقير، بل العجب من حبك لي وأنت ملك قدير](2).
ولكن ماذا يحب الله فى الإنسان؟

يجيبنا الإمام عن هذا السؤال بأن الله لا يحب الإنسان لذاته، انما يحب فيه صفاتَه فيقول: [أَحَبَّ مَا فِيكَ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْمَحْبُوبُ –جَلَّ جَلاَلُهُ– لَهُ لاَ أَنْتَ، فأَحْبِبْهُ بِمَا فِيكَ مِنْهُ، إِذَا تَجَرَّدْتَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ عَنَاصِرِكَ](3)، وقوله: [إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ مِنَ ٱلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا فِيهِ مِنْهُ](4)، وقوله: [إن الله لا يحب من خَلقه إلا من كان على

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق قصيدة ٣٤٣٠، ج٤، ص٢٨٥
(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص١٨٨
(٣)المرجع السابق، ص٢٥٨
(٤) نفس المرجع السابق، ص٢٥٧

خُلقه][1]؛ ويرى الإمام أيضاً أن ما فى الإنسان من صفات الله هى سبب تسخير هذا الكون للإنسان، فيقول ﷺ نظماً[2]:

لِمَا فِيَّ مِنْهُ سَخَّرَ ٱلْكَوْنَ كُلَّهُ ... لِيُشْهَدَ هَٰذَا ٱلْكَوْنُ غَيْبَ ٱلْهَادِي
ولَمْ يَكُ لِي بَدْءًا لِفَخْرٍ وَرِفْعَةٍ ... وَلَٰكِنْ لأَنْظَمَ فِي عُقُودِ ﴿عِبَادِي﴾
أَيَبْطُرُنِي مَا فِيَّ مِنْهُ وَنَشْأَتِي ... تُبَيِّنُ لِي بَدْئِي وَقُرْبَ مَعَادِي؟!
تَحَمَّلْتُ أَسْرَارَ ٱلأَمَانَةِ مَبْدَءًا ... وَطِينَةُ فَخَّارٍ بِهَا إِيجَادِي
وَإِنْ أَنْسَ مَا ٱلأَشْيَاءُ لَمْ أَنْسَ نَشْأَتِي ... مِنَ ٱلْمَاءِ إِيجَادِي بِلاَ أَضْدَادِي
نَعَمْ فِيَّ نُورٌ أَسْجَدَ ٱلْعَالَمَ ٱلْعَلِي ... وَسَخَّرَ لِي ٱلأَكْوَانَ بِٱلإِعْدَادِ
لِيُعْرَفَ جَلَّ ٱللَّهُ رَبًّا وَقَادِرًا ... وَأُعْرَفَ عَبْدًا فِي عَظِيمِ جِهَادِ
فَلاَ نُورَهُ فِي هَيْكَلِي مُوجِبٌ عُلًى ... وَلاَ وَصْفَهُ نَيْلِي بِهِ إِسْعَادِي
أَمَانَتُهُ حَمَلْتُهَا لِيَلُوحَ لِي ... إِلَٰهًا عَلِيًّا فِي ٱلْجَمَالِ ٱلْبَادِي
وَأَسْجَدَ لِي ٱلأَمْلاَكَ كَيْمَا أُرَىٰ أَنَا ... بِهِ فِي عُبُودَةٍ خَاشِعٍ وَمُرَادِ
فَإِنْ أَنْسَهُ كُنْتُ ٱلظَّلُومَ وَنَائِيًا ... وَكُنْتُ جَهُولاً بِٱلضِّيَا ٱلإِرْشَادِ

وأيضاً فإن هذه الصفات هى سر محبة الإنسان للإنسان، يقول الإمام: [كُلُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلأَنْوَاعِ ٱلْحَيَّةِ تُحَبُّ لِذَاتِهَا، إِلاَّ ٱلإِنْسَانَ فَإِنَّهُ يُحَبُّ لِمعَانِيهِ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلرَّبَّانِيَّةِ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ[3]، أَوْ صُورَةً مِنْهُ تَشَبُّهًا بِهِ][4].

وهكذا جمع الله فى الإنسان الكامل بنفخ الروح صفات المعانى السبعة فصار عبداً مجملاً بالمعانى التى تؤهله للخلافة عن ربه، فهو بالعدم والطين لا شيء، وهو بعد التسوية ونفخة القُدُس يمثل كل شيء، يقول الإمام نظماً بلفظ يشرح

---

(١)السيد علاء أبو العزائم (خاتم الوراث المحمديين) مرجع سابق، ص١٢٦

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٤٥٠، ج٢، ص٣٠٦

(٣) (هذا الإنسان)

(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦

معاني كلام الله في كتابه ويشرح معاني سنة نبيه بأسلوب منظوم يسهل على السامع فهمه[1]:

أيا أيها الإنسانُ حينٌ لقد مضى عليكَ وعدماً كنتَ فافهم إشارتي
وها أنتَ بي ترأى وتسمعُ فادكر وجُمِلتَ بالأسماءِ من محضِ نعمتي
وما مُهلتي عجزٌ عليكَ وإنما أنا الربُ أقضي ما أشا بإرادتي
وما ضرني كُفرانُكَ اليومَ نعمتي ولا زادني الإقبالُ منكَ لحضرتي
ولكنني قدرتُ والأمرُ نافذٌ وكلٌ بتقديري وسرٌ مشيئتي
وسرُ جلالي ظاهرٌ في مظاهرٍ وسرُ جمالي قد بدى في أحبتي

٣- **تلقى آدم لسر الأمانة:** يقول الله تعالى:{إنا عرضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسانُ إنه كانَ ظلوماً جهولاً}[2]، يقول الإمام على ﷺ واصفاً الأمانة:[إنها عرضت على السماوات المبنية، والأرضين المدحوة، والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها، ولو امتنع شيء بطولٍ أو عرضٍ، أو قوةٍ أو عزٍّ لامتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن، وهو الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً][3] وقد أثبتت الآية الكريمة أن الإنسان هو المنفرد عن سائر المخلوقات بحمل الأمانة، بل إن هذا يجعلنا نقول إن الأمانة هى جوهر الإنسانية أو فيها يكمن سر الإنسانية، إذ أن الحق سبحانه لم يقل: ثم حملها البشر، أو حملها ابن آدم، ولكنه اختص بحملها رتبة الإنسانية.

* **ولكن ما هى الأمانة؟**

إذا أردنا أن نعرف ماهى الأمانة أو ما هو سر الإنسانية، فعلينا أن نبحث عن خاصية انسانية تتوفر فيها الشروط الآتية:

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٩٧٧٢

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٣) مجلة (الإسلام وطن) العدد (٣٥٨) مارس ٢٠١٦، ص٥٣

أ- أن تكون هذه الخاصية مكوناً أساسياً وجوهرياً فى حقيقة الإنسانية وليست عرضاً من أعراضها.

ب- أن تكون خاصة بالإنسان فلا يشاركه فيها غيره من مخلوقات الله ﷻ، حيث إنه المخلوق الوحيد الذي حملها.

ج- أن تكون هذه الخاصية أو هذا الجوهر شيئاً قابلاً للضياع كما يكون فى استطاعة بنى آدم المحافظة عليه؛ وأساس هذا الشرط يكمن فى اختياره ﷻ لفظ **(الأمانة)** للدلالة على الشئ الذى عرضه وحمله الإنسان؛ لأن المفهوم من الآية أن الله سبحانه عرض شيئاً على المخلوقات؛ وهذا الشئ أمر غيبي، وهو ذو شأن خطير بالنسبة لمن يحمله فى حاضره ومستقبله، وبالرغم من كونه غيبياً، فإنه لابد أن يتصف بالمعنى الخاص للأمانة فى الأرض ونعنى به الوديعة المستردة التى يحاسب حاملها على التفريط فيها، كما يجازى بالمدح والثناء وغير ذلك على المحافظة عليها وتأديتها.

ومن ثم فهذا الشئ الذى قبل الإنسان حمله قابل للضياع أو التلف أو التبديل والتغيير، وفى إمكان حامله أيضا أن يحافظ عليه.

ولقد اختلف المفسرون منذ عهد الصحابة حتى الآن حول تحديد الشئ الذى عرضه الله ﷻ على المخلوقات كأمانة، وقبله الإنسان وحده. ومن أبرز ما قيل عن الأمانة قديما أنها:

الصلاة، العبادة، الطاعة، التكليف، الرسالة السماوية. وهذه كلها أمور متداخلة، فالصلاة من العبادة، والطاعة هى جوهر العبادة كما أن العبادة جزء من التكليف أوهى القيام بالتكليف والرسالات السماوية وهى ما كلف الله به الإنسان. وقيل أنها الشهوة **(الغريزة الجنسية)**، وفى العصر الحديث نجد اتجاهاً جديداً ينحو إلى تفسير الأمانة بالحرية والإختيار والمسئولية، وكلها خصائص متلازمة فقد خلق الله الإنسان لإبتلائه ومن ثم جعله حراً مختاراً، وهذه الصفة يترتب عليها المسئولية والجزاء فى الآخرة.

واذا ما حاولنا إضافة خصائص إنسانية ينفرد بها الإنسان فإننا نضيف إلى ما سبق أن قرره المفسرون –القدامى والمحدثون– عن الأمانة ما قرره علماء الدراسات الإنسانية، حيث يرى المؤرخون أن الإنسان كائن متميز بالحضارة والتقدم والرقى المطرد، بينما يرى علماء الإجتماع أن الإنسان كائن متميز بالإجتماعية، وقبل هؤلاء وأولئك فسر دارون الإنسان بأنه حيوان متطور، وليس هذا التفسير بجديد على الفكر الغربى المادى بل هو قديم قدم الفلسفة اليونانية التى فسرت الإنسان على يد أرسطو بأنه حيوان عاقل أو حيوان ناطق.

ومن ثم يرى كثير من الناس أن العقل هو المميز الجوهرى للإنسان وهو سر الإنسانية ومن ثم يكون هو الأمانة فى مذهيهم. وقد يرى البعض أن الخلافة هى الأمانة من حيث أن الإنسان ينفرد بها.

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نعيد ذكر الخصائص المحتملة التى قيلت قديماً وحديثاً فى تفسير الأمانة وهي: الصلاة، العبادة، الطاعة، التكليف، الرسالة السماوية، ثم الشهوة، ثم الإجتماعية، والنطق، ثم الحرية والاختيار والمسئولية، ثم العقل والخلافة.

علينا أن نختبر هذه الخصائص واحدةً واحدة لنستبعد منها الخاصية التى لا تصلح أن تكون وديعة مستردة، أو التى لا تعتبر مكوناً جوهرياً فى الذات الإنسانية. أى التى لا تتوفر فيها الشروط الثلاثة المذكورة آنفاً. حتى إذا استبعدنا كل الخصائص وبقيت عندنا خاصية واحدة لنطبق عليها الشروط المذكورة علمنا أنها الأمانة.

أما بالنسبة للصلاة والعبادة والطاعة والتكليف فإن القرآن الكريم يقرر أن كل المخلوقات مصلية مسبحة عابدة مطيعة لله حيث قال تعالى:{تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً}[١]، وقوله تعالى:{ألم ترى أن الله يسجد له

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٤

من في السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يُهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء}[١].

أما بالنسبة للعقل والاجتماعية والنطق فإن القرآن الكريم يقرر أن الحيوانات اجتماعية عاقلة ناطقة، قال تعالى:{وحُشِرَ لسليمانَ جنودهُ منَ الجنِ والإنسِ والطيرِ فهم يوزعون* حتى إذا أتَو على وادِ النملِ قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخلو مساكنكم لا يَحطمنكم سليمانُ وجنودهُ وهم لا يشعرون}، إلى أن يقول ﷻ: {وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين* لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنهُ أو ليأتيني بسلطانً مبين* فمكث غير بعيدٍ فقال أحطُ بما لم تُحط بهِ وجئتكَ من سبأٍ بنبأٍ يقين}[٢]، ويمضى الهدهد فى حديثه متعجباً من سجود البشر للشمس وعدم اهتدائهم إلى السجود لله فيقول:{ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض..} وهكذا يبدو منطق الطير أكثر استقامة من منطق الإنسان المشرك. ولا شك أن للطير وغيره من الدواب نطقاً ومنطقاً حيث قال سليمان عليه السلام:{يأيها الناس علمنا منطق الطير} ويؤكد اجتماع الحيوانات وعقلانيتها ولغتها قوله تعالى: {وما من دابة ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ}[٣].

أما بنسبة لخصائص: الحرية والإختيار والمسئولية وكلها مقومات لحقيقة الإبتلاء. فليس الإنسان هو الكائن المبتلى والمحاسب وحده، ذلك لأن الجن حسب ما جاء عنه فى القرآن والسنة مخلوق مبتلى وحر ومختار فهو يفعل المعصية ويفعل الطاعة وهو يحاسب يوم القيامة على أفعاله كالإنسان ويدخل الصالحون منهم الجنة ويدخل الكافرون منهم النار.

---

(١) سورة الحج آية ١٨

(٢) سورة النمل آية ١٧: ٢٦

(٣) سورة الأنعام آية ٣٨

ومن ثم فليس الإبتلاء أو الحرية أو المسؤلية أمر ينفرد به الإنسان ومن ثـم فليس أحدها هو الأمانة.

يبقى بعد ذلك الشهوة وهو رأى قال به بعض المفسرين القدماء ولكنـه رأى مرفوض لأن الحيوانات مزوده بالغريزة الجنسية، ويتمثل سخف هذا الرأى فـى أنه يجعل المميز الجوهرى للإنسان أمراً حيوانيـاً فينتهـى بمسـاواة الإنسـان بالحيوان.

أما الخلافة فهى أمر ينفرد به الإنسان فى الأرض، ولكنها ليسـت الأمانـة حيث إنها لا تدخل فى الذات الإنسانية كمكون جوهري، بل هى مركز الإنسـان الوجودي ووظيفته فى الكون، فالله سبحانه جعل الإنسان خليفـة والجعـل يفيـد الجبر، أى أنه نصبه فيه تنصيباً، بينما خيره فى حمل الأمانة وديعـه مسـتردة. وبناءً على ما تقدم فإن خاصية من الخصائص المذكورة لا تصلح أن تكون هـى الأمانة لعدم توفر الشروط كاملة فى كل منها.

ولكن إذا نظرنا إلى معنى الأمانة عند الإمام أبى العزائم لوجـدناه يختلـف عن كل الآراء السابقة، فهو يرى أن الأمانة:[هى ما فيك مـن مـن أوصـاف باريك](١)، أى ما حمله الإنسان من الصفات الإلهية السبعة سالفة الذكر، فالأمانة هى معانى الصفات الإلهية التى أنت إشراقها حال شروقها، ولتلك الأمانة كـان سجود الملائكة، ولها سُخر جميع ما فى السموات وما فى الأرض من الله، وهى كما سبق ليست من الإنسان وانما أُفيضت عليه، يقول الإمام ﷺ:[الأمانة هو مـا حملته أمانةً لديك، ليس منك ولا فيك، ولكنه منه جل جلاله، والذي يصل إليـه، يفوز بالحظوة لديه، ولأجله أُمرت بالرياضات، وكُلفت بالمجاهدات، فيحصل لك التوجه الذي به تواجه](٢)، فأمانة الصفات ليست منك وإنما من الله، وليست فيـك لأنها قابلة للضياع والفقد إذا قصر الإنسان فى الحفاظ عليها،

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥٧

(٢) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٢٨

يقول الإمام رضي الله عنه [١]:

هِـــيَ ٱلأَمَانَـــةُ أَوْصَـــافٌ وَأَخْـــلاَقُ ... بِهَـــا ٱلْحَنِـــينُ إِذَا مَـــالاَحَ إِشْـــرَاقُ
إِشْرَاقُهَا حَضْرَةُ ٱلْمَحْبُوبِ يُظْهِرُهَـــا ... فَيَشْـــهَدُ ٱلْغَيْـــبَ أَفْـــرَادٌ وَعُشَّـــاقُ
هِيَ ٱلأَمَانَةُ فَـــوْقَ ٱلْعَـــالَمِينَ عُـــلاً ... يُجْلِي غَوَامِضَهَا فِي ٱلْقُـــرْبِ خَـــلاَّقُ
الرُّوحِ ظِـــلٌّ لَهَـــا تُبْـــدِي مَحَاسِـــنَهَا ... بِهَا يَصِحُّ ٱلصَّفَا وَٱلْوَصْـــلُ إِغْـــرَاقُ
أَنْوَارُهَا أَصْعَقَتْ أَهْلَ ٱلصَّفَا جَـــذَبَتْ ... أَهْلَ ٱلْفَنَا وَلَهُمْ فِـــي ٱلْحُـــبِّ إِشْـــفَاقُ
قَدْ أَسْجَدَتْ لأَبِـــي ٱلإِنْسَـــانِ عَالَمَـــهُ ... غَيْـــبٌ فَلَـــمْ تَرَهَـــا رُوحٌ وَأَحْـــدَاقُ

ثم يزيدها وضوحاً فيقول:[الأمانة وما أدراك ما الأمانة؟ نور معاني الصفات، في مرآة صُقلت بالمواجهات[٢]، وجُملت بالمنازلات، فظهر الغيب المصون، وخفىَ المشهود بالعيون][٣].

ولكن هل تنطبق الشروط الثلاثة سالفة الذكر على (الصفات)؟

نعم تنطبق الشروط الثلاثة على الصفات لتكون هى الأمانة فهى:

أ- تدخل كجزء جوهرى في الكينونة الإنسانية بل إنها تعتبر أساساً من أُسس الإنسانية ومصدراً مصادرها.

ب- أنها تخص الإنسان وحده فلا يشاركه فيها غيره من المخلوقات حتى الملائكة، فلم يتجلى الله بمعانى صفاته لأى مخلوق سوى الإنسان.

ج- أنها قابلة للفقد والضياع وللمحافظة عليها، لأن الإنسان تلقاها من خلال النفخة القدسية وهو حى بشرياً، ومن ثم فهو يفقدها إذا فقدها، أو ضيعها ويظل حياً بشرياً.

* **مَحِل الأمانة:** يقول الإمام:[محل الأمانة هو القلب الذي هو عرش الرحمن[٤]، لا الشكل الصنوبري المقلب في الأكوان، حملها الإنسان فكان ظلوماً جهولاً حتى

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، ج٢٠، قصيدة ٩٥٧٣، ص٤٠

(٢) مرآة القلب.

(٣)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥٧

(٤) إشارة إلى الحديث القدسى{لم يسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع} الإحياء، ج٣، ص١٥

يحملها][1]، ويؤكد على هذا المعنى ما ورد فى الحديث الصحيح:"الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة"[2]، ثم يكمل ﷺ الحديث مبيناً إمكانية فقدها فيقول:"ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[3]..."، ومن تخلى عن الأمانة فقد تخلى عن إنسانيته ومن تخلى عن إنسانيته فهو غير مؤتمن، يقول الإمام: [اذا تخلى الإنسان عن إنسانيته فلا تأمنه][4].

*** ولكن كيف يحافظ الإنسان على الأمانة وكيف يضيعها؟**

يحافظ عليها بتحقيق عبوديته لله وإقامة التكاليف، والقيام برسالته التى خلقه الله من أجلها وهى إقامة خلافته لله على الأرض، وكل ذلك لا يتم إلا بالإستجابة لله ولرسوله ﷺ؛ ويضيعها بالكفر والشرك واستحلال وارتكاب المعاصى والكبائر، وتحقيق عبوديته وخلافته لغير الله، فإذا ضيع ابن آدم أمانته أو مصدر إنسانيته، فإنه لا يموت -ككائن حى- بل يظل حياً بالنفس- كما سبق- وإنما يموت فيه قلبه وحقيقته الباطنه، فيفقد تبعاً لذلك ما فيه من صفات باريه.

وهكذا تحمل الإنسان الأمانة، تحمل هذا العبء الثقيل الذى أبى أن يحمله العالم العلوى خوفاً وإشفاقاً، يقول الإمام رضي الله عنه موضحاً هذا المعنى[5]:

تَحَمَّلْتَ ٱلأَمَانَةَ وَهْيَ عِبْءٌ ... ثَقِيلٌ لاَ يُقَاسُ بِكُلِّ دَيْنِ
أَبَاهَا ٱلْعَالَمُ ٱلْعُلْوِيُّ خَوْفًا ... وَأَشْفَقَ عِنْدَهَا فِي ٱلسُّفْلِ كَوْنِي
وَأَنْتَ حَمَلْتَهَا وَشَهِدْتَ عِنْدِي ... فَبَادِرْ خَلْهَا وَٱدْخُلْ لِحِصْنِي
وَعَنْهَا فَٱفْنَ لاَ تَشْهَدْكَ أَصْلاً ... لأَنَّكَ فَرْعُ أَلْطَافِي وَحُسْنِي
بِكَ ٱلأَوْصَافُ عَنْ عَيْنٍ تَجَلَّتْ ... كَفَىٰ مَا فِيكَ مِنْ وَصْفِي وَلَوْنِي

---

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥٨
(٢) رواه البخارى فى صحيحه حديث رقم (٦١٣٢)
(٣) (وَكَتَ في الشيءِ : أَثَّرَ فيه)
(٤) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٧
(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، ج٢٠، قصيدة ٩٥٧٤، ص٤١

تَـــرَاكَ مُـــدَبِّرًا فَـــرْدًا مُرِيـــدًا وَتَجْهَـــلُ أَنَّهَـــا هِـــيَ مِـــنْ لَـــدُنِّي
إِذَا لَـــمْ تَكْتَفِـــي وَفِّـــي بِحَمْـــلٍ وَنَـــادِ إِنْ أَرَدْتَ قَضَـــاءَ دَيْنِـــي
وَإِنْ شِـــئْتَ ٱلسَّـــعَادَةَ قُـــمْ وَنَـــادِ عَلَيْـــكَ تَـــوَكُّلِي فِـــي كُـــلِّ شَـــأْنِي
وَدَعْ مَافِيـــكَ مِـــنْ حَـــوْلٍ وَعِلْـــمٍ وَتَـــدْبِيرٍ وَتَصْـــدِيقٍ وَمَـــيْنِ
فَفِـــي ٱلْقُـــرْآنِ آيَـــةُ سِـــرٍّ هَـــذَا وَلاَ حَـــوْلٌ لِعَبْـــدٍ يَـــدْنُو مِنِّـــي
فَمَـــنْ وَافَـــىٰ فَبِٱلإِحْسَـــانِ وَافَـــىٰ وَبِـــٱلْكَنْزِ ٱلْمُطَلْسَـــمِ نُـــورِ عَيْنِـــي

٤- صار الإنسان على صورة الرحمن: ورد فى الحديث: "خَلَقَ اللَّـهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"[١]، يفسر الإمام أبو العزائم هذا الحديث فيقول:[آدم عليه السلام هو المخلوق الذى تجلى فيه الحق سبحانه لخلقه، فإن الله سبحانه خلق آدم على صورته، وليس المراد أنه خلقه على صورة لها أبعاد، وحدود، وكمٍ وكيف، بل المراد أنه جمله بمعانى صفاته، وجمال أخلاقه][٢].

ومعنى هذا أن تجليات السميع والبصير والمتكلم والخلاق والمدبر فيك هي تجليات ربك لأنها أسماؤه، فكما تسرى أشعة الشمس فيك فتنتفع خلاياك، فإن شمس التجلي[٣] مشرقة أيضاً، فتُظهرك إنساناً سوياً فيك من مظاهر الربوبية، وكما لا يدعى من تشرق عليه الشمس أنه عين الشمس كذلك لا يستطيع عبد أن يدعي بإمداداته وإشراقات أنوار الربوبية عليه أنه رب، ومن ادعى ذلك فقد هلك[٤].

فكل أسماء الله وصفاته تنزلت فيك على قدر أهليتك واستحقاقك، ولكن مع الفارق أن صفات الله حقٌ لله، مستعارة للإنسان، فهى لله بحكم الأصل ثم سرى حكمها فينا -بحسب استعداد قوابل نفوسنا لها- بحكم الخلق على الصورة الرحمانية.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١)
(٢) الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٣٦
(٣) التجلى هو النزول من الإجمال إلى التفصيل، أى ظهور معانى أسماء الله وصفاته على الإنسان.
(٤)طاهر مخاريطة (أيام الله) مرجع سابق، ص٦٠

وبناء على هذا الفهم فلا يوجد هناك خلط بين العبد والرب، ولا يوجد تــوازٍ بين الخالق والمخلوق، ولا يوجد وحده ولا حلول ولا إتحاد، يقول الشــيخ بــن عربى(١):[لا يمكن أن يصبح العباد أرباباً فى أنفسهم وإن ظهروا بنعوت ســيدهم، فإنك لا تصبح ملكاً بصولجان(٢) مستعار، ثم ما أبعــد الفــرق بــين صــولجان وصولجان.. إنما هو اشتراك ألفاظ، فافهم ولا تقع فى الخــذلان وســوء الأدب، إنما يتصف الحق تعالى على مقتضى ذاتــه، فتختلــف الصــفات وإن اتحــدت الأسماء، والألفاظ واحدة والحكم مختلف، والعبد عبدٌ والرحمن معبود](٣)، ويؤكد الإمام أبو العزائم على هذا المعنى بقوله:[العبد عبد وإن تعالى، والرب رب وإن تنزل، فإياك أن تنسب للعبد شيئاً من الجمال والكمــال، والتصــريف والبيــان، والهدى والتقى، إنما هو مظهر والظاهر الله](٤)، وهكذا ظهر الإنســان الكامــل على صورة الرحمن، يقول الإمام(٥):

مِنَ ٱلطِّينِ مِنْ فَخَّــارَةِ ٱلصَّلْصَــالِ	خُلِقْــتَ أَيَــا إِنْسَــانُ بِٱلإِجْمَــالِ
وَجُمِّلْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ صُورَتَهُ ٱلَّتِــي	يُرَىٰ فِيكَ نُــورُ ٱلْحَــقِّ بِــلاَ مِثَــالِ
يُجَمِّلُكَ ٱلرَّحْمَــٰنُ حَتَّــىٰ تُــرَىٰ لَــهُ	مِثَــالاً عَلِيًّــا حَــالَ نَيْــلِ وِصَــالِي
أَتَنْسَى أَيَــا إِنْسَــانُ مَبْــدَأَكَ ٱلَّــذِي	لَقَــدْ كُنْــتَ فِيــهِ مُــدَّةَ ٱلأَجْيَــالِ؟!
وَتَغْمُــرُكَ ٱلنُّعْمَــىٰ يَعُمُّــكَ فَضْــلُهُ	وَأَنْتَ غَوِيٌّ فِــي هَــوَى ٱلإِضْــلاَلِ
تَــذَكَّرْ أَيَــا إِنْسَــانُ بَــدْءَكَ أَوَّلاً	وَطِينَتَــكَ ٱلأُولَــىٰ لَــدَى ٱلإِقْبَــالِ
يُصَوِّرُكَ ٱلرَّحْمَــٰنُ صُــورَةَ حُسْــنِهِ	وَتَنْحَطُّ لِلسُّــفْلِ ٱلْحَضِــيضِ ٱلْبَــالِي

ثم يخاطبه فى قصيدة أخرى قائلاً(٦):

---

(١) هو محى الدين بن عربى الأندلسى (٥٥٨- ٦٣٨هــ) أحد أشهر أئمة الصوفية ولقب بالشيخ الأكبر.

(٢) الصولجان: عصا يحملها الملك كرمز لسلطانه

(٣) د. مصطفى محمود (السر الأعظم) مرجع سابق، ص٢٣

(٤)الامام أبو العزائم (اصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٥٠٦

(٥)الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٧٤٨٨، ص٣٥٥

(٦) المرجع السابق، قصيدة ٢٥٣٩، ص٢٩

يَاصُورَةَ ٱلرَّحْمَٰنِ وَٱلنُّورُ ٱلْعَلِي   يَاسِدْرَةَ ٱلأَوْصَافِ وَٱلْغَيْبُ ٱلْجَلِي
فِيكَ ٱلْعَوَالِمُ كُلُّهَا طُوِيَتْ فَهَلْ   أَدْرَكْتَ سِرًّا فِيكَ مِنْ مَعْنَى ٱلْوَلِي؟!
خَفِيَتْ لِذَاتِكَ مِنْ مَعَانِي ٱلْقُدْسِ مَا   لاَ يُشْهَدَنْ إِلاَّ لِذِي قَلْبٍ خَلِ
أَأَنِسْتَ بِٱلأَكْوَانِ بَعْدَ شُهُودِهِ   وَسُجُودِ أَمْلاَكِ ٱلْعَلِي بِتَنَزُّلِ؟!
أَوَلاَ سَمِعْتَ ﴿أَلَسْتُ﴾ عَنْدَ شُهُودِهِ   تُومِي بِأَنَّ ٱلْقُدْسَ أَوَّلُ مَنْزِلِ؟!
فَٱهْجُرْ سُكُونَكَ لِلْكِيَانِ وَبَادِرَنْ   بِٱلْعَزْمِ كَيْ تَسْكُنْ بِوَطَنٍ أَوَّلِ
فِيكَ ٱلْمَعَانِي مُشْرِقَاتٌ بِٱلَّذِي   يَرْقَىٰ بِهِ أَهْلُ ٱلصَّفَا بِتَأَهُّلِ

٥- رُفع إلى صورة (أحسن التقويم): وتلك الصورة هى التى حدثنا عنها القرآن فى قوله تعالى:{لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم* ثم رددناه أسفل سافلين* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون}(١)، ركب الله الإنسان فى أحسن صورة روحاً وبدناً، فسواه بيديه ونفخ فيه من روحه، وبسر هذه النفخة رفع الإنسان إلى صورة أحسن التقويم، وهو مازال جنيناً في بطن أمه، فإذا خرج إلى الحياة الدنيا، وبلغ رشده، جاءه من يذكره بالعهد الذى أُخذ عليه بدءاً فى يوم {ألست بربكم}، وبما يقتضيه هذا العهد من تنفيذ أحكام الشريعة فى الدنيا، فإن جحد ما أقر به بدءاً، فإنه يرد مرة ثانية إلى البشرية التى رفعه الله منها إلى الإنسانية، فيصبح بشراً فقط أى فى مستوى رتبة الحيوانية، وهذا سر قوله تعالى: {والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم}(٢) وقوله:{أولئك كالأنعام بل هم أضل}(٣)، لأنهم لما خسروا ذواتهم، وسر إنسانيتهم، إرتدوا فصاروا كالأنعام، فارتدوا إلى أسفل سافلين، وهذا يؤكد أن ابن آدم لم يبدأ حياته إنساناً بل كان كائناً حياً فقط، ثم رفعه الله إلى أحسن التقويم، فإذا كفر وأشرك ضاع منه سر التقويم الأحسن، فارتد مرة ثانية إلى أسفل سافلين، لذلك قال سبحانه {ثم رددناه} ولم يقل أنزلناه أو حططناه، لأن رددناه

---

(١) سورة التين آية ٤

(٢) سورة سيدنا (محمد) آية ١٢

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٩

تعنى أعدناه إلى ما كان عليه من درجة وجودية هابطة أقل من الدرجة التى رفعناه إليها وهى (أحسن التقويم)؛ أما إذا استجاب الإنسان وصدق بالعهد الأول، وآمن بالمذكر لهذا العهد ﷺ، فإنه يُستثنى من الرد لأسفل سافلين، كما قال رب العالمين:{إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون}. يقول الإمام شارحاً هذا المقام:

عَلَىٰ أَحْسَنِ ٱلتَّقْوِيمِ صُغْتَ حَقِيقَتِي ... وَأَبْدَعْتَنِي مَثَلاً بِسِرِّ ٱلْحِكْمَةِ
وَجَمَّلْتَنِي بِٱلآيِ أَظْهِرْ خَفِيَّهَا ... لأَشْهَدَ سِرَّ ٱلْبَدْءِ فِي سُورِ رُتْبَتِي
تَفَضَّلْتَ بَدْءًا صُغْتَنِي بِيَدَيْكَ فِي ... مَقَامِ حَنَانٍ مِنْ عَوَاطِفِ رَحْمَةِ
فَأَظْهِرْ لِرُوحِي سِرَّ بَدْئِيَ أَوَّلاً ... لأَشْهَدَ بِٱلْعَيْنَيْنِ حِكْمَةَ نَشْأَتِي
بِنِعْمَتِكَ ٱلأُولَىٰ لَدَى ٱلْبَدْءِ سَيِّدِي ... تَفَضَّلْ بِنُعْمَىٰ حُبٍّ ذَاتٍ عَلِيَّةِ

٦- سجود الملائكة لآدم: لما أُكرم الإنسان بالنفخة القدسية أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين}(١)، وقبل النفخة لم يكن سجود، ولكن لما تجمل الهيكل الطينى الترابىّ بالجمال الربانى ممثلاً فى النفخة القدسية، سجدت الملائكة تعظيماً لهذا الجمال الإلهى فى المظهر الآدمى الذى عبر عنه الإمام بقوله(٢):

جَمَّلَ ٱلْهَيْكَلَ بِٱلنُّورِ ٱلْعَلِي ... كَيْفَ يَرْقَىٰ لِلْعُلاَ هَـٰذَا ٱلرَّغَامْ؟!
طِينَةٌ بِيَدَيْهِ صِيغَتْ صُورَةً ... أَظْهَرَتْ نُورًا وَآيَاتٍ عِظَامْ
سَجَدَتْ أَمْلاَكُهُ لِجَمَالِهِ ... طِينَةُ ٱلصَّلْصَالِ فِي ظِلِّ ٱلْغَمَامْ

فكان سجود الملائكة دليل تكريم الله لهذا الإنسان كما يقول الإمام:[صَوَّرَكَ بِيَدَيْهِ، وَكُنْتَ طِينًا، أَوْ مَاءً مَهِينًا، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ فَضْلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا، وَأَسْجَدَ لَكَ ٱلْمَلاَئِكَةَ تَكْرُمَةً لَكَ وَبِكَ حَنَانًا، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا، فَٱلْزَمْ أَعْتَابَ ٱلْعُبُودِيَّةِ، يَمْنَحْكَ خَيْرَ ٱلْعَطِيَّةِ](٣).

---

(١) سورة الحجر آية ٢٩

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ١٥٥٨،ج٢، ص٤٢

(٣)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٢

ويقول الإمام فى معرض تفسيره لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَـةِ اسْـجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ}(١): [سبحانك اللهم وبحمدك افتتحت الآية بقولك {قُلْنَا} الدالة علـى التعظيم للمسجود له، ثم أمرت سبحانك بأمر صريح فجعلت السجود لآدم إكراماً له ورفعة لقدره بين الملائكة، ثم أكرمت من أطاع الأمر، وأهنت مـن خـالف الأمر. فكان إكرامه فوق كل الإكرام حيث لأجله ترفع ولأجله تخفـض. وفـى قولك سبحانك:{اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ} من الرفعة لقدره ما دل على أنـك جملتـه بجمال محبوب لحضرتك، وأهلته للقيام بمحابك سبحانك ومراضيك، ولـم تقـل اسجدوا إلى آدم كما أمرتنا أن نسجد إلى الكعبة والسجود لحضرتك العلية، فنعلم أنه كعبة لنا بل قلت: {اسْجُدُواْ لآدَمَ} أي قدموا له تحية التعظيم والتجلة وقومـوا أمامه قيام الإكرام والاحترام، إذ سجود العبودية خاص بذاتك، وأنـت سـبحانك تعظم من تشاء وتعظيمك هو التعظيم حقًا، وأنت القاهر فوق عبادك بـل وأنـت المبلي تبتلي من تشاء بما تشاء، لتقيم الحجة لمن أطاعك وتقيمهـا علـى مـن عصاك.

{فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين} السجود لغة معلوم ولا يكون إلا لله تقدست ذاته وتعالت أسماؤه في مقام العبـادة، ولكنـه لآدم تعظيمـا واحترامًا، وأمر الله الملائكة بالسجود من البلاء العظيم، لأن الملائكة كما نعلـم جميعًا هم أجسام نورانية خلقهم الله من نور العزة، وآدم وذريته جمـع الله فـيهم كل الحقائق، فأرواحهم من نور الرحمة، وعقولهم من نور الحكمة، ونفوسهم من نار القوة والجلال، وأشباحهم من أنواع جواهر الأرض التي لاكها سبحانه بالماء وجففها بالهواء؛ فالإنسان جامع لكل الحقائق العلوية والسفلية وفى نظر العقـل: تفضلُ الأجسام النورانية الأجسام المزدوجة المكونة من جواهر وعناصر عاليـة وسافلة، فقهرُ الملائكة والجن(٢) على السجود لآدم بلاء حسن من الله تعالى، لينفذ صورة الإرادة.

---

(١)سورة البقرة آية ٣٥

(٢)مُمَثَلاً فى (إبليس).

وقد نزعت نفوس الملائكة إلى المعارضة فيما هو دون السجود، فخاطبوا ربهم بما وجدوه في أنفسهم خطاب عبد لرب أدبًا وتعظيمًا فقالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} فأقام الحجة عليهم قولا وابتلاهم أعظم البلاء فعلاً، كأن الحقائق تقول: هذا الذي راجعتم ربكم بشأنه، وأبيتم أن يكون خليفة في الأرض، قد أمركم بصريح العبارة بالسجود له، والسجود فوق التفضل عليه بالخلافة، فما وسعهم إلا السمع والطاعة](1). يقول الإمام نظماً(2):

طينٌ سما حتى لهُ سجدَ العُلا	والطينُ موطئُ نعلِ هذا العالمِ
لمن السجودُ وقد جَهِلتَ مكانةً؟	أُهِّلْتَ كي ترقى لها بتكرمِ
يا ذا المنيّ وقد لبستَ محاسناً	تنبيكَ عن صنعِ العليِّ الأعظمِ
يا من بمقعدِ صدقهِ لكَ منزلٌ	هلا بذلكَ قد شهدتَ معالمي؟
يا ذا الضعيفُ وكلُها قد سُخرت	توليكَ نفعاً كي تُسرَّ بأنعُمِ

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن "النفخة القدسية" تعد أعظم نعمة وتكريم من الله للإنسان، ولذلك يعتبرها الإمام أبو العزائم أعظم الحقوق فى الإنسان فيقول: [ٱلْحُقُوقُ ثَلاَثَةٌ: حَقٌّ فِيكَ، وَحَقٌّ عَلَيْكَ، وَحَقٌّ لَكَ، وَلاَ يَتَسَنَّىٰ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَفِيَ بِمَا عَلَيْهِ وَمَا لَهُ إِلاَّ بِعِلْمِ مَا فِيهِ](3).

- **فالحق الذى فيه هو:** سر الإيجاد والإمداد المفاض من الله سبحانه(4)، لأن الإنسان إما عدم أو طين أو ماء مهين، فهذه المراتب لا يخرج عنها في الحقيقة، وما زاد عليها فهو بفيض من المنعم المتفضل المبديء المعيد، بديع السموات والأرض، فلو كوشف بتلك الأسرار، وتحقق بما ظهر له فيه، كملت معانيه،

---

(1)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج1، ص104، 105

(2) (أيام الله) مرجع سابق، ص107

(3)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص86

(4)(النفخة القدسية)

وتيسرت أمانيه، وصار عبداً لخالقه وبارئه، ملكاً حراً لا عبودة فيه لغير مـــولاه، الذي بمحض الفضل من العدم أنشأه وولاه[١].

- **والحق الذى عليه:** فإذا تحققت بما فيك، انكشف لك نور الحكمـــة فـــي كـــل شيء، وعلمت مراتب الوجود، ونسبة كل مرتبة إلى موجد الوجود، فقمت عاملاً لله سبحانه، قائماً بتوفيقه في عمله سبحانه الذي أوجبه عليك، بعد العلم اليقينـــي بمعرفته سبحانه، وأنك عبد مكلف بتأدية ما أوجب.

عندها تتحقق أنك مطالب بالشكر للمنعم على نعم أسبغها، وبركات أولاها، ثم بالشكر لمن أوصل لك النعمة على يديه من غير مبادلة، بل بالقصد والتخصيص لك كوالديك، ومعلمي الخير، وأئمة المسلمين. والشكر للمـــنعم ســـبحانه، بـــأن تخصه سبحانه بالعبادة دون غيره، وتراقب جنابه العلي في كل أحوالك، بالقيـــام بعمل ما كلفك به، وترك ما نهاك عنه، مخلصاً لذاته، صـــادقاً فـــي معاملاتـــه. وشكر غيره ممن أجرى النعمة لك على يدهم بالقصد منهم بدون مبادلـــة، هـــو الإحسان إليهم بما يمكنك من المكافأة أو الدعاء، والاتباع لنصـــائحهم، والتباعـــد عن مخالفتهم وأذيتهم، معاملة لمولاك، وصدقاً في عبادته، خصوصا بر والديك، وصلة أرحامك وأقاربك، والعناية بأهلك وأولادك، وإكـــرام جيرانـــك، والوفـــاء بالعهود، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وحسن الأداء، وأداء الأمانة، والعطـــف على أهل البلايا، والرحمة بالمساكين، والشفقة على الفقراء، وغض البصر عـــن مساوئ الخلق، وترك غيبة من تستر عنك بذنوبه وسيئاته، والسعي بالصلح بـــين الناس، وأن يأمن جارك بوائقك، ودفع السيئة بالحسنة، والتواضع لجميع الخلـــق لله تعالى، وإلانة الجانب لهم، والإحسان إلى الجليس والمعاشر وإن أســـاء، وأن لا يسمع منك جليسك إلا خيراً، وأن تصمت وتظهر الغضب إذا قال شـــراً فـــي غيرك في مجلسك، حتى يعلم أنك تكره الشر من القول والعمل[٢].

---

(١)الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص١٨٦

(٢)المرجع السابق، ص١٨٧

- **أما الحق الذى له:** فالواجب لك على أخيك، هو عين ما يجب عليك له، فـإن قام أخوك بالواجب عليه لك من نفسه، وقمت له بذلك من نفسك كنتما رفيقين في الجنة. وإن لم يقم لك بالواجب عليه، فقد نقصت فضيلته، وضـاعت مروءتـه، وحرم ثواب الله تعالى، فقم أنت له بالواجب عليك له، ولا ترض لنفسـك بتلـك الرذائل والنقائص، ليكون لك الذكر الجميل فـي الـدنيا، والنعـيم المقـيم فـي الآخرة[1].

ثالثاً: الأسماء التى تعلمها آدم: يرى الإمام ﷺ أن تعليم الأسماء لآدم كـان ضرورة إقتضتها فطرته وطبيعة خلقته، فلا غنى لآدم عن هـذه الأسـماء فـي ضرورياته وكمالياته، فيقول ﷺ:[خلق الله آدم عليه السلام وأبناءه مـن حقـائق مختلفة لكل حقيقة منها مادة تغذوها، ولوازم تنتفع بها في ضـرورياتها، وتتـنعم بها في كمالياتها. وخلق لبني آدم كل ما لا بد لهم منه فـي حـالتي الضـروري والكمالي. فلا مانع من أن الله تعالى وضع في كل حقيقة كون الإنسان منها علمًا ضروريًا بكل الأشياء اللازمة لتلك الحقيقة، فما مـن كـائن فـي الوجـود إلا والإنسان محتاج إليه، لا فرق بين الجمادات والمعادن والنباتات والحيوانات، وما في الأجواء من الهواء، وما في الأرجاء من المكونات، بل وما في السموات من أفلاك وأملاك، بل وما فوق ذلك من جمال الملكوت، وما في الجنان من النعـيم المقيم والملك الكبير. كل تلك الحقائق مبدعة للإنسان يتمتع بها في الـدنيا، فـإذا حصلها من الوجوه الشرعية وشكر عليها يتنعم بما هو خير منها يـوم القيامـة. فقوله تعالى:{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} من هذا الطريق لأن الملائكة فطرهم علـى التسبيح والتقديس والعبادة وهي مادة غذائهم وحقيقة أعمـالهم أغنـاهم الله عـن المادة ولوازمها، فلم يكن من مقوماتهم ما يحتاج إلى علم مـا أبدعـه الله فـي الكون، لأنهم علموا بطريق الإلهام بقدر الحقائق التي خلقهم الله منها، ولكنهم في

(١) نفس المرجع السابق، ص١٨٧

حاجة إلى مزيد العلم لتتكشف لهم حكمة الحكـيم وغرائـب قدرتـه وعجائـب صنعته، لأن العلم شيء غير العمل به.

فكم من عالم بعلم لا يحتاج إلى العمل به طول حياته، كعلم الفلـك وعلـم تخطيط الأرض وعلم وظائف الأعضاء وأكثر أنواع علوم الرياضة؛ وأتى بلفـظ {كُلَّهَا} بيانًا لشمول الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام من ربه لكل ما لا غنـى لآدم عنه في ضرورياته وكمالياته، وأراد الله سبحانه بتلك الحادثة تفصـيل مـا أجمله قوله سبحانه: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}. ومن هنا نعلم حق العلم أن العلـم بالتعلم، وأنه لا يحصل العلم إلا بالتعليم بدليل قوله تعالى: {وَاللّهُ أَخْـرَجَكُم مِّـن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا}[1]، ولذلك خلق الله الملائكة لا تعلـم شـيئًا، والله سبحانه هو الذي يعلم بذاته الأشياء قبل وجودها. لأن علم الله تعالى سـبب فـي وجود الأشياء، فما من شيء يعلمه الله إلا أحدثه وأوجـده، وعلـم الحـوادث لا يحصل إلا بوجود الأشياء، لأن وجود الأشياء سبب لوجود العلم بها.

فالخلق لا يعلمون شيئًا إلا إذا تعلموه أو شهدوه موجودًا، وشتان بـين علـم الخلاق العليم، وعلم العبد المقهور الذليل. فالله سـبحانه يعلـم الأشـياء كليهـا وجزئيها قبل وجودها على ما تكون عليه في إيجادها وبقائها وفنائها، وما تـؤول إليه بعد فنائها. كل ذلك يعلمه الله بعلم هو صفته الذاتية له، لا ينفك عنه سبحانه. فآدم عليه السلام لم يكن يعلم شيئًا، ولكن الله تعالى شاء أن يقهر الملائكة بإظهار عجزهم عن علم ما علمه سبحانه لآدم، لتتبلج لهم حكمـة الله فـي إيجـاد آدم، وليعلموا حق العلم أن وجود آدم خير للعالم أجمع من الملائكة والجن والحيوانات والجمادات، فبآدم شهد الملائكة من جمال الله وجلاله وكماله وبهائـه وضـيائه ونوره ما لم يكونوا يعلمونه فضلاً عن أن يشهدوه.

فسبحان من كشف كنوز الغيب المصون بما أظهره في طينـة مـن معـاني صفاته العلية، وأسرار أسمائه جلت ذاته، يلوح لك هذا السر في قوله تعالى: {ثُمَّ

---

(١)سورة النحل آية ٧٨

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} ففى قوله: {عَرَضَهُمْ} إشارة عالية حيث أتى بالهاء والميم المنبئة بأن المعروض من العقلاء وفى قوله: {نبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء} بالإشارة إليها دليل على أن المعروض على الملائكة أسماء ظهرت معانيها جلية في آدم وهي معاني الصفات التي لم يتجمل بها نوع من المخلوقات إلا آدم.

ولك أن تقول: إنها الحقائق التي بينها هيكل آدم، بما فيه من المقتضيات التي يقتضي وجودها، وقد فسر العلماء هذه الأسماء بأنها أسماء كل ما خلقه الله لآدم من كل الأنواع، واختلف العلماء في اللغة هل هي توقيفية أم لا؟ ولكل فريق منهم أدلة ونصوص مبسوطة في كل كتب أصول الفقه، لا حاجة إلى ذكرها هنا.

اسجد أيها العقل غير باحث فإن الذي خلق الأرجاء والأجواء وسمك السماء وبسط الأرض، هو الذي علم آدم بقدرته ما لم يكن يعلم لتقوم الحجة على الملائكة أنهم يجهلون حكمة الله تعالى في إيجاد آدم وسر التفضل عليه بأنه خليفة عنه سبحانه في أرضه، فكان سؤال الملائكة لحكمة كشف تلك الأسرار التي يزداد بها المؤمن إيماناً ويزداد المنافق بها بعدًا عن الله تعالى، لأنه يزن الغيب المصون بالمشهود الملموس تحت جوارحه؛ والمسلم ما بلغ درجة الإسلام إلا بعد أن سلم لله واستسلم...، وقد أظهر الله الحقائق التي أشرنا إليها قبلاً حتى رآها الملائكة، فقال بعد أن تحققوا منها {أَنبِئُونِي} أي أخبروني {بِأَسْمَاء هَؤُلاء} الحقائق المعروضة عليكم لتقيموا الحجة لكم على أنكم أولي بالخلافة من آدم وبنيه، لأن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ووجه أولويتكم بالخلافة عنهم أنكم تسبحون بحمدى وتقدسون لى {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} في دعواكم.

وإذا كنتم تجهلون ما هو تحت نظركم ولا تعلمون حتى ولا بأسمائهم كيف تحكمون على ما غاب عنكم من أسرار حكمتي وغيب تقديري فلم يسع الملائكة بعد إقامة الحجة عليهم إلا الإنابة إلى الله بالتوبة، وسرعة الإنابة بعد الخطيئة هي العناية الكبرى التي يوفق الله لها من سبقت لهم الحسنى...، {قالوا

لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} فتبرأوا من نسبة العلـم لأنفسـهم وأثبتوه لهم بتعليم الله إياهم، إذ علم الله علم ذاتى أزلى، فهو سبحانه يعلم بذاته لا بتعليم من سواه، وما سواه لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى أو يعلمهـم، {إِنَّـكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} أى أنت العليم بذاتك المعلم لغيرك ما شـئت أن تحيطـه بـه علمًا. الحكيم الذي تقدر الأقدار بحكمتك. فأنت منـزه فـي أقـدارك وأحكامـك وأعمالك كلها عن كل نقص. والحكمة هي وضع الشيء في محله؛ وقوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} لتقيم الحجة عليهم في دعواهم التي ظنوا فيها أنى لم أخلق خلقًا أعلم منهم. {فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ} قامت الحجة، ووجب أن يتأدبوا بما يبينه الله سبحانه لهم بقوله تعالى:{أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}(١)](٢).

١- **حقيقة الأسماء التى تعلمها آدم:** إختلف المفسرون في حقيقة الأسماء التـي علمها الله لآدم عليه السلام، فمنهم من قال إنها أسماء الأشياء التي بثها الله تعالى في الكون والتي ستظهر على مسرح الوجود الإنساني إلى يوم القيامـة، ومـنهم من قال إنها أسماء الأشياء التي كانت موجودة وقت تعليم الله له إياها. ولكن مـا للملائكة وأسماء هذه الأشياء وهي لا تأكل ولا تشرب أصلاً ولا تسـتعمل أدوات البشر؟ كما أن هذه الأسماء تختلف من بلد لبلد ومن قطر لقطر ومن إقليم لإقلـيم ومن قارة لقارة، وأبناء آدم سيتكلمون بلغات شتى وبلهجـات متباينـة؛ كمـا أن البيان القرآنى -كما سبق- قد وضح أن المعروض مـن العقـلاء، أي حقـائق عاقلة.

ولهذا يرى الإمام أبو العزائم أن الأسماء التي علمها الله لآدم هى الأسـماء الحسنى بمقتضياتها، وظهور أنوار تجلياتها بالحقائق المتعلقة بهـا، فأشـهده الله أنوار تجلياتها حتى عرفها بعد أن أظهرها في صور لا ندرك كنههـا، وكـم لله تعالى من أسماء لا تقف عند الحد المعروف الذي نردده في القرآن، فأسـماء الله

---

(١) سورة البقرة آية ٣٣

(٢)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج١، ص١٠١، ١٠٢

لا حصر لها كما قال ﷺ في دعائه: "اللهم إني عبدك وابن عبدك وابــن أمتــك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اســم هــو لــك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت بــه في علم الغيب عندك.. أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونــور صــدري، وجــلاء حزني، وذهاب همي"(١) ليبين لنا ﷺ من خلال دعائه أن هناك: أســماء توقيفيــة أي موقوف عددها في آيات القرآن على تسعة وتسعين إسما، وأسماء توفيقية أي أسماء يوفقك الموفق تبارك وتعالى في معرفتها. وكم دعا رسول الله بأسماء في مناسبات عدة منها التوقيفي ومنها التوفيقي.

وبعد التسوية ونفخ الروح ظهرت أسماء الحق وصفاته في آدم ليتبدل الطين الذي لا حياة فيه بجمال رب العالمين أي جمالات أسمائه وصفاته عــز وجــل، فأصبح آدم سميعاً بصيراً متكلماً حياً عالماً قادراً مريدا، فيــه صــفات الجمــال والجلال وفيه صفات الكمال لأنه عبد مجمل بجمال الخلافــة عــن ذي الجــلال والإكرام، يبين الإمام بعض معانى الأسماء والصفات التى علمهــا الله لآدم عليه السلام فيقول(٢):

هى الأسما تلوحُ بمقتضــــــــاها ... تُليحُ الآىَ من معنـــى ضيـــــــاها
جلالٌ أو جمالٌ إن تجلــــــــت ... حجابٌ أو شــهودٌ مِــن هُداهـــــا
ظهورٌ وهىَ هى أزلاً و أبـــــــداً ... لتُعرفَ بالمظاهرِ فى عُلاهــــــا
هىَ الأسما ظهورٌ أو بطــــــونٌ ... تعالت فى النزاهةِ عــن سواهـــا
تراءت بالتَنَزُّلِ فــى شئــــــونٍ ... وهىَ غيبٌ وفى أخفــى خفاهـــا
وقد ظَهَرَت ولم تُشهد سمـــــواً ... وعينُ ظهورِها يُخفِــى بهاهــــــا
وأقربُ من وريدى فــىَّ لكــــن ... جَهِلتُ مكانتى فمتــى أراهـــــا
وقد ظَهَرَت بما أولت جمــــــالاً ... ظلمتُ نسبتُ لى جهــلاً عطاهـــا
وبدءاً أشرَقت لى أظهرتـــــــنى ... وقد عوهِــدتُ أن أهــوى هواهـــا

---

(١) مسند أحمد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله ، مسند المكثرين من الصحابة ٣٥٢٨

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ١٠٣١

هى الأسما تراءَت فى شئــــــــونٍ   أنالُ بها السعادَةَ في رضــــــــاها
ظلوماً صِرتُ حيثُ جهلــتُ نفســى   وكنتُ النورَ بدءاً فى حِمـــــاها
أكَلتُ بجنةِ الفــردوسِ معنًـــــــى   نَهَت عنهُ أطعتُ بها عِداهـــــــا
رُدِدتُ لِحِكمةٍ هى رفــعُ شـــــأنى   إذا لبيتُ فى كــونى نِداهــــــــا
أحبَّ عَدُوَّهَا جســمى وحســــــى   وأطمعُ فى عواطِفِهَا صَفَاهـــــا
ليَظهَرَ جلَ أبــدعنى جليـــــــا   ليُعرفَ قد أَرَى نفســى هُداهـــا
هى الأسماءُ أقـــربُ لى وأولـــى   بنفسى وهى غايــةُ مبتداهـــــا

٢- تعليم الأسماء لآدم يعنى دخوله جنة المعنى: وجنة المعنى هى أن يتفضل الله على العبد ويختصه بشهود نور معانى الأسماء والصفات الإلهية فى نفسه وفى الآفاق، وهى جنة الشهود التى أكرم سيدنا آدم بدخولها بفضل من الله لا بعمله، فهو لم يعمل بعد عملاً يستحق به دخول الجنة، وكما هو معلوم أن الجنات فى القرآن على نوعين:

جنات أعمال وجنات اختصاص أو جنات التنعيم وجنات النعيم. وجنات الأعمال هي جنات التنعيم للحس وفيها المسرات والحور والأسِرة وأساور الذهب والآنية والأشربة المختلفة من زنجبيل وسلسبيل ورحيق مختوم وشراب طهور وما إلى ذلك، وقد بينها لنا تبارك وتعالى في قرآنه بقوله:{وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون}(١)، أما جنات الإختصاص فقال فيها سبحانه:{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}(٢)، وهي جنات النعيم وفيها ما سبق ولكن لا نعيم لهم على الحقيقة إلا بشهود أنوار معانى الأسماء الإلهية والتمتع بالنظر إلى وجه رب البرية، وأصحاب هذا النعيم هم الذين ذكرهم ربنا

---

(١)سورة الزخرف آية ٧٢

(٢)سورة البقرة آية ١٠٥

في قوله:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ}(١)، لأنهم في عين النعيم بالتمتع بالنظر إلى الوجه الكريم، سر قوله تعالى:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}(٢).

وجنة النعيم هذه يعرفها الإمام أبو العزائم بقوله:[ٱلْجَنَّةُ: ظُهُورُ مَعَانِي ٱلصِّفَاتِ مُسْتَغْرِقَةً لِكُلِّ ٱلْمِرْآةِ](٣)، وهى جنة المعنى التى كان فيها آدم منعماً ومظللاً بظل معانى الصفات الإلهية، التى اسغرق شهودها كل المرآة وهى الهيكل الجسمانى، فلما أكل من ثمار هذه الجنة فأراد لنفسه الخلود وهو من صفات ربه، أخرج آدم من جنة الشهود، ورد الى الأرض كى يجاهد نفسه بالعبادة حتى يعود إلى دخول جنة المعنى بشهود ظلال الصفات الإلهية مستغرقة لكل أعضائه الجسمانية التى يسميها الإمام بالرسم فيقول(٤):

مَنْ أَنَا قَبْلَ ٱلظُّهُورِ؟! أَنَا ٱلْجَمَالْ ... فِي سُرَادِقِ مَجْدِهِ قَدْرِي مِثَالْ
أَسْجَدَ ٱلأَمْلاَكَ فِي جَنَّتِهِ ... أَسْكَنَ ٱلرَّسْمَ لَدَيْهِ فِي ظِلاَلْ
وَيْحَ نَفْسِي قَدْ نَهَانِي عَنْ أَنَا ... صَارَ أَكْلِي ٱلْبُعْدَ عَنْهَا فِي وَبَالْ
قَدْ أَكَلْتُ ثِمَارَ سِدْرَتِيَ ٱلَّتِي ... كَانَتِ ٱلصُّورَةَ فِي حَالِ ٱلْوِصَالْ
وَيْ وَعُدْتُ لأَصْلِيَ ٱلدَّانِي ٱلَّذِي ... صِرْتُ فِيهِ فِي شَقَاءٍ فِي ٱعْتِلاَلْ
تُبْتُ تَابَ عَلَيَّ جَلَّ جَلاَلُهُ ... أَشْهَدُ ٱلْحِكْمَةَ فِي رَمْزِ ٱلْمَقَالْ

ومعلوم أن الكون كله مرايا تظهر فيها أنوار معانى الأسماء الإلهية، وهذه الجنة المعنوية الأسمائية ليست قاصرة على الآخرة، ولكن يؤكد الإمام أنها موجودة فى الدنيا ويسميها بالجنة العاجلة فيقول:[ٱلْجَنَّةُ ٱلْعَاجِلَةُ: هِيَ جَنَّةُ ٱلرِّضَا عَنِ ٱللَّهِ –تَعَالَىٰ– فِيمَا قَدَّرَ، وَجَنَّةُ شُهُودِ ٱللَّهِ –تَعَالَىٰ– فِيمَا كَوَّنَ](٥)، ويقول: [إِنَّ لِلَّهِ جَنَّةً عَاجِلَةً مَنْ دَخَلَهَا لاَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَنَّةٍ آجِلَةٍ، أَلاَ وَهِيَ ٱلْمَعْرِفَةُ بِٱللَّهِ

(١) سورة الغاشية آية ٨
(٢) سورة القيامة الآيتين ٢٢، ٢٣
(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٧٠
(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٢٩٤، ص٢٠٨
(٥)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق ، ص٢٦٦

تَعَالَىٰ](١)، وهذه الجنة كما وصفها الإمام لا تكون إلا لمن خضعوا لسلطان الشريعة فى الدنيا فيقول:[ٱلْجَنَّةُ ٱلْعَاجِلَةُ: جَنَةٌ لِأَرْوَاحٍ تَجَرَّدَتْ عَنْ مُقْتَضَيَاتِ عَنَاصِرِهَا، فَفَرَّتْ إِلَى ٱللَّهِ بِجَاذِبَةِ عِنَايَتِهِ، وَجَنَّةُ ٱلنَّعِيمِ ٱلْمُقِيمِ لِمَنْ خَضَعُوا لِسُلْطَانِ ٱلشَّرِيعَةِ، فَكَانَتِ ٱلدُّنْيَا سِجْنًا لَهُمْ وَإِنْ صَرَّفَهُمُ ٱلْحَقُّ فِيهَا أَكْمَلَ تَصْرِيفٍ فِي ٱلْكَوْنِ، لِأَنَّهُمْ تَحْتَ سُلْطَانِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ](٢).

وكما أن جنة الأسماء والصفات موجودة فى الدنيا فإنها موجودة فى البرزخ، وموجودة فى القيامة، وموجودة فى الدار الآخرة، بحسب ما تقتضية هذه المشاهد من تجليات الأسماء والصفات، يقول الإمام مؤكداً هذا المعنى(٣):

لى جنةٌ فى فى ظلالِ الكونِ تجلى لى	وهىَ الرضا جَمَّلَت قدرى وأحوالى
فيها أنا العبدُ مجذوباً بسابقةٍ	إلى الرضا عنهُ فى تحقيقِ آمالى
فى برزخٍ جنةٌ كشفُ الحجابِ لدى	نيلِ الشهودِ وفيهِ نلتُ إقبالى
لى جنةٌ يومَ ألقاهُ وُجِدتُ وَمِن	بدئى أحنُ إليها قصدىَ العالى
سورى بها الوجهُ والمحبوبُ آنسنى	تحيطُ بالعينِ فى منصوصِ أقوالِ
لى جنةٌ فوقَهَا فى الإتحادِ إذا	ما ستَّرَ النورُ مجلي الذَّاتِ تِمثالى
من فوقِ ذلك لا سورٌ يُحَيِّزنى	غيبٌ عن العالمِ الأعلَى بإيصالى
لا كونَ لا بَينَ والمحبوبُ أفردَنى	فى حالِ إغراقِ كُلِّ رتبةِ الآل
إشراقُ أسمائهِ تُخفَى مَظَاهِرُها	بنورِ مجلاهُ في فردٍ وأبدال
ثم العبودةُ إيجادى منازلةً	أسرارُ إيجادِها حِلى و ترحالى
نفسى لقد وُجدت روحى لقد ظَهَرت	قدرى أنا العبدُ والتفصيلُ إجمالى
محبُوبهُ مقتضى الأسماءِ أجمَعِها	بل مظهرٌ ظاهرٌ ينبى بإجلال

٣- لكل رتبةٍ من مراتب الوجودِ العاليات مُعَلِمٌ مخلوق: ويكشف الإمام حكمة جعل آدم معلماً للملائكة فيقول ﷺ:[لما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات، كان لابد له أن يَعرف الله بقدر ما أهله

(١) المرجع السابق، ص٢٦٧

(٢) نفس المرجع السابق،٢٦٧

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٤٣٧٨، ص٢٤٥

الله لمعرفته لا بقدر الجناب المقدس، تنزه الله ذاتاً وصفةً واسماً عن أن يدركه مخلوق، أو يعلمه حق العلم مربوب مقهور، وقد اقتضت الحكمة لكمال تنزيه الله ذاتاً وصفةً واسماً عن الإدراك والتحديد والكيف والتشبيه، أن يجعل لكل رتبة من مراتب الوجود العاليات معلماً مخلوقاً مشهودا، يُظهر سبحانه بهذا المخلوق ما لابد لأهل تلك الرتبة من العلم به سبحانه ومشاهدة آياته وأسمائه، فجعل سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام معلماً للملائكة، وآيةً أشهدهم بها غرائب حكمة الحكيم، وعجائب قدرة القادر البديع، فسجد الملائكة كلهم أجمعون عندما علموا بسيدنا آدم عليه السلام، وشهدوا في آدم من بديع الحكمة وعجيب القدرة، فكان الملائكة الروحانيون –مع طهارتهم من الشهوات والحظوظ والأهواء وعلوهم عن التدنس برذائل الشهوات– في حاجة إلى معلم يعلمهم ما يجب أن يعلموه، ونور يبين لهم ما لابد لهم أن يشهدوه.

حكمة بالغة، سرها مقتضى تنزيه الذات الأحدية وكمال تقديسها عن الإدراك والتحديد وكمال التشبيه، فكان سيدنا آدم عليه السلام وهو روحاني جسماني تخفى أنوار روحانيته بقيود جسمانيته، إظهارًا لقدرة القادر الحكيم، ودلائل حق على كمال القدرة وجمال الحكمة، فلما كسفت ظلمات الجسم أنوار الروح هبط من درجات العلو إلى السفل، حتى أناب إلى الله تعالى بالتوبة التي تلقاها من ربه عز وجل، قال الله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(١)، ولما كانت طرق العلم: الخبر الصادق والحس الصحيح والعقل الكامل، معنى قوله تعالى:{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٢)، فجعل ﷻ الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم المتفضل المعطي الوهاب، ولمقتضى تلك الحكمة كان من فضل الله تعالى على الإنسان

---

(١)سورة البقرة آية ٣٧

(٢)سورة النحل آية ٧٨

أن يدله عليه سبحانه، ويبين له سبله سبحانه، ويرشده لما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، وكانت سنة الله في خلقه أن يعلمهم ما لابد لهم منه من العلوم بمعلم مخلوق كما قدمنا][1].

وأرى – من خلال ما سبق– أن تعليم الأسماء لآدم يعد أشرف وأرفع عطاءات الله له، كما يقول الإمام ﷺ:[لاَ نَسَب أَشْرَفُ مِنْ نَسَبِ مَنْ خَلَقَهُ ٱللَّهُ بِيَدَيهِ، وَلاَ عِلْمَ أَرْفَعُ مِنْ عِلْمِ مَنْ عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا][2]، ونستطيع أن نقول أيضاً إن تتلمُذ الملائكة على يد آدم، يعد درساً عملياً لأبنائه من بعده فى طلب العلم النافع الذى لم تستنكف الملائكة عن طلبه وتحصيله، وأن يبحثوا عن العالم ويجِدُّوا فى طلبه، وإذا كان الحق سبحانه قد أقام آدم أستاذاً ومعلماً فى البدء، فإن سر التعليم والإرشاد مازال سارياً فى بنى آدم وذريته، يقول الشيخ "أحمد سعد العقاد"[3] حول هذا المعنى نظماً[4]:

أبناءُ آدمَ فيهم سرُ والدهم ... كنوزُ حقٍ اذا عادوا لبدئهمِ
الكونُ أجمعهُ يسعى لخدمتهم ... ونفخةُ القدسِ تحقيقاً لفضلهمِ
والعارفونَ لهم فى نفسهم فُتحت ... أبوابُ خالقهم .. فازوا بكنزهم
فابحث عن العارفِ الممنوحِ فهو هدى ... به الفتوحُ لكنزِ فيكَ مكتتم
قد حيرَ اللهُ أملاكَ السما دُهشوا ... فى جعلِ آدمَ أستاذاً لجمعهم

رابعاً: خلق حواء: تحدث القرآن عن خلق حواء فى الكثير من المواضع كقوله تعالى :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء}[5]، وقوله تعالى: {هوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن

---

(١) الإمام أبوالعزائم (الاسلام دين الله) ط٣، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٧٦، ٧٧

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٥٦

أحمد سعد العقاد(١٣٠٧هـ –١٣٣٧هـ) احد تلاميذ الإمام، وله مؤلفات كثيرة منها:(ضياء الاكوان فى

(٣)تفسير القرآن)

(٤)أحمد سعد العقاد (الدرة البهية) ط٢، دار نشر الفضائل الإسلامية، الفيوم، ١٩٩٥م، ص٤

(٥) سورة النساء آية ١

نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}(١)، قال "الآلوسى" فى تفسيره لهذه الآية: [المراد من الزوج حواء، وقد خلقت من ضلع آدم -عليه السلام- الأيسر، كما رُوي ذلك عن ابن عمر وغيره](٢)، وفى قوله تعالى:{اسكن أنت وزوجك الجنة} يقول الإمام أبو العزائم:[وقوله: {أنت وزوجك} يُعيِّن أن حواء خُلقت قبل إدخال آدم الجنة، خلقها سبحانه من ضلع من أضلاعه، فكانت فرعًا منه، وكان أصلاً لها، وهذا هو السر الذي لأجله خلقت من ضلعه، ليحصل منه السكون إليها، ويحصل له الحب منها، فإن كل فرع يحب أصله، وكل أصل يحب فرعه، كما يحب الولد والده، والوالد ولده في أصل الفطرة، اللهم إلا من خبثت نفوسهم، فكانت نفوسًا إبليسية فعقوا آباءهم](٣).

خامساً: إسكان آدم وحواء الجنة: يقول الإمام فى تفسيره لقوله تعالى:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}(٤):[وفى هذه الآية يعلمنا ﷻ أنه أنعم على أبينا آدم نعمة جسمانية، بما حباه به من تمتع حسه بجمال الجنة، وبالتفضل على جسمه بشهى طعام الجنة، وبالإحسان إلى عقله بتعقل آيات الجنة، وبالمنة على روحه بتلقي الحكمة منه ﷻ في الجنة وهذا والله أعلم معنى قوله تعالى: {اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}. يقول جل اسمه {اسْكُنْ} ولم يقل استقر في الجنة ولا مَلَّكْتَكَهَا، بل قال اسكن من السكون، وهو اللبث والاستقرار فيها زمنًا معينًا. فإن في كل لفظ من ألفاظ القرآن إشارات عجيبة يفهمها أهل الذوق تدل على مراد الله تعالى أزلاً. و{الجنة} كل مكان تجمل بالأشجار اليانعة حتى ستر الخارج منه عن الداخل فيه وستر الداخل عن الخارج، وهذا معنى الجنة لغة. فالجنة: بفتح الجيم البستان، والجنة بضم الجيم: الوقاية، أو ما يستر الإنسان به نفسه من

---

(١)سورة الأعراف آية ١٨٩

(٢)الإمام الآلوسى (تفسير روح المعانى) مرجع سابق،ج٣، ص٣٩٨

(٣) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق،ج١، ص١٠٧.

(٤)سورة البقرة آية ٣٥

غيره. والجنة بكسر الجيم: هو كل ما يَرى ولا يُرى، كما قال جل وعـلا: {إِنَّـهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ} وكلها بمعنى الستر والإختفاء..][(١)].

١- كيف دخل إبليس إلى الجنة؟ يجيب الإمام عن هذا السؤال قائلاً: [يقـول الله تعالى:{إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}[(٢)]. فكيف رفع إبليس إلـى الجنة ودخلها؟ ظن بعضهم أن جنة آدم كانت بستاناً في الهند، وليس الأمر علـى ما أولوا، وأن المكان المقدس لا يدخله إلا الطهر حقاً، فكيف دخل إبليس الجنة؟

إن دخول المكان المقدس على سبيل الكرامة والإقامة مسـتحيل، إلا علـى أهل هذا المكان، ولكن الأماكن قد يدخلها الشرط (الجند) للإبتلاء، فإبليس ابـتلاه الله، وابتلى آدم فدخل الجنة لا للتكرمة والإقامة، ولكن للابتلاء، وهي جنة الخلد التي فوق السموات.

أما آدم فلم يعلم أنها جنة الخلد، لأنه لو علم وأكل من الشجرة رغبـة فـي الخلد بدلالة عدوه لكان كافراً لأنه لم يصدق ربه، ولكن آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها بأمر إبليس وهو لا يعلم أنها جنة الخلد لأنه سـمع ربـه يقـول: {اسكن أنت وزوجك الجنة}[(٣)]، ولو أكل عالماً لقال الله تعالى: وكفر، ولكنه قـال تعالى: {وعصى آدم ربه فغوى}[(٤)]][(٥)].

٢- الحكمة من معصية آدم: [وقد قدر الله معصية آدم ومعصية إبليس ليظهـر كمال إطلاقه في قدره، وتدارك لطفه بمن سبقت لـه عنايتـه، ليكـون للمسـلم مندوحة إذا وقع في معصية أن يتوب إليه، وقد علمت الملائكة من قبـل أن آدم ليس من أهل الجنة، ولا تكون له دار إقامة إلا بعد أن يتولى ما أخبر الله به من

---

(١) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج١، ص١٠٧

(٢) سورة فاطر آية ١٠

(٣) سورة البقرة آية ٥٣

(٤) سورة طه آية ١٢١

(٥) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٣٤

قوله: {إني جاعل فى الأرض خليفة}[1]..، والله تعالى لعن إبليس وطرده لمعصيته، وذلك أنه سبحانه علم منه سوء القصد وإرادة الشر، وعلم من آدم حسن القصد وإرادة الخير، وهي العناية التي سبقت له، فقدر المعصية وتداركه الله باللطف، فهي معصية جازاه الله عليها بالإهباط إلى الأرض، ولم يذكر حواء في ذكر المعصية، لأنها تابعة له في الأكل، والحكم على أحد المتساويين حكم عليهما][2]، ويبين الإمام أن الله سبحانه قدر المعصية على آدم لعلمه سبحانه أنه يريد الخلود، فيقول:[إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَرَادَ ٱلْخُلُودَ فِي ٱلْجَنَّةِ، قَدَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْمَعْصِيَةَ لِطَرْدِهِ مِنْهَا، لأَنَّ ٱللَّهَ قَالَ لَهُ ٱسْكُنْ لاَ ٱخْلُدْ][3]. يقول الإمام موضحاً هذا المعنى نظماً[4]:

أُسْكِنْتُ فِرْدَوْسَهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَتِي ... أَسْرَارَ حِكْمَتِهِ فِي ٱلْمَوْجِ وَٱلْجُودِي
أُهْبِطْتُ مِنْ جَنَّةِ ٱلْفِرْدَوْسِ مُرْتَقِيًا ... كَيْ يَمْنَحَ ٱلتَّوْبَ يَانَفْسِي بِهِ عُودِي
خَالَفْتُ بِٱلأَكْلِ نَهْيَ ٱلْحَقِّ مُبْتَدِرًا ... كُنْتُ ٱلسَّفِينَةَ فِي لُجِّيِّ تَأْيِيدِي
أَعْلَىٰ مَقَامِي بِمَعْصِيَةٍ خَشَعْتُ لَهَا ... صِرْتُ ٱلْخَلِيفَةَ فِي رَسْمِي وَتَحْدِيدِي
أَسْرَارُ تَقْدِيرِهِ أَذْنَبْتُ يَغْفِرُ لِي ... إِبْلِيسُ أَذْنَبَ أَقْصَاهُ بِتَهْدِيدِ

٣- الحكمة من إسكانهما الجنة ثم إخراجهم: ثم يتساءل الإمام قائلاً: [ما الحكمة في إسكانهما الجنة؟ وفى معصيتهما وإهباطهما إلى الأرض؟ وما السّر في إزلال الشيطان إياهما عن الجنة؟

أسكنهما الله الجنة وهو يعلم أنها ليست دار بقاء لهما الآن، ليُشهدهما ﷻ ما فيها من النعيم والبهجة والهناءة ودوام العافية والصفاء، فإذا أهبطهما إلى الأرض تذكراها، فحنًّا إليها وشوّقا ذريتهما إليها. وقدر سبحانه المعصية عليهما

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

(٢) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٣٥

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق،ص٢٥٦

(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٦٤٩٨، ص٣٤٨

ليعلما أنهما اهبطا من دار النعيم والمسرة والبهجة بمعصية واحدة، فيخـــافون أن يحرموا من الرجوع إليها إذا هم وقعوا في معاصٍ أخرى في الدنيا.

وكيف يطمع رجل أن يدخل الجنة التي أخرج الله منها آدم بمعصية واحـــدة بعد أن عصى الله تعالى في الأرض؟ وحكمة وسوسة إبليس لآدم أن إبليس مـــا وسوس لآدم إلا بعد أن تحركت النفس الأمارة بالسوء في وقت كان يجب عليهـــا أن تسكن.

أمرها الله تعالى بالسكون إليه عند إسباغه سبحانه النعم المتوالية في الجنـــة فتحركت -حفظنا الله من شرورها- متمنية في الجنة فاتصل بها مجانسها إبليس وقوى عندها هذا الأمل، فاشتد طلبها له، فأقسم لآدم وزوجته إن أكلا مـــن هـــذه الشجرة ينالا البقاء، فكانت الحكمة أن يظهر لآدم وزوجته عداوة تلك النفس التي يتصل بها إبليس فيزلهما عما هما فيه، سواء أكان في الجنـــة أو فـــي غيرهـــا، والعصمة بالله والعناية منه ونيل الخير في الدنيا والآخرة به سبحانه][(١)].

سادساً: الأكل من الشجرة: يبين الإمام أن معصية آدم بأكله من الشجرة لـــه سببان هما إبليس والنفس الأمارة بالسوء، فيقول:[معلوم النفس الأمـــارة بالســـوء من النار فهي مجانسة لإبليس، وهي محل نظر إبليس وسمعه، وأن الروح التـــي هي اللطيفة الربانية الجوهرة النورانية تجانس ملكوت الله الأعلى وهـــي محـــل نظر الله تعالى، وهي المأمورة بالحركة، أما النفس الأمارة بالسوء فإنها مـــأمورة بالسكون، فإذا تحركت أقل حركة بلمة أو بهمة أو بخاطر اتصل بها الوســـواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فأوقعها في مخالفـــة ربهـــا فـــإن لـــم يعصمها ﷻ أو يتوب عليها هلكت. وأما الروح فحركتها المسارعة إلى مغفـــرة من ربها والإعتصام بحبل الله، والتعاون على البر والتقوى، والتفكر في آلاء الله وآياته الجلية والتشبه بالملائكة المقربين، وشتان بين حركة الروح وحركة الحس

---

(١)الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق، ج١، ص١٠٩

وحركة النفس الأمارة بالسوء، وقد أعلم الله آدم أن نفسه الأمارة بالسوء أعـــدى عدو له.

وحكمة خلق النفس الأمارة بالسوء أن يكون الإنسان في لهيب نار المجاهدة، لهذا العدو اللدود، ليفوز بمحاب الله ومراضيه، وأن الله تعالى خلقهـــا مفطـــورة على خواطر وهمم تضاد ما فطرت عليه النفس الملكية الفاضلة، ولتلـــك الـــنفس الأمارة بالسوء جنود وأعوان، ومن أعظم جنودها الحـــس فالجســـم وغيرهمـــا، وللنفس الفاضلة الملكية عناية بسابقة الحسنى. أمر الله العبد بقهر تلـــك الـــنفس الأمارة قهرًا يجعله يستخدمها فيما به نيل القرب من الله تعالى فينميها ولا يهملها ليغضب بها لله على أعدائه، وينتقم بها لله من أعدائه ويدفع بها الأشـــرار، كمـــا يقهر الوحوش الكاسرة فيسخرها الإنسان لأغراضه. فالله تعـــالى أمـــر الـــنفس الأمارة بالسوء أن تلتجيء إليه وتفتقر، بمعنى أنه إن أبدى عليها طاعـــة قالـــت: أعني، وإن حركت إلى معصية قالت: اعصمني، وإن حركت إلى نعمـــة قالـــت: أوزعني، وإن قال لها اصبري على البلاء قالت: صبِّرني.

وطلب من العبد أنه لا يساكن قلبه أدنى وسوسة لها دون الرجوع عنها إلى ربه، وجعل طبعها في الأمر ساكنًا وفى النهي متحركًا وأمره بأن يســـكن عـــن المتحرك ويتحرك عن الساكن بلا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا حول لـــه عـــن معصيته ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته، ثم أمر بدخول الجنة والأكل منهـــا رغداً حيث شاء ونص عليه النهى عن الأكل من الشجرة، فلما دخل الجنة ورأى ما رأى قالت له النفس الأمارة: لو خلدنا، وإنما لنا أجل مضـــروب إلـــى غايـــةٍ معلومة، فأتاه إبليس من قبل مساكنه قلبه بوسوسة نفسه في ذلك، فقال هل أدلـــك على شجرة الخلد التي تتمناها في هذه الدار وهي، سبب البقاء والخلود وقال: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} فكانت

دلالته هذه غرورًا وألحق الله به وسوسة العدو لسابق علمـــه فيـــه، وبلـــوغ تقديره وحكمه العادل عليه؛ قوله تعالى:{وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا}. أباح لـــه سبحانه بقوله:{إسْكُنْ} التمتع في الجنة بالجلوس والقيام والتنقل فيها، وأبـــاح لـــه

سبحانه ما فيها من الأغذية والأشربة والفاكهة. وقوله {وَكُلاَ} ليس المراد منه الأمر بل المراد منه الإباحة بدليل قوله:{حَيْثُ شِئْتُمَا} والرغد: هو العيش الواسع الهنيء ولكنه سبحانه حظر عليهما شجرة عينها لهما تعييناً لا يحتاج للشك][1].

وقد حُجب آدم عن الشجرة بعد المعصية كما يقول الإمام: [والشجرة أشار الله إليها بقوله:{هذه الشجرة}[2]، ثم أشار إليها عند إتيان معصية آدم بقوله سبحانه:{ألم أنهكما عن تلكما الشجرة}[3] فالإشارة الأولى تُعَيِّنُ أن الشجرة كانت مشهودة لآدم، والثانية تُعَيِّن أنها كانت بعيدة عنه، لأنه حجب عن شهود تلك الحقائق لارتكابه المعصية][4].

١- **من أسرار الأكل من الشجرة:** ويعطينا الإمام فهماً جديداً للأكل من الشجرة فيقول ﷺ: [واختلف العلماء في الشجرة التي نهى الله آدم، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة، وهنا أزيدك أيها الطالب علما زادنا الله وإياك فقها في كلامه القويم، ومنحني الله وإياك التسليم، إن نهي الله تعالى آدم عن أكل الشجرة، لابد وأن تكون تلك الشجرة لها خصوصية تشير إلى معنيين عظيمين:

* الأول: تعظيم الناهي للبعد عما نهي عنه.

* والثاني: أن تكون الشجرة مشيرة إلى غيب من غيوب التوحيد، وإلا فالله تعالى يمنح آدم المشيئة في أن يأكل من نعيم الجنة كيف شاء ومتى يشاء ومما شاء، وينهاه عن السنبلة أو عن الشجرة – شجرة التين– كليا، نعتقد أنه سبحانه يأمر وينهى بما شاء لا معقب لحكمه، لكنا نجله وننزهه عن أن يأمر أو ينهى لغير حكمة عالية لا يمكن أن تدرك إلا لأهل العلم بالله تعالى ...، ولذا فإنه ما نهاه –سبحانه– عن أن يقرب هذه الشجرة إلا لحكمة عالية جدا، وقربه من الشجرة له معنى من المعاني التي يعلمها أهل العلم بالله، ولا يبعد أن يكون

---

(١) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق ،ج١، ص١٠٨

(٢) سورة البقرة آية ٣٥

(٣) سورة الأعراف آية ٢٢

(٤) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٣٥

المراد من الشجرة هي شجرة الله تعالى، التي رأسها جهة العــرش، وفروعهــا مدلاة جهة الأرض، كسدرة المنتهى التي رأسها مغروسة في العرش وفروعهــا مدلاة على الجنة، بخلاف شجرنا فإن رؤوسها مغروسة في الطــين وفروعهــا مرتفعة إلى العلو، وشجرة الله هي التي غرسها بيديه في جنــة عــدن، بعــد أن صاغها بيديه، وخلقها في أحسن تقويم، ونفخ فيها مــن روحــه، وأســجد لهــا ملائكته، ونقلها في جنة عدن....، ومعنى قربه منها أن ينسى الله تعالى فينســيه الله نفسه، ومعنى أن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان بيديه من طــين أولا، ثــم خلقه من ماء مهين ثانياً وصوره بنفسه، قال سبحانه:{هُوَ الَّذِي يُصَــوِّرُكُمْ فِــي الْأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(١) فالإنسان هو شجرة الله تعالى](٢).

ثم يصف لنا الإمام تلك الشجرة بقوله: [وتلك الشجرة التي هي صورة الحق لها ثمر هو جمالها الذي يجب أن يحفظ لزارعها سبحانه، فإذا تجاوز الإنسان حد العبودية وتناول ما هو خاص بربه، عصى وغوى لحكمة بينت لك بعضها، فرُد إلى الأرض ليرتقي إلى مقامات القرب، وليتجمل بجمال الخلافة، فيكون مرآة لظهور معاني صفات ربه، وحقيقة هي مظهر لظهور صفات نفسه، وهي العبودية، وقد أودع الله أمانته في آدم، فنسي آدم ونسب لنفسه ما ليس له، فكان ما كان من ظهور سوءته ومن شدة وجله، والله غالب على أمره ، قال سبحانه:{ونبلوكم بالشر والخير فتنة}(٣)، وإنما أكل آدم ما فيه من أمانة باريه، منحنا الله الذوق، وجملنا بالشوق، وحفظنا من الإنكار، إنه مجيب الدعاء](٤)؛ وهنا يقول الإمام متسائلاً بلسان الإنسان(٥):

مَنْ أَنَا قَبْلَ ٱلظُّهُورِ؟! أَنَــا ٱلْجَمَــالْ فِي سُــرَادِقِ مَجْــدِهِ قَــدْرِي مِثَــالْ

(١) سورة آل عمران آية ٦

(٢) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٤٦

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٥

(٤) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٢٧

(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٢٩٤، ص٢٠٨

أَسْــجَدَ ٱلأَمْـــلاَكَ فِـــي جَنَّتِـــهِ أَسْكَنَ ٱلرَّسْـمَ لَدَيْـهِ فِـي ظِـلاَلْ
وَيْحَ نَفْسِي قَـدْ نَهَـانِي عَـنْ أَنَـا صَارَ أَكْلِي ٱلْبُعْدَ عَنْهَـا فِـي وَبَـالْ
قَـدْ أَكَلْــتُ ثِمَــارَ سِــدْرَتِيَ ٱلَّتِــي كَانَتِ ٱلصُّورَةَ فِي حَـالِ ٱلْوِصَـالْ
وَيْ وَعُدْتُ لأَصْلِيَ ٱلــدَّانِي ٱلَّــذِي صِرْتُ فِيهِ فِي شَقَاءٍ فِـي ٱعْـتِلاَلْ
تُبْــتُ تَــابَ عَلَــيَّ جَــلَّ جَلاَلُــهُ أَشْهَدُ ٱلْحِكْمَــةَ فِـي رَمْـزِ ٱلْمَقَـالْ

ثم يزيد الإمام الأمر وضوحاً فيقول فى موضع آخر:[جمــل الله تعــالى آدم بعد أن نفخ فيه من روحه بجمال جعله مظهراً لإنبلاج معاني صفاته ﷻ، وعلمه الأسماء كلها، وكان يشهد معاني الصفات منبلجة في هيكلهما الذي كان رقا لتلك الأسرار، وكانت تلك الأنوار لا تفارقه لأنه حاضر القلب، شديد المراقبة، تمــثلاً لأنوار معاني الصفات، حتى وسوس إليه عدو الله إبليس وخدعة بحلفه له بــالله تعالى فصدقه وأكل من الشجرة، أي: نســي جمــال الله الظــاهر بمعنــاه فــي هيكله...، فنسي حقيقته التي بعلمه بها يجمله الله تعالى بهذا الجمال، فلما نســي سُلب ما كان منحه الله له تفضلاً منه جل جلاله، وتسلطت عليه قــوى النفــوس الشهوانية والغضبية والعنادية، فشعر بقضاء الحاجة، ونظر فرأى ما لم يكن يره في سوآته ولديها حَمَل بعد أن كان محمولا فأخذته الحيرة، وراح يطــوف فــي بساتين الجنة ويستر عوارته حياء من الله تعالى، فكانــت وسوســة إبلــيس لآدم طعما في أن يأكل من الشجرة فيسلب منه هذا النور، فلا يكون أهلًا لما أهلــه الله له من هذا النعيم المقيم في جوار الله تعالى...، وكان الذي يستر ســوآتهما هــو نور استجلاء معاني الصفات][(١)].

ثم يبين الإمام أنه لما نسب آدم لنفسه ما ليس له من الصــفات كــان ذلــك علامة على شهود وجوده وغيابه عن وجود شهوده لصفات معبــوده، فانفصــل بذلك عن مشهد التوحيد العلى الذى كان فيه، فيقول ﷺ:[فلما ذاقا الشجرة نســيا أنفسهما، لأنهما نسيا نهي الله تعالى بغرور العدو، فانفصلا عن الإســتقرار فــي

(١) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع السابق، ص٢٩

مشهد التوحيد العلي، انفصالاً شهدا به وجودهما، فبدت لهما سوآتهما – أي: ظهر لهما احتياجهما إلى ما لابد منه للإنسان من قضاء حاجة وستر عورة– وفي ذلك ما لايطيقه إنسان(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ) أي: أسرعا يختطفان ورق الجنة ليسترا به عوراتهما][1].

وأرى أن الإمام أبا العزائم قد أعطانا فهماً جديداً حول مسألة أكل آدم من الشجرة، فالإمام لا ينكر ما قاله المفسرون فى تحديد نوع الشجرة المأكولة أنها شجرة التفاح أو غيرها، ويقول بأن كل هذا جائز، ولكنه يعطينا فهماً آخر لمعنى الشجرة التى أكل منها آدم، فيبين أن الله تعالى قال لآدم:{اسكن أنت وزوجك الجنة * وكلا منها رغداً حيث شئتما}[2]، وهذا دليل أن الله أعطى له ولزوجه الجنة وما فيها من طعام بغير استثناء، وقد نهاهما عن مجرد الإقتراب من الشجرة فضلاً عن الأكل منها.

وهذه الشجرة ترمز إلى الشجرة الإنسانية، وهى شجرة الأمانات الإلهية، الذى يمثلها ذلك الهيكل الآدمى الذى غرسه الله بيديه في جنه عدن، بعد أن صاغه بيديه، وخلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فكانت تلك الشجرة مظهراً للأسماء الإلهية والصفات الربانية، وهذه الأسماء وتلك الصفات هى فى الحقيقة له لا لنا، ولكنه جملنا وكملنا بها، وكأنه يقول لنا: هذه الأسماء والصفات أمانات إئتمنتكم عليها، وجملتكم وكملتكم بها، فإياك يا بن آدم أن تتناول ثمرة من تلك الشجرة فتنسبها لنفسك.

فمثلاً إذا تناولت صفة مثل البصر وقلت: هو بصرى ومِلكى أرى به كيف أشاء، فقد أكلت من شجرة الصفات، وخنت الأمانة، لأن البصر صفة البصير، وكذلك ثمرة العلم أمانة العليم فإذا منعته ونسبته لنفسك فقد أكلت من الشجرة وخنت الأمانة، وهكذا سائر الصفات، فثمرة السمع أمانة السميع، وثمرة الحياة أمانة الحى، والقدرة والإرادة والكلام...، وغيرها من الثمرات إنما هى أمانات

---

(١) المرجع السابق، ص٤٩

(٢) سورة البقرة آية ٣٥

أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان فكان ظلوماً جهولاً حتى يؤديها لمن إئتمنه.

وإذا تأملنا قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}(١) وجدنا أن ما يشتريه سبحانه يجب أن يكون عنده، فإذا كان الله هو خالق النفس وهو مالك الأموال، فكيف يشترى سبحانه ما يملكه هو ممن لا يملكه؟ إن من خلقني ومنحني طلب مني أن أبيع له، واشتراهما، وكتب الثمن وهو: {.. بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}، والذي يشتري الشيء يستلمه، ولكن النفس لا تزال عندي لأنها قوام حياتي، والمال عندي أنفق منه، وعلى ذلك فقد أبقى الله ما اشتراه مني عندي أمانة وائتمنني عليه، فمخالفة أمر الله تعالى تعدٍ على شجرة الأمانة بالإنتقاص منها وهو المعبر عنه بالأكل.

وبهذا المعنى فإننا نأكل من ثمار شجرة الأمانات التي ائتمننا الحق عليها مراراً وتكراراً، والمطلوب منا أن نستعمل أمانة البصر فيما يريد لنا البصير سبحانه أن نستعمله، والسمع فيما يريد لنا السميع سبحانه أن نسمعه، لأن هذه الأعضاء والحواس لا تعمل بذاتها فنحن لا نرى بشحمة ولا نسمع بعظمة ولا نتكلم بلحمة، كما قال الإمام عليٍ ﷺ:[عجبت لإنسان يرى بشحم ويسمع بعظم ويتكلم بلحم، تؤلمه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة، وهو مع كل هذا يواجه القوى بالمعصية].

ومن أراد أن يؤدى الأمانة كما يجب أن تؤدى تجرد من حوله وطوله وقوته وتحقق بوصفه فقال: أنا الجاهل ولو علمه ربه علوم الأولين والآخرين، وقال أنا الضعيف بالرغم من قوته، وقال أنا الفقير ولو ملكه الله مفاتيح خزائن الأرض كلها. فينسب لنفسة صفاته، فإذا تحقق بأوصافه منحه الله أوصافه.

---

(١) سورة التوبة آية ١١١

٢- كيف أكل آدم من الشجرة الإنسانية؟

لقد تحقق أكل آدم من الشجرة حينما طمع فى الخلود وليس الخلود من صفاته ولا ينبغى له، وبهذا أغواه إبليس فقال له: {يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى}(١)، فكل متاع حسى مادى فهو ملك لآدم، أما معانى الأسماء والصفات فهى لواهبها جل فى علاه، يقول الإمام موضحاً هذا المعنى(٢):

كُلُّ ٱلَّذِي هُوَ فِي ٱلْفِرْدَوْسِ لِي وَلَهُ صَوْغُ ٱلْيَدَيْنِ وَزَرْعُ ٱللَّهِ بِٱلْجُودِ
﴿لاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ﴾ يُومِي لِسِدْرَتِهِ غَرْسُ ٱلْيَدَيْنِ بِظِلٍّ مِنْهُ مَمْدُودِ
يَنْهَىٰ عَنِ ٱلأَكْلِ وَٱلْمَقْدُورَ نَفَّذَهُ غَيْبٌ عَنِ ٱلْعَقْلِ أَكْلِي بَعْدَ تَجْرِيدِي
مِنِّي أَكَلْتُ نَبَاتَ ٱلْحُبِّ مُرْتَشِفًا رَاحًا صَفَاهُ بِحَوْضٍ مِنْهُ مَوْرُودِ

إلى أن يقول ﷺ:

سِرُّ ٱلأَمَانَةِ قَدْ لاَحَتْ غَوَامِضُهَا مِنِّي أَكَلْتُ لأُعْطَىٰ فَوْقَ مَقْصُودِي
فِي حِكْمَةِ ٱلأَكْلِ أَنْوَارٌ تَلُوحُ لِمَنْ صَفَوْا بِعِلْمِ ٱبْتِدَا غَيْبٍ بِتَخْلِيدِ

وللأكل من الشجرة حكم كثيرة يميط الإمام عنها اللثام فى الكثير من مواجيده فنراه يقول(٣):

فِي أَحْسَنِ ٱلتَّقْوِيمِ صَاغَ حَقِيقَتِي بَدْءًا لِيَظْهَرَ سِرُّهُ فِي سِدْرَتِي
فِيهَا أَنَا ٱلْمَثَلُ ٱلْعَلِيُّ لِحُسْنِهِ قَدْ كُنْتُ نُورًا ظَاهِرًا فِي نَشْأَتِي
لَمَّا أَكَلْتُ مِنَ ٱلْمَعَالِمِ رَدَّنِي لِلأَرْضِ كَيْمَا أَنْ يُكَمِّلَ رُتْبَتِي
بِيَ قُدِّسَتْ لَمَّا تَجَلَّىٰ ظَاهِرًا بِٱلْوَصْفِ غَيَّبَنِي بِسِرِّ هُوِيَّتِي
ظَهَرَ ٱلْجَمِيلُ بِصُورَةٍ قُدْسِيَّةٍ لِلْعَالَمِ ٱلأَعْلَىٰ بِرَمْزِ ٱلرُّتْبَةِ
فِي رَسْمِيَ ٱلأَدْنَىٰ تَجَلَّىٰ وَصْفُهُ قَدْ صَاغَهُ بِيَدَيْهِ سِرَّ ٱلْحِكْمَةِ
أَنْوَارُهُ قَدْ أَشْرَقَتْ فِي مَظْهَرٍ أَخْفَى ٱلْمَبَانِي فِي ضِيَاءِ ٱلْقُدْرَةِ

---

(١) سورة طه آية ١٢٠

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٦٤٩٨، ص٣٤٨

(٣) المرجع السابق، قصيدة رقم ٢٩٥، ص٢٠٨

فلما أكل آدم من معالمه الإنسانية فنسب لنفسه ما ليس لـــه مـــن الصـــفات الربانية، اقتضت حكمة الله أن يُرد إلى الأرض ليرتقي إلـــى مقامـــات القـــرب، وليتجمل بجمال الخلافة، فيكون مرآة لظهور معاني صفات ربه، وحقيقـــةً هـــي مظهر لظهور صفات نفسه، وهي العبودية.

سابعاً: إهباط آدم وحواء إلى الأرض: أهبط الله أبانا آدم عليه السلام ومعه أمنا حواء إلى الأرض بعد أن تولى تعليم آدم وإقامته أستاذاً ومرشـــداً ومعلمـــاً للملائكة وأسكنه الجنة؛ فأُهبطا لحكمة العمران التي هي الأساس من البداية {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، ولأن الإنسان خلق للأرض ولم يخلق للسماء. وأهبط إبليس معهما إلى الأرض وذلك لإظهار حكمة الحكيم المبدع عز وجـــل، ولتبـــدأ مرحلة الحياة البشرية الحية الآدمية؛ وعن إهباط آدم يتحدث الإمام قائلاً: [إن الله سبحانه يخاطبنا في آدم وحواء ويأمرنا فيهما كما يخاطب أمم الأنبياء الســـابقين فينا فقوله تعالى: {اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ} يريد سبحانه أمرنا في أبينـــا آدم وأمنا حواء، فكأنه يقول: اهبطا أنتما وذريتكما كما يقول ﷻ: {يَا بَنِي إِسْـــرَائِيلَ} لمن كانوا في زمن رسول الله ﷺ من أهل خيبر وقينقاع ولمن بعدهم إلـــى يـــوم القيامة، فيقول ﷻ: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَـــدُوِّكُمْ} ويقـــول تعـــالى: {وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} وكان ذلك في زمان سيدنا موسى عليه السلام.

ولما كانت نجاة الآباء بها وجود الأبناء في تلك الدار الدنيا، كانت نجاة لهم أيضًا. وهذا ما يدل على سياق القرآن. فقوله: {اهْبِطُواْ} على هذا النمط يدل على أن المراد آدم وذريته، ولا مانع من أن يكون الأمر أيضًا لإبليس والحيـــة التـــي أدخلته في الجنة كما ورد في بعض الأخبار. وإن كان الله تعـــالى لـــم يشـــأ أن يعين الحالة التي دخل بها إبليس الجنة والكيفية التي وسوس بهـــا لآدم وزوجتـــه فيها حتى أزلهما عن الجنة وهذا علم لا ينفع، والعلم بالكيفية والحال والشـــأن لا ينفع والجهل بها لا يضر. كما أن ما ورد من الأخبار في تعيين الشـــجرة التـــي أكل منها آدم بعد أن أبهم الله الأمر علينا ولم يبين لنا فيها بياناً، بل ولم يرد فـــي صحيح الأخبار عن رسول الله ﷺ ما يعينها حقيقة، فيكون البحث عنها لتعيينهـــا

بطريق العقل والنقل مما لا ينفع علمه ولا يضر جهله. لأن الله تعالى لو قدَّر أن في العلم بها رضًا له عن خلقه لبينها وعينها][1].

وأرى أنه من خلال ما عرضه الإمام للتكريم الإلهى لآدم ممثلاً فى تعليمه الأسماء، وإسكانه الجنة، ثم ارتكابه المعصية بعد ذلك، ثم إخراجه من الجنة، ثم إهباطه إلى الأرض، كل هذا يؤكد الحقيقة القائلة: أن الكمال المطلق لله وحده، وأن الإنسان مهما أفاض عليه ربه من الرتب والمقامات والمشاهد والتجليات فهو عبد، [العبد عبد وإن علا وتكمل، والرب رب وإن تفضل وتنزل][2]، فكان تقدير المعصية على أبينا آدم وما ترتب عليها من إهباطه إلى الأرض ليكون الكمال المطلق لله الواحد، ولنعيش دائماً في ظل قوله سبحانه: {يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}[3].

ثامناً: رد الإمام على نظرية داروين[4]**:** وقد أفرد الإمام للرد على هذا الإدعاء كتاباً أسماه (انسان المؤمنين وإنسان الملحدين) فنَّد فيه الإمام أركان هذه النظرية، واستعرض الأدلة على بطلانها وكان مما جاء فيه[5]:

١- الإنسان في معتقد الملحدين: الإنسان في معتقد الملحدين متحول عن خلية هبطت من بعض الكواكب إلى الأرض ثم تمت فيها فكانت حيواناً رديئاً في أبسط شكل، ثم تغيرت الأرض بفعل بعض المؤثرات الطبيعية، فاضطر هذا الحيوان المخلوق لتغيير شكل معيشته، فتبع ذلك تغير في صفاته، ثم استحال مع طول الزمن وكثرة المؤثرات المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول، ثم

---

(١) الإمام أبو العزائم (أسرار القرآن) مرجع سابق ،ج١، ص١١٣

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٣٥١

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧

(٤) تشارلز داروين: من علماء التاريخ الطبيعى، ولد فى بريطانيا ١٨٠٩م، ومات ١٨٨٢م .

(٥)الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق، ص٩

ارتقى إلى قرد على مبدأ النشوء والارتقاء، ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقى إلى حيوان آخر هو بين القرد والإنسان بواسطة بينهما، ثم انقرض هذا الحيوان الواسطة بدليل عدم العثور عليه في آثار الأحياء. ولعل انقراضه كان على مبدأ الانتخاب الطبيعى، والبقاء للأصلح كما يقولون، ومن ذلك الحيوان الواسطة المفقود ارتقى الإنسان إلى ما هو عليه الآن!!.

وبنوا معتقدهم هذا في خلق الإنسان، وأنه متحول من القرد على أساس مجموعة نظريات هي الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، والنشوء والإرتقاء، والمطابقة، وعامل الوراثة. وهي في الجملة نظريات صحيحة معلومة بالحس، وهي سنن الله تعالى في الخلق والتكوين لكثير من المخلوقات، فالإنسان ابن آدم يوجد أولاً خلية في نطفة الرجل وماء المرأة، ثم يكون حيواناً منوياً ذكراً أو أنثى، ثم يتلاقح كما هي سنة الله تعالى في اللقاح، ثم يتدرج خلقه من حال إلى حال إلى أن يتم خلقه فيصير بشرًا سويًا كما جاء ذلك في قوله تعالى:{ثم جعلناه نطفة فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}(١).

وكما صح به قول الرسول ﷺ:"وإن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يأتى إليه الملك فينفخ فيه الروح، ثم يؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد"(٢)، وقد سئل رسول الله: بم يكون الشبه في الولد؟ فقال ﷺ "فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد لها، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد له"(٣)، وهو إشارة إلى عامل الوراثة. وعجمة التمر تلقى في الأرض نواة لا

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ١٣، ١٤

(٢)أخرجه الشيخان يراجع (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) (٣ / ٢٠٧ – ٢٠٨) طبعة عيسى الحلبي

(٣) رواه مسلم (في ٥/ ٨٨)

حياة فيها، ثم تنفلق عن غصن أخضر. ثم يتدرج خلقها حتى تصبح نخلة باسقة لها طلع نضيد رزقاً للعباد، وبالجملة فسنن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتة لا تُنكر، وسنته تعالى في انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابته كذلك، وسنته تعالى في البقاء للأصلح ظاهرة في كثير من الكائنات، ولكن هذه السنن هي من خلق الله وتقديره، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته، ولذا يخرقها بالمعجزات التي يعطيها لأنبيائه تدليلاً على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياؤه ورسله، فخلق عيسى عليه السلام كان على خلاف سنة الخلق المعروف في سائر بني آدم كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(١)، وتكلم عيسى في المهد في أسبوع ولادته كان على خلاف سنة الله تعالى في نطق الإنسان الذي لا يتم إلا بعد قطع الطفل مرحلة من حياته. وسلامة إبراهيم من احراق النار لما يلقى فيها من أجسام قابلة للاحتراق.

وأمثلة إبطال الله تعالى لسنته في خلقه متى شاء ذلك كثيرة، والمقصود من هذا أن ما يسميه الملاحدة بالقوانين الطبيعية ويتخذون منه دليلاً على كفرهم بالله تعالى، ما هو في الواقع إلا سنن الله تعالى التي أودعها في الكون، يوجد بها ويخلق ما يشاء إيجاده وخلقه، وهي خاضعة لله تعالى متى شاء أمضاها، ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل كما قال الله تعالى:{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}(٢) ومتى شاء أوقفها أو أبطلها لحكمة منه اقتضت ذلك وهو العزيز الحكيم. بيد أن خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدة، وتصوروا، لإخبار الله تعالى وإخبار رسله التي يستحيل فيها الكذب، هذا وقد ناقش العلماء المؤمنون هذه النظرية الدارونية التي أصبحت مذهب الملاحدة ومعتقدهم، وأبطلوها نهائياً بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩.

(٢) سورة فاطر الآية ٤٣.

التي أثبتها الدارونيون بها. وهذه بعض الاعترضات التي عورضت بها النظرية الدارونية وأبطلتها:

أ- إذا كانت نظرية النشوء والإرتقاء مطردة في كل شيء فعن أي شيء ترقت الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم؟ وعن أي شيء ترقت البهائم ذات القوائم الأربع: الخيل والبغال والحمير، والأسد والنمر والفيل والذئب والكلب.

ب- مضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترق إلى ماهو أكمل منها إذ الكمال لا حد له، فبقى الفرس فرسًا، والكلب كلبًا، والأسد أسدًا، والذئب ذئبًا. والإنسان إنساناً منتهياً كل منها إلى ما هو عليه الآن، ومنذ قرون طويلة ؟؟؟

ج – لم بقى القرد الأول، وانقرض الحيوان الواسطة الذي ترقى من القرد؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح، والانتخاب الطبيعي مطردة لانقرض القرد الأول وبقى الحيوان الواسطة الذي ترقى عن الأول، لأنه أكمل منه وأصلح والبقاء للأصلح ؟؟؟ فلماذا هنا كان البقاء لغير الأصلح؟ ولم أساء الإنتخاب الطبيعي هنا فانتخب الناقص فأبقاه ولم ينتخب الكامل فأرداه؟

د- إن مذهبكم المادي قائم على أساس نكران القياس والنظر والاستدلال. فلم تؤمنوا بغير المرئي المحسوس، فلم خالفتموه هنا، وقلتم بالنظر والقياس والاستدلال، لأنكم ما شهدتم الخلية الأولى التي زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب. كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التي زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقلتم بمجرد النظر والقياس، وبذلك نقضتم مذهبكم المادي، وخرجتم عنه، فثبت عجزكم، وبطل معتقدكم في النظرية الدارونية.

٢- مقارنة بين إنسان المؤمنين وانسان الملحدين: وبعد هذا العرض لأدلة بطلان هذه النظرية يعقد الإمام مقارنة بين انسان المؤمنين وانسان الملحدين جاء فيها[١]:

---

(١)الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق، ص١٢

أ- الإنسان عند المؤمنين: خُلق في السماء خلقاً مباشراً مستقلاً، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكة السماء، خلقه في أحسن تقويم، وخصه بالتكريم بين العالمين. حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق. أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، فهيأه بذلك للكمال، وأعده لسعادة الحال والمآل. وأخبر عن خلقه، وتكوينه، وكرامته، ومآله، وخالقه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه.

ب- الإنسان عند الملحدين: خُلق بواسطة النشوء والارتقاء في أقبح صورة، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرد في ملايين أخرى من السنين، ثم صار إنساناً بعد ملايين السنين. أخبر عن خلقه ونشوئه وتكوينه كبار الملاحدة، وشرار الناس، وأكثرهم فساداً وفجوراً، ومآله الهلاك والدمار، فلا خلود له ولا بقاء.

* ثم يعقب الإمام قائلاً: والآن يامعشر العقلاء فأي الإنسانين أحق بالتكريم، وأي الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون، إنسان المؤمنين أم إنسان الملاحدة (الدارونيين) ؟!

٣- أدلة الإمام على بطلان النظرية: وبعد ذلك يبدأ الإمام فى عرض أدلته التى صاغها فى ثلاثة عشر دليلاً على بطلان هذه النظرية، نذكر منها[(١)]:

أ- علم التشريح حجة على بطلان هذا المذهب وسخافة القائلين به: إنك إيها المدعي لترى الفرع أنقص من الأصل بالحس، هذا البغل فرع الحمار والحصان وهو أنقص منه لأنه فقد المبيض (تجويف في الرحم يكون به التوالد) وترى الحيوانات المتولدة من نوعين تفقد كثيراً من حقائقها بالحس، ولكنك أيها الإنسان ترى الفرع الذي هو أنت أكمل في الحقائق من الأصل الذي هو القرد، فإنا إذا شرَّحنا منصف رأس الإنسان ورأس القرد، نجد في رأس القرد أربع غدد: غدة للسمع لو مست بمفرق لسلب السمع، وغدة للبصر، وغدة للشم، وغدة للذوق.

---

(١)المرجع السابق، ص١٥، وما بعدها

ويرى في رأس الإنسان خمس غدد(١): أربع منها للسمع، والبصر، والشم، والذوق، والخامسة غدة هي خزانة نطق اللسان وهذه مفقودة في القرد، فمن الذي أودع تلك الغدة في رأس الفرع وهي لم تكن موجودة في الأصل؟!! حتى أن تلك الغدة لو فسدت لخرس اللسان. والإنسان كما يدعي هذا المضل فرع القرد، وفرع الشيء قد لا يبلغ كماله النوعي إلا بعناية فكيف يزيد عليه؟ !!.

ب- تنوع الحقيقة وصفًا وهيئة أكبر هدم لنظرية داروين: فالإنسان حيوان إلا أنه:

* طويل القامة. * عريض الأظافر. * ضاحك بالطبع.

والقرد حيوان يفارق الإنسان في الهيئة وبعض الصفات وهذا هو التنوع.

ج- إن المجتمع الإنساني غير عالم الحيوان: المجتمع الإنسانى فيه نظام وترق، فالإنسان جمله الله بمعاني العلم والحكمة والعدالة والرحمة، وصاغ الله نفسه من أصفى الجواهر النورانية، وجعله وسطاً، وأيده بروح وقوة منه سبحانه ليدفع ظلم الظالمين، ويكبح جماح النفس الشهوانية والغضبية، ويحفظ الثغور، ويقيم الحدود، ويقطع شأفة ما يضر بالقوة النفسانية كالخمور والمخدرات وما يضر بالأموال كلعب الميسر، وما يضر بالأجسام ويمحو الخلافات الناتجة بسبب الغلو في الدين وأهل الآراء الباطلة. وليس في عالم الحيوان شيىء من ذلك ... فكيف يكون الفرع أعلى من أصله وهو القرد؟ !!.

د- الإنسان ديني بفطرته: قال رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٢) فكأن الإنسان يولد مؤمنا كامل الإيمان لاستئناسه {بألستُ}(٣)، ومعلوم أن نور الحكمة حُظِر شهوده على الإنسان إلا

---

(١) وهى ما يُعبر عنها فى علم التشريح بـ(المراكز العصبية الخمسة) وهى الفص الأيمن، الفص الأيسر،الفص الأيمن السفلي، الفص الأيسر السفلي، الناصية.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز الباب ٨٠ ، ٩٢ وكتاب تفسير القرآن " تفسير سورة الروم " .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

بوحي، وقد تفضل الحق سبحانه فأرسل رسله المؤيدين بالمعجزات، أيكون في الفرع ما ليس في الأصل؟!! وأين دين القرود أو تدين الحيوان؟!!

والإنسان المحجوب بالأدران النفسانية، المبعود بالحظوظ الحيوانية، لا يذوق لذة الإيمان، ولا حلاوة الإحسان، بل ويدعوه الغرور إلى الانشغال بالنعم عن المنعم، فإذا أذاقه الله ألم الاحتياج يئس وباع دينه بدنياه، حتى يزكي نفسه بنور التسليم والانقياد ودراسة العلم النافع. فأين هذه المعانى في الأصل المزعوم؟!!

هـ– طرق العلم هي الخبر الصادق: الحس الصحيح، والعقل الكامل، معنى قوله تعالى:{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(١).

فجعل سبحانه الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم، ومن تمام الفضل الإلهي إرسال الرسل معلمين للخير دالين عليه. فأين ذلك في الأصل المزعوم، والجد الموهوم، القرد وأشباهه؟!!

و– في النوع الإنساني تظهر الصور: وفى النوع الإنسانى تظهر الصور الكاملة والصور الأكمل أمثال الأنبياء والمرسلين، وهم أعلى من الملائكة قدراً، حتى لقد سجدت الملائكة لآدم عليه السلام، وتميزت رتب البشر من الأنبياء والرسل منهم من كلم الله، ومنهم من أيده بروح القدس، ومنهم من لا يعرفه إلا الله قدرا ومكانة. فهل هذا في عالم القردة؟!! وفي النوع الإنساني وجد عيسى عليه السلام بلا أب، ووجد آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، ووجد الناس جميعاً من أب وأم. فزعم الضالون أن كل مولود لابد له من والد، وعلى هذا فإما أن يكون(٢) ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلاً، لما أتى به من المعجزات الباهرة. فهل وجد في عالم القردة الأجداد أمثال هؤلاء الأمجاد؟!!

---

(١) سورة النحل آية ٧٨ .

(٢) سيدنا عيسى عليه السلام.

ز- أنتجت الضرورة العمل والتعاون: لابد من قانون يحكم العلاقات، وإلا خرب العمران من التقلب في الرذائل والعدوان، والإنسان يحكم على الأبدان، أما تزكية النفوس فذلك لله ومن هنا جاءت الشرائع. فهل في عالم القردة شريعة؟!! كما جاءت الشرائع مواكبة لتطور بني آدم عبر العصور مثلاً جاء نوح لهدم عبادة الأوثان المتفشية في زمنه، ثم لوط لينذرهم عاقبة الفاحشة المنتشرة فيهم، ثم صالح ليعلمهم العدل والمساواة وجعل له الناقة آية، ثم سيدنا إبراهيم ليطهرهم من رجس الشرك ويوجههم إلى الله تعالى، ثم موسى عليه السلام، فلما غالوا في الماديات أرسل سيدنا عيسى عليه السلام ليمحي تلك البدع بما جاءهم به من الحكمة والبيان، كما أرسل شعيباً ليعلمهم خلق الوفاء في الكيل والميزان، حتى بعث الله خاتم رسله بالقرآن تبياناً لكل شيء من ضروريات وكماليات الإنسان، بل وفضائله النفسانية وكمالاته الروحانية لنيل سعادة الأبد. فهل مرت مراحل أجيال القردة بمثل هذا التطور أيضا؟

ح- كل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضا: لكل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضاً، فالنبات وسط بين أنواع المعادن والحيوان، فهي تزيد عن المعادن بالنمو وتنقص عن الحيوان بالحس والحركة، ولأن النبات تصادمه الأجسام الصلبة ويقطع الإنسان منه فلو وهبه الله الحس لكان عذاباً له، فتأمل مراتب الوجود يخدم بعضها بعضاً، ويعلو بعضها بعضاً، والإنسان وحده بحكمة القادر الحكيم هو سيد هذه الكائنات. فكيف للقرد أن يصل إلى هذا الرقي؟ ولم يصل غيره من الحيوان لمرتبة أعلى أو أدنى؟

ط- ارتقاء النفس في الهيكل: إنْ تطور الهيكل من قرد لإنسان، فكيف ارتقت النفس التي في هذا الهيكل بحيث أصبح الإنسان لو تعلقت همته بجهة مما أُعِد لها في أحسن تقويم أو أسفل سافلين نالها؟ فهو إما ملك هائم في جلال ربه، وإما غضوباً كسبع، أو كسولا كبقر، أو جزعاً ككلب، أو حقوداً كجمل، أو جامعاً لكل تلك الصفات فيكون شيطاناً مريداً وهو في صورة إنسان.

ومعلوم أن النفس هي اللطيفة النورانية، بل هي أمانة الله[1] المشرقة أنوارها في هيكل الإنسان، يعرفها من عرف نشأته الأولى، وتحقق أن أسفل سافلين مفارق لأعلى عليين، وكيف جمع الله بينهما بقهر واقتدار، وجعل أسفل سافلين يرتقى حتى يُخدم بالملائكه المقربين في جوار رب العالمين.

وتلك المعاني في الإنسان فقط فلا يدريها الحيوان فهل يدرك القرد ذلك؟!

٤- نصيحة الإمام لمن يدعي أن الإنسان أصله قرد: [مالك أيها الإنسان تقول الباطل! فإذا ظهر لك الحق تعصبت تعصب الأحمق الجاهل وأبيت إلا أن تجعل الباطل حقاً وقمت فانتحلت حججاً يأبى القط أن ينتحلها إذا خطف قطعة لحم منك يأخذها ويفر منك على الجدران كأنه يقول لك أنا مذنب والمذنب لا يأمن جانب من عصاه، فإذا ناولته قطعة اللحم أكلها فوق ثيابك ولو ضربته لا ينتقل عن ثيابك.

فعجباً للإنسان الذي هو أجهل من الحيوان يقع في الضلال، فإذا قامت عليه الحجة وظهر الحق جلياً أبى المسكين أن يُكذب نفسه كأنه أكبر من الحق وكأن الحجة إنما تقام للكلاب والقطط والحمير ولا تقام للإنسان الذي هو أدنى منها لأن تلك الحيوانات لا تحتاج إلى إقامة الحجة، ولكنها تشعر بالحق بنفسها. كفى أيها القلم فإن الإنسان حيوان ما دام أن قواه الفكرية لا تخرجه عن حيطة المادة والعمل فيها لحظه وشهوته والتعصب للآباء والأهواء بل أقل من الحيوان، إنما عليك أن تبين الحق وليس عليك أن تقهر الناس على اتباعه][2].

وبعد هذا العرض الذى بدأه الإمام بمقارنة بين إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين، ثم سرد الإعترضات التي عورضت بها النظرية الداروينية وأبطلتها، ثم ختم بعرضٍ فنَّد فيه أركان هذه النظرية، واستعرض الأدلة على بطلانها من وجهة نظره، أرى أن الإمام قد استطاع أن يدحض هذه النظرية الفاسدة بأدلة

---

(١) بما فيها من صفات الله الأربعة سالفة الذكر.

(٢)الإمام أبو العزائم (انسان المؤمنين وانسان الملحدين) مرجع سابق، ٣٧، ٣٨

منطقية، فكان ذلك رداً قوياً على مروجــى هــذه النظريــة مــن المســتعمرين وعملاؤهم فى البلاد الإسلامية آنذاك.

كما أرى أيضاً أن الإمام أبا العزائم لم يكن منغلقاً على البحث فــى العلــوم الشرعية والدينية فحسب، ولكنه كان منفتحاً على كل الثقافات، باحثــاً فــى كــل العلوم، مطالعاً لسائر الكتب، لاسيما علم الطب والتشريح، وعلى هــذا المــنهج ربى الإمام أتباعه وتلاميذه، فنراه على سبيل المثال ينصح تلاميــذه فــى أحــد كتاباته قائلاً:[ينبغي لإخواننا – أيدهم الله تعالي– أن لا يعادوا علماً من العلــوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا علي مذهب من المذاهب، لأن طريقنــا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه هو النظــر فــي جميــع الموجودات بأسرها، الحسية والعقلية من أولها إلى آخرها، ظاهرهــا وباطنهــا، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها آثار دالــة علــي مبــدئها الــذي أوجدها، وآيات ظاهرات مبرهنة علي سر تصريف القــدرة وعجيــب الحكمــة الإلهية، منطوية علي أسرار دقيقة يري الناس ظاهرهــا ولا يعرفــون معــاني بواطنها](١).

---

(١)الإمام أبو العزائم (معارج المقربين) مرجع سابق، ص٩٥.

الفصل الرابع

رحلة الإنسان بين الخمسة أوطان

أولاً: وطن (ألست بربكم).

ثانياً: وطن بطن الأم.

ثالثاً: وطن الدنيا.

رابعاً: وطن البرزخ.

خامساً: وطن الدار الآخرة.

مقدمة

لا أظن أن إنساناً لم يتوقف يوماً فى أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه: من أين؟ وإلى أين؟ وماذا بعد الموت؟ أينتهى كل شيئ إلى التراب؟ أم أنها قصة سوف تتعدد فصولاً؟ أكان لنا وجود قبل الميلاد؟ وما هى حكمة وجودى؟ ومتى تنتهى رحلتى فى هذا الوجود؟ ليس إنساناً من لم يحاول أن يحل هذه الألغاز ويجيب على تلك التساؤلات ويقرأ بكل قلبه، ويستمع بكل آذانه إلى من يقول عندى جواب، فالمسألة ليست ترفاً فلسفياً كما يدعى الماديون وإنما هى تمثل كل شيئ، وسيتوقف عليها كل شيئ.

يرى الإمام أبو العزائم أن رحلة الإنسان فى هذا الوجود تتمثل فى تنقله بين خمسة أوطان، لكل وطن منها حياة تختلف عن غيره من الأوطان، فيقول: [الأوطان خمسة: وطن {ألست بربكم}، ووطن بطن أمك، ووطن الدنيا، ووطن البرزخ، ووطن الدار الآخرة][١]، ثم يوضح فى موضع آخر: أن وطن {ألست} بربكم هو وطن التحديد، ووطن بطن الأم هو وطن التصوير، ووطن الدنيا هو وطن التكليف والتعريف، ووطن البرزخ هو وطن الإنتقال ووطن الدارالآخرة هو وطن الجزاء.

ثم يبين الإمام أن بعض هذه الأوطان يدركه الإنسان وبعضها لا يدركه فيقول:[الأوطان التى يدركها الإنسان ثلاثة: الدنيا والبرزخ والآخرة][٢]، ويبين الإمام أن لكل وطن من هذه الأوطان حياة خاصة به ينال بها فيه ما لا بد له منها لينتقل للوطن الآخر كاملاً مجانساً للأحياء فيه، حتى يصل إلى ربه بعد طول التطور من لدن {ألست}. إلى يوم {إلى ربك الرجعى}[٣]، فمن طلب فى وطن من الأوطان حياة الوطن الذى بعد وطنه فلم يعمل له انحط إلى رتبة

---

(١) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٤٩

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٠

(٣) سورة العلق آية ٨

الأنعام بل صار أضل منها. وأنت محمول فى كل أوطـــانك إلا فى كون الفســـاد –الدنيا– الذى به تبلغ السعادة فى الميعاد.

وقد أولى الإمام هذه الأوطان اهتماماً كبيراً، لذا فإننـــا نفـــرد هـــذا الفصـــل للتعرف على رؤية الإمام لهذه الأوطان:

أولاً: وطن {ألست بربكم}: وطن {ألست بربكم} يمثل بداية النشأة الروحانيـــة للإنسان وهو أول أوطان الحقيقة الإنسانية حيث واثق الله فيه بني آدم من أولهـــم إلى آخرهم بما فيهم من الأنبياء والرسل، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا اليوم فى قوله:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا..} فقضى سبحانه بسابق علمه فيهم وقال لهم:{..أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ*أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون}(١). فأشهد اللهُ الذرية جمعاء جمال وجهـــه، وأسمعهم لذيذ خطابه؛ ولما قال سبحانه:{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} أقرت الحقائق الروحانيـــة بربوبيته، وقالوا:{بَلَى شَهِدْنَا}، قالوها جميعاً، فأهل الجنة الذين سبقت لهم الحسنى من رب العالمين قالوا: {بَلَى} طوعاً لصفاء جواهرهم، أما الآخرون فقـــد قـــالوا {بَلَى} كرهاً، وقد بين الله ذلك بقوله: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}(٢)، فأهل السعادة يسجدون لله عن حـــب ونور قلبي وصفاء روحي، أما غيرهم فقالوها كرهاً لأن حقائقهم بعيدة عن نـــور الإيمان وحقائق الإحسان. ولولا عناية الله بأهل الإيمان ما قالوها طوعاً، يقـــول الإمام أبو العزائم مبيناً هذا المعنى(٣):

لَوْلاَ ٱلْعِنَايَةُ مِـــنْ أَزَلٍ لَنَـــا سَـــبَقَتْ	لَمَا ٱهْتَـــدَيْنَا وَلاَ أَرْوَاحُنَـــا عَشِـــقَتْ
مَنْ جَمَّلَ ٱلْقَلْبَ مِنَّـــا بِٱلْهِدَايَـــةِ مَـــنْ	وَهَبَ ٱلنُّفُوسَ ٱلضِّيَا حَتَّىٰ لَهُ طَلَبَـــتْ
وَمَـــنْ دَعَانَـــا فَلَبَّيْنَـــا لِدَعْوَتِـــهِ	وَفِيهِ أَرْوَاحُنَا بِٱلـــذِّكْرِ قَـــدْ سَـــكِرَتْ

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٣، ١٧٣

(٢) سورة الرعد آية ١٥

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، ص١١٠، قصيدة ٤١٥٤

عِنَايَةٌ سَبَقَتْ وَ﴿أَلَسْتُ﴾ مَشْهَدُهَا   وَٱلرُّوحُ قَدْ وَلِهَتْ فِيهَا وَقَدْ شَهِدَتْ
وَكُلُّ رُوحٍ أَجَابَتْ جُمِّلَتْ بِضِيَا   نُورِ ٱلْهُدَىٰ وَلِهَٰذَا ٱلْوَجْهِ قَدْ نَظَرَتْ
بُشْرَىٰ لِمَنْ طُلِبُوا لِلَّهِ فَٱتَّصَلُوا   لَهُمْ عِنَايَتُهُ بِٱلنُّورِ قَدْ سَبَقَتْ
سَعِدُوا بِمَطْلَبِهِمْ فَازُوا بِمَقْصِدِهِمْ   وَلَهُمْ بِفَضْلِ ٱلرِّضَا أَبْوَابُهُ فُتِحَتْ

ويعد هذا الميثاق أولاً وقبل كل شيء هو أول درس من دروس التوحيد تلقته الأرواح بدءاً في عالم الروح.

١- **الحكمة من بعث الرسل:** يبين الإمام أن الحقيقة الإنسانية تلقت دروساً فى وطن {ألست} وأُخذ عليها عهد وميثاق، فلما خرجت حقيقة الإنسان إلى عالم الظهور نسيت ما تعلمته فى وطنها الأول فأراد الله أن يذكرها بوطنها الأول فبعث الرسل مبشرين ومنذرين ومذكرين، يقول الإمام:[خلق الله العالم أجمع، ليظهر جل جلاله بآثار قدرته وعجائبها، وأسرار حكمته وغرائبها، واقتضت حكمته جل جلاله أن يظهر في أول الخلق أمام الأرواح، ظهوراً بلا حجاب، يأخذ إقرارات خلقه على أنفسهم بقوله سبحانه:{ألست بربكم} فأقروا واعترفوا بأنه جل جلاله ربنا، بقولنا جميعا "بَلَى".

ثم إنه جل جلاله عاهدنا لعلمه أن تلك الأرواح المجردة، إذا لابست الأجسام المحدودة ظللتها بظلال سفلها، فأنستها عهد ربها، أوسترتها بظلمات حظوظها وأطماعها فتناست هذا العهد، فقدر جل جلاله أن يعيد من نسي، أو تناسى إلى ما كان عليه من الصفاء؛ إقامةً لحجته، فكان ما أراده جل جلاله، وتحقق العالم بحقيقة أنهم عبيد الله، وأنه الرب المبديء المعيد، وقامت الحجة بالنسيان أو التناسي، فاستحقوا بذلك ما حكم به عليهم في الدنيا، على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم، من انتقام بالخلود في النار، أو من عقوبة للتطهير، أو من عفو ومغفرة، مقرين أن ذلك عدل منه][(١)]. وهنا يؤكد الإمام أن بعثة الرسل والأنبياء إنما جاءت للتذكير بالعهد الذى كان يوم "ألست"، والتذكير لا يأتى إلا

(١) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص١٧، ١٨

بعد شيء تعلمه الإنسان ثم نساه، يؤكد هذا المعنى ما جاءت به الكثير من الآيات القرآنية مثل:{فذكر إنما أنت مذكر}[١]، {إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب}[٢]، {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}[٣]، وعن مشاهد هذا اليوم يقول الإمام[٤]:

نَعَمْ مِنْ ﴿أَلَسْتُ﴾ شَاهَدَ ٱلْقَلْبُ مَوْلاَهُ دَعَاهُ إِلَى ٱلتَّوْحِيدِ بِٱلصِّدْقِ لَبَّاهُ
تَجَلَّىٰ لَنَا بِـ﴿أَلَسْتُ﴾ بِٱلنُّورِ ظَاهِرًا وَأَشْهَدَنَا جَهْرًا وَلاَحَ ضِيَاهُ
عَشِقْنَاهُ لَمَّا أَنْ تَجَلَّىٰ بِوَجْهِهِ سَقَانَا طَهُورَ ٱلْعِشْقِ صِرْفَ حُمَيَّاهُ
وَلَمَّا تَجَلَّىٰ لِلنُّفُوسِ بِنُورِهِ تَنَزَّلَ بِٱلإِحْسَانِ جَلَّ عُلاَهُ
شَهِدْنَا جَمِيلاً بِٱلْعَوَاطِفِ ظَاهِرًا لَقَدْ جَذَبَ ٱلأَرْوَاحَ نُورُ بَهَاهُ

٢- من أسرار القرآن في وطن التحديد: ويكشف الإمام بعض أحداث وطن {ألست} بتفسيره لقوله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ*أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية منْ بَعدِهِم أفَتُهلِكُنا بِمَا فَعَلَ المُبطِلون}[٥]، فيقول ﷺ:[ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله ﷻ أخذ من ظهر آدم ذريته الأنبياء وواثقهم على أن يبلغوا عباده ما بعثهم به، وهذا هو ميثاق الأنبياء الذي سبق أن واثقهم به في عالم النور لنصرة خاتمهم ﷺ[٦]، ثم أخذ من ظهر آدم ذريته وذرية ذريته إلى يوم القيامة كالتوالد سواءً بسواء، ولم يقل يأخذنا من ذرية آدم، بل قال سبحانه:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} لأن ذلك معلوم.

---

(١) سورة الغاشية آية ٢١
(٢) سورة ق آية ٣٧
(٣) سورة الذاريات آية ٥٥
(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٥٦١، ص٤٧
(٥) سورة الأعراف الآيتان ١٧٢، ١٧٣
(٦) واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة وهذا الميثاق فى قوله تعالى فى سورة آل عمران آية (٨١):

والعودة إلى قوله:{من ظهورهم} يبين أن الأخذ كان كالتوالد، وكل مخلوق من بني الإنسان أخذ من ظهر أبيه كالذر، إلا أنهم يعقلون ما يخاطبهم الله تعالى به، فكشف الله الحجاب لهم عن جماله العلي حتى شهدوا بإشهاده تعالى لهم، وبعد أن أشهدهم أقام عليهم الحجة الإعترافية بقوله تعالى في خبره عن قولهم: {قالوا بلى شهدنا} وبعد كشف الحجاب صار كل من أشهده الله هذا الجمال معترفاً بأن المشهود المتكلم هو ربه، ولذلك قالوا {بلى} أنت ربنا لا شك، ولسابق علمه جل جلاله فيهم بأنهم إذا لابست أرواحهم أشباحهم أنستهم لوازمهم الكونية وحظوظهم وملاذهم هذا المشهد الرباني فأخذ عليهم العهد والميثاق بقوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} أي: احذروا أن تنسوا هذا المشهد العلي الجلي الذي اعترفتم فيه بربوبيتي لكم، فإذا جئتم يوم القيامة وسألتكم عن هذا المشهد تعتذرون إلي فتقولوا {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} فإنني لا أقبل بعد هذا الشهود عذراً.

قوله تعالى:{أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون} وهذه الآية حجة قائمة على أنه سبحانه لا يقبل عذر معتذر بعد هذا الدليل الواضح، ومعناه احذروا أن تعتذروا لدى يوم القيامة بقولكم: {إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم} أي: من قبل وجودنا وكنا ذرية لهم من بعدهم فوجب علينا بحسب العادة أن نقتدي بآبائنا.

قوله تعالى:{أفتهلكنا بما فعل المبطلون} أى: أتهلكنا فتدخلنا نار جهنم يوم القيامة بفعل آبائنا الأولين الذين أشركوا بك من قبل وجودنا، وهذا اعتذار لا يقبل، لأن الله تعالى جمع الآباء والأبناء جميعا في صعيد واحد، وكشف الحجاب عن جماله، وأشهد الكل بعيونهم، وخاطبهم جميعاً بقوله:{ألست بربكم} فأقروا بربوبيته جل جلاله بعد العيان لا البيان.

وهنا سر خفي، وهو أن جميع بني الإنسان شهدوا واعترفوا وزادهم الله فضلاً منه بأن بعث فيهم أنبياء ورسلاً ذكروهم بهذا العهد الأزلي، وعاهدوهم عهداً ثانياً، فمن آمن بالعهد الثاني نفعه الله بالأول والثاني، ومن كفر بالعهد

الثاني أهلكه الله بالأول والثاني، ومن هذا يظهر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم أقامهم الله تعالى يذكرون عباده عهدهم الأول، قال تعالى:{وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}[1]، ولا تكون الذكرى إلا بما عرف ثم نسي لطول المدة، ومن ذَكَرَ فإن عهد {أَلَسْتُ} يكون حجة له، لأن الجميع قالوا:{بلى}. وقولهم: {بلى} ابتلاء عظيم من الله، لأنه سبحانه جمع لعباده في هذا المشهد جميع ما أراده لهم من سعادة، فمن قال:{بلى} وسبقت له الحسنى قالها بقلبه ولسانه، ومن قال:{بلى} ولم يسبق له الحسنى ولكن سبقت له السوءى كان هذا المشهد حجة عليه يوم القيامة ومثال ذلك أن يعترف الرجل بما عليه من دين لرجل آخر، ثم ينكره عند حلول أجل السداد، فإذا ذُكر به لا يذكره، وإذا استُحضر لم يستحضره.

والله تعالى جعل عهد {أَلَسْتُ} لإقامة الحجة، وأعقبه بعهد الرسل لبيان المحجة، فمن ذُكر بهما فذكرهما فر إلى الله ربه بقلبه وقالبه، لأن الذكرى نفعته وزادت في إيمانه وكشفت له مشهد {أَلَسْتُ} واضحاً جلياً، فشاهده مع إخوانه من أهل السابقية[2]، وليس لمنكرٍ حجة على الله، لأن قضاء الله وقدره محجوبان عن البصائر قبل الأبصار، والسابقة والخاتمة مجهولان للمؤمنين قبل الكفار، وهذا هو الأمر الذي أذاب قلوب الأبرار، وحثهم على القيام بفرائض الشريعة ونوافل السنة ليل نهار، كما أخبرنا الله العزيز الغفار بقوله تعالى:{والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً}[3]، حتى إذا أصبحوا من بياتهم دعوا الله تضرعاً وخفية {يقولون ربنا إصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً}[4]، وذلك خوفاً من سلب الإيمان لجهلهم بما ستكون عليه السوابق والخواتيم][5].

---

(١)سورة الذاريات آية ٥٥

(٢)أهل السابقية إشارة لقوله تعالى: {إن الذين سَبقت لهم ِمنا الحُسنى أُولئك عنها مُبعدون}

(٣) سورة الفرقان آية ٦٤

(٤) سورة الفرقان آية ٦٥

(٥) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٢٠، ٢١

وهذا العهد القديم لا يتذكره الإنسان في الدنيا إلا إذا تجرد تجرداً كاملاً مما يبعده عن ربه تبارك وتعالى، لأن العهد أخذ على الأرواح المجردة في صفائها وحضورها مع حضرة ربها، لذلك لا يتذكره الإنسان إلا إذا صفت روحه وتخلصت من القيود التي تسبب الجحود. والوصول إلى هذا المقام في دنيا الناس لا يتم إلا إذا كان العبد مع أهل الصدق في كل الأحوال، وذكر الله كثيراً وسبحه بكرة وأصيلاً ليُجلى صدأ قلبه ولتزكو نفسه ويطهر قلبه.

وبهذا يكون وطن {ألست} هو أول أوطان الحقيقة الإنسانية، ولهذا يحن إليه الأبرار، يقول الإمام[1]:

هِيَ ٱلْوَطَنُ ٱلْمَحْبُوبُ لِلأَبْرَارِ ... وَقَبْلَ ﴿أَلَسْتُ﴾ مَوْطِنُ ٱلأَخْيَارِ
إِلَيْهِ حَنِينُ ٱلْعَارِفِينَ وَشَوْقُهُمْ ... وَلَمْ يُحْجَبَنْ عَنْهُمْ بِذِي ٱلآثَارِ
وَ﴿كُنْ﴾ مَطْلَبُ ٱلزُّهَّادِ جَدُّوا لِنَيْلِهَا ... وَ﴿كَانَ﴾ مُرَادُ ٱلْفَرْدِ لِلْمُخْتَارِ
وَكَوْنُ ٱلْفَنَا لِلْغَافِلِينَ تَهَيَّمُوا ... بِزَهْرَتِهِ حَتَّىٰ رُمُوا فِي ٱلنَّارِ
رَأَوْهُ لَهُمْ وَطَنًا فَجَدُّوا لِنَيْلِهَا ... فَحُجِبُوا عَنِ ٱلآيَاتِ وَٱلأَنْوَارِ
وَأَهْلُ ٱلصَّفَاءِ ٱلْقُدْسُ لَهُمُو مَطِيَّةٌ ... فَسَارُوا بِهِ لِحَقِيقَةِ ٱلأَسْرَارِ
أَبَوْا أَنْ يَرَوْهُ مَنْزِلاً فَتَجَرَّدُوا ... عَنِ ٱلْحَظِّ فِي طَلَبِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْبَارِي
إِلَى ٱللَّهِ سَارُوا وَٱلْكِيَانُ مَطِيَّةٌ ... وَقَدْ وَاصَلُوا ٱلآصَالَ بِٱلأَسْحَارِ
رَأَوْا زِينَةَ ٱلدُّنْيَا وَبَهْجَةَ أَهْلِهَا ... سَرَابًا وَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَرَارِ
أَقَامُوا بِهَا غُرَبَاءَ وَٱلْحَقُّ آنَسَهُمْ ... عَلَى ٱلشَّرْعِ بَيْنَ ٱلْفِكْرِ وَٱلأَذْكَارِ
بِأَرْوَاحِهِمْ فِي حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ مُتِّعُوا ... وَأَبْدَانُهُمْ فِي ٱلْكَوْنِ وَٱلآثَارِ
تَكَشَّفَتِ ٱلدُّنْيَا لَهُمْ عَنْ مَآلِهَا ... فَلَجَأُوا إِلَى ٱلتَّوَّابِ وَٱلْغَفَّارِ
رَأَوْهَا غَرُورًا زَائِلاً فَتَجَنَّبُوا ... مُعَامَلَةَ ٱلْجُهَلاَءِ وَٱلْفُجَّارِ
نَعَمْ عَامَلُوا مَوْلاَهُمُو بِقُلُوبِهِمْ ... وَسَلَكُوا سَبِيلَ مَنَاهِجِ ٱلأَخْيَارِ
فَصَافَاهُمُو مَوْلاَهُمُو وَٱصْطَفَاهُمُو ... لِحَضْرَتِهِ وَحَبَاهُمُو بِفَخَارِ

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٣٥٥٩، ج٤، ص٤٥

ويؤكد الإمام ﷺ على أن وطن {ألست بربكم} هو أول ظهور للحقيقة الإنسانية فيقول فى تفسيره لقوله تعالى {والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر}(١): إن الفجر يرمز إلى إنفجار حقيقة الإنسان بإيجاده وتعيين رتبته فى الغيب الأول قبل التصوير والتجسيد والنزول إلى عالم الأرحام، ودنيا التعدد والأضداد والأشكال..، والليالى العشر بعد الفجر فى الغيب العلى رمز إلى ليالى الإمداد، وما يتطلبه الإمداد من استجلاء الإستعدادات واللياقة، ومدى القبول فى تلك العين الجديدة.. وهى ليال يتم فيها الدخول فى ظلمة الرسم، ظلمة الجسد،.. والشفع هو ظهور المثنوية من الوتر (الواحد). ثم يزيد المعنى وضوحاً فيقول ﷺ نظماً(٢):

فَجْرُ ٱنْفِجَارِ حَقِيقَتِي إِيجَادِي ... عَبْدًا بِصِبْغَةِ وَاجِدٍ إِرْشَادِي
وَٱلْفَجْرُ فَجْرُ ٱلإِتِّضَاحِ بِلاَ خَفًا ... كَشْفُ ٱلْحِجَابِ عَنِ ٱلْمَصُونِ ٱلْبَادِي
وَٱلْفَجْرُ فَجْرُ تَعَيُّنِي فِي رُتْبَتِي ... غَيْبٌ عَنِ ٱلأَسْوَارِ وَٱلأَعْدَادِ
هَٰذَا هُوَ ٱلْفَجْرُ ٱلَّذِي يُتْلَىٰ عَلَىٰ ... أَهْلِ ٱلصَّفَا مِنْ خِيرَةِ ٱلأَفْرَادِ
وَٱلْعَشْرُ بَعْدَ ٱلْفَجْرِ فِي ٱلْغَيْبِ ٱلْعَلِي ... رَمْزٌ إِلَى ٱسْتِجْلاَئِهِ ٱلإِمْدَادِ
ٱللَّيْلُ رَسْمِي بَعْدَ وَقْفَتِيَ ٱلَّتِي ... يَسْرِي بِهَا مِنْهُ بِحَالِ ٱلصَّادِي
لَيْلٌ بِهِ ٱلْقُرْآنُ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي حُلَّةِ ٱلإِحْرَامِ لِلإِرْشَادِ
وَٱلشَّفْعُ رَمْزُ ٱلْمَثْنَوِيَّةِ عِنْدَهَا ... تَخْفَىٰ بِوَتْرِ ٱلْغَيْبِ لِلآبَادِ

٣- هل كان للإنسان وجودٌ قبل وطن {ألست}؟

قبل ظهور عنصر المادة، ومن قبل خلق الكون، وتعاقب الزمان والمكان، بل ومن قبل كن فيكون، كان لحقيقة الإنسان تعيين ووجود فى غيب العلم والإرادة والمشيئة الإلهية، فكنت أيها الإنسان مستوراً عنك مشهوداً لربك، لا تشهد لك وجوداً مع وجودك، فأنت في الظلام الحالك الكثيف لا ترى وجودك مع

(١) سورة الفجر الآيات ١، ٢،٣

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٣٠١٥، ص١٢

كمال وجودك، فقد كنتَ مستوراً بغشيان جماله وكماله ومشهوداً لحضرته، وذلك سر من أسرار الوجود، ليس للعقل فيه مجال، ولكن تستنشق الأرواح عبير معناه، يصف الإمام ﷺ ذلك المشهد فيقول ﷺ:

نشوتى من قبلِ نشأةِ هيكلى حيثُ كنتُ النورَ أول أول
كنتُ غيباً فى الإرادةِ ظاهراً فى خفاءِ الغيبِ قُدِّسَ موئلى
لاحَ لى فى الطُورِ أنوارَ البها والتنزلِ فى الحقيقةِ منزلى
لم أرى فى البدءِ إلا وجهُ من لى تجلى بالجمالِ الأكمَلِ
طفتُ قبلَ الوقتِ حولَ كمالهِ لم أشاهد غيرَ نفسى معقلى

ثانياً: وطن بطن الأم: وهو يمثل بداية النشأة الكونية للإنسان وهو وطن (التصوير) كما يعرفه الإمام نسبة إلى قوله تعالى:{هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء}(١)، وهو أيضاً وطن التشريف بالنسبة للإنسان فقد سُخر له جسم الأم ليصله غذاءه بلا كد ولا تعب؛ ويرى الإمام أنه كما أن للإنسان فى البدء أطواراً سبعة –سبق ذكرها في الفصل الأول– فإن له في الختم أطواراً سبعة، يقول عنها:[أطوار الإنسان السبعة ختماً: كان الإنسان طيناً، ثم كان نطفة، ثم كان علقةً، فمضغةً، فعظاماً، فكُسيت العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر{فتبارك الله أحسن الخالقين}](٢).

١– أطوار الإنسان السبعة فى عالم الأرحام: الرحم فيه سر الرحمة، وفيه تجلى اسم الرحمن، والرحم إسمه مشتق من اسم الرحمن، قال ﷺ عن ربه في الحديث القدسي: "أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي إسماً، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته"(٣)، وقوله ﷺ:"إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن

---

(١) سورة آل عمران آية ٦

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦١

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة: (١٨٣٠) وقال حديث حسن صحيح .

أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك فقال رسول الله ﷺ فاقرءوا إن شئتم {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}[1]"(٢)، ولذلك جعل الله الرحم بيتاً لتكوين الهيكل المادي وتنزل الروح من عليائها إليه. والرحم الموجود في بطن الأم لا يُوصل، وإنما توصل الهياكل، فإذا وصلتَ إنساناً فقد وصلت رحمًا لأنه تَكَوَّن في عالم الأرحام. ويتحدث الإمام عن أطوار الإنسان في هذا الوطن قائلاً: وللإنسان في وطن بطن الأم أطوار: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة {مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}(٣)، ثم عظام، ثم لحم يكسو العظام، ثم التسوية والتصوير والتعديل {خَلْقًا آخَرَ}(٤)، ثم نفخ الروح[5]. سر قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى..} وها هى الأطوار السبعة في عالم الأرحام بعد طور التراب:

أ- **النطفة:** ورد ذكر كلمة نطفة في القرآن الكريم في اثني عشر آية، وتطلق النطفة على ثلاثة أشياء:

- نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية.
- نطفة "الأنثى" وهي البويضة.
- النطفة الأمشاج وهي المختلطة من الماءين، أي البويضة الملقحة، قال تعالى:{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}(٦).

---

(١) سورة سيدنا (محمد) الآيتان ٢٢، ٢٣

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب (٥٥٢٨)

(٣) سورة الحج آية ٥

(٤) سورة المؤمنون آية ١٤

(٥) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٥١

(٦) سورة الإنسان آية ٢

وتأتى هذه المرحلة بعد اكتمال خلق أوَّل ذكرٍ وأوَّل أنثى من الكائن البشـــري، والنطفة كما سبق مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة؛ حيث يختلط بعد عمليـــة الجِماع ماءُ الرجل مع ماء المرأة فيصير الماءان نطفة.

ومن عجائبِ قدرة الله – سبحانه- أن يصلَ تَعدادُ الحيوانات المنويـــة التـــي تُفرِزُها الخصيتينِ إلى ما بين مائتين إلى ثلاثِمائة حيـــوان منـــوي فـــي الدفعـــة الواحدة، بينما الأنثى تدفع بُوَيْضة واحدة عليها تاج مشع، ولا يصل من الكميات الهائلة من الحيوانات المَنَوية إلى البويضة إلا حيوان منوي واحد.

وما أن يتم التحام الحيوان المنوي بالبويضة، حتى تباشر البويضـــة المُلقَّحـــة بالانقسام إلى خليتينِ، فأربع، فثمان وهكذا دون زيادة في حجـــم مجمـــوع هـــذه الخلايا عن حجم البويضة الملقَّحة، وتتم عمليه الانقسام هـــذه والبويضـــة فـــي طريقها إلى الرَّحِم، ثم تأتي المرحلة الثانية؛ وهي:

ب- العَلَقة: ورد ذكر لفظ العلقة في القرآن الكريم في خمس آيات، والعلقة: هي القطعة من العلق وهو الدم الجامد.

وبعد أن تصل البويضة المُخصبَّة إلى الرَّحِم، وبعد انقسامِها تُصـــبِح عبـــارة عن كتلةٍ من الخلايا الصغيرة، يطلق عليها اسم التُّوتة؛ حيث تُشبِه ثمرة، حينئـــذٍ تتعلَّق بجدار الرحم، وتستمر في التعلق مدة أربع وعشرين ساعة، وتتميز العلقة من طبقتينِ؛ هما: طبقة خارجية "آكلة ومغذية"، وطبقة داخلية، ومنها يخلـــق الله الجنين.

وقد سمى الله –سبحانه- أول سورة نزلت في القرآن باسم هـــذه المرحلـــة، ليُذكِّرنا الله – سبحانه- بتلك اللحظات التي كان فيها الإنسان عبارة عن كتلـــه دم عالقة بجدار الرحم تستمد منه الدفء والغذاء والسكن، قال – تعـــالى-: {اقْـــرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ}(١).

---

(١) سورة العلق آية ١، ٢

ج- **المضغة:** ذكر لفظ المضغة في القرآن الكريم ثلاث مرَّات مرتينِ في سورة (المؤمنون) وواحدة في سورة (الحج)، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللَّحم بقدر ما يُمضَغ. وبعد عمليه العلوق تبدأ مرحلة المضغة في الأسبوع الثالث، وهذا الطور يمر بمرحلتين:

- **غير المُخلَّقة:** تستمر هذه المرحلة من الأسبوع الثالث حتى الأسبوع الرابع، ولا يكون هناك أي تمايز لأي عضو أو جهاز.

- **المضغة المُخلَّقة:** يمر الحمل بعد نهاية الأسبوع الرابع بجملةٍ من التغيرات الدقيقة والمدهشة، وتنمو فيها الخلايا وتتطوَّر، ليكون الإنسان في أحسن تقويم، وتنتهي هذه المرحلة في نهاية الشهر الثالث تقريبًا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتينِ المرحلتين، فقال – تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ...}(١).

وقد راعى القرآن الكريم الفارقَ الزمني والخلقي بين كل طَور من أطوار الخلق، فالمسافة بين النطفة والعلقة مسافة كبيرة في ميزان الخلق، وإن كانت غير بعيدة في حساب الزمان، ولذا جاء التعبير في النقلة بين النطفة والعَلقة فاصلاً بينهم بثُمَّ.

ثم خلقنا النطفة علقة، فالمسافة شاسعة بين النطفة والعلقة، سواء أكانت نطفة الذكر (الحيوان المنوي) أم نطفة الأنثى (البويضة)، أو هما معًا (النطفة الأمشاج)، والتي في قناة الرحم لتصل إلى القرار المَكِين فتستقر فيه، ولكن النقلةَ بين العَلَقة والمُضغَة سريعة والمسافة قريبة، فإن العَلَقة تدخُلُ إلى المُضغَة دون أن يكون هناك فارق زمني أو خلقي كبير، ومن ثَمَّ جاء التعبير عنها بالفاء، دلالة على الاتصال فيها {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}(٢)، وكذلك بين المضغة والعظام

---

(١) سورة الحج آيه ٥

(٢) سورة المؤمنون آيه ١٤

{فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}، ثم تبطئ السرعة، ويأتي فارقٌ زمني وخلقي فى قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

د- العظام: في هذا الطور تتحوَّل قطعة اللحم إلى هيكل عظمي، قال تعالى: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا}.

هـ- كساء العظام باللحم: قال تعالى: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}، فهذه الآية تُشِير إلى أن العظام تتشكَّل أولاً، ثم يلتفُّ حولها اللحم والعضلات كأنه كساء لها، وهذا التصوير الدقيق يشير إلى عظمة القرآن ودقته.

و- الخلق الآخر: وفي هذه المرحلة يكون نفخ الروح، وتكون هذه النفخة بعد مرحلة العلَقة نحو أربعة أشهر، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: "إن أحدَكم يُجمَع خلقُه في بطنِ أُمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسَل المَلَكُ فينفخُ فيه الروح، ويُؤمَر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد"، قال تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا}؛ أي خلقًا مباينًا للخلق الأوَّل مباينة ما أبعدها؛ حيث جعَله حيوانًا بعد أن كان جمادًا، وناطقًا وكان أبكم، وسميعًا وكان أصم، وبصيرًا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه، بل كل جزءٍ من أجزائه- عجائب فطرية، وغرائب حكمته، لا تُدرَك بوصف الواصف، ولا تبلغ بشرح الشارح...".

انها مراحل التصوير التى أخبرنا عنها سبحانه بقوله: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(١) ومن أسماء الله الحسنى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى}(٢).

إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير، إذ في كل يوم بل كل ساعة تشهد جديداً، ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنة والتشريح

(١) سورة آل عمران آية ٦

(٢) سورة الحشر آية ٢٤

ووظائف الأعضاء يعرف كيف أن أجهزة الجسم المختلفة تهدم ويعاد بناؤها في الجنين، ثم تقل هذه التغييرات بعد الولادة، وتقل أكثر بعد البلوغ، لكنها لا تتوقف حتى في الشيخوخة. ولأن الناس كلهم لأدم وحواء وألوانهم وخلقتهم مختلفة، فلولا مخالفتهم شبه والديهم لكانوا على خلقه واحدة، ولأن دلالة الشبه ضعيفة ودلالة ولادته على الفراش قوية، فلا يجوز ترك القوى لمعارضة الضعيف، ولذلك لما تنازع سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن وليدة زمعة ورأى النبى ﷺ فيه شبهاً بيناً ألحَقَ الولد بالفراش و ترك الشبه.

كما يشير علم الوراثة أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين، كما حدث في حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ولدت امرأتي غلاما أسود – وهو حينئذ يعرض بأن ينفيه – فقال ﷺ:"هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق – أسمر أو رمادي– قال: إن فيها أورقاً، قال: فأنى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال فهذا عسى أن يكون نزعة عرق" ولم يرخص له في الانتفاء منه، وهذا حديث يدل على سعة علمه ﷺ مع قدرته في الحوار والإقناع. لذا قال الحبيب ﷺ: "تباعدوا لا تضووا(١)". وقال ﷺ مبيناً أن التخليق مستمر: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فغيرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أو أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك"(٢)، {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}(٣)، و{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}(٤)، {هُوَ الَّذِي

(١) الضوى : الهزال والضعف

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٣) سورة طه آية ٥٠.

(٤) سورة نوح آية ١٤.

يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(١)، {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْق}(٢).

وقد ثبت أن الإنسان مخلوق -كما أخبر الله- {مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}(٣) وليس من الصلب والترائب، وإنها الدقة المتناهية، إذ تتكون الخصية والمبيض من الحدبة التناسلية بين العمود الفقري، وهي الصلب، والأضلاع وهي الترائب، ثم تنزل الخصية في كيس الصفن خارج الجسم، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة. والنظر في الإنسان كيف بدأ من نطفة تستقذرها الفطر السليمة، ويستهجنها الحس السامي، ثم كيف تعبر بهذه الأطوار خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ثم كيف {نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً}(٤).

إن الناظر المتأمل في هذه الأطوار يرى حياةً وخَلقاً، ثم موتاً ثم حياةً وخلقاً طوراً من بعد طور، فيذهب من نفسه الريب، وينمحي الشك، وتثبت القدرة العلية في تصويرها وإبداعها، وينجلي البعث والنشور، ويسطع في القلب ذلك النور{أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}(٥). {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}(٦).

إن كل هذا الخَلق والتكوين الذي تصنعه القدرة العلية يتم في أضيق مكان وأظلم نقطة في العالم، إنها تتم في الرحم الذي قال الله تعالى في شأن صلة الأرحام: {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ}(٧) والتي يقول لها وقد أخذت بحقوى الرحمن: {لقد شققت لك اسماً من اسمى فمن وصلك وصلته ومن قطعك

(١) سورة آل عمران آية ٦
(٢) سورة الزمر آية ٦.
(٣) سورة الطارق آية ٧.
(٤) سورة الحج آية ٥.
(٥) سورة إبراهيم آية ١٠ .
(٦) سورة الطارق آية ٨ – ١٠ .
(٧) سورة النساء آية ١ .

قطعته}. وهذه الإشارة تذكر عقب الخلق والتكوين كما في مطالع سورة النساء حيث يقول الحق تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(١).

كيف جعل سبحانه النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم جعلها مضغة، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث، ولو كشف الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر لك في النطفة شيئاً بعد شيء من غير أن ترى المصور ولا آلة ولا قلماً، فهل رأيت مثل ذلك؟ !! {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}(٢).

ويُروى أن سيدنا عمر بن الخطاب لما سمع صدر آية (المؤمنون) إلى قوله تعالى:{خَلْقًا آخَرَ} قال: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}(٣)، فقال رسول الله ﷺ هكذا نزلت".

٢- رزق ابن آدم فى سبع: ويروى أن عمر رضوان الله عليه سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا: الله أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك و تعالى خلق السمواتِ سبعاً والأراضين سبعاً، وخَلق بن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر رضي الله عنه: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام التي لم تجتمع شئون رأسه. وهذا الحديث بطوله في مسند أبي شيبة.

فأراد ابن عباس خلق ابن آدم من سبع بهذه الآية الواردة في سورة "المؤمنون" وبقوله: جعل رزقه في سبع، قوله تعالى: {فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا

---

(١) سورة النساء آية ١ .

(٢) سورة الزمر آية ٤ .

(٣) سورة المؤمنون آية ١٤ .

وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}(١)، السبع منها لابن آدم، والأب للأنعام. وقيل: القضب والأب للأنعام، والأنعام هي من أعظم رزق ابن آدم.

٣- الخلق من سلالة سلت من كل بقعة[٢]: والحق عز سلطانه حين يذكر يوم (بطن الأم) في كتابه، إنما ليُذَكِر أحبابه بقدرته وعظيم نعمه عليهم، فعرفهم أصلهم لئلا يعجبوا بفعلهم، لقد خلقهم من سلالة سلت من كل بقعة، فمنهم من طينته من جردة (أرض لا نبات فيها)، أو من سبخة (فيها ملح ونز ولا تكاد تنبت)، أو من سهل أو من وعر، ولذلك اختلفت أخلاقهم. كذلك بسط عذرهم عند الكافة، فإن المخلوق من طينٍ وماء مهين ماذا ينتظر منه؟! هم من تربة، والفصل للقربة(٣).

قدرته عظيمة علية، قطرة أجزائها متماثلة، ونطفة أبعاضها متشاكلة، ثم جعل بعضها لحماً، وبعضها عظماً، وبعضها شعراً، وبعضها ظفراً، وبعضها عصباً، و بعضها جلداً، وكل جزء بهيئة مخصوصة، وكيفية معلومة، ثم الصفات فوق ذلك، فسمع وبصر، وفكر وغضب، وقدرة وعلم وإرادة، وحقد وجود، ويتقاصر عنها الوصف، هيأهم لأحوال عزيزة يظهرها عليهم بعد بلوغهم. فقوم في ظل العبودية، وقوم في تحرر من رق البشرية، وآخرون حققهم بصفات الصمدية {فَتَبَارَكَ اللَّهُ احْسَنُ الْخَالِقِينَ}(٤) سوى وأنشأ أحسن المخلوقين في أحسن تقويم.

٤- التصوير في الأرحام[٥]: قال تعالى:{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(٦) أي: يجعلكم في صورة بعد صورة، حتى تقوموا في أحسن تصوير صورة له سبحانه، فمن نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، ثم كسا العظام

---

(١) سورة عبس الآيات ٢٧ – ٣١ .

(٢)الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٥٥

(٣) أى أنه مع كونهم من تراب إلا أن الله تعالى فصلهم عن أصل خلقتهم الترابية الظلمانية، وجملهم بحقائق جمالية وصفات ربانية ليقربهم إليه سبحانه، وذلك معنى (الفصل للقربة).

(٤) سورة المؤمنون آية ١٤ .

(٥) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٥٦

(٦) سورة آل عمران آية ٦٦ .

لحما، بياناً لعجائب قيوميته التي قوّمت تلك الأطوار. {فِي الْأَرْحَامِ كيف يَشَاءُ} الجار والمجرور متعلق بـ: يصور، والأرحام: جمع رحم؛ والرحم معلوم، وهو مأخوذ من الرحمة، لأن به يحصل التعاطف والتراحم والتواد، {كَيْفَ} ظرف للتصوير، أو حال منه، أي أن تصوير العبد في بطن أمه معمول للمشيئة، فقد يشاء أن يكون أبيض، أو أسود، أو أحمر، أو حسناً أو قبيحاً، أو شقياً، أو سعيداً، أوغنياً، أو فقيراً، بحسب مشيئته، كما خصصته إرادته في حضرة علمه. وقد ورد أن الملك يقبض النطفة في يده وينادي ربه فيقول: مخلقٌ أو غير مخلق؟ ما عمره؟ وما رزقه؟ أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله تعالى فيه بما يشاء، وفي تلك الآية إشارة إلى أن العبد يجب عليه أن يجاهد نفسه كمال المجاهدة، لينال رضا الله عنه برضاه عن الله، فإن أعظم مقام عند الله تعالى هو مقام الرضا عن الله.

وأرى أن ما ذكره الإمام أبو العزائم عن عالم الأرحام يدعونا إلى مزيد من النظر والتفكر فى هذا الوطن الذى قضى فيه كل إنسان منا أياماً وشهوراً، وكيف لا ينظر وقد دعانا الله تعالى أن ننظر فقال:{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} ألم يُخلق من ذلك الماء المهين الذي وصفه الله بقوله: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ* فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}(١)، فإن ذلك الماء المستقذر التي تعافه النفوس وتنفر منه الطباع قد أودع الله فيه من العناصر والحيوانات الدقيقة الحية وأعد له من الأسباب ما يجعله بشراً سوياً وإنساناً مفكراً. يصف الإمام ﷺ هذا الماء المهين قائلاً(٢):

ماءٌ مَهينٌ في قرارٍ مظلمٍ   صاغتهُ قدرةُ ذي الجلالِ العالِمِ
يتنقلُ الماءُ المهينُ تنوعاً   حتى رَقى بتناسبٍ ومعالمِ
وتجملت تلكَ الحقيقةُ ظاهراً   بقوى تناسبها بفضل منعم

---

(١) سورة المرسلات الآيات من ٢٠: ٢٣

(٢) طاهر مخاريطه (أيام الله) مرجع سابق، ص١٠٧

في هيكلٍ كَمُلَــت معانيـــــهِ يَــرَى   بالسمعِ والأبصـــارِ ثُــمَ تكلّـــــمِ
جُليت بهِ أســـرارُ غيــبٍ طُلســمت   وبدى بهِ رمـــزُ الخفــا للفاهِـــــمِ
خفيت معاني القــدسِ فيـــهِ لغيبـــهِ   عن أفقِ مصدرهِ لكـــونٍ مظلـــمِ

لينظر الإنسان إلى ذلك الماء الدافق (المني) الذي يخرج من جميـــع أجـــزاء البدن فيأخذ من كل عضو انفصل منه خاصة تجعله مستعداً لأن ينشأ منه مثـــل ذلك العضو. ثم ليتأمل في الأطوار التي مرت به حتى صـــار إنســـاناً كـــاملاً: فالمني أبيض اللون، ينقلب إلى علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم تنقلب العلقـــة مضغة (قطعة لحم على قدر ما يمضغ)، ثم تنقلب المضغة عظاماً دقيقة متشابهة وهي مقسمة إلى عروق وأعصاب وأوتار ويابس ولين وقد ارتبط بعضها ببعض أقوى رباط وأمتنه، ثم كسيت تلك العظام لحماً يحفظها مما قد يـــؤثر فيهـــا، ثـــم صورها فأبدع تصويرها وأحسن خلقها، فأودع فيها من الخواص ما تمس إليـــه حاجة الإنسان في حياته من شم ولمس وذوق وسمع وبصر، وأوجد فيهـــا مـــن المنافذ ما لا بد منه في تلك الحياة، وقد ركب كل جزء من الأجزاء على نظـــام بديع محكم وترتيب دقيق معجز، وجعل لكل عضو وظيفة يؤديها ينتفع بها بـــاقي الأجزاء، وجعلها جميعا متضامنة في المنافع والمضار إلى غير ذلك مما هو في علم التشريح أحسن بيان[1]. فليسأل الإنسان نفسه من الذى سواه ومن الذى فـــى ظلمة الأحشاء قد والاه؟. يتساءل الإمام هذا السؤال قائلاً[2]:

يَٰأَيُّهَا ٱلْمَاءُ ٱلْمَهِينُ مَنِ ٱلَّذِي سَوَّاكَ؟!   وَمَنِ ٱلَّذِي فِي ظُلْمَةِ ٱلأَحْشَاءِ قَدْ وَالاَكَ؟!
يَانُطْفَـــةً بِقَرَارِهَـــا قَـــدْ صُـــوِّرَتْ   مَـــنْ ذَا ٱلَّـــذِي بِحَنَانِـــهِ أَنْشَـــاكَ؟!
يَاصُورَةً مِـــنْ حُسْـــنِهِ قَـــدْ جُمِّلَـــتْ   مَـــنْ ذَا ٱلَّـــذِي بِجَمَالِـــهِ حَـــلاَّكَ؟!
يَٰأَيُّهَـــا ٱلإِنْسَـــانُ صِـــرْتَ مُقَرَّبًـــا   مَـــنْ ذَا ٱلَّـــذِي بِشُـــهُودِهِ رَقَّـــاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّذِي بِـــ﴿أَلَسْتُ﴾ أَسْمَعَكَ ٱلنِّدَا   وَمَـــنِ ٱلَّـــذِي لِوِصَـــالِهِ نَـــادَاكَ؟!

(١) طاهر مخاريطة (أيام الله) مرجع سابق، ص١٠٨ ، ١٠٩
(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٦٤٨٤، ج٧

وَمَنِ ٱلَّذِي تَعْصِي وَيَغْفِـرُ دَائِمًـا؟! وَمَـنِ ٱلَّـذِي تَنْسَـىٰ وَلاَ يَنْسَـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّـذِي يَـدْنُو إِلَيْـكَ بِفَضْـلِهِ وَإِذَا سَـأَلْتَ جَنَابَـهُ أَرْضَـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّذِي عِنْدَ ٱلشَّـدَائِدِ يُقْصَـدَنْ؟! وَمَـنِ ٱلَّـذِي إِنْ تَسْـأَلَنْ لَبَّـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّذِي مَنَحَ ٱلْجَمِيـلَ بِفَضْـلِهِ؟! وَمَـنِ ٱلَّـذِي بِتَلَطُّـفٍ أَحْيَـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّذِي شَقَّ ٱلْعُيُونَ فَأَبْصَـرَتْ؟! وَمَـنِ ٱلَّـذِي بِظُهُـورِهِ أَعْـلاَكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّـذِي غَـذَّاكَ مِـنْ نَعْمَائِـهِ وَمِـنَ ٱلْكُـرُوبِ جَمِيعِهَـا أَنْجَـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلْمُجِيـبُ إِذَا سَـأَلْتَ بِسُـرْعَةٍ وَإِذَا طَلَبْـتَ وِدَادَهُ أَعْطَـاكَ؟!
وَمَنِ ٱلَّذِي كَشَفَ ٱلْحِجَـابَ تَـوَدُّدًا حَتَّـىٰ رَأَتْ أَنْـوَارَهُ عَيْنَـاكَ؟!
وَمَـنِ ٱلَّـذِي مَـلأَ ٱلْفُـؤَادَ بِحُبِّـهِ وَبِقُرْبِـهِ عِنْـدَ ٱلصَّـفَا نَاجَـاكَ؟!
وَمَـنِ ٱلَّـذِي أَوْلاَكَ نُـورَ يَقِينِـهِ وَبِـذِكْرِهِ وَشُـهُودِهِ صَـافَاكَ؟!
فَكِّـرْ تَـرَاهُ ظَـاهِرًا بِجَمَالِـهِ مُتَنَـزِّلاً وَهْـوَ ٱلَّـذِي وَالاَكَ

٥- من أسرار التجلى فى وطن التصوير: والتجلي في عالم بطن الأم لا يُدركه عقل ولا يصل إليه واصل بفكر محدود، ويكفي أن نعلم أن عالم بطن الأم هو عالم الخلق والتصوير والتجليات في أسمى مراتبها. ومن قرأ {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}(١) احتاج إلى الخبير القرآني الذي يكاشفه بماء التكوين الذي تعرش عليه الأسماء بتجلياتها والصفات بتنزلاتها.

فى هذا الوطن تجتمع الحضرة الأسمائية الأكملية الممثلة لأسماء حضرة الحق كلها، ولكل اسم عمل في ماء التكوين، فتجليات اسم الخلاق والبارئ والمصور والسميع والبصير والمتكلم والحي والقادر والمريد والعالم والرزاق والمحيى والمميت ..الخ الأسماء - لأن الإنسان هو مظهر لكل هذه الأسماء- فيغطي نور تجلي هذه الأسماء هذه النطفة الصغيرة في نظر العين والجامعة لكل الحقائق في نظر أهل اليقين، وتبدأ دورة الخلق في رحم الأم. يقول الإمام أبو

(١) سورة هود آية ٧

العزائم(١): فتعرش الأسماء على ماء التكوين في عالم الأرحام الذي هو رمز الرحمن، وهذا مراد قول الحق {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}(٢)، وقوله تعالى {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، وهنا نسأل: هل كان عرش ربنا على الماء في نهر أو بحر من البحار أو محيط من المحيطات؟ و{كان} في القرآن تشير إلى البداية والنهاية {وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}(٣) أي كان الله ولم يزل غفوراً رحيما، كان ولم يزل عرشه على الماء، ولكن الله في هذه الآية يعلل وجود عرشه ﷻ على الماء بقوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} والإبتلاء هنا بظهور الأحسن عملا. وعلى هذا فوجود العرش على الماء هو لأجلنا نحن ليبلونا أي يختبرنا أيُنا أحسن عملا. ولذلك كشف الإمام عن هذه الحقائق وأجلى هذا السر في الإنسان فقال(٤):

عَلىَّ نَعَم عرشُ التَجَلِّى بِىَ انجلت ... معانيهِ للأرواحِ لاحَ مَكِينا
علىَّ لأنى مظهرٌ لصفاتهِ ... رأت غيبَهُ الأملاكُ كانَ مَصونا
على الماءِ كانَ العرشُ والماءُ رتبتي ... لقد كنتُ كنزَ العرشِ والمكنونا
ولولاىَ لا عرشُ استواءٍ يلوحُ فى ... عوالمِ أعلى قد يلوحُ مبينا
معانى صفاتِ الحقِّ لاحَت جليةً ... بسدرتهِ تُجلى لنا تأمينا
عجيبٌ على الماءِ الطَهُورِ ظُهُورُهُ ... عَلَىَّ استوى الرحمنُ ذُقهُ أمِينا
وقبليَ لا ماءٌ ولا عَرشَ فادَّكِر ... عليَّ لقد أخفى صُوًى و عيونا
فلم تدركَنهُ الروحُ جلَ جلالهُ ... وقد شاهَدَتهُ الروحُ فيَّ يقينا
على الماءِ كانَ العرشُ رمزاً يشيرُ لى ... إذا فُكَ هذا الرمزُ لاحَ مبينا

ثالثاً: وطن الدنيا: هو الوطن الثالث الذى يتوسط أوطان الإنسان، فأهل الإيمان يعلمون يقيناً أن وطن الدنيا مرحلة ليست الأولى ولكن سبقها وطنان

---

(١) طاهر مخاريطه (أيام الله) مرجع سابق، ص٩٩

(٢) سورة طه آية ٥

(٣) سورة النساء آية ٢١

(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٥٩٩٣

ويتلوها وطنان، وأن الرُجعى إلى الله والمنتهى إليه سبحانه، وأن مرحلة الـدنيا هي المرحلة الوسطى، وعلى قدر ما يوفق فيها العبد لصالح العمل وعمل الصالح – بمفهومه الواسع– تكن منزلته عند ربه في المراحل التي تليها، وهي مع قصرها إلا أن المستقبل اللانهائي يتوقف عليها، وهي المرحلة التي بعث الله تعالى فيها أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

١– الدنيا بالنسبة للإنسان:[هى مدة بقاء النفس فى الجسد، إلى وقت إفتراقها الذى يسمى الموت][1].

٢– الإخراج من عالم الأرحام (الميلاد): وتبدأ مرحلة الدنيا بالنسبة للإنسان من لحظة خروجه من رحم أمه، حيث يخرج كما وصفه القرآن:{والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً}[2]، ثم أعطاه الله بعد إخراجه وسائل المعرفة الحسية والمعنوية، فقال تعالى:{وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون}، فإذا خرج الطفل من بطن أمه رأيناه يستقبل الدنيا صارخاً باكياً، وصحيح أن للبكاء فوائد صحية بمجرد الولادة، ولكنه يلفتنا إلى معنى آخر، أن حقيقة الإنسان تعلم أنها خرجت من وطن الراحة والتشريف (الرحم) إلى وطن الشقاء والتكليف(الدنيا) فينفعل الإنسان باكياً، مع أن من حوله يفرحون، وعلى العكس من ذلك فى لحظات النهاية.. فمن حوله يبكون ويتلقون التعازى، وحقيقة الإنسان الروحانية فرحة مستبشرة بلقاء الله.

٣– مراحل عمر الإنسان فى الدنيا: وتنقسم إلى ست مراحل هى:

أ– مرحلة المهد: وقد ورد لفظ المهد في المعجم الوجيز بمعنى السريرِ يُهيَّأ للصبى، ويُوطَّأ لينامَ فيه، ومهَّد بمعنى "وطَّأ وسهل"، المهد: اسم للمضجع الذي يهيَّأ للصبي في رضاعِه، وهو في مهده الأصل مصدر مهده إذا بسطه وسواه.

---

(١)الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٢٣١

(٢) سورة النحل آية ٧٨

وجاء في تفسير قوله – تعالى–: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}(١)؛ أي: كيف تُحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بيت مخض وزبده؟

من خلال ذلك نرى أن مرحلة المهد تمتدُّ منذ الولادة حتى الفطام، أو هي مدة الرضاعة؛ حيث يُبسَط ويُهيَّأ للصبي فيها حتى يشد عوده ويستطيع الحركة والأكل مما على الأرض.

ب– مرحلة الصبا: وهى من المهد إلى ما قبل البلوغ، وقد ورد لفظ الصبا في المعجم الوجيز بمعنى الصغر والحداثة، وهو من "صبا فلان صبوة"، بمعنى مال إلى اللهو، وإليه حنَّ وتشوَّق، أما الاسم الصَّبي فهو الصغير دون الغلام، أو مَن لم يُفطَم بعدُ، والصَّبية والصِّبيان هو الناشئ الذي يُدرَّب على المهنة بالعمل والمحاكاة، قال – تعالى–: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}(٢).

قال صاحب تفسير الوسيط في تفسيره لهذه الآية:

يعني صبيًّا لم يبلُغِ الحُلم، وقد أورد القرطبي قولاً لابن عباس في تفسيره لهذه الآية: "مَن قرأ القرآن قبل أن يحتَلِم فهو ممَّن أُوتِي الحكم صبيًّا".

وقال الطبري: وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال.

وعند الفقهاء: الصبي ما دون الحُلم، لحديث عائشة – رضي الله عنها – عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "رُفِع القلم عن ثلاثٍ، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقِلَ".

ج– مرحلة الفُتوَّة: وتمتدُّ هذه المرحلة من الاحتلام حتى مرحلة الكهولة.

وقد جاء في الوجيز: "الشباب: بين المراهقة والرجولة، والفتى: الشابُّ أول شبابه بين المراهقة والرجولة – والخادم.

---

(١) سورة مريم آية ٢٩

(٢) سورة مريم آية ١٢

وفي القرآن الكريم: {قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا}(١).

وقد قال الله تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}(٢).

وإذا أخذت أقوال بعض المفسرين في الفتية ستجد أنها مرحلة الشباب، أو ما بعد الإحتلام، فقد قال ابن كثير: "الفتية جمع فتى جمع تكسير، وهو من جموع الفتية، ويدل لفظ الفتية على أنهم شباب لا شيب. وفى تفسير الجلالين: "الفتية جمع فتى وهو الشاب الكامل".

د- مرحلة الكهولة: يصير الفتى كهلاً عندما تكتملُ قوَّته البدنية والعقلية؛ أي: هي مرحلة الاكتمال والرشد. وفي المعجم: "الكهل: مَن جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين".

قال تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}(٣).

يقول الإمام القرطبي: "الكهل: بين حال الغلومة وحال الشيخوخة".

وفي تفسير البغوي: "العرب تمدحُ الكهولة؛ لأنها الحالة الوسطى في استحكام السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة". وقد أورد البغوي في تفسيرِه لهذه الآية قولاً لابن عباس، قال: "أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالتِه ثلاثين شهرًا ثم رفعه الله إليه".

هـ- مرحلة الشيخوخة: وتمتدُّ هذه المرحلة ما بين الكهولة والهرم.

وفي المعجم الوجيز: شاخ الإنسان شيخًا وشيخوخة: أسن، والشيخ: مَن أدرك الشيخوخة، وهي غالبًا عند الخمسين، وفوق الكهل ودون الهَرِم.

بعد الانتهاء من مرحلة الكهولة يدخل الإنسان في مرحلة جديدة من النمو، ومن الملاحظ أن الإنسان في هذه المرحلة يضعُفُ عن القيام بما كان يقوم في المرحلة السابقة، ويستمرُّ الضعفُ حتى يصل إلى الوفاة، وهذه من حكمة الله في

---

(١) سورة الكهف آية ٦٢

(٢) سورة الكهف آيه ١٠

(٣) سورة آل عمران آية ٤٦

خلقه أن كلَّ شيء إذا تم يبدأ في الانتقاص من حيث بدأ، يقول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}(١).

وقال أيضًا: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}(٢)؛ أي إن هذه المرحلة تبدأ بعد الأربعين.

و- مرحلة الهرم: ورد في الوجيز: هرم الرجل هرمًا؛ أي: بلغ أقصى الكبر وضعف، فهو هرم.

يقول الإمام الشنقيطي في أضواء البيان: قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}(٣)، يُبيِّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنهم بعد أن أنشأهم خلقًا آخر فأخرج الواحد منهم من بطنِ أُمه صغيرًا، ثم يكون محتلمًا، ثم يكون شابًّا، ثم يكون كهلاً، ثم يكون شيخًا، ثم هرمًا، أنهم كلهم صائرون إلى الموت من عُمِّر منهم ومَن لم يُعَمَّر.

وورد عن سيدنا ابن عبَّاس فى قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}(٤)؛ يعني: ننقله من حال إلى حال؛ أي: خرج طفلاً، ثم نشأ صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًّا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم هرمًا".

ومن الجدير بالذكر أنه ليس هناك حدود زمنية فاصلة بين هذه المرحلة؛ لأن هناك فروقًا وظروفًا ومؤثرات قد تختلف من فرد لآخر، ومن بيئة إلى أخرى، كل حسب ما يسره الله له.

٤- بداية التكليف: يسمى الإمام ﷺ وطن الدنيا بوطن التكليف، أى إفعل ولا تفعل، ولأن الإنسان أتى إلى الدنيا لا يعلم عنها شيئاً، لذلك أوجد له فترة زمنية

---

(١) سورة غافر آية ٦٧

(٢) سورة الأحقاف آية ١٥

(٣) سورة المؤمنون الآيتين ١٥، ١٦

(٤) سورة المؤمنون آية ١٤

محددة حتى يتأهل فيها للدنيا ولمرحلة إكتمال عقله، فلا يكلف الشرع طفــلاً ولا صبياً ولكن يوجهنا النبي ﷺ إلي تدريب الصبيان على الصــلاة للتعــود عليهــا وعلى ارتياد المساجد، كما فى قوله ﷺ: "علموا الصبي الصلاة ابن سبع ســنين، واضربوه عليها ابن عشر"(١). والتكليف الحقيقي الذي يُثابُ المرء فيه ويعاقب لا يكون إلا عند بلوغ الحُلم، والتكليف لا يقصد بــه مجــرد الطقــوص التعبديــة المعروفة فقط ولكن التكليف يشــمل جوانــب العقيــدة، والعبــادة، والمعاملــة، والأخلاق.

٥- انواع الحياة: يبين الإمام فى تفسير"أسرار القرآن جــــ ٥" أنــواع الحيــاة بالنسبة لكل انسان فيقول: [اعلم يا أخي أيدنى الله وإياك بروح منه؛ أن الله يبــدأ خلق الإنسان بحياتين قبل أن ينفخ فيه الروح، وتسمى الحيــاة الأولــى: الحيــاة الكامنة، وتسمى الحياة الثانية: الحياة النامية، وقد بينها الله جل جلاله بقوله:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ}(٢) هذه الحياة الأولى، وقوله:{ثُمَّ جَعَلْنَــاهُ نُطْفَــةً فِي قَرَارٍ مَّكِين ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْــغَةً فَخَلَقْنَــا الْمُضْــغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}(٣) وهذه هي الحياة الثانية، والمتأمل في كلام الجليل يعلم منه بالدليل أن الله بدأ خلق الإنسان من الطين وهو يعلم بكيفية وجوده فــي الطين، كما قال جل شأنه:{هُوَ أَعْلَمُ بِكُــمْ إِذْ أَنشَــأَكُم مِّــنَ الْــأَرْضِ}(٤) تمهيــداً واستعدادا لقبول الحياة الثانية التي هي حياة النماء من النطفــة إلــى أن يكســوه لحما.

ثم تأتى بعد هاتين الحياتين: الحياة المتحركة بنفخ الــروح فيــه، وعلــم الله بالإنسان حين أنشأه من الأرض وكذلك وهو في بطن أمه دليل على وجوده، لأن الله نفى عن علمه غير الموجود وهو الولد والشريك فقال عز وجل:{قُلْ أَتُنَبِّئُــونَ

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الجنائز) ١٢٧٠

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢

(٣) سورة المؤمنون آية ١٣،١٤

(٤) سورة النجم آية ٣٢

اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}(١) لأنه لا وجــود لولــد لــه ولا شريك لله سبحانه وتعالى، ومن تأمل قول الله تبارك وتعالى: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُــونَ لِلَّهِ وَقَارًا۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}(٢) يعلم منه الإشارة إلى هاتين الحياتين السابقتين على نفخ الروح في الجنين].

٦- **أشكال الحياة فى الدنيا:** ويرى الإمام أن حياة الإنسان فى وطن الدنيا تأخــذ أشكالاً أربعة[٣]:

أ- **الحياة الإبليسية:** هي التي تظهر في الهمم والإرادات[٤]، فإذا ظهــرت فــي إنسان فاجتنبه، وإن أثَّرت همته وإرادته في العالم، فإن الله تعالي قد يستدرج من يشاء بما يشاء وقد ينطق بالحكمة ذو الحياة الإبليسية؛ لأنه يستمد مــن ســافلين النأي قال تعالى:{لينفق ذو سعة من سعتهْ}[٥]، فلا تغتر به.

ب-**الحياة الجسمانية:** هى التي تظهر بالحظ والشهوة[٦]، وإذا ظهــرت الحيــاة الجسمانية في الإنسان، فلا تعبأ بحسناته قال تعالي: {وقدِمنا إلي ما عَمِلــوا مــن عَمَلٍ فجعلناهُ هباءً منثورا}[٧].

ج- **الحياة الروحانية:** تظهر بالحال والمقال، فمتــى قامــت الحجــة علــى أن الإنسان في حياة روحانية فلا تؤاخذه بسيئاته قال تعالي: {أولئك الذين نتقبل عنهم

---

(١) سورة يونس آية ١٨

(٢) سورة نوح آية ١٩

(٣) الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٢١١، ٢١٢

(٤) أى تظهر هذه الحياة فى الهمم الرديئة، والإرادات الدنيئة كــ (الشر، والظلم، والتسلط، والكبر، والتملك، وغيرها)

(٥) سورة الطلاق آية ٧

(٦) أى لا يكون هم صاحب هذه الحياة إلا تحصيل حظه وشهوته، من مأكلٍ ومشرب، وملبس ومنكح، وسائر الشهوات.

(٧) سورة الفرقان آية ٢٣

أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون}[1].

د- **الحياة القدسية:** تظهر بالإشارات في أخفى الخفا من أنوار مجلى الـذات[2]، ومتى شهدت في رجل تلك الحياة فصَفِ له قلبك، وأمسـك عنـه لسـانك، وإن أنكرت أحواله، وأعماله بحسب مقامك، وإن لم تستطع أن تسلم له فاجتنبه، فـإن من حُرم الذوق والتسليم ربما وقع في الإعتراض، فأصبح غير راض عـن الله، ومن حُرم الرضا عن الله حُرم النفع بما حصَّل.

٧- **عمل الإنسان فى دار الدنيا:** أما فيما يختص بالعمل فى الدنيا فنجد الإمـام يؤكد على أهمية العمل واتقانه والسعى فى الأرض عملاً بقولـه تعالى:{فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور}[3]، يقول الإمام ﷺ: [والعمل في الدنيا واجب لابد منه ليس هو للدنيا، وإنما يكون للآخرة، أولله سبحانه، وأعمال الـدنيا قد تقدم على غيرها من العبادات عند المقتضى، كالسعي على المعاش لمن عنده عائلة وأهل، فيكون له أجر أكثر من أجر العابد التارك للتكسب، لأن مقام التوكل على الله سبحانه لا ينافيه العمل للكسب، فرب عامل في شئون الدنيا أقرب إلـى الله سبحانه -لحسن توكله عليه- من عابد مشغول القلب بمعاشه، لصـفاء قلـب الأول وطمأنينته بما يسره الله سبحانه له من الرزق، وبسطه له من الخير، وقـد يكون إصلاح شؤون الدنيا بعمل المنافع العامة، والتفات المسلمين إلـى العنايـة بحفظ دنياهم ونفوسهم بالأموال والصنائع والزراعة والتجارة والعلـوم الكونيـة التي يعدون بها العدد والعدد لتجديد السنة، وإعلاء الكلمة، وإذلال الكفر وأهله.

واعتزاز المسلمين وتمكينهم في الأرض بالحق عند الله سبحانه من أفضـل الأعمال المقربة لجنابه العلي، مع النية الخالصة والرغبة فيما عنـده سـبحانه،

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٦

(٢) (مجلى الذات) هو المظهر الأكمل لتجليات معانى أسماء الذات الإلهية، وهو رسول الله ﷺ، فيكون صاحب هذه الحياة متشبهاً بحضرته فى كل أحواله.

(٣) سورة تبارك آية ١٥

وكل زمان له مقتضيات بها تفضل بعض الأعمال على بعض، هذا بالنسبة لغير الفرائض اليومية والواجبات المفروضة تعبداً لله سبحانه، واستحضارا لعظمتــه، فإن شعب الإيمان تتفاوت بحسب مقتضى الوقت، وقد يعمــل العامــل عمــلا لا يقتضيه الوقت فيرد عليه و ربما ضره، كما يفعل الجاهل الذي يجمــع الأمــوال ويتساهل بصحته، مع أن المحافظة على الصحة أولى من جمع المــال، وإنمــا يجمع المال للمحافظة على الصحة، ونحن في زمان الواجب فيه العمل لإصلاح حال المسلمين مقدم على كل عمل، خشية من أن يتساهل كل فرد ويســعى فــي صالحه فيضيع فضل الجماعة، والله ﷻ يوفق الجميع لمــا فيــه ســعادة الــدنيا والآخرة](١).

وإذا تأملنا أيام حياة الإنسان مهما كثرت لوجدناها تنقسم إلى خمســة أيــام، يقول الإمام:[ٱلأَيَّامُ خَمْسَةٌ: يَوْمٌ مَفْقُودٌ: وَهُوَ يَوْمُكَ ٱلَّذِي فَاتَكَ مَعَ مَا فَرَّطْتَ فِيــهِ، وَيَوْمٌ مَشْهُودٌ: وَهُوَ يَوْمُكَ ٱلَّذِي أَنْتَ فِيهِ فَتَزَوَّدْ فِيهِ مِنَ ٱلطَّاعَاتِ، وَيَوْمٌ مَوْلُــودٌ: وَهُوَ غَدُكَ لاَ تَدْرِي هَلْ هُوَ مِنْ أَيَّامِكَ أَمْ لاَ؟، وَيَوْمٌ مَوْعُودٌ: وَهُوَ آخِرُ أَيَّامِكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَٱجْعَلْهُ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَيَوْمٌ مَخْلُودٌ: هُوَ يَوْمُ آخِرَتِكَ لاَ ٱنْقِضَاءَ لَهُ فَٱهْتَمَّ لَــهُ غَايَةَ ٱهْتِمَامِكَ فَإِنَّكَ إِمَّا فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ، أَوْ عَذَابٍ مُخَلَّدٍ](٢).

٨- **من دخل جنة الدنيا أُكرم بجنة الآخرة:** كما يرى الإمام أن الجنة جنتان جنة عاجلة وهى فى الدنيا، وجنة آجلة وهى فى الآخرة، فيقول:[الجنة معلومــة لغــة وشرعاً بينها القرآن المجيد، ولا خلاف بين المسلمين في الجنــة، وإن اختلــف بعض من لا ذوق لهم في أنها هل هي موجودة وأين مكانهــا؟ وهــذا الخــلاف مردود على أهله، لأن القرآن أثبت وجودها، وأثبت أنها في عليــين، وأن النــار في سجين، بدليل:{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}(٣) ثم قال:{إِنَّ الْــأَبْرَارَ لَفِــي

(١) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٥٩، ٦٠

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٤٩

(٣) سورة المطففين آية ١٨.

نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}(١) وقال سبحانه: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}(٢) ثم قال: {وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}(٣) وقد عَينت السُنَّة مكان الجنة في حديث الإسراء والمعراج، وقال تعالى:{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}(٤). والجنةُ جنتان، قال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}(٥) والجنتان: عاجلة، وهي لأهل مقام الإحسان، وآجله، وهي لهم ولأهل مقام الإيمان الذين فارقوا الدنيا على الإسلام، فالجنة العاجلة هي جنة الرضا عن الله تعالى، وهي جنة الشهود وطمأنينة القلب بذكر الله تعالى عند كل شأن من الشؤون، والكون كله جنة لأهل الرضا، وهم الذين تتقلب لهم الحقائق، لأنهم عند ربهم، قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}(٦) وقال:{أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}(٧).

وما تقول أيها المشتاق إلى الجنة العاجلة في قوم عند ربهم لهم ما يشاءون؟! أو تقول في قوم أعانهم الله تعالى، فجاهدوا فهداهم سبله، فرفعهم إلى مقام القرب حيث قوله: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}(٨) فمن جعل الله لهم المشيئة منحهم الملك الكبير، ومن جاهدوا فهداهم سبله تفضل عليهم بالنعيم فالجنة العاجلة جنة الأرواح التي تجردت من مقتضيات عناصرها، ففرت إلى الله بجاذبة عنايته، وجنة النعيم المقيم لمن خضعوا لسلطان الشريعة، فكانت الدنيا

(١) سورة المطففين آية ٢٢ – ٢٣.
(٢) سورة المطففين آية ٧.
(٣) سورة الأنفطار آية ١٤.
(٤) سورة النجم آية ١٣ – ١٥.
(٥) سورة الرحمن آية ٤٦.
(٦) سورة الأنبياء آية ٦٩.
(٧) سورة الشعراء آية ٦٣ .
(٨) سورة البقرة آية ١١٥ .

سجناً لهم، وإن صرفهم الله فيها أكمل التصريف في الكون، لأنهم تحت سلطان الشريعة في تصرفاتهم][1].

٩- وصف الإمام أبى العزائم للدنيا وأهلها: وقد وصف الإمام الدنيا فى تراثه النثرى والنظمى بكثير من الأوصاف، ومن خلال هذه الأوصاف نتعرف على نظرة الإمام أبى العزائم للدنيا، نذكر على سبيل المثال[2]:

أ- وصف الإمام للدنيا:

- ٱلدُّنْيَا: دَارُ ٱلتَّكْلِيفِ وَٱلتَّعْرِيفِ، وَهِيَ سُوقُ ٱلرِّبْحِ وَٱلْخُسْرَانِ، وُجِدَ فِيهَا ٱلإِنْسَانُ لِيَنْتَقِلَ مِنْهَا إِمَّا إِلَىٰ نَعِيمٍ مُقِيمٍ فِي جِوَارِ ٱلأَطْهَارِ، أَوْ إِلَىٰ ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ.
- ٱلدُّنْيَا: دَارُ تَعْرِيفٍ وَتَكْلِيفٍ، فَلاَ يَشْغَلْكَ عَنْ تِلْكَ ٱلْغَايَةِ ٱلْحُظُوظُ وٱلتَّصْرِيفُ، وَٱلتَّهَاوُنُ وَٱلتَّسْوِيفُ.
- لَمْ تُخْلَقِ ٱلدُّنْيَا لِنَنظُرَ إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا خُلِقَتْ لِنَنْظُرَ بِهَا إِلَى ٱلآخِرَةِ.
- ٱلدُّنْيَا: جَمَالٌ وَجَلاَلٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ، أَمَّا فِي ٱلآخِرَةِ: إِمَّا جَمَالٌ: وَهُوَ ٱلْجَنَّةُ، وَإِمَّا جَلاَلٌ: وَهُوَ ٱلنَّارُ.
- ٱلدُّنْيَا: خَمْرُ ٱلشَّيْطَانِ مَنْ شَرِبَهَا لَمْ يُفِقْ إِلاَّ بَيْنَ عَسَاكِرِ ٱلْمَوْتِ، نَادِمًا بَيْنَ ٱلْخَاسِرِينَ، قَدْ تَرَكَ لِغَيْرِهِ مَا جَمَعَ مِنْهَا، وَتَعَلَّقَ بِحَبْلِ غُرُورِهَا فَٱنْقَطَعَ، وَقَدِمَ عَلَىٰ مَنْ يُحَاسِبُهُ عَلَى ٱلنَّقِيرِ وٱلْفَتِيلِ وٱلْقِطْمِيرِ.
- ٱلدُّنْيَا: مَطِيَّةُ قُرْبٍ إِلَى ٱللَّهِ، أَوْ مَدَارِجُ بُعْدٍ عَنِ ٱللَّهِ.
- ٱلدُّنْيَا يُعَكِّرُ صَفَاءَهَا ٱلْمَوْتُ، وَيُكَدِّرُ هَنَاءَهَا ٱلزَّوَالُ وَٱلْفَوْتُ.
- ٱلدُّنْيَا: كُلُّهَا هُمُومٌ، فَمَا كَانَ فِي طَاعَةِ ٱللَّهِ فَهُوَ رِبْحٌ.
- ٱلدُّنْيَا: تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ.

---

(١)الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ٦٥، ٦٦

(٢)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦١، وما بعدها

– ٱلدَّارُ ٱلدُّنْيَا: فَانٍ نَعِيمُهَا، فِي عَنَاءٍ سَلِيمُهَا[1]، وَفِي شَقَاءٍ سَقِيمُهَا، وَفِي كَدٍ غَنِيُهَا، وَفِي كَرْبٍ فَقِيرُهَا، وَلاَ يَصْفُو عَيْشُهَا لِذِي مَالٍ، وَلاَ يَصْفُو صَفْوُهَا مِنْ شَوبِ ٱلْوَبَالِ.

– مَنْ لَمْ تَنْكَشِفْ لَهُ ٱلدُّنْيَا عَنْ حَقِيقَتِهَا وَقَعَ فِي بَلِيَّتِهَا.

– كُلُّ شَيْءٍ أَبَاحَتْهُ ٱلشَّرِيعَةُ فِي ٱلدُّنيَا فَهُوَ مِنَ ٱلآخِرَةِ.

– مَا مِنْ مَنْزِلَةٍ يَنَالُهَا ٱلإِنْسَانُ فِي ٱلدُّنْيَا إلاَّ وَتَمْتَزِجُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْكَدَرِ.

– ٱنْظُرْ إِلىٰ مَا دُونَكَ فِي ٱلدُّنْيَا تَشْكُرْ رَبَّكَ عَلَى نِعَمِهِ، وَٱنْظُر إِلَى مَا فَوْقَكَ فِي ٱلدِّينِ تَصِلُ إِلَىٰ مَقَامِ ٱلرُّوحِ ٱلأَمِينِ.

– مَادَامَتِ ٱلدُّنْيَا مُقْبِلَةً إِلَيْكَ، ٱجْتَهِدْ أَنْ تُؤَلِفَ ٱلنَّاسَ عَلَيْكَ.

– مَنْ عَرَفَ ٱلدُّنْيَا زَهِدَ فِيهَا، وَمَنْ عَرَفَ ٱلآخِرَةَ رَغِبَ فِيهَا، وَمَنْ عَرَفَ ٱللَّهَ آثَرَ رِضَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ فَهُوَ مِنْ دِيْنِهِ فِي غُرُورٍ.

وأرى أن هذه الكلمات تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل ولكن يضيق المجال بذلك. وقد أصدرت "دار الكتاب الصوفى" مؤخراً كتاباً بعنوان **(شرح الحكم من جوامع الكلم)** يتناول شرح بعض حكم الإمام أبى العزائم الموجودة فى كتاب **(من جوامع الكلم)**.

ب– وصف الإمام لأهل الدنيا:

– أَهْلُ ٱلدُّنْيَا: يَتَجَمَّلُونَ لِلسُّلْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، إِنْ بِٱلدِّينِ وَإِنْ بِٱلدُّنْيَا.

– أَهْلُ ٱلدُّنْيَا كَرُكَّابِ ٱلسَّفِينَةِ، يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ.

– بُخْلُ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا ضَنُّهُمْ بِٱلْمَالِ، وَبُخْلُ أَهْلِ ٱلآخِرَةِ ضَنُّهُمْ بِٱلنَّفْسِ عَلَى ٱللَّهِ.

– كَمَا لاَ يَنْظُرُ بَصَرُ ٱلْخُفَّاشِ نُورَ ٱلشَّمْسِ، لاَ يَنْظُرُ قَلْبُ مُحِبِّ ٱلدُّنْيَا نُورَ ٱلْحِكْمَةِ.

---

(١)السَّليم :الملدوغ (وسمى بذلك تيمُّنا بشفائه)

– ٱلذَّلِيلُ ٱلْحَقِيرُ: هُوَٱلَّذِي ينْشدُ مَلَذَّاتِ ٱلدُّنْيَا، وَمُتَعَهَا ٱلْحَرَامَ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ مُجَرَّدٌ مِنَ ٱلأَخْلاَقِ ٱلْفَاضِلَةِ، وَهُوَ دَائِمًا عَلَىٰ خَطَرٍ، تَقْتَلِعُ شَهَوَاتُهُ سَكِينَةَ نَفْسِهِ وَأَمْنَهَــا، كَمَا تَقْتَلِعُ ٱلْعَاصِفَةُ ٱلشَّجَرَةَ ٱلْوَاهِنَةَ مِنْ جِذْعِهَا.

وفى تفسير الإمام ﷺ لقوله تعالى: {قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبــون}[١] نجده يقول: إن من يعرف مكانته عند ربه وخلقه من النــور الربــانى وتأهيلــه ليكون فى مقعد صدق إلى جوار ربه يدرك أن الإنغماس فى حال المادة الدنيوية هو لعب ولهو وعبث وغفلة وأن الدنيا ما خلقت وسخرت له إلا لامتحان أشواقه ليُعرف هل يستحق أولا يستحق هذه المكانة العلية، والله سبحانه طــوال الوقــت يخاطب عيون وآذان عباده بالمظاهر التى يتجلى بها فى الــدنيا يــومئ إلــيهم الحقيقة لعلهم يفهمون أو يدركون أو يفيقون من حالة اللعب التى هم ســادرون[٢] فيها وهذا هو الشراب الطهور الذى يديره الله على خلقه.. فمــن فهــم الإشــارة وأدرك العبارة وفك الرموز وقرأ الرسالة صرخ هاتفا الله ..الله ..لا إلــه إلا الله وترك الكل فى خوضهم يلعبون فقد شهد حقيقته فى خفاء معالمه.

١٠- بدار الفناء يكون البقاء: قد يظن بعض من لم يتبصــر الأمــر جيــداً أن الشرع يذم الدنيا ويحض على تركها، ولكن لو أمعن النظر لوجد أن الــدنيا فــى مجملها لا تذم، إنما يذم منها ما ذمه الشرع الشريف، وما خلا ذلــك فهــى دار خلقها رب العالمين وجعلها لنا ممراً ولم يجعل لنا فيها مستقراً؛ فهى دار إبــتلاء وتمحيص واختبار، فلا يتسنى للإنسان أن يُعرض عنها، فإن فعل فقــد خــالف الشريعة، إنما جهاد كل إنسان فى أن يُخرج الدنيا من قلبه ويجعلها فــى يديــه، فاليد تعمل فى جلب الأرزاق، أما القلب فمتعلق بالرزاق. وإنى لأرى أن من أهم الأسباب التى تأخر بها المسلمون، وتخلف بها ركبهم عن ركب الحضارة، شيوع أن الإسلام يعتبر الدنيا، والحرص عليها، والكد فى تحصيلها، نقصاً فى التــدين،

---

(١) سورة الأنعام آية ٩١

(٢) سادرون أى: (تائهون)

وأن كمال الدنيا إنما هو فى التخفف منها والزهد فيها، والتفـرغ فيهـا للعبـادة، وهذه مغالطة كبيرة.

فالله لا يرضى من عباده أن يزهدوا فى الدنيا هذا الزهد العام المطلق، وأن ينقطعوا فى المساجد لعبادته ومناجاته، ولكن الحقيقة التى نغفل عنهـا أن العبـد يناجى فى حقله، ويناجى فى مصنعه، ويناجى فى متجره، ويناجى فى مجتمعـه، وكل تلك، مناجاه يسمعها الله، ويتقرب بها العبد لله. ومن هنا كان لزاماً على كل المصلحين، والوعاظ المرشدين أن يبذلوا جهودهم للقضاء على بقايا هذه الفكـرة الفاسدة التى توارثها الناس جيلاً بعد جيل، فأصبحوا أسرى للفهـم الفاسـد عـن حقارة الدنيا، وبالتالى العزوف عنها، وعن العمل فيها، فعطلوا أنفسهم وغيـرهم عن الكد والعمل، إلتماساً للرزق من السماء، فأصبحوا ومن ينحوا نحوهم عالـةً على هذا المجتمع.

يقول الإمام ﷺ موضحاً هذا المعنى: [ليس المراد بترك الأسباب في الـدنيا هو عدم العمل فيها، فلا تظن أن المذموم العمل في الـدنيا واكتسـاب الأمـوال والاجتهاد في عمل المصنوعات المفيده للدين، والمخترعات المعينـه لجماعـة المسلمين، والسعي في تقدم التجارات والزراعات، فإن كل ذلك مادمت لم تخرج فيه عن الوسط الشرعي ولم تقصد به إلا الخير، فإنك في هذا الحـال أيهـا الأخ المخلص لست من أهل الدنيا بل من أهل الآخره، وأنت في زراعتك وتجارتـك، قال تعالى: {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله}[١].

فاذا كان أهل التقوى المخلصون في عبادة الله يهملون الوجه الذي به حفـظ نصرة الدين وقوة أهله وإقامة حدوده وإذلال أعدائه، وذلك بالعمل النـافع فـي الدنيا وفي جمع الأموال لتكون خزناً لله وذلك بإتقان الصنائع والفنـون ولراحـة المسلمين من الأشرار، فمن الذي يقوم بالدنيا؟!!

(١) سورة النور آية ٣٧

أيقوم بها الذين يجمعونها لحظهم وهواهم، ويقوم بها المترفون الذين لا خلاق لهم، المنهمكون في الحظوظ والشهوات؟!، أو يقوم بها الفساق الذين هم أشر على المسلمين من أعدائهم؟ فتكون عوناً لهم بالمظاهرة والإنكار على أهل الحق ومعاداتهم والإعانه على أذيتهم وإذلالهم.

فالسالك حقاً من سلك على محجة الطريق وقام عاملاً لله، نافعاً عباد الله قدر ما وهبه من قوةٍ في الجسم، أو وسعةٍ في رزق، أو مزيةٍ من علم، أو فضل جاه].

ثم يقول ﷺ مبيناً خطورة ترك الأسباب:[مَنْ تَرَكَ ٱلأَسْبَابَ وَقَالَ: إِنَّهَا دُنْيَا، ٱحْتَاجَ إِلَى أَهْلِهَا، وَأَهْلُهَا عَبِيدٌ لَهَا، فَكَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِعَبِيدِهَا؟! قَالَ تَعَالَىٰ:{الذين إن مكناهم فى الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور}[١]، وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ ٱلأَرْضِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَٰلِكَ][٢]، ونحن نعلم جميعاً أن الدنيا دار فناء وبلاء، ولكن من خلال العمل والجد فيها، يصل الإنسان إلى النعيم فى دار البقاء، كما يقول الإمام ﷺ [٣]:

آهِ يَادَارَ ٱلْفَنَا فِيكِ ٱلْبَقَا ... وَرِضَا ٱللَّهِ وَفَوْزٌ بِٱللِّقَا
فِيكِ نُورُ ٱللَّهِ مُحْكَمُ آيَةٍ ... وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لِلتُّقَىٰ
فِيكِ مِنْهَاجُ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُصْطَفَىٰ ... سُلَّمٌ لِلْوَصْلِ سَهْلُ ٱلْمُرْتَقَىٰ
أَنْتِ رَوْضٌ لِلشُّهُودِ مُجَمَّلٌ ... قَدْ يَرَاهُ بِٱلصَّفَا مَنْ يُنْتَقَىٰ
فِيكِ أَنْوَارُ ٱلتَّجَلِّي أَشْرَقَتْ ... وَٱلطَّهُورُ بِحَانِهِ لِمَنِ ٱسْتُقِيَٰ
فِيكِ آيَاتٌ وَأَسْرَارٌ بِهَا ... حُظْوَةُ ٱلزُّلْفَىٰ نَعِيمٌ لاَ شَقَا

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن الإمام ينظر إلى وطن الدنيا أنها دارٌ بدايتها خروج من بطن الأم ونهايتها عودٌ إلى بطن الأرض، وما بينهما عمل وجهاد وإبتلاء واختبار للإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب.

---

(١) سورة الحج آية ٤١

(٢) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٨٤

(٣) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة رقم ٩٤٦٧، ج١٠، ص٣١٤

رابعاً: وطن البرزخ: البرزخ هو:[ما بين الدنيا والآخرة من وقت المــوت إلــى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ][1]، ووطن البرزخ كما يصفه الإمــام ﵁ هــو وطن الإنتقال، وهو يعنى إنتقال الإنسان إلى أول منزل من منازل الآخرة، وهــو المرحلة بين عالمي الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:{وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[2]. والبرزخ الذي تعنيه هذه الآية الشريفة ليس إنتقال الأبدان إلى القبــر الذي هو وعاء للأبدان، فقد لا يدفن فيه البدن.. فقد يُحرق البدن أو يَغرق، ولكن يقصد به إنتقال حقيقة الإنسان (الحقيقة الروحانية) التي هو بها إنسان لتكــون – وعلى الفور– في العالم البرزخي. والعالم البرزخى هو عــالم كعــالم الأرحــام وعالم الدنيا، له قوانينه التى تحكمه، وتحيا فيه حقيقة الإنسان حيــاة مــن نــوع خاص، لها مقتضيات معينة، وتبدأ هذه الحياة بمجرد الموت.

أما عن شكل هذا العالم فقد ورد أن عالم البرزخ هو الصور المــذكور فــى القرآن الكريم فى قوله تعالى:{فإذا نفخ فى الصور} ومعلوم أن رسول الله صــلى الله عليه وآله لما سُئل عن الصور؛ ما هو؟ فقال:"هو قــرنٌ مــن نــورٍ ألقمــه إسرافيل" فأخبر المصطفى أن شكله شكل القرن، فوصف بالسعة والضيق، وقــد جاء فى الفتوحات المكية[3]:

إعلم أن سعة هذا القرن فى غاية السعة، لا شيئ من الأكوان أوســع منــه، ....الخ؛ وأما كون القرن من نور، فإن النور سبب الكشف والظهــور، إذ لــولا النور ما أدرك البصر شيئاً،...؛ فلتعلم أن الله –سبحانه– إذا قبض الأرواح مــن الأجسام الطبيعية، حيث كانت، والعنصرية؛ أودعها صوراً جسدية فى مجمــوع هذا القرن النورى. فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت، فى البرزخ من الأمور، إنما يدركه بعين الصورة التى هو فيها فى القرن، وبنورها. وهو إدراك حقيقــى، ومن الصور هنالك ما هى مقيَّدة عن التصرف، ومنها ما هى مطلقــة، كــأرواح

---

(١) (مختار الصحاح) للرازى، ط المطابع الأميرية، ١٩١٦م، ص٤٨

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٠

(٣)الشيخ محى الدين بن عربى (الفتوحات المكية) ج٢، ص١٨٨

الأنبياء كلهم، وأرواح الشهداء. زمنها ما يكون لها نظرٌ إلى عالم الدنيا، فى هذه الدار. ومنها ما يتجلى للنائم فى حضرة الخيال التى هى فيه، وهو الذى تصـــدق رؤياه أبدا، وكل رؤيا صادقة ولا تخطئ، فإذا أخطأت الرؤيا، فالرؤيا ما أخطأت ولكن العابر الذى يعبرها هو المخطئ، حيث لم يعرف المراد بتلك الصـــورة، ألا تراه صلى الله عليه وآله ما قـــال لأبـــى بكـــر حـــين عبـــر رؤيـــا الشـــخص المذكور"أصبت بعضاً وأخطأت بعضا".

وكذلك قال للرجل الذى رأى فى النوم قد ضربت عنقه، فجعل رأسه يتدهـــده، وهو يكلمه، فذكر له رسول الله ﷺ "أن الشيطان يلعب به" فعلـــم رســـول الله ﷺ صورة ما رآه وما قال له "خيالك فاسد" فإنه رأى حقاً ولكن أخطـــأفى التأويـــل، فأخبره ﷺ بحقيقة ما رآه ذلك النائم، وكذلك قوم فرعون يعرضون على النار فى تلك الصورة غدوة وعشية ولا يدخلونها، فإنهم محبوسون فى ذلك القرن، وفـــى تلك الصورة ويوم القيامة يدخلون أشد العـــذاب، وهـــو العـــذاب المحســـوس لا المتخيل الذى كان لهم فى حال موتهم بالعرض أ.هـــ

وكل إنسان فى البرزخ مرهونٌ بكسبه محبوسٌ فى صور أعمالـــه، إلـــى أن يبعث يوم القيامة من تلك الصور، فى النشأة الآخرة.

١- **تعريف الموت:** اختلف العلماء فى تعريفه، فمنهم من عرفـــه لغـــةً فقـــال: [الموت: الخمود، يقال ماتت النار أى خمدت](١)، وعرفـــه بعضـــهم اصـــطلاحاً فقال:[الموت هو عبارة عن خمود النار الغريزية التى يكون بها سبب الحياة فـــى دار الدنيا](٢)، وعرفه الإمام أبو العزائم بأكثر من تعريف نذكر منها:
[ٱلْمَوْتُ: هُوَ مُفَارَقَةُ كَوْنِ ٱلْفَسَادِ، وَٱلرُّجُوعُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْبَقَاءِ، وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلرِّحْلَـــةِ، وَبِدَايَةُ ٱلإِتِّصَالِ بِعَالَمِ ٱلْبَرْزَخِ](٣).

---

(١) الإمام الزمخشرى (أساس البلاغة) ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٤٠٤

(٢) عبد الكريم الجيلى (الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر) ط مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٨٥

(٣) الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦٧

[ٱلْمَوْتُ: هُوَ فَقْدُ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ فِي ٱلأَنْوَاعِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ،وَفَقْدُهُمَا مَعَ فَقْدِ ٱلنُّطْقِ وَٱلإِرَادَةِ فِي ٱلإِنْسَانِ](١).

[الموت: هو ترك النفس استعمال البدن، وهو بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وخلوها عنه في عالمها](٢).

وعلى هذا فالموت يعني المفارقة من مكان للحضور في مكان آخر؛ وهكذا رحلة الإنسان فى الخمسة أوطان، لا يلبث أن يمكث فى وطن حتى ينادى عليه بوجوب الرحيل عنه فعندما فارق عالم الروح –وطن ألست– لتتحد حقيقته الروحانية بالأمشاج في عالم بطن الأم، حينها أُعلن عن وفاته هناك بانتقاله، ولما اكتمل وجوده في عالم بطن الأم وهيأ الحق لحظة إخراجه وأتى إلى دنياه، أُعلن في عالم بطن الأم عن وفاته أي انتقاله من عالم الأرحام، وإذا أذن الله وحانت وفاته انتقلت حقيقته من عالم الدنيا إلى العالم البرزخي الذي هو أول منزل من منازل الآخرة. وعند الموت تخرج الحقيقة الروحانية من هيكلها وهو سكنها المؤقت، وكما دخلته في الخفاء في عالم بطن الأم تتركه أيضاً في الخفاء، لتعيش في برزخها لا تحكمها قوانين المادة .

٢- الموت هو القيامة الصغرى: ففيه تقوم قيامة العبد لقول النبي ﷺ: "من مات فقد قامت قيامته"(٣)، أما القيامة الكبرى فهى القيامة العامة {يوم يقوم الناس لرب العالمين}(٤)، وهي التي تتصل فيها الأرواح بأبدانها على الصورة الأخرى في النشأة الثانية.

٣- الموت يتعلق بالأجسام فقط: فالموت يقع على الجسم فهو المكون الوحيد من مكونات الحقيقة الإنسانية الذى خلق من الماء والتراب كما قال تعالى:{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ*أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ* نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ

(١) المرجع السابق، ص٢٦٧

(٢) الإمام أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) مرجع سابق، ص٥٥

(٣) رواه الطبرانى، والديلمى فى مسند الفردوس

(٤) سورة المطففين آية ٦

..} مشيراً إلى هذا الهيكل المادي لأن الموت يتعلق بهذا الهيكل فقط {..وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ..}، "والأمثال هي الأجسام والمثل يُضربُ لتقريب الحقيقة، قال تعالى:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}(١)، أي إن جسم عيسى عند الله كجسم آدم خلقه من تراب، {.. وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ} وهذه النشأة خاصة بيوم القيامة، ثم يعيدنا ربنا للنشأة الأولية فيقول: {..وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ}"(٢)، ويدفن الهيكل الجسمانى المكون من العناصر المادية التى خلق منها وإليها يعود ومنها يوم القيامة يبعث، ولكن على نشأة أخرى قال فيها سبحانه: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}(٣).

ومما سبق نعلم أن الحقيقه الانسانيه لاتفنى ولاتبلى كما تفنى الأجسام فهي باقيه أبد الآبدين فهي المتصرفة فى البدن والبدن منفصل عنها تابع لها، فهي أقوى من جوهر البدن، ففي الرؤيا المناميه مثلاً يرى الإنسان الأشياء ويسمعها بل ويدرك بعض الغيبيات، وهذا يدل على أن جوهر الإنسان غير محتاج لهذا البدن بل يضعف بمقارنته، فالنفس تقوى بمفارقه البدن وتقوى أيضا بتعطيل آلاته ويكون هذا بمجاهدة النفس، وكسر عوائدها، فإذا مات الجسم وخرب وفارقه جوهر النفس، حدث الإنفصال، ولما كان الجسم هو مظهر لهذه الحقيقه، وهذه الحقيقة الإنسانية تعرف بآثارها في مرآه الأجسام وتشير وترمز إلى واحدية خالقها ومبدعها.

وكما أن الإنسان ينتقل من اليقظة إلى النوم ومن النوم إلى اليقظة كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة والإنتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمرٌ لابد منه إذ لوكان الإنتقال في اتجاهٍ واحدٍ فقط لاختل التوازن في الطبيعة وإذ لم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانتهى كل ما في الوجود

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٩

(٢) طاهر مخاريطة (أيام الله) مرجع سابق، ص٧٠

(٣) سورة طه آيه ٥٥

إلى العدم، مثال ذلك: أن يستمر الإنسان في نومه إلى مالانهاية، والحقيقه الإنسانيه غير قابله للفناء بل هي باقيه أبد الآبدين لقول رسول الله ﷺ:"ماخلقتم للفناء ولكن خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار"، والجسم الإنساني مظهر لشئ دائم سرى فيه، وكذلك كل أجزاء الجسم هي مظاهر لمعاني روحانيه سرت فيها –الحياة، القدرة، الإرادة، العلم، السمع، البصر، الكلام– وليست هي هذه المعاني، ولذلك يفنى الجسم بكل آلاته وتبقى المعاني أبديه.

وإن استمرار الوجود بعد الموت والقدرة على التواصل مع الأرواح غير المتجسده هو أثمن ما يمكن التطلع إليه ومعرفته، والروح فيها السمو وبها القدرة التى يمكن أن تجعل الإنسان متصلاً بعد الموت، ولذلك فإن الإنسان لا يحس أنه مات بعد الموت وذلك لأنه يرى أن له جسد كالجسد الأرضي (يسمى هيكل أثيري) مع أنه أصبح روحاً. فهو يسمع ويبصر ويذوق ويلمس ويحب ويكره، فالروح على صورة الجسم ولها سائر خواصه، وهو يقرأ ويكتب كما كان وهو فى الجسم فى الدنيا والفرق في الحالتين هو أن جميع الحواس بعد الموت أقوى وأشد وأعظم منها فى الدنيا سر قوله تعالى واصفاً معاينة الإنسان لسكرات الموت:{لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}[١].

٤- **حسن الخاتمة:** وتحت هذا العنوان يبين الإمام حالة خروج الإنسان –الذى أُكرم فى حياته بنور الإيمان– من وطن الدنيا وقدومه على البرزخ فيقول:[معلوم أن الإنسان بما رُكب فيه من عناصر تقتضى تغيراته، حتى إذا تم اعتبار المثنوية تحقق بأنه لا يصفو نفسٌ من الأنفاس إلا وهو تحت تأثير تلك التغيرات: فتراه موفقاً للخير مقبلاً على الله بكليته، وأخرى ملتفتاً عن الحق سلس القياد للشهوة، حريصاً على الدنيا والسعى لها، ومرةً تراه زاهداً ورِعاً خاشع القلب خانع الجوارح لله تعالى، وأخرى تراه فى حيرة ودهشة مما يرد عليه من غرائب الآيات وأسرارها، وآناً يكون كافراً جاحداً منكرا.

(١) سورة الحديد آية ٢٢

وكل تلك التأثيرات والانفعالات النفسية خصوصاً إذا كبرت سنه، وضعفت قوته، وتحقق الورود على البرزخ، ويخاف الرجل من سوء ذنوبه ومن الحساب يوم لقاء ربه، ويحزن على أولاده وأهله بعد مفارقته إياهم، فلمزيد الفضل من الله تعالى طمأن قلوب من آمنوا به وبآياته، وعملوا الأعمال الصالحة التى بينتها لك فى أول الآية فى قوله تعالى:{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}(١) أى: أنه تعالى بدل سيئاتهم حسنات، فأمِنوا على أنفسهم من الحساب يوم لقائه، وأظهر لهم سبحانه إما بإلهام أو واردٍ أو بشرى من ولىٍ عارف، بأن الله يكون ولياً ووكيلا على أولاده.

وتلك الآية بعد خبر الله تعالى بقوله: {فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} تدل على أن هذه البشرى من الله تعالى لمن أقامهم الله مقام المخاطبين بكلامه، لأن الله لو منحهم هذا الأجر الذى هو عنده لما خطر على قلوبهم دواعى خوف أو مقتضيات حزن.

وقد يكون خوف كمل أولياء الله تعالى أشد من خوف العصاة، لأن أولياء الله تعالى يخافون أن يوقفهم موقف عدل، أو يحجبهم عن شهود جماله العلى، أو يبعدهم عن الأنس على بساط مؤانسته قُدام وجهه. أما العصاة فخوفهم من النار التى تحرق الأجسام.

أما النار التي توقد فى القلوب فمنها خوف العارفين والمقربين، وهى المشار إليها بقوله تعالى:{نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}(٢). {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} أى: لا يحصل لهم حزن، والحزن قبض القلب من توقع ضرر أو غلبة عدو أو دين، أو من خوف ضياع خير أو مفارقته، والإنسان بعد أن ألف الحياة الدنيا، واعتقد أنه سبب لنفع أهل أو أولاد أو أقارب، إذا ظن أو تحقق مفارقته لهم يحزن فيكون مع كرب الموت كرب تلك الحالة، فيخفف الله عنه شدة الحزن بالبشائر عند الموت بأن الله تعالى يكون وليه ووصية على من يفارقهم، وفى

(١) سورة البقرة آية ٦٢ .

(٢) سورة الهمزة آية ٦ – ٧ .

حالة الصحة يرد على قلبه الثقة بالله تعالى وانتظار النعيم المقيم يوم القيامة فيزول حزنه، وقد وعد الله تعالى أهل الإيمان به بخفى ألطافه فى كل دور من أدوار حياتهم مهما اعتورتهم الأهوال والشدائد.

والمؤمن عند سكرات الموت تتنزل عليه الملائكة وهو فى شديد الخوف وعظيم الحزن، فيقولون له: ما الذى أخافك يا عبد الله؟ فيقول: أخاف ذنوبى، وعقوبة ربى، فيقولون له: أبشر بخير، فإن ربك قد غفر لك، وأعد لك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من النعيم المقيم.

ويقولون له: علام تحزن؟ فيقول: أحزن على أهلى وأولادى وأقاربى، فيقولون له: يا عبد الله لا تحزن فإن الله وليك عليهم، ووكيلك، فيفرح المؤمن، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}(١)][٢].

وهكذا تختلف أحوال الناس عند حلول الموت، كلٌ بحسب حاله ومآله، يعبر الشيخ محى الدين بن عربى عن هذا المشهد قائلاً[٣]:

للقومِ عند حلولِ الموتِ أحوالُ ... تنوعت وهي أمثالٌ و أشكالُ
فمنهمو من يرى الأسماءَ تطلبُهُ ... ومنهمو من يرى الأملاكَ و الحالُ
في ذاكَ مختلفٌ عند الوجودِ لما ... تقضي الحقائقُ والتفصيلُ إجمالُ
ومنهمو من يرى الأرسالَ مقبلةٌ ... إليه تتحفهُ والرسلُ أعمالُ
ومنهمو من يرى التنزيهَ يطلبُهُ ... وهو الذي عندهُ التشبيهُ إضلالُ
وكلهم سُعدوا والعينُ واحدةٌ ... وعندهم في جنانِ الخلدِ أشغالُ
هذا هو الحقُ لا تبغي بهِ بدلاً ... وهو الصحيحُ الذى مافيهِ إشكالُ

---

(١) سورة فصلت الآيات ٣٠ – ٣٢.

(٢) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٩٠، ٩١

(٣) المرجع السابق، ص٨٧

٥- وصف الإمام أبى العزائم للمــوت: ويمكننا التعرف على نظرة الإمام للموت من خلال التعرف على بعض مقولاته وحِكَمِهِ فى هذا الموضوع، نذكر منها(١):

- ٱلْمَوْتُ فِي نَظَرِ ٱلْجَاهِلِينَ نِهَايَةٌ، وَفِي نَظَرِ ٱلْعَارِفِينَ بِدَايَةٌ.

- مَا ٱلْعَالَمُ إِلاَّ بَحْرٌ زَاخِرٌ، وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ أَسْمَاكُهُ ٱلْمَائِجَةُ فِيهِ، وَمَا رَيْبُ ٱلْمَنُــونِ إِلاَّ صَيَّادٌ يَرْمِي شَبَكَتَهُ كُلَّ يَومٍ، وَيُلْقِيهَا فِي ذَٰلِكَ ٱلْبَحْرِ فَتُمْسِكُ مَا تُمْسِكُ، وَتَتْــرُكُ مَا تَتْرُكُ، وَمَا يَنْجُو مِنْ شَبَكَتِهِ ٱلْيَومَ لاَ يَنْجُو غَدًا.

- ٱلْمَيِّتُ: مَنْ مَاتَ فَآلَ إِلَىٰ سِجِّينٍ، وَأَمَّا مَنْ مَاتَ فَرَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَىٰ عِلِّيِّــينَ فَلَــيْسَ بِمَيِّتٍ.

- تَحْتَ كُلِّ قَدَمٍ أَجْسَامُ مُلُوكٍ وَعُلَمَاءَ، وَعِظَامُ شُجْعَانٍ وَكُبَرَاءَ، طَحَنَهُمُ ٱلْمَــوْتُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُمْ آثَارًا، فَنُكِحَتْ بَعْدَهُم نِسَاؤُهُمْ وَعَمَّرَ غَيْرُهُمُ ٱلدِّيَارَا.

- إِنِ ٱسْتَشْعَرْتَ ذِكْرَ ٱلْمَوْتِ عَافَتْ نَفْسُكَ كُلَّ فَانٍ، وَحُبِّبَ إِلَيْكَ كُلُّ بَاقٍ.

- مَا ذُكِرَ ٱلْمَوْتُ فِي وَسْعَةٍ إِلاَّ ضَيَّقَهَا، وَلاَ فِي شِدَّةٍ إِلاَّ وَسَّعَهَا.

- فَضَحَ ٱلْمَوْتُ ٱلدُّنْيَا، فَلَمْ يَتْرُكْ لِذِي لُبٍّ فَرَحًا.

- لاَ تُفَكُّ ٱلْقُيُودُ إِلاَّ بِٱلْمَوْتِ.

- مُصِيبَتَانِ لَمْ يَسْمَعِ ٱلأَوَّلُونَ وَٱلآخِرُونَ بِمِثْلِهِمَا لِلْعَبدِ فِي مَالِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: يُؤْخَــذُ عَنْهُ كُلُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلِّه.

٦- وسعة عالم البرزخ: معلوم أن الإنسان في بطن أمه مــع تكوينـــه الكامــل وملاحظته بعين الله في أطواره لا يدرك أن وراء بطن الأم دنيــا، ولا يتصـــور وسعة عالم الدنيا الذي يعده الحق ليخرجه إليها..، وكذلك الشأن بالنســبة للعــالم البرزخي. والحقيقة تبين لنا أن البرزخ عالم أوسع من عالم الدنيا بما لا يقــاس، وهل تساوى وسعة بطن الأم إلى الدنيا شيئا؟ كذلك دنيانا بالنسبة لوســعة العــالم البرزخي، وكلنا على يقين أنه سيكون في البرزخ ذرية آدم مــن البدايــة إلـــى النهاية.

---

(١)الإمام أبو العزائم (من جوامع الكلم) مرجع سابق، ص٢٦٧، ٢٦٨

٧- **اختلاف الزمن فى عالم البرزخ عنه فى الحياة الدنيا:** معلوم أن الزمان ناتج عن حركة المكان؛ وبالتالى كان من الطبيعى أن يختلف الزمن فى البرزخ عنه فى الدنيا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة عندما قص الحق سبحانه علينا قصة العزير وحماره فى قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(١)، وهنا نلاحظ أن الآية تشير إلى اختلاف الزمن بين البرزخ والدنيا، فمائة عام فى الزمن الدنيوى تساوى قرابة يوم فى زمن البرزخ، ومعنى هذا أننا لو قسمنا المائة عام الدنيوية على اليوم البرزخى سينتج لنا ما يلى:

- الساعة البرزخية = تقريباً أربع سنوات وشهرين فى زمن الدنيا.
- الدقيقة البرزخية = تقريباً خمسة وعشرون يوماً فى زمن الدنيا.
- الثانية فى البرزخ = تقريبا عشر ساعات فى زم الدنيا.

٨- **نعيم البرزخ وعذابه:** المقصود بالبرزخ مكان حقيقة الإنسان الروحانية فى مستقر الأرواح وتكون إما في عليين أو في سجين، وأرواح المؤمنين كلها تنعم في رحمة الله ولكنها درجات كما أخبر رب العالمين:{هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ}(٢)، فروح المؤمن تأنس في برزخها في عليين وتتنعم في قبرها، وكذلك أهل الشقاوة -عياذاً بالله- كتابهم في سجين ويعذبون في قبورهم، يشير إلى ذلك حديث رسول الله ﷺ "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"(٣).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٣

(٣) سنن الترمذي، عن أبي سعيد الخدري ، كتاب صفة القيامة، ٢٣٨٤ وقال حديث غريب .

٩- **أدلة الإمام أبى العزائم على وجود الحياة البرزخية:** ويسوق الإمام العديد من الأدلة على وجود الحياة البرزخية نذكر منها(١):

أ- **متاع البرزخ وخيراته:** قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الَأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}(٢)، المستقر محل الإقرار، وهو مدة الحياة الكونية والمدة المحدودة للبرزخ، فإنه المستقر الأخير، وفى قوله: {مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} دليل أن الرجل إذا مات ودفن متع بما تركه وراءه من علمٍ يُنتفع به، أو كتب علمية ألفها، أو أولاد صالحين يدعون له بخير، أو صدقة جارية، فإن كل ذلك يكتب فى صحيفته، ويعجل الله فى قبره من خيراتها، وهو المتعة التى أخبرنا الله بها فى قوله: {وَلَكُمْ فِي الَأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} ومتاع البيت ما ينتفع به ثم يبلى، وأما الجنة فنعيم لا يبلى.

ب- **دفن المؤمن بجوار الصالحين:** عن محمد بن الحنفية عن على ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن ندفن موتانا وسط قوم صالحين، فإن الموتى يتأذون بالجار السوء كما يتأذى به الأحياء. وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال:"إذا مات لأحدكم الميت فحسنوا كفنه، وعجلوا إنجاز وصيته، وأعمقوا له فى قبره وجنبوه جار السوء قيل: يا رسول الله: وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة ؟ قال: هل ينفع فى الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: كذلك ينفع فى الآخرة"

ج- **الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم:** قال تعالى:{بَلْ اَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}(٣) ولذلك لا يُغسلون ولا يصلى عليهم، ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة فى شهداء أحد وغيرهم، قال رسول الله ﷺ: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة و فيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على، قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ -يقولون بليت- فقال: إن الله عز وجل حرَّم على

(١)الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٩٢ وما بعدها

(٢) سورة البقرة آية ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"(١). وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون"(٢). وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ :"مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام يصلى فى قبره"(٣). وعن عبد الرحمن بن أبى صعصعة:" أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو(٤) الأنصاريين كان قد حفر السيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلى السيل وكانا فى قبر واحد، وهما ممن استشهد فى يوم أحد، فحُفر عنهما ليغيرا من مكانهما فوُجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده على جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد وبين يوم حُفر عنهما ست وأربعون سنة"(٥).

وأرى أن بقاء أجسام الشهداء والصالحين كما هى أمرٌ ليس بالمستحيل لأن الحقائق الروحانية وهي في برازخها لها اتصال دائم بعالم الدنيا، والإمام أبو العزائم رضي الله عنه يوضح لنا أن هذه الحقائق الروحانية على اتصال بهياكلها كاتصال أشعة الشمس بقاع البئر، فإن الشمس لم تنزل للبئر كما أن البئر لم يصعد للشمس، ولكن لها اتصال وتأثير، فالحقائق الروحانية ترعى هياكلها. والذين أكرمهم الكريم في دنياهم بأنوار الإيمان الحقيقي وبأسرار الولاية الناتجة عن الإيمان والتقوى فإن الأرض تحفظ أجسادهم، فالأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ولا الأولياء، ولا الشهداء، والعلماء ورثة الأنبياء والوارث له حكم المورث، وكل وارث تقي عالم لأن كل مؤمن تقي ولي: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ*الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}(٦) وكل وليٍ عالم لأنه يدخل في

---

(١) رواه النسائى فى كتاب الجمعة الباب الخامس وابن ماجه فى كتاب الإقامة الباب ٧٩ وكتاب الجنائز الباب ٦٥ والدارمى فى كتاب الصلاة الباب ٢٠٦ وأحمد فى الجزء الرابع صفحة ٨.

(٢) أخرجه البزار ٢٣٣٩ والبيهقى فى (حياة الأنبياء) ص ٣، وأبو يعلى ٣٤٢٥.

(٣) أخرجه ابن حبان فى (الإحسان)٤٩، وإسناده صحيح على شرط البخارى ، وأخرجه مسلم ٢٣٧٥.

(٤) عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصارى من سادات الأنصار واستشهد بأحد راجع االإصابة (٤ / ٦١٥، ٦١٦) وعبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى وهومعدود فى أهل العقبة وبدر، استشهد بأحد،الإصابة (١٨٩/٤، ١٩٠).

(٥) أخرجه مالك فى موطئه كتاب الجهاد باب الدفن فى قبر واحد من ضرورة (٤٧٠).

(٦) سورة يونس آية ٦٢، ٦٣

دائرة:{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}(١)، فهم لا تبلى أجسامهم وإن بقيت في باطن الأرض دهراً فيكونون مثل النائمين تماماً. ومن أسرار بقاء الهياكل على هذه الطريقة قوة الأشعة الروحية المرسلة من الحقائق الروحانية الخاصة بهذه الهياكل للهياكل، فترسل أشعة للهيكل المدفون فيُحفظ. وإذا كانت المواد الكيمياوية استطاعت بواسطة العلماء في حفظ الهياكل المحنطة آلاف السنين، فما بالك بأشعة الحقائق الروحانية؟

د- الأولياء يقرأون القرآن فى قبورهم: عن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءة على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى فأخبره فقال النبى ﷺ: "هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر"(٢)، قال أبو القاسم السعدى فى كتاب الإفصاح: هذا تصديق من رسول الله ﷺ بأن الميت يقرأ فى قبره، فإن عبد الله أخبره بذلك وصدقه رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن مندة عن طلحة عن عبيد الله قال: أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام فسمعت قراءة من القبر فما سمعت أحسن منها، فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: "ذلك عبد الله، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة؟ فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم، فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها الذى كانت فيه"(٣).

هـ- توالى الخيرات المعنوية والحسية على الشهداء فى البرزخ: قال تعالى:{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}(٤). لأن من قتل فى سبيل الله أقدم على القتل لا طعماً فى جنة، ولا خوفاً من نار، ولا رغبة فيما دونهما، ولكنه أقدم ليلقى الأحبة، محمداً ﷺ وحزبه، وهذا الذى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

(٢) أخرج الترمذى وحسنه والحاكم والبيهقى

(٣) الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٩٧

(٤) سورة البقرة آية ١٥٤ .

نراه قتيلاً بين الصفين لم يمت، ولكنه رفع إلى حظيرة القرب يرزق، لا يمــض نفس من الأنفاس إلا وتتوالى عليه الخيرات المعنوية والحســية، أمــا الخيــرات المعنوية فإنه يكتب له فى صحيفته أعمال كل من هداهم الله تعالى علــى يــده، وأعمال من اهتدوا بهداهم إلى يوم القيامة، وقد يكون فى قبره وعشرات الملايين تعمل بعمله فيكتب الله له أعمالهم فى صحيفته، لا ينقص ذلك من أعمالهم شــيئاً، قال ﷺ:"من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يــوم القيامــة"(١) فذلك هو جزاؤهم، وهم بتلك المثابة أحياء يرزقون خير الأرزاق مــن حيــث لا يعلمون(٢).

و- زيارة أهل البرزخ وإلقاء السلام عليهم: ويستدل الإمام بسنة زيارة المقــابر وإتناس الموتى ومعرفتهم للزائر على أن لهم حياة برزخية تمكنهم مــن رؤيــة الزائر والشعور به، وأيضاً أمر النبى للزائر بإلقاء السلام على أهلها دليل علــى أنهم يسمعون وإلا كان ذلك عبثاً، وعن زيارة القبــور يقــول الإمام:[وثبــت أن رسول الله ﷺ نهى الرجال عن زيارة القبور قبل الإسلام لما كــانوا عليــه مــن عوائد الجاهلية عند القبور فلما محا نور الإيمان ظلمة العادة وهشت له القلــوب وبشت أباح رسول الله ﷺ زيارة القبور للرجال قال ﷺ "كنت نهيتكم عن زيــارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة"(٣)](٤). ويبين الإمام قبساً مــن حكمــة زيارة القبور بالنسبة للجسم والروح والقلب وغيرها من حقائق الإنسان فيقول(٥):

أَلِهَيْكَلِي ٱلتَّذْكَارُ حَــالَ حُضُــورِي؟!   أَمْ ذَا لِرُوحِــي حَالَــةَ ٱلتَّصْــوِيرِ؟!
وَهَــلِ ٱلزِّيَــارَةُ لِلْقُبُــورِ لأَنَّهَــا   رَمْــزُ ٱلْمَشَــاهِدِ حَالَــةَ ٱلتَّــذْكِيرِ؟!

---

(١) رواه مسلم فى كتاب العلم الحديث ١٥ وكتاب الزكاة الحديث ٩٦.

(٢)الإمام أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) مرجع سابق، ص٩٩

(٣)أخرجه أحمد فى المسند، ج١ ص١٤٥، ومسلم فى صحيحه، ج٢، ص٦٧٢

(٤) الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) ط٢، مكتبة مشيخة السادة العزمية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٤

(٥) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٦٥٣، ج٢، ص١١٧

وَٱلرُّوحُ تَشْهَدُ غَيْبَ غَيْـبٍ غَـامِضٍ فِــي ٱلْكَائِنَــاتِ بِسِــرِّهَا ٱلتَّقْــدِيرِ
أَمَرَ ٱلْحَبِيبُ ٱلْمُصْـطَفَىٰ بِزِيَــارَتِي تِلْكَ ٱلْقُبُــورَ بِضَــحْوَتِي وَبُكُــورِي
هَلْ لِلْحُضُــورِ مُشَــاهِدًا وَمُرَاقِبًــا؟! أَمْ لِلتَّأَسِّــي بِــأَلْوَلِي ٱلْمَقْبُــورِ؟!
وَاجَهْتُ حَالَ زِيَارَتِي مَــا لاَ يُــرَىٰ لِلْغَــافِلِينَ مِــنَ ٱلصَّــفَا وَٱلنُّــورِ
أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلسِّرَّ فِي ٱلأَمْــرِ ٱلْجَلِــي لَــمْ يُــدْرِكَنْ بِبَيَانِــهِ ٱلتَّعْبِيــرِ
جِسْمِي يَخَافُ ٱلْمَوْتَ عِنْدَ زِيَــارَتِي فَيَتُوبُ مِنْ دَاعِــي ٱلْجَفَــا وَغُــرُورِ
وَٱلْقَلْبُ يَعْقِلُ فِــي ٱلزِّيَــارَةِ حِكْمَــةً وَهْــيَ ٱلرُّجُــوعُ لِمُــنْعِمٍ وَغَفُــورِ
وَٱلرُّوحُ تَشْهَدُ فِي ٱلزِّيَــارَةِ مَشْــهَدًا فِيــهِ ٱلْبَقَــا لِمُــدَبِّرٍ وَقَــدِيرِ
وَٱلنَّفْخَةُ ٱلْعَلْيَا تَرَى ٱلإِسْــمَ ٱلْعَلِــي يُجْلَــىٰ لَهَــا بِجَمَالِــهِ ٱلْمَــأْثُورِ
سِرُّ ٱلزِّيَــارَةِ غَــامِضٌ مَــنْ ذَاقَــهُ تُجْلَىٰ لَهُ ٱلأَسْــمَاءُ حَــالَ حُضُــورِ

ثم يبين الإمام ما أُمرنا به عند الزيارة فيقول:[عن ابن عباس ﷺ قــال: مــر رسول الله ﷺ بقبور أهل المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال:"السلام عليكم يا أهــل القبور ويغفر الله لنا ولكم، أنتم لنا سلف ونحن بالأثر"(١). وعن أبــي هريــرة ﷺقال: خرج رسول الله ﷺ إلى المقبرة فقال:"السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون"(٢)](٣). يقول الإمام فى هذا المعنى نظماً(٤):

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ فِــي ٱلثَّــرَىٰ وَٱلْمَقَــابِرِ رَحَلْتُمْ فَقَــابَلْتُمْ ضِــيَا خَيْــرِ غَــافِرِ
سَكَنْتُمْ بِبَطْنِ ٱلأَرْضِ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِهَا وَفَــارَقْتُمُو ٱلــدُّنْيَا لِبَــرٍّ وَقَــادِرِ
سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ مِــنْ أَخٍ يَرْتَجِــي لَكُــمْ مِنَ ٱللَّــهِ غُفْرَانًــا وَخَيْــرَ ٱلْبَشَــائِرِ
أَيَارَبِّ أَغْدِقْ وَاسِعَ ٱلْعَفْوِ وَٱلرِّضَــا عَلَىٰ سَاكِنِي ٱلأَجْدَاثِ بَعْدَ ٱلسَّــرَائِرِ
أَزُورُكُمُو أَرْجُو مِــنَ ٱللَّــهِ رَحْمَــةً تَعُمُّكُمُو فِي جَــوْفِ تِلْــكَ ٱلْمَقَــابِرِ

---

(١) أخرجه الترمذى
(٢)أخرجه أبو داود فى السنن
(٣)الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٢٥، ٢٦
(٤) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ٣٦٦٥، ج٤، ص١٣٥

وَأَسْأَلُ رَبِّي ٱلْعَفْوَ وَٱلتَّوْبَ وَٱلرِّضَـــا   وكَشْفًا بِهِ تَحْظَى ٱلنُّهَـــىٰ بِٱلْبَصَـــائِرِ

ومن خلال هذه الأدلة التى ساقها الإمام يتضح أن وطن البرزخ هــو وطــن تحيا فيه حقيقة الإنسان حياة لها طبيعة وأحكام وقوانين خاصـــة، تختلــف عــن طبيعة الحياة الدنيا؛ تحيا فيها مدة تطول أو تقصر فهى مدة محددة وزيارة مؤقتة ينتقل بعدها إلى وطن آخر، كما قــال تعالى:{ألهــاكم التكــاثر* حتـــى زرتــم المقابر}(١).

خامساً: وطن الدار الآخرة: وهو كما يسميه الإمام وطن الجزاء، أو النشأة الثانية، ويمكن أن نُجمل ما تناوله الإمام عن هذا اليوم فى ست نقاط:

١- تقريب الحقائق للعقول: يقول الإمام:[العقول تستمد معلوماتها من الحـــواس، والحواس لا تدرك ما وراء الجدار، فكيف تدرك الغيب المصون؟. ولكن العلماء الربانيين قربوا الحقائق للعقول بالأمثلة المحسوسة، فالإنسان فى بطن أمه بعد أن نفخت فيه الروح وصار يحس ويتحرك لو وهبت له قوة الإدراك، وأُخبــر عــن الدنيا وأحوالها، هل كان يصدق بما فى الدنيا من أرض وسماء وهــواء وبحــار وأفلاك وحروب وخصومات؟

الجواب: لا يصدق لأنه يرى من المستحيل وجود مكان غير ما هــو فيــه، ولكن إنكاره لتلك الحقائق لا يجعلها مفقودة وتسليمه بها لا يجعله يستحضرها إلا إذا تمثلها. فكذلك الإنسان الواقف عند الحكم على الأشياء بحواسه، لا يصدق بأن هناك داراً أخرى، وإن صدق بها من غير تصويرها لا يراقبهـــا ولا يتـــذكرها. إذن فعذر المنكرين للآخرة سببه الجهل، أو إهمالهم فى تحصيل العلم من العـــالم الذي يمكنه أن يبين تلك الحقيقة بأمثلة تقبلها العقول، وقد شهدنا داريـــن: الـــدار التى كنا فيها فى بطن أمهاتنا، والدار التى نحن فيهـــا الآن، ولكـــل دار أحكـــام تقتضيها، فما الذي يمنعنا من أن نفوز بالخير الذي لا نجاة إلا به، وهو التصديق بيوم القيامة، والسعي لتلقى العلوم النافعة، لنتصورها فنكـــون مـــؤمنين علمـــاء،

(١) سورة التكاثر الآيتين ١، ٢

وبذلك نسعد فى الدنيا والآخرة؛ فإن جهل يوم القيامة سبب فى المفاسد وخــراب العالم، وكيف لا؟ وتلك الحروب الطاحنة والخصومات القائمة والرذائل المنتشرة سببها نسيان يوم القيامة، ورجل يؤمن بيوم القيامة مجرد إيمان يستحيل عليه أن يميل إلى مفسدة أو رذيلة أو قبيح عمل، فكيف إذا حصَّل العلم بهــا، فصــارت معالم بين عينيه وصورة منقوشة على جوهر نفسه][1].

٢- وجوب اعتقاد الإعادة: [يجب أن نعتقد أن إعادة الجسم بعد الإعدام بجميــع أجزائه الأصلية وعوارضه حق كما كان قبل الموت، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[2] وقال سبحانه:{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}[3]، وآيات كثيرة وردت فــى الإعادة وهى حجة أهل الإيمان القوى. ولكنا نسير مع العقل فنقول: إن السموات والأرض أنشأها الله تعالى لحكمة إيجاد الإنسان، لأنه سخر له ما فى الســموات وما فى الأرض جميعاً منه، وصرفه فى كل كائن، فالكائنات كلها لنفع الإنســان من الأفلاك والأملاك والهواء والماء والأرض والمعادن. وحكمة إيجاد الإنســان أن يكون عبداً لله عابدا قال تعالى:

{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}[4] وأن يكون كل إنسان خليفة عــن ربــه فيما استرعاه من أهل وولد ومال وأتباع.

وكل إنسان خليفة بقدره، وإنا لنرى رجالاً أنفقوا أنفاسهم وأموالهم وأنفســهم فى العمل لله وعاشوا فى عناءٍ وبلاءٍ لم ينلهم من ثمرات أعمالهم نــيلاً، ونــرى آخرين بذلوا أنفاسهم وأموالهم وأنفسهم فى معصية الله وضرر عباده والإفســاد فى الأرض، ولم يصبهم بلاء ولا شدة، ومقتضى العــدل أن يجــازى المحســن بالإحسان والمسيء بالإساءة ؛ لذلك يجب أن يكون هناك دار أخرى يجازى فيها كل عامل بعمله، وإلا فهذا الإنسان الذي تحمل فادح الشدائد وعظيم البلايا لخيــر

---

(١) الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٢٩، ٣٠

(٢) سورة الروم آية ٢٧

(٣) سورة الأعراف آية ٢٩

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦

بنى الإنسان من الأنبياء والعلماء الربانيين إذا مات ولم تكن ثَم دار أخرى كان ذلك ظلما، وتنزه ربنا وتعالى عن الظلم.

وذاك الإنسان الذي جحد ربه وحارب أنبياءه وآذى أولياءه وأضر عباده بسفك الدماء وخراب البلاد وظلم العباد، إذا مات ولم يعاقب على عمله كان ذلك من الجهل والحماقة -وتنزه ربنا وتعالى عن كل نقيصة- فلزم أن يحكم العقل بحقيقة يوم القيامة لينال العامل بالإخلاص من المسرات والملذات الروحانية الجسمانية، والبقاء فى جوار الأطهار، والأنس بِمُجَانِسِهِ من الأخيار مع النبيين والصديقين والشهداء ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. وكذلك ليلاقى ذلك الظالم الطاغي من شديد الآلام فى نار العذاب أشد مما كان يُعذب به عباد الله فى الدنيا، بصواعق المقذوفات وأليم السجون، جزاءاً وفاقاً][1].

٣- رد الإمام على من أنكر البعث بالروح والجسد: [قال الله تعالى: {إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}(٢) وقال تعالى:{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ}(٣) وقال سبحانه:{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}(٤) وكلنا نعلم أن الأرواح لا تأكل ولا تشرب ولا تتزوج، وتلك الآيات حجة على منكري البعث وعلى من أنكر بعث الأجساد. ونحن لا نتكلم عن منكرى البعث لأنهم ليسوا أهلاً أن نخاطبهم قال تعالى: {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}(٥).

ولكنا نخاطب من أثبت بعث الأرواح دون الأجساد، ونعلم أن الذي حدا بهم إلى هذا الحكم، وقوفهم عند الحواس ولأنهم يقولون إذا أكل إنسانٌ إنساناً بحيث صار المأكول جزءاً من الآكل فإذا أعاد الله تعالى هذين الإنسانين بعينهما فتلك الأجزاء التى كانت للمأكول ثم صارت للآكل، إما أن تعاد فى كل واحد منهما،

---

(١)الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٣٢

(٢) سورة العاديات آية ٩

(٣) سورة الحاقة آية ٢٤

(٤) سورة الإنسان آية ١٩

(٥) سورة الفرقان آية ٤٤

وهو محال لاستحالة أن يكون جزء واحد بعينه فـــى آن واحـــد فـــى شخصـــين متباينين، أو يعاد فى أحدهما وحده، فلا يكون الآخر معاداً بعينه والمقرر خلافـــه وهذا مذهب الفلاسفة.

وقد تسرب هذا المذهب إلى بعض من لم تُزك نفوسهم تزكية تجعل الـــنفس تسوح سياحة ملكوتية فتقتبس من مجانسها –عالم الطهر– أسرار الجنة وما فيها من نعيم الجسم ومسراته وبهجة النفوس وملاذها، وما فى النار من عذاب يذيب الأشباح، وحجاب يُحزن الأرواح، حتى ترجع إلى هذا الجسم فتمثل له ما هنـــاك تمثيلاً يجعله يطيعها فيما تطلبه منه.

والحقيقة: أن الجسم يعاد كما كان فى تلك الدار الدنيا، وإلى العقل بيان كـــل نوع من الأنواع تتسلط عليه المؤثرات الكونية كالذهب بالنسبة للمعادن فإن النار وغيرها من المؤثرات لا تنقصه شيئاً ولا تغير من كماله الذي بلغه. فلو ألقي فى الأرض السبخة أعواماً ما تغير، بخلاف بقية المعادن فإنها تتنوع إلـــى غيرهـــا فتكون تراباً، أو ينقلب النحاس إلى توتيا خضراء، فكذلك الإنســـان هـــو أكمـــل الأنواع الموجودة، ولكماله النوعي لا تؤثر عليه المؤثرات الكونية، فلا يتغـــذى النبات بشيء من حقائقه الأصلية ولا تهضمه تلك الحقائق فى معدة حيوان، فلـــو اندثرت المقابر وصارت أرضها مزرعة، تتغذى النباتات بالفضلات الزائدة على الحقائق، وتحفظ أجزاء الحقائق فى الأرض كما تحفظ أجزاء الذهب.

وإذا أكل الإنسان أو الحيوان إنساناً فإن الذي يتغذى به هو المواد الغريبـــة والفضلات الزائدة على الحقائق، وتلك المواد الغريبة والفضلات الزائدة ليســـت هى الإنسان، وإنما هى لتعويض ما فقد منها بالعمل حفظاً للحقيقة الإنسانية. إذن فكل الحقائق التى هى العظام والأوردة والشرايين والأعضاء الرئيســـة كالقلـــب والرئتين والكبد والطحال والكليتين والمعدة والمعي وحقيقـــة العينـــين والأذنـــين واللسان وغيرها مما يكون به الهيكل الإنساني هيكلاً مجرداً عن الحياة لا سلطان عليه للأرض، ولا لما عليها وسأبين كيفية الإعادة فـــى موضـــعها إن شـــاء الله تعالى.

إذا تقرر ذلك فالجسم يعاد يوم القيامة كما كان فى الدنيا مع روحه، والقــول بأن الروح هى التى تعاد باطل، وإن فهم ذلك بعض من لم يعقل عن الله ولا عن رسوله من النصارى الذين يظنون أن سيدنا عيسى يقول بإعــادة الأرواح، فــإن هؤلاء القوم ما فهموا شيئاً من كلام سيدنا عيسى عليه السلام ومن أنكر البعث – وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة– إرتد عن الإســلام، ومــن أنكــر بعــث الأشباح، جهل صريح الدين.

قال سيدنا على ﷺ:"فإنكم لو عاينتم ما قد عاين من مــات قــبلكم لجــزعتم ووهلتم[١] وسمعتم وأطعتم... ولكن محجوب عنكم ما قد عــاينوا، وقريــبٌ مــا يُطرح الحجاب. ولقد بُصِّرتُم إن أبصرتم وأُسمِعتم إن سَمِعتم وهُدِيتُم إن اهتديتم، بحقٍ أقول لكم: لقد جاهَرَتكم العِبَر وزُجرتم بما فيه مزدجر، وما يبلــغ عــن الله بعد رسل السماء إلا البشر، فإن الغاية أمامكم وإن وراءكــم الســاعة تحــدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما تنتظر بأولكم آخركم". وقال سيدنا على ﷺ يخاطــب أهــل القبور: "يا أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحــق، أمــا الدور فقد سُكنت، وأما الأزواج فقد نُكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أُذن لهم فى الكــلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى][٢].

٤- كيفية البعث[٣]: أبين تلك الحقيقة بالنقل الذي قبله العقل السليم مــن الهــوى والحظ ... وهنا أشرح لإخوتي المؤمنين كيفية النشأة الأولى بما ورد: قال أميــر المؤمنين على ﷺ فى كيفية خلق آدم بعد حديث طويل فى وصف خلق السموات والأرض:

---

(١) (وهلتم : فزعتم)

(٢)الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٣٥

(٣) المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨

"ثم جَمع سبحانه من حَزن الأرض وسهلها وعذبِها وسبخها تربــة، ســنها[١] بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلة حتى لزبت، فجبل[٢] منها صورة ذات أحناء[٣] ووصول وأعضاء وفصول[٤]، أجمدها حتــى اســتحكمت، وأصــلدها[٥] حتــى صلصلت[٦] لوقت معدود وأمد معلوم ثم نفخ فيها من روحه فمثلــت إنســاناً ذا أذهان يجيلها[٧]، وفكر يتصرف بها وجوارح يختدمها، وأدوات يقلبهــا ومعرفــةٍ يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجنــاس، معجونــاً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاط المتباينة – من الحر والبرد والبلة والجمود– واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعتــه لــديهم، وعهد بوصيته إليهم فى الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته.

وقال كرم الله وجهه فى صفة خلق بنى الإنسان: "أم هذا الذي أنشــأه فــى ظلمات الأرحام وشغف[٨] الأستار، نطفة دهاقاً[٩]، وعلقــة[١٠] محاقــاً، وجنينــاً وراضعاً ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً ليفهم معتبــراً ويقصــر مزدجراً، حتى إذا قام اعتداله واستوى مثاله، نفر مســتكبراً وخــبط ســادراً[١١] مائحاً[١٢] فى غرب هواه كادحاً سعياً لدنياه فى لذَّاتٍ طَربِه"... إلى أن قال بعــد أن وصف مداهمة المنية للإنسان وهو فى غفلته: "ثم أدرج فى أكفانــه مبلســاً،

---

(١)(صبها برفق)

(٢) (فخلق)

(٣) أحناء: جمع حِنْوٌ وهو كُلُّ ما فيهِ انْثِناءٌ مِنَ البَدَنِ كالضِّلْعِ.

(٤) الفصول : كل ملتقى عظمين

(٥) الصلد: الصلب الأملس

(٦) الصلصال: الطين اليابس

(٧) أجال الشيء: أداره

(٨) الشغاف: غلاف القلب

(٩) دهاقاً: ممتلئة

(١٠) العلقة المحاق: خفى فيها كل شكل وصورة

(١١) السادر: المتحير

(١٢)مائحاً: أى يستقى من هواه

وجذب منقاداً سلساً ثم ألقى على الأعواد رجيع[١] وصب[٢] ونضو[٣] سقم تحمله حفدة الولدان وحشدة الإخوان إلى دار غربته ومنقطع زورته، حتى إذا انصرف المشيع ورجع المتفجع، أقعد في حفرته نجياً[٤] لبهتة[٥] السؤال وعثرة الامتحان"][٦].

وقد ورد فى الحديث أن في الجسم جزء لا يبلى وإن تحلل الجسم يسمى بـ (عَجَب الذَّنَبْ) مكانه آخر العمود الفقري، يقول ﷺ: ".. وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة"(٧). وسوف تتجمع على عجب الذنب ذرات الهيكل عند الإعادة بعد تحلل الجسم واختلاط ذراته بكائنات كثيرة جداً لا يمكن تحديد مكانها بعد أن حملتها الرياح إلى كل مكان، وكذلك نقل الجبانات إلى أماكن أخرى متطرفة نتيجة للتوسع العمراني..، وكل ذرة من ذرات الجسم مرقومة برقم شفري خاص بهيكلها ومحفوظ مهما شرقت وغربت هذه الذرات في أرض الله، وستعود إلى هيكلها سر قوله تعالى: {.. قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}(٨)، أى كتاب حفيظ محفوظ به سجل ذرات الهياكل.

ثم يورد الإمام أبو العزائم بعض الآيات الواردة فى البعث وبعض الأحاديث، ثم يختم بكلام أئمة الهدي فيقول: [قال الله تعالى:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً}(٩) وقال سبحانه:{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

(١) الرجيع : الكليل

(٢) الوصب : التعب

(٣) النضو: الذى أصابه الهزال

(٤)النجى : الذى تحدثه سراً

(٥) بهتة السؤال: حيرته

(٦) الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٣٨

(٧)رواه البخاري عن أبي هريرة : كتاب تفسير القرآن: ٤٥٥٤

(٨)سورة ق آية ٤

(٩) سورة الكهف آية ٩٩

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}(١) وقال تعالى:{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ}(٢) وقال جل وعلا: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}(٣) وقال جل جلاله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}(٤) وقال سبحانه:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}(٥) وقال تقدست ذاته {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ}(٦) وقال سبحانه {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}(٧) وقال جلت قدرته: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً}(٨).

وهنا نكتب الآية التى بينت كيفية النشأة الأولى، واتصل بها بيان النشأة الأخرى قال ﷻ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ٩٩- ١٠٠

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠١

(٣) سورة النمل آية ٨٧

(٤) سورة يس آية ٥١

(٥) سورة الزمر الآيات ٦٨- ٦٩

(٦) سورة ق الآيات ٢٠- ٢٢

(٧) سورة القيامة الآيتين ٣-٤

(٨) سورة النبأ الآيات ١٨-٢٤

فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ..}(١).

هذه هى الآيات الشريفة التى وردت فى الصور، وما يتعلق به، وهى خبر من الله تعالى لأهل الإيمان الذين يعقلون عن الله تعالى آياته ويفقهون كلامه بما جعله سبحانه لهم من النور: {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ..}(٢) وهى أيضاً حجة قاصمةٌ ظهور أهل العناد الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم وقفل قلوبهم فحُرموا التسليم والذوق، وفى كل آية من تلك الآيات أسرار غامضة وإشارات عالية ألاح الله أنوارها لأهل البصائر من المؤمنين، وأشهد حقائقها أهل القلوب من المحسنين، وهى عيان لأهل اليقين. قال سبحانه: {كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ} (٣). ومجمل ما بينته تلك الآيات الشريفة: أن الصور محيط بالسموات والأرض، وأن النفخ فيه ثلاث مرات(٤):

أ- **نفخة الفزع:** وهي قبل يوم القيامة بها فزع العالم أجمع إلا من شاء الله ممن سبقت لهم منه سبحانه الحسني، وهذا الصور -الذي تنفخ فيه هذه النفخة ونفخة الصعق، ونفخة القيامة- هو القرن الذي جعل الله فيه لكل روح من أرواح الإنس والجن مكاناً. والصور محيط بالسموات والأرض -كما قررنا- فأسفله سجن أرواح الكافرين والمنافقين، ووسطه مكان أرواح عامة المسلمين، وأعلاه روضة أرواح الأبرار والمقربين، وتكون النفخة الأولى فى صور الخلق، فإذا ظهرت أشراط الساعة من طلوع الشمس من مغربها ومن الخسف والمسخ والصواعق والزوابع ويقوي هذا الفزع حتى يموت من فى السموات ومن فى الأرض إلا الشهداء فأنهم لا يحصل لهم هذا الفزع بل يمر عليهم نسيم عليل بليل فيموتون مشتاقون إلى رضاء ربهم سبحانه، وهم الذين استثناهم الله بقوله:{إِلاَّ مَن شَاءَ

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢ – ١٦

(٢) سورة النور آية ٤٠

(٣) سورة التكاثر آية ٥ -٦

(٤) الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٣٩ وما بعدها

اللَّهُ}(١) وقوله:{وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}(٢) أي إنتقلوا من الدنيا أذلاء مرغمين مقهورين، لأن تلك النفخة هي الأولى وهي نفخة الفزع التى بعدها نفخة الصعق وبعدهما نفخة القيامة.

وصور النفخة الأولى هو هياكل الناس؛ لأن كل واحد صور محيط بحقائق لا تحصى، فالهيكل الإنساني مجمع لكل أنواع الحقائق ففيه نفخة القدس، وفيه مادة أسفل السافلين، وفيه ما بين ذلك من كل الأنواع فالإنسان كون صغير والكون كله إنسان كبير.

ب- نفخة الصعق: وإليها أشار قوله سبحانه: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ}(٣) وهي النفخة الثانية: وهى التى تفقد فيها الأرواح الحياة الروحانية، حتى لا يبقى ملك مقرب إلا ويفقد تلك الحياة -وهى الصعقة- إلا من اصطفاهم الله فأقامهم فى مقام محبته لهم، وبعد تلك النفخة يقول ربنا جل جلاله: {لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ}(٤) ثلاث مرات فلا يجيبه أحد لفناء من كانوا يدعون ملك الأشياء ويغترون بما لديهم، وينازعون الربوبية فى الملك فيجيب نفسه بنفسه سبحانه قائلا: {لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ}(٥). أما قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى}(٦) فبعد تلك الصعقة وتنفيذ ما قدره جل جلاله من إعادة الإنسان بما أراده فى النشأة الثانية تنفخ النفخة الثالثة.

ج- نفخة القيام: هي الثالثة وقبل أن تصل الأرواح إلى هذا الصور تتمنى الرجوع عند الموت بدليل قوله تعالى: {رَبِّ ارْجِعُونِ}(٧) فيحول بينه وبين ما يشتهي، ولا يقول هذه الكلمة إلا من سبق عليهم القضاء بسوء الخاتمة أعاذنا الله

---

(١) سورة النمل آية ٨٧

(٢) سورة النمل آية ٨٧

(٣) سورة الزمر آية ٦٨

(٤) سورة غافر آية ١٦

(٥) سورة غافر آية ١٦

(٦) سورة الزمر آية ٦٨

(٧) سورة المؤمنون آية ٩٩

وإخواننا المؤمنين، وأما أهل الإيمان فإنهم عند الموت تتوالى عليهم البشرى من الله تعالى. قال سبحانه: {لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} (١). وتقرر أن النفخة الثالثة تجعل كل إنسان مشغولاً بنفسه فزعاً من شدة الهول أذهب الفـزع كل عاطفة لوالد أو ولد قال سبحانه: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَـابَ بَيْـنَهُمْ}(٢) وألجمت الحيرة الألسنة فلا يتساءلون، وأهل الإيمان بـالله فـى روح وريحـان وأنس فى نعيم الجنان قال تعالى:{تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}، وقوله سبحانه:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}(٣) الأجداث بالثاء جمع جدث –وقد تبدل الثاء فاء فى لغة فيقال الأجداف وهى القبور– وهذه هى النفخة الثالثة بعد نفخة الصعقة وبعد ما بينت لك من رج الأرض رجاً ودكها دكاً ونسف الجبال نسفاً حتى تكون هباء منبثا، وبعد إنزال الأمطار من السماء –التى هى كمنى الرجال– أربعـين سـنة وبتلك الأهوال العظام تتكون الهياكل الإنسانية من ذرات الأرض.

فإذا نفخت تلك النفخة فى الصور خرجت الأرواح كالجراد المنتشر فاتصلت كل روح بجسمها الذي كان بيتاً لها، وقـام النـاس ينسـلون أي: يسـارعون. فالمقربون يسارعون على رفارف الأنوار إلى حظيـرة الرضـوان. والأبـرار يسارعون على النجب[٤] إلى الفردوس وغيرها. وعامة المؤمنين ممـن خلطـوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً يحاسبون حساباً يسيرا. والمتساهلون بالدين مـن أهـل الإسلام يقفون للحساب، والأمر هناك مفوض لله العلي العظيم. وأهل الكفر بـالله يزج بهم فى النار بغير حساب وكلهم يسارعون. وبهذه النفخـة إعـادة الحيـاة الروحانية للأرواح فتقوم حية ناظرة. والمنظور إليه يختلف بقدر المقامات، فأهل الاصطفا: ينظرون إلى وجه الله العلي، وأهل الاجتبا: ينظرون إلى ما أعده لهـم

(١) سورة يونس آية ٦٤

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠١

(٩) سورة يس آية ٥١

(٤)النَّجيب من الخَيْل: الكريم العتيق، ويقال: نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ: قَوِيَّةٌ وَخَفِيفَةٌ ويقال نجائبُ الإبل: أى خيارُها

سبحانه من النعيم والمسرات، والسالكون ينظرون إلى واسع الرحمة وعميم العفو، والمتهاونون بأحكام الله: ينظرون إلى هول ذلك اليوم وشدته ويشتد هولهم وفزعهم مما أراهم سبحانه من قرب الشمس من رؤسهم، ورمي جهنم بشرر كالقصر، وما يصيبهم من خزنة جهنم حتى يصلوا إلى الموقف حيث الصراط والميزان، وحيث يكون القاضي هو الله والشاهد رسله عليهم الصلاة والسلام، وحيث تشهد عليهم جلودهم وجوارحهم وأمرهم مفوض إلى الله العلي الكبير. وأما أهل الكفر بالله: فيساقون إلى جهنم منهم من يهوي فيها برأسه، ومنهم من يزج فيها ومنهم ومنهم. أعاذنا الله بوجهه الكريم.

٥- **أقسام الناس يوم القيامة**(١)**:** وفي كتابه: "النشأة الثانية" يبين الإمام المجدِّد أن الناس يوم القيامة ينقسمون إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين سبقت لهم من الله الحُسْنَى: وهم يخرجون من القبور لهم أجنحة يطيرون بها إلى مسرات الحياة الثانية، ومنهم من يركب الحجب النورانية، ومنهم من تؤمهم الملائكة إلى الفردوس، وهؤلاء لا يمرون على الصراط، ولا يرون الميزان، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، قال ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}(٢).

وهؤلاء المقربون والأبرار وأهل اليمين، وَرَدُوا النار في الدنيا وساروا على الصراط فيها، والنار التي وردوها هي مجاهدة أنفسهم في ذات الله، والصراط الذي اجتازوه هو السير على شريعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكمال اتباعه، والحساب الذي أنجاهم الله منه هو مراقبة الله تعالى في كل عمل، قال الله تعالى في الحديث القدسي:"لَا وَعِزَّتِي وجَلَالِي لَا أَجْمَعُ لِعَبدِي أَمْنَيْن، ولَا أجْمَعُ لَهُ أَبَدًا خَوْفَيْن، فَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمِنَنِي يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي عِندِي فِي

(١) الإمام أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) مرجع سابق، ص٣٧ وما بعدها

(٢) سورة الأنبياء:١٠١-١٠٣.

حَظِيرَةِ الْقُدس فَيَدُوم لَهُ أَمْنُه، وإنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا خَافَنِي يَوْمَ أجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي لِميقَاتِ يَوْمٍ معلومٍ فَيَدُوم لَهُ خَوْفُه"(١).

القسم الثاني: لا يقام لهم ميزان ولا ينصب لهم صراط: وهم الذين قال الله عنهم: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً}(٢)، لأنهم كفروا بالله، أو ماتوا على النفاق.

القسم الثالث: هُم الذين يحاسَبون حسابا يسيرا: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً}(٣)، وقال تعالى:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(٤)، وهم الذين مدحهم الله بقوله:{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}(٥)، وهم عامة أهل اليمين.

القسم الرابع: هم الذين يحاسَبون حسابًا شديدًا: قال تعالى:{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً}(٦)، فأخذ الكتاب من وراء ظهره إنما هو بشماله، لأن يده اليمنى مغلولة في عنقه، وشماله ملتوية وراء ظهره، فيأخذ كتابه بشماله بدليل قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}(٧).

---

(١) أورده السيوطي وغيره.

(٢) الكهف: ١٠٥

(٣) الانشقاق: ٧-٩

(٤) التوبة: ١٠٢

(٥) آل عمران: ١٣٥

(٦) الانشقاق: ١٠-١٥

(٧) الحاقة: ٢٥-٢٩

فتقرر أن الناس يوم القيامة منهم المقربون وهم الذين أنجاهم الله وينجى بشفاعتهم يوم القيامة من شاء، وخاصة الأبرار من أهل اليمين: وهم الذين أنجاهم الله تعالى، وعامة أهل اليمين: وهم الذين يحاسبون حسابا يسيرا، وأهل الكفر بالله: وهم الذين يسحبون على وجوههم في النار من غير حساب.

وعامة أهل الإيمان: وهم الذين يحاسبون ويطهرون في جهنم ويخرجهم الله تعالى بفضله ورحمته بعد نفاذ القضاء فيهم، فمنهم من يخرج بشفاعة الشافعين، لأن الذين أقامهم الله شفعاء ينفعون عندما تنفع الشفاعة، ويشفعون فيمن تنفعهم الشفاعة بإلهام يجعله الله في قلوبهم.

والشفاعة العظمى تكون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول الإمام نظماً(١):

وحمى طهَ التهامِي يحتمي فيهِ العبيد
عندها يأتي المشفع فيوافينا السُعود
ولدى العرشِ ينادي يا رحيماً يا ودود
أمتي والناسُ طُرًّا فيناديهِ الحميد
يا حبيبي يا محمد قد وهبتُك ما تريد

ويخاطب الإمامُ أبو العزائم الشفيعَ المشفَّعَ صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً(٢):

إِلَى ٱلْمُرَجَّىٰ لِيَوْمِ ٱلْهَوْلِ فِي ٱلْحَشْرِ حَبِيبِ رَبِّي رَفِيعِ ٱلذِّكْرِ وَٱلْقَدْرِ
وَسِيلَةِ ٱلرُّسْلِ وَٱلْمَحْبُوبِ مِنْ أَزَلٍ وَفَرْدِ ذَاتٍ تَعَالَتْ مُحْكَمَ ٱلذِّكْرِ
شَفِيعِنَا يَوْمَ مَوْقِفِنَا وَحُجَّتِنَا يَوْمَ ٱللِّقَاءِ لِدَفْعِ ٱلْهَوْلِ وَٱلشَّرِّ
غِيَاثِنَا فِي مَقَامِ ٱلإِضْطِرَارِ وَفِي مَقَامِ أَخْذِ ٱلنَّوَاصِي شِدَّةِ ٱلأَمْرِ
إِلَيْكَ يَارَحْمَةَ ٱلرَّحْمَٰنِ جَاءَ بِنَا يَقِينُ حَقٍّ بِنَيْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْخَيْرِ
وَأَنْتَ يَاسَيِّدِي ٱلْمَقْبُولُ رَحْمَتُهُ وَحُبُّهُ صَحَّ فِي ٱلتَّنْزِيلِ مِنْ بَرِّ

---

(١) الإمام أبو العزائم (الأغانى العزمية فى مدح خير البرية) ط٢، دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠١٠، ص٣٣

(٢) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٠٨٩، ص٧٧

وَقَــدْ ظَلَمْنَــا وَخَالَفْنَــا وَأَنْــتَ بِنَــا بِمُحْكَمِ ٱلآيِ أَوْلَىٰ فَٱشْرَحَنْ صَــدْرِي
تَشَــفَّعَنْ سَــيِّدِي فَلَــكَ ٱلْمَقَــامُ بِــهِ أَنَــالُ كُــلَّ قُصُــودِي لَيْلَــةَ ٱلْقَــدْرِ
وَفِي ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ آيَةُ ٱلتَّنْزِيلِ تُنْبِئُنَــا وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ بِٱلإِحْسَــانِ وَٱلْبِــرِّ

ثم يمضى الإمام واصفاً أحداث هذا اليوم فيقول ﷺ: ومما تبيَّن تفهم معنــي إشراق الأرض بنور ربها، وذلك هو تجلي ربنا سبحانه حتى يرى كل مخلــوق جماله وجلاله، فلا يبقى فى هذا الموقف أحد إلا ويكمل إيمانه ويتحقــق بــاليقين الحق، ولكن لا ينفع أهل الكفر إيمانهم فى هذا الوقت قال تعــالى:{وَلَوْ تَــرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ}(١)، وقد بينت لك أن أهل هذا الموقف يتفاوتون فالســابقون –الــذين سبقت لهم الحسني منه سبحانه– يحملون على رفاف العناية إلى منازلهم بحســب مقاماتهم إلى مقعد صدق أو الفردوس، ومنهم من يــرفعهم الله فيجلســهم قــدام عرشه على منابر من نور، والمتقون من الأبرار يحشرون وفداً إلــى الــرحمن سبحانه فينزلهم فى دار كرامته سبحانه –دار السلام أو جنــة النعــيم أو جنــة المأوى أو جنة الرضوان– قال تعالى:{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِــيمٍ}(٢) والعصــاة مــن الأمم يوقفون فى المحشر قال تعــالى: {وَقِفُــوهُمْ إِنَّهُــم مَّسْــئُولُونَ}(٣). وقــال تعالى:{وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}(٤) وأهل الكفر بالله تعــالى يساقون إلى نار جهنم قال تعالى:{وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَــنَّمَ وِرْداً}(٥)، وقــال تعالى:{فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً}(٦).

٦– **نهاية الأوطان:** وبعد انتهاء الموقــف وشــفاعة الشــفعاء، وشــفاعة ســيد المرسلين، وشفاعة أرحم الراحمين عز وجل والتي لا شفاعة بعــدها.. لا يبقــى

---

(١) سورة السجدة آية ١١
(٢) سورة الإنفطار آية ١٣
(٣) سورة الصافات آية ٢٤
(٤) سورة الكهف آية ٤٩
(٥) سورة مريم آية ٨٦
(٦) سورة الكهف آية ١٠٥

في النار إلا أهلها الذين لا يخرجون منها، ولكن لا يزال عندهم أمل في أن يموتوا، وأهل الجنة في الجنة خائفون من زوال النعيم حيث لا يزال الموت موجودا، فيمن المنان فيأذن للموت أن يموت، والموت هو وظيفة عزرائيل، فيؤتى بالموت في صورة كبش أملح ويوضع في مكان بين الجنة والنار، وبعد أن يُذبح الموت يصبح أهل الجنة أصحابها وملاكها ويصبح أهل النار أصحابها وملاكها، يقول رسول الله ﷺ: ".. فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتِي بالموت مُلبَّبا فيوقف على السور بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة –فيطلِعون خائفين، ثم يُقال: يا أهل النار– فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون – هؤلاء وهؤلاء– قد عرفناه وهو الموت الذي وُكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ لا موت، ويا أهل النار خلودٌ لا موت" ثم قرأ رسول الله بعد قوله هذا قول الحق: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}[(١)]"(٢)، وقال رسول الله ﷺ: "وينادي منادٍ في أهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوْا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشِبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تتعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل{وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[(٣)]"(٤).

وأرى من خلال ما سبق عرضه أن الإمام أبا العزائم قد قدم لنا عرضاً موجزاً لرحلة الإنسان بين خمسة أوطان، لا يكاد يستقر بأحدها حتى يؤمر بالهجرة منه إلى الذى بعده، ليعلم الإنسان أن وجوده ليس مقصوراً على هذه الحياة الدنيا، وأنها ليست آخر المطاف، ولكن الله خصه بأكثر من حياة، كل حياة لها قوانين وضوابط تحكمها.

---

(١) سورة مريم آية ٣٩

(٢) سنن الترمذي كتاب صفة الجنة،(٢٤٨٠) وهو حديث حسن صحيح .

(٣) سورة الأعراف الآيات ٤٣، وما بعدها

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها: (٥٠٦٩)

وخلاصة ما سبق أننا كنا قبل وطن {أَلَسْتُ} أحياء في علم الله تعالى وهي الحياة الأولى لنا، وهي لا تنعت بالوجود ولكنها حياة مُطمَسة، فكنت مستوراً عنك مشهوداً لربك، لا تشهد لك وجوداً مع وجودك، فأنت في الظلام الحالك الكثيف لا ترى وجودك مع كمال وجودك، فقد كنتَ مستوراً بغشيان جماله وكماله ومشهوداً لحضرته، يخبرنا رسول الله ﷺ عن ذلك فيقول: "إن الله خلق خلقه ثم جعلهم فى ظلمة، ثم أخذ من نوره ما شاء فألقاه عليهم، فأصاب النور من شاء أن يصيبه وأخطأ من شاء، فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأ يومئذ ضل، فلذلك قلت: جف القلم بما هو كائن"(١).

ثم ظهرت الحياة بلون آخر في يوم {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} وهو بداية الفصل وإظهارك لنفسك .. قال تعالى {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} فأشهد الحقائق على أنفسها فظهرت الأنفس في هذا اليوم كاملة وكذلك الحقائق، فقد رش سبحانه رذاذ النور فشهدت المثنوية وقالت {بَلَى شَهِدْنَا}.

ثم انتقل الإنسان إلى وطن بطن الأم فتطور الإنسان فى أطوارٍ سبعة من سلالة إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم كُسيت العظام باللحم ثم أنشأه الله خلقاً آخر.

ثم ينتقل بالميلاد إلى وطن الدنيا فيمر بالمراحل العمرية المختلفة من طفولة إلى شباب إلى شيخوخة ثم إلى أرذل العمر.

ثم ينتقل بالموت من عالم الدنيا إلى البرزخ، فتغرب الحقيقة الروحانية لتشرق فى أفق شروق آخر وهو أفق الشروق البرزخى، وهو أول منزل من منازل الآخرة فيعيش فيه الإنسان مدة محددة، لا تحكمه فيها قوانين المادة. ثم ينتقل بالنفخ فى الصور من وطن البرزخ إلى وطن الدار الآخرة وهو يوم القيامة، وهو وطن الحساب والجزاء.

وهكذا يتنقل الإنسان بين الخمسة أوطان غريباً بين الغرباء، حتى يصل إلى وطنه الأصلى وهو ملكوت ربه، وفردوسه الأعلى، الذى كان فيه بدءاً آنساً

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الإيمان (٢٥٦٦) وقال حديث حسن .

بربه، فتحقق أيها الإنسان بغربتك عن كل ما سوى مولاك، وفــر منــك إليــه، وتحقق بقول الإمام أبى العزائم[1]:

أنتَ فــى غربــةٍ فكــن كالغريــب فالمبـــانى أواســـطُ التحجيـــب
أنت بــدءاً نــورٌ وصــورةُ مجلــى حجبتهــا ظـــلالُ كــون عجيــب
كـــن غريبـــاً وفـــر منـــكَ إليـــه حيثُ وطنى غيبُ الــولى القريــب
والحظن بــدءكَ الــذى أنــتَ منــهُ نـــور ملكوتـــه وســـر الغيـــوب
كيف تنســى وأنــت بــدءاً مــرادٌ فيــك غيــبٌ مــن قــادرٍ ومجيــب
من علــىٍّ الفــردوسِ أُرددتَ كيمــا تشـــهدُ الآىَ بعــد محــو العيــوب
كيف تنسى وطنــاً عزيــزاً بــأدنى والمعـــانى لاحـــت لكـــلِ منيـــب
أســـجدَ العـــالمينَ علـــواً وســـفلاً سُـــخِرت منـــهُ بقهـــرِ الرقيـــب
كيف أنسى والآى لاحــت لروحــى أننـــى صـــورةُ العلـــى القريـــب
أيها الروحُ كنتِ فــى أفــق أعلــى فـــى صـــفاءِ وبهجـــة المشـــروب
أيهـــا العقـــلُ كنـــتَ أفقـــاً مبينـــاً تشهدُ الغيبَ فــى انمحــا التحجيــب
أيها الجســـمُ كنـــتَ فـــى نعمـــوتٍ فى رياضِ الفردوسِ محو اللغــوب
أيها الحسُ كنتَ فى الأنــسِ تجلــى فيـــكَ أســـرارهُ بغيـــرِ خطـــوب
ثـــم أُرددتَ للحضـــيضِ فســـارع عُد إلى البدءِ فــى شــهودِ الغيــوب
بدءُ وطنى الفردوسِ ملكــوتُ ربــى بل وبــدئى بــدءاً ريــاض حبيبــى

---

(١) الإمام أبو العزائم (ديوان ضياء القلوب) مرجع سابق، قصيدة ١٥٨٩

الخاتمة

إن ما سبق بيانه عن أراء الإمام المجدِّد السيد محمد ماضي أبي العزائم ﷺفى موضوع الإنسان والمجتمع، ما هو إلا قليل من كثير، ونذرٌ يسير مقتَطَف من جنة علومه ومعارفه، ونماذج من كنوزٍ في بطون كتبه، ومعانٍ مما أفاضه المولى جل شأنه على قلبه، وترجم عنه لسانه، وأملاه على تلاميذه؛ وهى محاولة متواضعة لإماطة اللثام عن بعض تراث الإمام أبى العزائم الذى تعرَّض –عن عمد– لمحاولات حَجْب الناس عنه وعن علومه ومنهجه بسبب جهاده ضد الاستعمار وأعوانه؛ ومواجهته للحكام المستبدين؛ وبيانه للأخطار التي تتعرض لها الأمة وكيفية مواجهتها؛ ودعوته إلى توحيد الصفوف ونبذ الخلاف والفُرقة. فى عصر كله فتن وظلمات وتمزق فى صفوف المسلمين.

ورغم كل هذه المحاولات، شاءت إراده الله –سبحانه– أن تبقى علوم الإمام أبى العزائم –سليل أهل البيت الطاهرين– دعوة وسطية تنويرية، تهدف لإصلاح البلاد والعباد، تجمع القلوب على علام الغيوب؛ لتعود الأمة إلى النهج الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، من خلال الفهم الصحيح للدين الذى يرتكز على: [عقيدة حقة – عبادة خالصة– أخلاق فاضلة– معاملة حسنة].

وبعد إنتهاء هذه الدراسة نستطيع أن نقول أن المطالع لتراث الإمام أبى العزائم يصاب بالحيرة من غزارة معارفه وعلومه، رغم أن ما ذكرناه من علوم الإمام حول موضوع الإنسان ما هو إلا قليلٌ من كثير، كما كان هذا الشعور هو دأب جميع العلماء والمفكرين الذين عكفوا على مطالعة علوم الإمام فى بقية جوانب تراثه النثرى والنظمى، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

العالم الدكتور/ مصطفى محمود، الذى عكف على الإطلاع على كتب ومواجيد الإمام أبي العزائم، فكتب كتابه: "السر الأعظم"، الذى تعرض فيه لذكر العديد من أقوال الإمام، ثم عقَّب فى نهاية كتابه بقوله: [... والإمام أبو العزائم يقول هذا الكلام عن علمٍ كشفيٍّ لدنيٍّ، وليس عن اجتهادٍ برأي، وللإمام أكثر من

مائتين من الكتب والمخطوطات من المواجيد الشِّعرية؛ والإلهامـــات العرفانيـــة، وهو في نظري كنز لم يُكتشف بعد، وقطب ينافس الفحول قدماً وعلماً وســلوكاً، ولا يصح أن يُقرأ شِعْره على أنه شِعْر – كما هو الحال عنـد ابـن الفـارض– فشِعْره لا يخضع للمواصفات الفنية للشِّعْر، وإنما هو شـفرة ورمـوز عرفانيـة عالية يفهم منها كل واحد على قدر حظه، ونحن ما قدَّمنا من عِلـم الرجـل إلا نقطة من بحر...][(١)].

فضيلة الدكتور/ عبد الودود شلبي –وكيل الأزهر الشريف الأسبق– يقـول بعد مطالعته بعضاً من تراث الإمام[(٢)]: [وقد قرأت كثيراً مما كتبه الإمام المجـدِّد السيد محمد ماضي أبو العزائم، فأي رجل كان هذا الرجل؟!، موسوعة متنوعـة في شئون الدين وفي شئون الدنيا، ورُوح إيمانية صـافية تتـوهج بسـنا النـور المحمديّ، ما ترك باباً من أبواب الخير إلا طرقه، وما عرف منفذاً مـن منافـذ الشر إلا أغلقه وسده، ولا يتحقق ذلك لغير أهل البصيرة من أمثال حجة الإسلام الغزالي، والقطب الصوفي أبي الحسن الشاذلي.

نرى ذلك كله واضحاً في سيرة الإمام محمد ماضي أبي العزائم الذي كانت حياته ملحمة من ملاحم الجهاد لا تعرف الكلل، والدفاع عـن الإسـلام بـالقول والعمل، والغيرة على الدين التي لا تعرف باباً من أبواب الشر إلا حذرت منـه، ولا باباً من أبواب الخير إلا دعت إليه.

إن ما قلتُه عنه قليل؛ قليل كالقطرة من البحر، أو كورقة ذابلة فـي بسـتان يتضوع شذاه برائحة الورد. وماذا يقولُ مِثْلِي عن إمامٍ تعددت مواهبُه، ووُلد في عصر كان الناس فيه أحوج ما يكونون إلى رجل يفجر في نفوسهم ثورة الغضب على مظاهر الإباحية والإلحاد، ويأخذ بقلوبهم وأرواحهـم إلـى سـاحة الحـق والإيمان والرشاد، ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لكان لي مـع الطريقـة

---

(١) د. مصطفى محمود "السر الأعظم" طبعة دار المعارف ص١٠٤–١٠٥ الطبعة التاسعة.

(٢)قنديل عبد الهادى (الإمام أبو العزائم سيرة تنبئ عن سريرة) مرجع سابق

العزمية شأن وأمر، ولرآني الناسُ واقفاً بين المريدين والمحبين في حلقات الذكر](١).

الدكتورة/ عبلة الكحلاوي – العميد الأسبق لكلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر– تقول بعد مطالعة بعض كتب الإمام[٢]:[لو تركتُ لقلمي العنان كي أكتب عن غزير علم الإمام المجدِّد حبيب الحبيب حضرة النبي ﷺ وتنوعه ونظرته المستقبلية وإلهاماته العالية الذاهلة، لغُيِّبَت أناملي في الثرى ولم أوفِّه حقَّه.

لقد رأيتُه في لقاء حميم من بين سطور مؤلفاته رُوحاً آمرةً معلمةً بالعبر، ففقهت بعض الحكمة من قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[٣]، وعرفتُ به قدر الرجال من حملة الأمانة حقا؛ أمانة التفكر والتدبر من أجل الآخرين، إنه المعراج الربانيّ للأرواح التي لم تبرح مقام البعضية من الأمر، وصدق الله العظيم حيث قال: {عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً}(٤).

وبصرتُ في كتب الإمام فيوضات تلوح بالحكم والأسرار، ووجدتُ رئةً أتنفس من خلالها من عبق الجنة، فعكفتُ على المنهل الرقراق بين: "أسرار القرآن" و" "أصول الوصول لمعية الرسول" و"شراب الأرواح"، و"معارج المقربين"، و"محكمة الصلح الكبرى"، و"الإسلام وطن"، و"الإسلام نسب"(٥).

ووجدتُ معيناً متفرداً يسكب الشريعة في أوعية الحب فتمتزج في الأفئدة وفي أغوار الشعور، فجاءت أبواب الفقه محببة ميسرة، ووجدتُ تصانيف جامعة

---

(١) كتاب: "الإمام أبو العزائم كما قدَّم نفسَه" من إصدارات: "دار الكتاب الصوفي".

(٢)قنديل عبد الهادى (الإمام أبو العزائم سيرة تنبئ عن سريرة) مرجع سابق.

(٣) سورة البقرة آية ٣١

(٤) الكهف:٦٥.

(٥) كُتُب للإمام المجدِّد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

للعقيدة والشريعة والأخلاق والآداب والسير والسلوك، ووجدتُ إشارات رُوحيـــة توقظ السِّرَّ وسِرَّه، وتبعث الحياة في النفوس المطفأة الخامدة، تلك التي أضـــاعت دفقة الإقبال ورجفة الإدبار.

وهذا قليل من كثير أمتعَنَا به الشيخُ الإمام، وكأن الله فـــتح عليـــه طاقـــات المعارف، فها هو يكتب في غير المقامات واللطائف؛ إنه يشهد أوجاع الأمة فـــي زماننا، ينكأ جرحاً ليفرغ قذاه الذي ربما ألفناه بطول الصحبة، أهمتـــه عـــذابات الثكالى والأرامل واليتامى، أضناه تصحر العقول والقلوب وقهر الرجال.

رضي الله عن الإمام المجدِّد الذي عاش رُوحاً صافية نقية راضية، آمنـــت فسكنت فخاطبها الحق خطابا تعرفه جيداً: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَـــى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}(١)، وحفِظَ اللهُ من عكفوا على حفظ تراثه من أهله وعشيرته وأحبابه، ونسألُ اللهَ أن يجمعنا بمن ســـبقونا على الإيمان](٢).

وهكذا نجد كل من يطالع تراث الإمام إبى العزائم، أو يسعده الحظ بالتعرف على شخصيته العظيمة؛ تلك الشخصية الفريدة، التى حوت من الســـمو والنبـــل وكرم الأخلاق والعفة والنزاهة وعزوف النفس عن النقائص ما يعرفه كل مـــن خالطها عن كثب، حتى أعداؤه الذين عادوه وآذوه، فما فعلوا ذلك إلا غيرة منه. إمام ضحي بكل ما يملك من نفس ونفيس، فقد قام في كل أدوار حياتـــه بسلســـلة من الإصلاحات العظيمة حفظها له التاريخ وسجلها بمداد من نور لا يمحي علي مر العصور والدهور.

فكم أوذي في سبيل الله فصبر، وكم حاربـــه الاســـتعمار البـــاطش بشـــتي الوسائل فصابر، رابط الجأش، قوي الجنان، ثابت العزيمـــة، لا يتطـــرق إليـــه

---

(١) سورة الفجر آية٢٧- ٣٠

(٢) كتاب: "الإمام أبو العزائم كما قدَّم نفسَه" من إصدارات: "دار الكتاب الصوفي".

الوهن، ولا يعرف الضعف. ولازمه الثبات فكان في كل مواقفه قوي الإرادة، وثابت العزيمة، سامي النفس، مؤمنًا بحقه، مؤمنًا بواجبه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يعرف في الحق هوادة، يقف أمام الخطوب النازلة بهذا الشرق موقف الأسد الهصور الذي يزأر دفاعًا عن العرين.

وقد حباه الله من الصفات الرفيعة والأخلاق الكريمة وحسن الرعاية للمسترشدين ما حببه إلى النفوس ورغبه إلى القلوب، حتى أن الكلمة الواحدة كانت تعمل في نفس سامعها. ولا غرابة في ذلك، فقد عرف أسرار الدين معرفة حقة، فهو رجل شريعة من الطراز الأول وأستاذ لها، تبحر فيها وتضلع، فكانت منهجه الذي روض عليه نفسه قبل أن يقوم بتعليمه لغيره، ثم اغترف من عين الحقيقة، فصار عالمًا ربانيًا جمع ما بين الشريعة والحقيقة، وكان من نتيجة ذلك أن أفاض علي الناس من بحر علمه وأغدق عليهم من جزيل معرفته، فاسترشدت به العامة وتبصرت به الخاصة، فكانت عظاته ونصائحه تصل إلى القلوب المريضة فتشفيها، وإلى النفوس العليلة فتنعشها وتحييها، وإلى الطباع السقيمة فتنجاب عنها غياهب الظلام، حتى هدي الله علي يديه الكثير من الخلق وأسلم أيضًا علي يديه مالا يأتي عليه الحصر، سواء في مصر والسودان أو في شتى بقاع العالم.

أ- أهم نتائج البحث:

١- الإنسان الكامل ظهر مبناه وخفى معناه وهو بمعناه لا بمبناه، فالإنسان الكامل حقيقة هو القابل للكمالات النفسانية، الذى كملت فيه قوة التخيل، والتصور، والفكر، والعقل؛ خلقه الله على صورته، وجمله بمعانى صفاته وأشهده بديع جماله.

٢- أن الحقائق التى انطوت فى الإنسان خمس حقائق تكون بمجملها الصورة الكاملة للحقيقة الإنسانية، وهى الروح والعقل والحس والنفس والجسم.

٣- الإنسان مكون من جسم وروح ولا تتم سعادة الإنسان وكماله إلا إذا حدث التوازن ما بين متطلبات الروح ومقتضيات الجسم؛ وهذا هو الكمال المنشود. ولا يكون ذلك الا باتباع الشرع الشريف، الذى يعطى كل حقيقة مقتضاها، أما إذا تغلب أحدهما على الآخر -بمخالفة الشريعة- فهذا نقص ينافى الكمال، ويوجب الشقاء.

٤- أن وجود الإنسان ليس قاصراً على مدة حياته فى الدنيا ولكن حقيقة الإنسان تنتقل بين خمسة أوطان هى أوطان [يوم ألست - بطن الأم- الدنيا- البرزخ- الآخرة] وأن أهم ما تميز به الإمام أبو العزائم فى حديثه عن الإنسان أنه تحدث عن الحقيقة الإنسانية قبل ظهورها فى العالم المادى المحسوس.

٥- دحض الإمام أبو العزائم "نظرية دارون" وأثبت بطلانها، الأمر الذى يؤكد أن الإمام لم يكن منغلقاً على البحث فى العلوم الدينية فقط، ولكنه كان منفتحاً على كل العلوم، وعلى هذا ربى الإمام أتباعه وتلاميذه.

٦- حطم الإمام أبو العزائم إطار العزلة عن الناس؛ الذي عُرف عن بعض الصوفية لعقود عديدة، فكانت له مواقف حاسمة إزاء القضايا السياسية فى عصره حيث قاوم الإحتلال البريطانى، وحارب حملات التبشير والتنصير، وجاهد لعودة الخلافة الإسلامية، وعمل على توحيد الأمة.

ب- أهم التوصيات:

١- ضرورة الإهتمام بالدراسات الإنسانية عامة وما يختص بالإنسان خاصة، لنتمكن من فهم هذا المخلوق العجيب الذى ظلمته الأنظمة، وحيرته السياسات، وقضت عليه المؤامرات، وصار الشغل الشاغل لبعض الشباب هو التقرب إلى الله بقتله.

٢- الإهتمام بالجانب الروحى والنفسى للإنسان، ليسعد الإنسان بتحقيق التــوازن بين مبناه ومعناه، ويمكن تحقيق ذلك من خلال وضع مناهج تعليمية يدرســها الطلاب، تهتم بهذا الجانب الإنسانى الهام.

٣- الإهتمام بدراسة فكر الإمام أبى العزائم –التجديدى- فى مختلــف نــواحى العلوم والمعارف، وشرحه، ونشره، وجعله فى متناول الجميع. والإستعانة به فى برامج تجديد الخطاب الدينى.

٤- ضرورة الرجوع إلى التراث الفكرى للعلماء الربــانيين، لنســتخلص منــه أساليب تربية العقول وتنشئة الشباب، وحمايتهم من الأفكار المنحرفــة، التــى تؤدى بهم إلى العنف التطرف.

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن حجر العسقلانى (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠م.

٣- ابن حجر العسقلانى (الإصابة فى تمييز الصحابة) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٤- ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) ط مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤م.

٥- أبو بكر الرازى (مختار الصحاح) ط وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٢م

٦- د. أبو بكر الكوسوفى (الإمام أبو العزائم وأثره فى التربية الفكرية) دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٧- الإمام أبو حامد الغزالى (إحياء علوم الدين) دار الصابونى، القاهرة، ١٩٨٧م.

٨- الإمام أبو حامد الغزالى (نفخ الروح والتسوية) دار أم القرى للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٩- أبو داود السجستانى (سنن أبو داود) ط دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٠- أحمد ابن عجيبة الحسنى (إيقاظ الهمم فى شرح الحكم) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

١١- أ.د أحمد زايد (تصميم البحث الإجتماعى) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٢- أحمد سعد العقاد (الدرة البهية) دار نشر الفضائل الإسلامية، الفيوم، ١٩٩٠م.

١٣- د. أحمد محمود الجزار(الله والإنسان) ط المركز الثقافى بالشرق الأوسط،القاهرة، ١٩٩٤م.

١٤- أحمد هريدى (تنظيم الأسرة من المنظور الإسلامى) ط وزارة الأوقاف، القاهرة،٢٠١٠م.

١٥- إسماعيل ابن كثير (البداية والنهاية) ط دار الغد العربى، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٦- إسماعيل حقى البروسوى (تفسير روح البيان) دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٧- الآلوسى (روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى) دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨٥م.

١٨- الامام البيهقى (شعب الإيمان) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

١٩- الجرجانى (التعريفات) مطبعة البابى الحلبى وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨م.

٢٠- الحكيم الترمذى (الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) ط مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٢١- الامام العز بن عبد السلام (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) ط المكتبة الأزهرية للتــراث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٢٢- الحافظ الزمخشرى (أساس البلاغة) ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢٣- الإمام القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ط دار الشام للتراث، بيروت، ١٩٩٢م.
٢٤- الحافظ جلال الدين السيوطى(الدر المنثور) مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، ١٩٩٠م.
٢٥- د. ربيع يوسف شحاته الجهمى (الإمام أبو العزائم والتجديد فى التفســير) دار الكتــاب الصوفى، القاهرة،٢٠٠٣م.
٢٦- د. سامى العسالة (جهود الإمام أبو العزائم فى العقيدة) رسالة ماجستير، ٢٠١٠م، غير منشورة.
٢٧- أ.د سناء الخولى (الأسرة والحياة العائلية) دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٧م.
٢٨- الشيخ طاهر مخاريطة (أيام الله) ط دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٢٩- أ.د عادل الهوارى (مدخل فى العلوم السياسية) دار المعرفة الجامعيــة، الأســكندرية، ١٩٩٧م.
٣٠- أ.د عاطف العراقى (أساسيات الفلسفة العربية) ط٢، أبو الهول للنشر، القاهرة، بــدون تاريخ.
٣١- الشيخ عبد الباسط القاضى (حكمة أحكام الدين) ط المجلس الأعلى للشئون الإســلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٣٢- عبد الباسط القاضى (شعب الإيمان قبس من دروس الإمــام أبــى العــزائم) مطــابع الشرطة، القاهرة، ٢٠١٢.
٣٣- أ.د عبد الحميد مدكور(موسوعة التصوف الإســلامى) ط المجلــس الأعلــى للشــئون الإسلامية، القاهرة،٢٠٠٩م.
٣٤- عبد الحليم المنسى (الفكر الإقتصادى عند الإمام محمد ماضى أبــو العــزائم) رســالة ماجستير، ٢٠١٥م.
٣٥- الشيخ عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) ط الهيئه المصــريه العامــه للكتــاب، القاهرة،٢٠٠١م.
٣٦- السيد.عز الدين ماضى أبو العزائم (دعوتنا) ط دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٥م.
٣٧- السيد.علاء الدين ماضى أبو العزائم (خاتم الوراث المحمديين) ط دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٧م.

٣٨- السيد.علاء الدين ماضى أبو العزائم (الإمام أبو العزائم وقضايا عصرية) ط دار الكتاب الصوفى،١٩٩٨م.
٣٩- السيد.علاء الدين ماضى أبو العزائم (الإمام أبو العزائم كما قدم نفسه) دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٥م.
٤٠- السيد.علاء أبو العزائم (بحوث ورسائل علمية عن الإمام أبو العزائم) دار الكتاب الصوفى، القاهرة،١٩٩٦م .
٤١- السيد.علاء أبو العزائم (مؤتمرات المرأة بين العمالة والجهالة) دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٤٢- أ.د على جمعه (البيان لما يشغل الأذهان) دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٤٣- أ.د غريب سيد أحمد (علم الإجتماع ودراسة المجتمع) دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٧م.
٤٤- د. فاروق الفقى (موسوعة العروج إلى الحقيقة المحمدية) دار النشر غير مدونه، رقم ايداع٣٩٥١/ ٢٠٠٩م.
٤٥- الإمام فخر الدين الرازى (مفاتيح الغيب) ط دار الغد العربى، القاهرة، ١٩٩٣م.
٤٦- الشيخ قنديل عبد الهادى (الإمام أبو العزائم سيرة تنبئ عن سريرة) ط١، دار الكتاب الصوفى، القاهرة،٢٠١٣م.
٤٧- مجلة الإسلام وطن (العدد ٦٦) ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
٤٨- مجلة السعادة الأبدية، السنة التاسعة، العدد العاشر، ١/ شوال ١٣٤٠ هـ.
٤٩- مجمع اللغة العربية (المعجم الوجيز) ط وزارة التعليم، القاهرة، ١٩٩٥م.
٥٠- أ.د محمد السيد الجليند (موسوعة العقيدة الإسلامية) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٠م.
٥١- أ.د محمد سيد فهمى (مقدمة فى الخدمة الإجتماعية) ط دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٧م.
٥٢- أ.د محمد عبد المنعم خفاجى (ديوان الإمام على) مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بدون تاريخ.
٥٣- الشيخ محمد عبده (نهج البلاغة) ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٥٤- أ.د محمد على محمد (دراسة فى طرائق البحث) دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٧م.

٥٥- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (إصطلاحات الصوفية) دار الكتاب الصوفى، القاهرة، ٢٠١٢م، وجميع مؤلفات الإمام مطبوعة بدار المدينة المنورة بالقاهرة والتى صارت فيما بعد دار الكتاب الصوفى.
٥٦- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين) ١٩٩٣م.
٥٧- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها) ١٩٩٢م.
٥٨- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله) ١٩٩٢م.
٥٩- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الإسلام وطن والمسلمون جميعاً أهله) ١٩٩٣م.
٦٠- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الفرقة الناجية) ٢٠٠٤م.
٦١- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) ١٩٨٣م.
٦٢- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (النجاة فى سيرة رسول الله) ١٩٩٨م.
٦٣- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الطهور المدار على قلوب الأبرار) ١٩٩٢م.
٦٤- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (أصول الوصول لمعية الرسول) ١٩٨٦م.
٦٥- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الشفاء من مرض التفرقة) ١٩٨٨م.
٦٦- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (عقيدة النجاة) ١٩٩٦م.
٦٧- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (معارج المقربين) ١٩٩٣م.
٦٨- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (موارد أهل الصفا) ٢٠٠٩م.
٦٩- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (وصية إلى الرجل المسلم) ١٩٩٠م.
٧٠- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (وصية إلى المرأة المسلمة) ١٩٩٠م.
٧١- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (دروس فى تزكية النفوس) ٢٠٠٩م.
٧٢- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (دروس فى قصص) ١٩٩٣م.
٧٣- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (محكمة الصلح الكبرى) ١٩٩٢م.
٧٤- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (من جوامع الكلم) ١٩٨٧م.
٧٥- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (ختم ليلة النصف من شعبان) ١٩٩٢م.
٧٦- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (نعيم القبر وجمالات الآخرة) ١٩٩٦م.
٧٧- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (حديث الجمعة) ٢٠٠٨.
٧٨- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (وسائل نيل المجد الإسلامى) ١٩٩٥م.
٧٩- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (وسائل إظهار الحق) ٢٠١٠م.

٨٠- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (صيام أهل المدينة المنورة) ٢٠٠٨م.
٨١- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (هداية السالك إلى علم المناسك) ١٩٨٦م.
٨٢- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (أسرار القرآن) ١٩٩٢م.
٨٣- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (تفصيل النشأة الثانية) ١٩٧٨م.
٨٤- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الطريق إلى الله) ١٩٨٤م.
٨٥- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (شراب الأرواح من فضل الفتاح) ١٩٨٧م.
٨٦- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (مذكرة المرشدين والمسترشدين) ١٩٨٣م.
٨٧- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (دستور السالكين طريق رب العالمين) ١٩٩٦م.
٨٨- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك) ١٩٩٢م.
٨٩- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (الوسيلة وما اختلف فيه من السنة والبدعة) ١٩٩٢.
٩٠- الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم (من المضنون) ٢٠٠٩م.
٩١- الشيخ محمد السيد متولى الشعراوى (تفسير الشعراوى) دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٧م.
٩٢- د. محمد يوسف حمودة (منهج التربية عند الإمام أبى العزائم) دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٨٩م.
٩٣- أ.د محمود حمدى زقزوق (الإنسان والقيم فى التصورالإسلامى) ط١، مطابع الأهرام، القاهرة، ٢٠١٥م.
٩٤- الشيخ محمود شلتوت (منهج القرآن فى بناء المجتمع) مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ٢٠١٥م.
٩٥- أ.د مريم أحمد مصطفى (التحليل السوسيولوجى لتاريخ مصر الإجتماعى) دار المعرفة، الأسكندرية، ١٩٩٨م.
٩٦- الإمام مسلم القشيرى (صحيح مسلم بشرح النووى) ط دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.
٩٧- مشيخة الطريقة العزمية (الأمة الإسلامية فى نهاية قرن وبداية قرن)ط١،دارالكتاب الصوفى، القاهرة، ١٩٩٩م.
٩٨- د. مصطفى محمود (السر الأعظم) ط دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٢م.
٩٩- د. مصطفى محمود (الغد المشتعل) دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٥م.

الفهرس

هذا الكتاب

يوضح فيه الإمام أبو العزائم ﷺ أن الإنسان الكامل ظهر مبناه وخفى معناه وهو بمعناه لا بمبناه، فالإنسان الكامل حقيقة هو القابل للكمالات النفسانية، الذى كملت فيه قوة التخيل، والتصور، والفكر، والعقل؛ خلقه الله على صورته، وجمله بمعانى صفاته وأشهده بديع جماله. فالإنسان مكون من جسم وروح؛ ولا تتم سعادته وكماله إلا إذا حدث التوازن ما بين متطلبات الروح ومقتضيات الجسم؛ وهذا هو الكمال المنشود. ولا يكون ذلك إلا باتباع الشرع الشريف، الذى يعطى كل حقيقة مقتضاها، أما إذا تغلب أحدهما على الآخر –بمخالفة الشريعة– فهذا نقص ينافى الكمال، ويوجب الشقاء. كما نلحظ في هذا الكتاب إنفراد الإمام أبى العزائم على علماء عصره وسابقيه بأنه تحدث تفصيلاً عن الإنسان قبل ظهوره فى العالم المادى المحسوس، فبين أن رحلة الإنسان تمتد عبر خمسة أوطان، وطن {ألست} بربكم وهو وطن التحديد، ووطن بطن الأم وهو وطن التصوير، ووطن الدنيا وهو وطن التكليف والتعريف، ووطن البرزخ وهو وطن الإنتقال ووطن الدارالآخرة هو وطن الجزاء، وبعد التعرف على رحلة الإنسان عبر الخمسة أوطان، يبين الإمام تفصيلاً أن الإنسان مكون من حقائق خمسة هى: الروح، والعقل، والحس، والنفس، والجسم؛ تكون بمجملها الصورة الكاملة للحقيقة الإنسانية.